

چوزيف فينكليستون

السلطان

وَمِنْهُمُ الْمُرْتَدُّونَ



السلطان

السادات

وهم التحدى

تأليف : جوزيف فينكليستون

ترجمة : عادل عبد الصبور

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

- ★ السادات (وهم التحدى) .
- ★ تأليف : جوزيف فينكليستون .
- ★ ترجمة : عادل عبد الصبور .
- ★ الطبعة الأولى (١٩٩٩) .
- ★ جميع الحقوق محفوظة .
- ★ رقم الإيداع (٩٩/١٦٤٤٦) .
- ★ الناشر : الدار العالمية للكتب والنشر .

مقدمة الناشر

رحم الله الرئيس أنور السادات ، لقد كان بحق أحد الرموز السياسية البارزة في القرن العشرين ، ومهما تبارت الأقلام وتسابقت في وصف عبقرية هذا الرجل وإخلاصه لوطنه فلن توفيه حتى النذر اليسير من حقه ، وإذا كان هناك من يدين بعض سياسات وأقوال السادات ، فإن ذلك لا يضارع بأى حال من الأحوال ما قدمه الرجل لوطنه من إنجازات .. وكفى الرجل فخراً أنه غسل عار الأمة الجريحة عبر خوضه معركة العبور العظيم ، وكفاه فخراً أيضاً أنه الذى وضع حجر أساس العملية السلمية في منطقة الشرق الأوسط .

واليوم ، وفي هذه الحقبة التاريخية بملابساتها العvisية التى تعيشها أمتنا العربية ، نحن بمسيس الحاجة لاستقراء مدلولات ما يكتبه الآخر عن رمز تاريخى مثل السادات ، ليس لإدراك الكيفية التى يفكر بها هذا الآخر تجاهنا فحسب ، وإنما لبناء استراتيجيات مدروسة ومحسوبة للتعامل معه مستقبلاً .

ومن ثم تضحى قراءة الكتاب الذى بين أيدينا ، والذى كتبه صحفى يهودى مخضرم هو "جوزيف فينكليستون" ، والذى كان يعمل محرراً فى جريدة الخبر اليهودية بلندن ومراسلاً لجريدة معاريف الإسرائيلية ؛ أمراً تحتّمه ضرورات ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، لا سيما وإنه يكشف النقاب عن الفصول المجهولة فى حياة شخصية عظيمة كشخصية الرئيس السادات دون خجل أو مواربة ، ورغم أن هذا الكتاب يحوى بين طياته عدد من الأخطاء فى حق السادات أو غيره إلا إنه لا يخلو من الموضوعية والحياد .

فإذا كنت عزيزى القارئ تعرف القليل أو الكثير أو حتى لا تعرف شيئاً عن حياة السادات ، فتنبأ تماماً أنك ستجنى الكثير من الفوائد من قراءة هذا الكتاب .

الناشر ،،

شكر وتقدير

إننى مدين بالفضل لمسئولين كثيرين من إسرائيل ومصر ودول عربية أخرى ، وكذلك لمسئولين من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على ما قدموه لى من مساعدات فى الكتابة عن واحد من أعقد الشخصيات وأكثرهم تمتعاً بالكاريزما فى التاريخ الحديث ..

كما أتوجه بخالص الشكر إلى " فرانك كاس " الذى وافقتى على فكرة هذا الكتاب دون تعنت . . وكذا أوجه شكرى إلى " نورما مارسون " على تحريرها الرائع للكتاب ، والذى إن دل على شئ فإنما يدل على ذكائها وفهمها العميق لموضوعه .

وواقع الحال ، أننى رصدت معظم الأحداث المبوبة فى هذا الكتاب عن قرب عبر زيارتى المتعددة للمنطقة ، وراعت وجهات النظر المتباينة قدر الإمكان ، ورغم ذلك فإن أى تقصير يؤول إلى . .

ولايفوتنى فى هذا السياق أن أتوجه بالشكر إلى الدكتور " أسامة الباز " المستشار السياسى للرئيس " مبارك " ، وكذلك السيدة " جيهان السادات " . .

كما أسدى شكرى للسادة " ديفيد كمحى " و " مارتن قولار " من قسم البحوث بالمكتب البريطانى للشئون الخارجية والكونفولث والسيد " الكسندر جوليتسين " المستشار الأول للسفارة الروسية بلندن . .

وفوق ذلك ، فإننى مدين بالفضل لكل الذين كتبوا عن " أنور السادات " ، وعلى رأسهم البروفيسور " رفائيل إسرائيلى " فى بحثه الرائع " رجل التحدى .. السيرة الذاتية السياسية لأنور السادات " . . وأيضاً الأستاذ " هيكىل " والذى رغم الجدل المثار حول كتبه ، إلا إننى أوافق فى بعض الآراء .. لاسيما فيما يتعلق بالفترتين الساداتية والناصرية .

وأخيراً ، فإننى استعنت بالعديد من المؤلفات التى أفادتنى كثيراً ، ومنها على
سبيل المثال لا الحصر - كتاب جيمى كارتر " مذكرات . . تجديد الثقة " وكتاب موسى
ديان " قصة حياتى " . .
وغيرهما الكثير .

المقدمة

عندما التقيت بـ " جيهان السادات " لأول مرة ذهلت من عزة نفسها وجمالها وتحركاتها الهادئة عبر أرجاء الحجرة . . لقد كانت ترتدى فستانا على الموضة ، من ذلك النوع من الفساتين التي اعتاد بعض المصريين السخرية منها ، على أساس أنها واردات أوروبية غالية الثمن ، وليس هناك أدنى شك في أن نظرتهم هذه تتم عن أنهم فشلوا في فهم أن المظهر الأنيق للسيدة " جيهان السادات " هو أساسا ليتواءم وكونها زوجة رئيس مصر . . وفي الحقيقة كانت أقل غرورا من زوجها ، الذي كانت تعاتبه دوماً على ملابسه المفصلة .

والحدث تاريخيا ، أن مصر بعد أن ظلت قرونا طويلة في ذل ومهانة تحت قسوة القوى العظمى ، خضعت لحكم السادات ، ومع حكم السادات شهدت مصر العديد من المشاكل الضخمة والمعقدة ، والتي جاء في مقدمتها ، نقص الموارد ، ومحدودية الأراضي الزراعية ، والتكدس السكاني الذي يزداد بمعدل يفوق المليون نسمة سنويا . .

وللخروج من دائرة هذه المشاكل ، أدرك السادات أنه لا بد من إبرام - عقد سلام مع الدولة اليهودية ، إذ رأى السادات - وعلى خلاف غيره - صلة وطيدة بين حل المشاكل الداخلية والسلام مع إسرائيل .

وكانت جيهان السادات تفهم - أفضل من أي شخص آخر - الصعوبات التي تواجه زوجها ، ولذا كان عليها أن تكون قوية . . ومازالت كذلك حتى يومنا هذا . . إنها الآن تحاضر بجامعة ميرى لاند بالولايات المتحدة ، وقد انتابها السعادة حينما قلت لها إنني أكتب سيرة السادات الذاتية ، ولكنها كانت تتساعل عن سر الصداقة التي جمعت بين قائد أكبر دولة عربية وصحفي يعمل بجريدتين يهوديتين بلندن هما : معاريف والخبر اليهودي .

وفي الحقيقة ، إنني كتبت إلى السادات قبل رحلته التاريخية للقدس سنة ١٩٧٧ بعامين ، لإجراء لقاء معه . . حيث إنه في الوقت الذي قال فيه الآخرون أن السادات هو رجل الحرب كنت أراه رجل السلام ، بل اعتقدت أن هذا هو الرجل الذي

سوف يتحقق السلام على يديه بين العرب واليهود . . وقد أظهر الرجل اهتماما برسائلى معبرا عن تمنيه بأن يتحدث إلى ليشرح لى تصوراتيه وأفكاره عن العلاقة الجديدة بين العرب واليهود من ناحية ، وبين الإسرائيليين والمصريين من ناحية أخرى ، حتى لقد شعرت بإثله يأخذنى معبراً - من خلال صحافتى - بين الطرفين المتحاربين ، كما ترسخ لدى اعتقاد آخر ، مؤداه أنه يريد أن يقوم بعمل ترضية عن كلماته اللاذعة السابقة بحق اليهود . . ويعتبر هذا الكتاب نتاجاً مباشراً لتلك العلاقة .

إن جيهان السادات كان عليها أن تفهم أساس علاقتى بزوجها ، ولم لا وهى نفسها نتاج لثقافتين ، حيث ولدت والدتها بشيفلد بإنجلترا ، كما كانت هى تتحدث الإنجليزية بدون تأثر بلهجتها ، فى الوقت الذى كانت فيه لغتها العربية نقية .

إننى أرئت أن أسأل جيهان تحديداً عن الأيام الأخيرة لأنور السادات ، وسرقبضه على عدد كبير من المثقفين والمتخصصين وأساتذة الجامعة ، وكيف أن الانتقادات التى وجهت إليه كانت ترجح فقدانه أى أمل لإنجاز أهدافه فى مصر ، وفشلته فى مفاوضاته مع الإسرائيليين ، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتى للفلسطينيين . .

بيد أن جيهان السادات رفضت هذه الرؤية اللاذعة ، والقاتلة بأن السادات كان مثبط الهمة . وعولت على أن هذه الاعتقالات كانت ضرورية فى هذا التوقيت بالذات ، ولو لم يتم ذلك لتدهور الموقف بصورة أشد ، ولزادت المشاكل التى كانت تواجهها مصر .

كما ترفض جيهان - رغم ثبوت أن دم السادات قد سفك بواسطة الاسلاميين المتشددين - الاعتقاد الكبير بأن السادات قد اغتيل لأنه رفض إقامة جمهورية إسلامية ، وتقرر أنها متأكدة بنسبة مائة فى المائة من أن زوجها قد قتل لأنه صنع السلام مع إسرائيل . . فسألته : من إذن المسئول الحقيقى عن موته ؟ من الذى خطط له ؟ من الذى نفذ ؟ هل هو مجرد عمل لجماعة إسلامية صغيرة متشدة ؟ ثم من الذى خطط لاختراق الجيش ؟ هل هو أحد المتطرفين المعروفين من الخارج ؟ ألم

يكن القائد الليبي " معمر القذافي " يكره السادات ؟ ثم ذكرت لها أن الموساد قد حذر السادات من أن القذافي متورط في مؤامرة لاغتياله ، وقد أخذ السادات هذه التحذيرات باهتمام ، وأخذ التدابير الوقائية تجاه ذلك ، خاصة أن القذافي كان ينظر إلى رغبة السادات في صنع السلام مع إسرائيل على أنها خيانة . . وأضفت : أليس ذلك منطقياً لأن يتجه المتطرفون الإسلاميون صوب القائد الليبي ليعينهم على خطة الاغتيال ؟ أليس ذلك ممكناً ؟ وأليس ممكناً أيضاً أن يكون القذافي ذاته ، ومن خلال عملائه في مصر ، هو الذي اقترح أن يكون هذا هو الوقت للتخلص من أنور السادات ؟

غاصت جيهان السادات في التفكير حينما طرحت عليها هذه الأسئلة ، ولكنها لم تبد مندهشة وقالت . . " لا أستطيع أن أجزم بإمكانية أن يكون القذافي وراء مؤامرة اغتيال زوجي " .

قالت ذلك ببطء ، ثم توقفت عن الحديث ، ثم أضافت : " لكن ليس لدى دليل محدد " .

فقلت لها : (إن المؤرخين والمحللين السياسيين يكررون السؤال التالي : لماذا وجد المتآمرون سهولة في اغتيال السادات ؟

، فتتهدد جيهان قائلة : إنه الأمن الضعيف الذي أحاط بالعرض العسكري أثناء الاحتفال بذكرى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨٢ . . والذي سمح للسادات بأن يتخذ موضعاً جعله عرضة للقتل ، حتى أنه كان يوجد طرح من قبل بعض المؤرخين مؤداه أن موقعه اختير عن عمد لكي يموت " .

ولاشك أن هذا التصور يمكن دحضه لأول وهلة لأن السادات اعتاد على أن يحيى هذه الذكرى . . ليس مع جيهان وحدها ، وإنما أيضاً مع حفيده وهو مرتكز زيه التقليدي ، وليس مقتعاً أن يتمنى السادات الموت في حضور هؤلاء . . والحقيقة أن السادات قد أزعج وزراءه وموظفيه الرسميين ورؤساء الأمن ، بل وجيهان ذاتها ، بإحجامه عن اتخاذ الاحتياطات المضادة لاغتياله . . لكنه لم يعنفهم وقال لجيهان إنه على يقين من أن المتطرفين مسمون على اغتياله .

وأضافت جيهان : " إننى توسلت إليه أن يكون أكثر اعتناء بأمه . . كما كانت هناك تقارير مهمة عن مؤامرة اغتيال أنور السادات ، حتى أن وزير الداخلية أرسل شريطاً به شخص يتحدث عن اغتيال الرئيس ، لكن زوجى رفض أن يتخذ احتياطات إضافية ، ولم يتراجع عن ركوب السيارة المكشوفة لمقابلة الجماهير ، وأصر على أنه لن يسمح لثقة من المتطرفين بأن يحجبوه عن المواطنين المصريين " .

ثم تحدثت جيهان عن أن الفلسطينيين والمنتقدين السابقين للسادات قد أدركوا الآن أنه كان على حق وأنهم كانوا على خطأ ، نعم لقد أدركوا أنه حان الوقت لإلقاء السلاح وإعلاء السلام ، وأنه بدون أنور السادات ومبادراته الشجاعة لم يكن ثمة اتفاق بين إسرائيل وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ذلك الاتفاق الذى قالت جيهان فى شأنه : " بدون سياسة أنور السادات لم يكن ممكناً أن يتم شيء فى الشرق الأوسط إن عرفات أعلنه ذات مرة أنه يحيى اليد التى قُلت السادات ، كما يتهمه الفلسطينيون بأنه خانهم . . لقد نسيت - والكلام مازال لجيهان - كل هذه الأشياء وألتمس للفلسطينيين العذر ، وأشعر بالسعادة لأن الاتفاق الاسرائيلى - الفلسطينى قد سار على النهج الذى ارتسمه زوجى ، إن ذلك أثبت أن زوجى كان على حق " .

لقد كنت (المؤلف) جالساً على بعد خطوات من توقيع اتفاق أوسلو بالبيت الأبيض بواشنطن سنة ١٩٩٣ ، ورأيت ياسر عرفات يصافح إسحاق رابين ، وتمنيت لو أسأله : لماذا انتظرت كل هذه السنين ، ولماذا لم تنتهزوا هذه الفرصة من قبل ، ثم لماذا اتهمتم الرئيس السادات بخيانتكم ؟ . .

وفى الحقيقة ، أن الرئيس السادات حينما أدهش العالم بسفره للقدس سنة ١٩٧٧ ، قد خلق للفلسطينيين فرصة - فى جو مفعم - ليلحقوا بركب مجهودات السلام ، لكنهم ظلوا بعيداً ، واليوم هم يتلقفون الفرصة للسير على نفس النهج الذى ارتسمه الرئيس السادات .

جوزيف فينكليستون

تمهيد

مقابلة مع الرئيس

بعد أن نجح السادات في أن يكون رئيسا لمصر في سنة ١٩٧٠ . . كتبت إليه رسالة شخصية .. وتساءلت عدة مرات : ما الذي دفعني لأن أفعل ذلك ؟ وواقع الأمر ، أنني قد عقدت العزم على أن أعال حظوة لديه واستميلة على أمل أن أقوز بلقاء قيم معه ، وكما آملت وتوقعت وجدته شخصية ذات ملامح فريدة تؤهله لأن يتحاور مع إسرائيل .

وانطلاقاً من عملي كمحرر أجنبي من جريدة الخبر اليهودية اللندنية المحترمة ، والتي تقدم خدمات إخبارية قوية ، لاسيما فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط وإسرائيل ، فقد طلبت حقاً هذا اللقاء . .

وقد أشرت إلى أنه رغم تأييدنا للمسائل اليهودية المشروعة ، إلا أننا نحاول قدر المستطاع أن نكون منصفين بين كل الأطراف المعنية في أي مسألة . . وأضفت أنه في عام سابق دهشت من أن " حماسي ! " الممثل الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية قد عرض نشر مقابلة معه في الخبر اليهودية ، وفي نفس الوقت ظلت منظمة التحرير الفلسطينية تحت قيادة ياسر عرفات تؤكد على تدمير إسرائيل . . .

وقد تم لحماسي ما أراد رغم تأكيد الصحيفة الرائدة لليهود الدنيا سبورا على أن منح فرصة النشر لمنظمة التحرير الفلسطينية يبدو عملاً شائناً ومشبوهاً لمعظم اليهود . وقد جذب حماسي انتباهي لنفس السبب الذي جعل الرئيس السادات لديه القدرة على التحدث عن السلام بدون اتهام الإسرائيليين بأنهم المجرمون الذين بدأوا الحرب أو المعتصبون للأراضي العربية .

وكان حماسي قد قابل عدداً من الإسرائيليين المعنيين ، وقدم تفسيرات لغضب الجماعات الإرهابية العربية ، كذلك التي تنتمي لأبي نضال ، والذي لم تمنعه ملامح السلام عن أن يصف الإسرائيليين بالقتلة . .

وبما أنني أخلت له أعمدة في جريدة يهودية لها سمعتها وشهرتها للتعبير عن وجهات نظره ، فقد كان حماسي شغوفاً بمقابلتي ، إلا أنه كان يشعر بأنه واقع في شبه فخ ، حيث كانت مقابلته للإسرائيليين تتم سرا . . . وحينما حان موعد المقابلة . . .

وكننت قد اصطحبت معى مصورا يحمل آلة تصوير ضخمة تجعله يبدو أمام أى شخص عصبى وكأنه سفاح يحمل قذيفة . . دخلنا حجرة حمامى بمقر الجامعة العربية بلندن ، وحينما رأنا الرجل ، نهض ببطء وكان وجهه ينطق بالرعب .

وبدا يهذى قائلا . " أنت لست صحفيا ، بل أنت جندى إسرائيلى ، جئت لتسحقنى " . وقد استغرقت العملية بضع دقائق لأهدئ من روعه ، وأقنعه بأننى صحفى ، ذات معرفة محدودة للغاية بالأسلحة النارية ، وفى ذات الوقت كان يطوف خارج حجرته المتسخة والمكتظة إلى حد ما رجال مسلحون ، حتى لقد انتابنى الخوف لدقائق ، وظننت أنا والمصور أنه سوف يصرخ طالبا النجدة ، وسوف نباغت بالرصاص .

وبعد أن صدقتى ، بدا حمامى ليس فقط رجلا عاطفيا ، وإنما أيضا رجل حكيم ، وأنه يشكو بحرقه من أنه رغم مولده فى حيفا ، إلا إنه لا يسمح له من قبل الحكومة الإسرائيلية بزيارة المدينة . . فى الوقت الذى يمكن فيه لليهود -سواء من التشيك أو بروكلين- ليس بزيارة المدينة فحسب ، وإنما أيضا بأن يصبحوا مواطنين فى الحال طبقا لقانون العودة الإسرائيلية . .

نظرت إليه متسائلا : لكن هل العرب لم يغزوا إسرائيل حال تأسيس الدولة سنة ١٩٤٨ ، واستمروا فى إزعاجها رافضين قبولها كدولة ، وإنه قبل ذلك لم يكن هناك أى عرب لاجئين أو أية إهانة وشكوى ؟ . .

وبينما كان حمامى يعبر عن وجهات النظر العربية التقليدية التى جعلته يهتز مع العاطفة النقية والمفهومة ، استخدم كلمات وتعبيرات لم أسمعها من أية شخصية عربية ، خاصة من أولئك الممثلين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وترسخ هذا الانطباع لدى حينما بدأ الرجل ينعى الماضى المؤلم السقيم ، ويتحدث عن المستقبل المثمر ، وعيش الفلسطينيين جنبا الى جنب مع الإسرائيليين ، وقبول العرب بدولة صغيرة فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها ماعرف مؤخرا عن حل الدولتين .
إنه قبل سنوات عديدة من بحث ياسر عرفات عن الاقتراب الأمريكي ، كان من المؤلم
جدا القول بأنه اعترف بوجود دولة إسرائيل ..

نعود إلى موضوع حماسي . . حينما ظهرت تفاصيل المقابلة على أكثر من نصف
صفحة في جريدة الخبر اليهودية ، كانت هناك ردود فعل غاضبة في إسرائيل ، وفي مقر
قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ، وفي السفارة الإسرائيلية بلندن .

وفي هذا السياق قال القادة الإقليميون لمنظمة التحرير الفلسطينية لرجال
الصحافة إن المقابلة مختلفة ، وأنه لا يمكن أن يقول أحد ممثلي منظمة التحرير
الفلسطينية أشياء تنسب إليه مثل هذه ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مؤامرة صهيونية
لهز ثقة الفلسطينيين بأنفسهم في صراعهم مع الصهاينة ، في الوقت الذي تصرف
فيه السفارة الاسرائيلية بلندن بصورة أكثر دبلوماسية . . أما أنا فقد أخذت حذري
تجاه ما تسببت فيه من أسي ، ووعدت رئيس التحرير بأن أناقش معه مستقبلا مثل
هذه المقابلات الحساسة ، خاصة بعدما استدعى إلى السفارة ، وعنف على بشاعة
الجريمة التي ارتكبها بنشر مقابلة لأحد أعداء اليهود.

والآن ماذا فعل حماسي وماذا حدث له ؟ . .

إن ما فعله حماسي ، كان صدمة هائلة بالنسبة لي ، وساعدني في تشكيل
اتجاهاتي إزاء الناس في المعسكرات المتباينة . .

لقد كان بوسع حماسي - مثل أي سياسي ماهر - لكي يتجنب سخط قادته في
بيروت ، ويتخلص من هذه المعضلة ، رغم علمه أن النص المنشور يمثل بدقة
وجهات نظره ، كان بوسعه أن يقول إن كلماته قد تغير مضمونها ، بل كان يستطيع
الادعاء بأنني نسجت هذه المقابلة من أساسها .

لكن ما فعله حماسي كان أكثر أهمية وتشويقا ودلالة ، حيث قال : " إنه أجرى مقابلة مع
صحفي من جريدة الخبر اليهودية وأن ما نشر كان بالضبط يمثل وجهات نظره " .

هذا الإقرار من جانب حماسى كلفه حياته ، إذ بعد شهور قليلة من ذلك تحدث معه صوت عربى تليفونيا ، وطلب منه إجراء مقابلة معه ، وحينما سار الرجل -صاحب الصوت العربى - إلى حجرة حماسى أرداه قتيلا ، وتبين فيما بعد أن الرجل المسلح كان عميلا لأبى نضال .

لقد ذهب حماسى بعيدا حينما قال إنه يريد صنع السلام مع إسرائيل ، وهى شجاعة تحسب له ، إذ تحدث عن السلام سنة ١٩٧٣ ، وليس سنة ١٩٩٣ ، بالمقارنة بأبى نضال الذى دبر قتل حماسى حينذاك ، وعرفات الذى تحدث عن السلام سنة ١٩٩٣ .

وعلى كل حال ، فإن دعوى لمقابلة السادات كانت غير متوقعة بالمرة ، حيث كنت أقصى إجازة فى أحد المصايف بروماينا بالقرب من بوخارست ، ودهشت حال إبلاغى بأن السفارة المصرية بلندن قد اتصلت تليفونيا بالخبر اليهودية وتركت رسالة مفاجئة ، مفادها أن الرئيس أنور السادات سوف يزور فيينا لمقابلة " شان سيلور كريسكى " ، ورغم أن جدولته كان محكما ، إلا أن الرئيس أنور السادات قد أبدى ترحيبه بمقابلتى ، وعلى أن أحضر على وجه السرعة لفينا .

لم أتردد لحظة ، وشعرت بأن أى دعوة من قائد عربى لصحفى يهودى يجب أن تلبى على الفور - فى هذه الفترة كانت إسرائيل لاتزال دولة فى حالة حرب رغم اتفاقات وقف إطلاق النار - فما بالك أن تأتى هذه الدعوة من قائد أكثر الدول العربية هيبه ، وأكثرها تأثيرا فى الصراع العربى - الاسرائيلى .

ولأهمية الرسالة كسر أحد الأصدقاء المقربين " سيدنى لايت مان " وصيه السبت - ووصيته تقضى من بين ماتقضى به بعدم استخدام التليفون - واستخدم التليفون عدة مرات ، وقضى ساعات عديدة فى محاولة الوصول إلى ، حتى لقد بدا مثارا مثلى من جراء ما بذله من جهد وعناء .

وفى غمرة إثارتى اندفعت لأخبر الحاخام الاكبر " شلوموجورين " ناسيا أننى أيضا كسرت بذلك قانون السبت بالرد على المكالمه التليفونية ، لقد سببت حقًا بعض الحساسية . . بيد أن الحاخامات كانوا على استعداد لمنحى البركات للسفر الى فيينا .

ومن الممكن تخيل ماكنت فيه من فزع ودهشة حينما دق جرس التليفون مؤخرا ،
بعد نصف ساعة ، وأخبرنى " جيوفرى بول " بألا أعد نفسى للسفر لفيينا وألا أقابل
الرئيس السادات .

لماذا . . ؟ . . تساءلت فى ذهول ، وأشرت إلى أن إجراء مقابلة مع الرئيس
السادات سوف يمنح جريدتنا سعة الانتشار عالميا ، وأن المفاوضات السرية سوف
تتم بين مصر والإسرائيليين ، وسوف تضم الكاريزما ممثلة فى أنور السادات ،
والدبلوماسى الإسرائيلى موشيه ديان ، والملك الحسن ملك المغرب ، وسوف تقتضى
السرية أن يسافر موشيه ديان الى المغرب لمقابلة بعثة مصرية ، ولن يتأتى لنا
معرفة تفاصيل هذا المحادثات ، وأضفت لجيوفرى بول : إن هذه تعتبر فرصة
لاكتشاف ما يخطه قائد العالم العربى ، وأن صحفا أخرى سوف تتخبط مع البعثة .

إلا أن جيوفرى بول لم يتأثر ، وجادل قائلا ، بأن الخبر اليهودية لو نشرت
مقابلة مع السادات فسوف تقول الصحف الأخرى إننا جرينا وراء العرب . .

حاولت إقناعه بأننى سأقوم بعمل حوار عظيم لو ذهبت للسادات ، وأنا لن ننشر أى
كلمة من الحوار فى الخبر اليهودية إلا بعد الاستفسار عنها فى المقابلة . . ولكن دون جدوى .

جمدت قلبى - رغم علمى بأن مهمتى لا يمكن الدفاع عنها - وفكرت للحظة فى
عرض المقابلة على صحيفة معاريف اليومية الاسرائيلية الصادرة فى تل أبيب ،
والتي كنت مراسلها فى لندن لعدة سنوات ، حيث كان أعضاء هيئة التحرير
والموظفون من الأصدقاء الشخصيين لى ، بما فيهم شخصيات صحفية بارزة مثل :
آرييه ديزنكتشك ، وسلوم روز نيفيلد ، وصمويل سكينيزر ، وموشيه زاك . . ولاشك
أنهم كانوا سيقبلون مقابلة السادات بحماس .

لكننى انتابنى شعور بأننى أنتمى للخبر اليهودية ولن أحقر من شأنها بهذا
السلوك الوقح ، وأن العالم الصحفى سوف ينظر إلى تصرف جيوفرى بول على أنه
تصرف غير مسئول ، رغم أنه كان يجب على أن أعرض هذا الأمر على مجلس إدارة

الخبر اليهودية . . صحيح أن جيوفري بول صحفي ممتاز وذو خبرة كبيرة ، لكنه حتى إذا أقر بأنه ارتكب خطأ ، فإن المقابلة التي وُعدت بالحصول عليها من الرئيس السادات قد ضاعت ، لدرجة أن ذلك سبب حساسية .

المهم ، إننى بتردد وشعور بالخزي أبلغت السفارة المصرية فى لندن بأننى لن أكون قادرا على السفر الى فيينا فى هذا التوقيت الذى حدده الرئيس ، واعتقدت أننى لن نتاح لى على الإطلاق فرصة لقائه ، وبالتأكيد لن ألتقى دعوة شخصية لذلك ، كذلك اعتقدت أن المصريين رأوا أن اعتذارى مبثور .

وبعد مضى سنة ، وتحديدا فى مايو سنة ١٩٧٧ ، كنت جالسا بمكتبى فى الخبر اليهودية بشوارع فير نيفال بلندن ، حينما حولت إلى مكالمة تليفونية من السفارة المصرية ، مفادها أن الرئيس السادات يريد رؤيتى على عجل بالقاهرة ، وحينما سئلت : متى تستطيع السفر ؟ . . رددت بأننى سأترك كل ما لى من عمل فى الحال ، وخلال يوم سوف أكون فى مصر ، وأخبرت بأننى سأمنح التأشيرة بسرعة .

فى تلك الفترة كان الموقف قد تحول بقيام الرئيس السادات برحلة دراماتيكية للقدس ، وإلقائه خطابا أمام الكنيست الاسرائيلى ، وقد عرض السلام على إسرائيل معولا على أن تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها فى حرب الأيام الستة ، كما أصر السادات على أنه لم يأت لعقد معاهدة صلح منفردة مع إسرائيل ، وأضاف : إن عرب فلسطين يجب أن يحصلوا على أراضيهم وحقوقهم . لقد كان حقا حديثا صلبا خلق استجابة قوية لدى رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين .. وعلى هذا الأساس ، فإن المكالمة التى جاءتتى كانت فى وقت هزالى ، وتحديدا قبل توقيع اتفاقات كامب ديفيد بمساعدة الرئيس جيمى كارتر ، لكن الشئ الجيد هو أن الطريق للسلام أصبح ممهدا ، وكل ما كان مطلوبا هو قفزة خيالية فى ضوء إعلان الرئيس المصرى أن لديه الرغبة فى تحقيق السلام الشامل مع إسرائيل ، فهل كنت أصلح أنا لهذا الغرض بعد المقابلة غير العادية التى وعدنى بها الرئيس السادات .

لقد شعرت بأن رغبة السادات فى مقابلتى تحتاج فى تنفيذها إلى ممثل بارع .
والآن ليست هناك معارضة من قبل الخبر اليهودية لسفرى الى مصر ، ولكن هذه
المرّة أيضا تغت جيو فرى بول ، حينما حدد لى ثلاثة أيام فقط أقضيها بالقاهرة ، وإذا
لم تتح لى رؤية السادات خلالها يجب على العودة إلى لندن .

عند وصولى إلى القاهرة لم أشعر بأى إحساس بالهفة من قبل موظفى الرئيس
الرسميين ، بل كان واضحا أنهم لم يتلقوا أية تعليمات عن المقابلة ، وكان على أن
أتى فى اليوم التالى ، حينما عدت فى اليوم التالى علمت أن الرئيس ليس موجودا
بالقاهرة وإنما موجود بمقر مصيفه بالإسكندرية . . وكان الموظفون الرسميون
بالرئاسة مستغربين من أننى سوف أقضى ثلاثة أيام فقط فى مصر ، إذ توقعوا أن
زيارتى سوف تمتد لمدة أسبوعين ، لأن الرئيس رجل مشغول جدا ، ويجب أن يرتب
موعد المقابلة قبلها بفترة . . قلت : هل بإمكانى أن أجى فى اليوم التالى فلربما كانت
هناك بعض المعلومات ؟ . . ثم عدت إلى الفندق وأنا أشعر بالإحباط والغضب من
المصريين لعدم إعطائهم أدنى اهتمام بالمقابلة ، وظهورهم بمظهر الذين يغطون فى
سبات ، فرغم أن رئيسهم دعائى لمصر ، فلا شئ أعد لذلك .

شعرت أيضا بالغضب والنفور لأن زيارتى لمصر محددة بثلاثة أيام ، وتولدت .
لدى قاعة بأننى لن أقابل الرئيس أبدا إذا مكثت انتظر مكاملة تليفونية بالفندق ،
وهكذا قررت فى مساء اليوم التالى أن أذهب إلى قصر عابدين - مقر إقامة الرئيس-
وأحدث مباشرة مع مساعديه وسكرتاريته ، وكنت مدفوعا بإحساس انتهاك الحرمة
لأننى رغم تلقى دعوة شخصية من الرئيس لمقابلته ، فلا أحد من موظفيه يبذل أدنى
مجهود لترتيب اللقاء ، كما كان يغضبنى أن أسير وراء حراس بوابة القصر
بمعارضتهم لى ونظراتهم العربية المفزعة التى لم أفهمها بالطبع .

ولكننى عقدت العزم . . فقد دعيت بواسطة الرئيس السادات لرؤيته ، ولا أحد
سوف يوقفنى ، وأعلنت ذلك مرارا للحراس ، وتعمدت أن يكون صوتى حادا وواضحا
لإقناعهم ألا يبذلوا أية محاولة لإيقافى . . فهل استجابوا لذلك ؟ .

إننى لم استطع حتى أن أظهر لهم أوراق هويتى .. إذ فى غمرة الغضب والإحباط الذى انتابنى نسيت جواز سفرى بالفندق ، وقلت فى نفسى إنه سيتم القبض على بالتأكيد ، ولكن الذى حدث أننى سألت بصوت حاد : أين السكرتير العام للرئيس ؟

فحملق الحراس فىّ دون أن يفهموا ما أعنيه .. حينذاك كان أحد الموظفين يمر .. فشاوور بإصبعه الى الباب ، فدخلت حتى دون أن أطرق الباب ، وهناك لقيت رجلا فى منتصف العمر .. سألتنى فى دهشة : من أنت ؟ .. وكيف دخلت هنا ؟ .. شرعت فى الحال أصف مشكلتى وصفا حماسيا ، منتهيا بالقول : إننى شخصا سوف أشكو إلى الرئيس ما لقيته من سوء معاملة ، لقد أهين الرئيس حينما عوملت هذه المعاملة ، ثم طلبت منه أن يتصل بالرئيس فورا ، فرد على : إنه ليس هنا الآن ، وإنما بالإسكندرية فى مصيفه .. فرددت عليه ، بأنه لا يوجد أى مانع للاتصال به ..

نظر إلى بحدة ، إلا إنه لاحظ تصميمى فقال .. انتظر بالحجرة التالية حتى اتصل بالرئيس ، ولأن الباب كان مواربا فقد سمعته يتحدث الى شخص آخر بأسلوب مختلف ، ففهمت أنه يتحدث مع الرئيس السادات .

بعد أن انتهت المعاملة بعشر دقائق دعانى الى حجرته وقال .. الرئيس سوف يراك غدا فى الصباح بالإسكندرية ، وسوف تأتى سيارة لتأخذك إلى هناك .. كن على استعداد الساعة السادسة صباحا .

نمت هذه الليلة بصعوبة بالغة ، وانتظرت فى الميعاد المحدد بردهة الفندق ، حتى سمعت صوتا ينادى على اسمى ، ورأيت سيارة كبيرة سوداء يرفرف على جانبها العلم الوطنى المصرى .

سألتنى السائق ذو الزى الأبيض : هل أنت جوزيف فينكليستون ؟ فأجبت : نعم .. . ففتح لى باب السيارة وقال : لقد جئت لآخذك الى الرئيس .. قال ذلك بلغة إنجليزية جيدة ، حينئذ خطرت ببالى فكرة طمأنتنى الى حد ما ، وهى أن الرجل لم يسألتنى عن الأوراق الخاصة بهويتى قبل أن يأخذنى للرئيس .. ألم يكن من الممكن أن أكون محتالا مرسلا بواسطة المتآمرين الذين سمعوا أننى سأقابل الرئيس .. إنه الخلل الأمنى الذى كان الطريق المؤدى لاغتيال الرئيس .

وخلال رحلتى الطويلة إلى الإسكندرية كنت مندهشا لرؤية الناس فى الطريق ينظرون بشغف للسيارة ، بل ظهر البعض كما لو كان يحييها . .

بعد ساعة سفر لم استطع أن أخفى دهشتى وسألت السائق عن السبب ؛ فضحك قائلا : إتهم يعتقدون أنك الرئيس أو أحد الكبار ، إنك فى إحدى سيارات الرئيس ، لم يكن يوسعى أن اتحمل انعكاسات الموقف . . معقول صحفى يهودى فى سيارة الرئيس المصرى ويتلقى التحيات من المواطنين المصريين ! .

وعندما اقتربنا من مدينة الاسكندرية بطقسها الفرنسى النقي كان لابد أن تقف السيارة فى نقطة تفتيش يقوم عليها حراس مسلحون ، فتح أحدهم باب السيارة وسألنى من أكون ؟ . . وماذا أحمل ؟ . .

سألنى بصورة مهذبة . . قلت له إننى مدعو لرؤية الرئيس ومعى كاميرا ، فلمج اسمى وألقى نظرة عابرة على الحقيقية والكاميرا ، والغريب أنه ظن أن لقبى هو اسمى الأول ، حيث سمعته يتحدث مع نقطة التفتيش التالية عن يوسف . .

فسر لى السائق ذلك بأنه يقول لهم . . إن يوسف قادم . . ثم استطع الابتسام ساعتئذ ، وتذكرت قصة التوراة حينما رحب الفرعون بيوسف .

وصلنا إلى مصيف الرئيس ، وقابلنى موظف أخذنى إلى إحدى الحجرات ، وطلب منى الانتظار . . ماكدت أجلس حتى دخل شخص بهى الطلعة مرتديا زيا أزرق وسلم على بحرارة ورحب بى . . فى هذه اللحظة ظهر العديد من المصورين الذين أضاعت كاميراتهم جنبات الحجرة ، ثم اختفوا فجأة ، والرئيس لايزال يبدى رغبة طيبة وود ، ورغم أنها كانت أول مقابلة لى معه ، إلا إنه سار بى إلى حجرة واسعة ، حيث كان يوجد موظفا صغيرا منتظرا ، فأذن له الرئيس بالانصراف قائلا له بالانجليزية . . إن وجودك غير ضرورى ، فأبدى الموظف دهشته كما لو كان طبيعيا أن يكون أحد موظفى الرئاسة حاضرا عندما يقابل الرئيس صحفيا أجنبيا ، بينما نظر الموظف إلى الرئيس متسائلا أعطاه الرئيس ذات التعليمات ، فغادر الحجرة .

وكان يبدو بوضوح أن الرئيس ارتأى في مقابلتنا أكثر من مجرد مناسبة صحفية ، ودعاني الرئيس للجلوس على أريكة بجانب منضدة منخفضة وجلس بالقرب مني ، في تلك اللحظة أحسست أنني خدعت في الزى الذي كان يرتديه ، إذ كان هذا الزى يشبه (بيجاما حرير) ، لكنني أدركت أنه نوع من البدل الرقيقة الناصعة والجيدة ، فاستحضرت ذلك الزى الفاخر الذي كان يحب ونستون تشرشل ارتدائه .

لقد كنت مذعورا من الكيفية التي تبدو بها بشرته سوداء ، لكنني تذكرت في الحال أنه ولد لأُم سودانية ، حيث أغلبية السكان هناك من السود .

دعاني الرئيس لأن آخذ معه الشاي ، الذي كان في أوعية موضوعة على أطباق فضية صغيرة ، وكان الشاي بالنعناع الذي أحبه تماما . .

شرع الرئيس في تقليب الشاي ، بينما أخرجت جهاز التسجيل من الحقيبة التي كنت أحملها ، وهنا شعرت بمرارة التجربة فلقد اشتريت هذا الجهاز قبل رحلتي - التي كانت على عجل - إلى مصر ، ولم أكن أستخدم جهاز التسجيل من قبل في مقابلاتي ، معتمدا على اختصاراتي الكتابية . . والتي لم تكن تفي بالغرض تماما لإحساسي باستحالة تفسير الإيماءات التي ترد خارج السطور .. لذا شعرت بأنه في مقابلة مهمة مع قائد العرب يستلزم الأمر أن يكون معي جهاز تسجيل ، لاسيما إذا كان التقرير الذي سأكتبه عنه يمثل تحديا بالنسبة لي .

وحيثما أدركت أن جهاز التسجيل لا يعمل اشتدت حيرتي ، وقد لاحظ الرئيس ذلك ، فقال مبتسما : دعني أرى إذا ما كنت أستطيع أن أجعله يعمل ، فحاول معه ثم قال : الحمد لله ، اعتقد أنه سوف يعمل الآن .

شكرته جزيلا ، لكن داخليا كنت أؤنب نفسي . . لقد ظفرت بمقابلة ثمينة مع رئيس مصر ، وضيعت دقائق غالية أصلح هو فيها جهازى . .

لقد كان عقابا شديدا للصحفي الذي بدأ المقابلة مع الرئيس بجهازه المعطل ، والذي عمل الآن بكفاءة . .

وفى الوقت الذى بدأت فيه التسجيل أدهشتنى ابتسامته الحارة وتواضعه ، إنه كان يعلم إعجابى بشجاعته ونفاذ بصيرته ، لكن استقباله فائق كل ما كنت أتخيله . . . حيث كان الرئيس السادات شغوفاً بأن تكون مقابلتى له غير رسمية على الإطلاق . . . وليس أدل على ذلك من أن أحد موظفى الرئاسة كان قد أخبرنى أن الرئيس مشغول للغاية بشئون الدولة ومقابلات تليفزيونية وزيارات لسانية ، وبإمكانه أن يمنحنى فقط نصف ساعة لإجراء المقابلة ، وعندما مضى نصف الساعة دخل موظف الحجرة لتوصيلى وأنا خارج ، بيد أن الرئيس أشار إليه بأن المقابلة لم تنته بعد ، وأنه فى حاجة لمزيد من الوقت ، وعندما انقضت ساعة دخل نفس الموظف ، لكن الرئيس أخبره ثانية بأن المقابلة لم تنته بعد . . . فخرج الموظف ، والذى كانت تبدو عليه مظاهر الحيرة والقلق مشيراً برأسه فى عدم اقتناع . . ثم عاد للمرة الثالثة بعد مضى ربع ساعة ، فأمره الرئيس أن يغادر الحجرة بدونى . .

ولتفسير ذلك قال لى الرئيس مبتسماً . . إن فريقاً من التليفزيون الأوروبى فى انتظار رؤيته ، ولكنهم لن يفهموا سبب التأخير ، وبعد مضى ساعتين قرر الرئيس إنهاء مقابلتنا .

إن الموظفين دخلوا الحجرة أكثر من مرتين ، وقد رأيتهم يعطون إشارات للرئيس توحى بأن الزوار ينتظرونه على عجل ، حتى لقد أخبرنى أحدهم فيما بعد . . . بأنه لم يكن يعرف أن الرئيس سوف يطيل مدة المقابلة هكذا ، وأن هذا سوف يربك أجندة مواعيد هذا اليوم .

وبخصوص المقابلة فقد كان واضحاً من صوت الرئيس وكلماته أنه أراد أن يستخدمنى كرسالة يقول من خلالها للعالم وللإهود وللعوام فى إسرائيل بصفة خاصة ، إنه مخلص فى رغبته لصنع السلام وترك الحرب الى الأبد . .

وقد نجح الرئيس خلال هذا اللقاء الطويل فى إقناعى بأنه ليس سياسياً مراوغاً يريد أن يخدع صحفياً أجنبياً بسيطاً مثلى . . إنما رجل على ذو أهداف نبيلة . .

إن الرئيس السادات قرر اليوم أن يضع حدا لإراقة الدماء بين العرب وإسرائيل .

إنها الحثييات التي أخذته للقدس لينادى بمنطقة تحيا في سلام . لكنه سلام بكرامة وشرف .. سلام يرى كل جزء على أرض مصر محررة من الاحتلال الاسرائيلي . . وأنه لا شئ يؤرقه أكثر من قلة الشجاعة وجفاء الأصدقاء . .

إننى مازلت أشعر بغضبه وتدوى فى آذانى السخرية الحادة فى صوته بأنه أدب الأمريكيين والبريطانيين ولم يطاوعهم فى رفض لجوء شاه ايران المخلوع عن العرش ، والذي اضطر للفرار الى الخارج . . وأضاف أنه فقط منذ بضع شهور شكره الأمريكيون على أنه حصن للسلام والاستقرار فى المنطقة ، وأنهم وصفوه بصديقهم الحميم الذى تحدث إليهم بخصوص هجرهم لرجل مريض عبر رفضهم الترحيب به رسميا فى الولايات المتحدة ومنحه لجوءا كاملا . .

لقد كان السادات يرى فى ذلك وحشية وقسوة ، طبقا لوجهة نظره ، لأن الأمريكيين خافوا إغضاب الحاكم الإيراني الجديد آية الله الخميني . . وكانت هذه هى المرة الوحيدة خلال مقابلتنا التى بدا الرئيس فيها غير متحكم فى عواطفه بصورة كاملة ، منعشا ذاكرتى بسخريته الشديدة التى ملأ بها عمق صوته تجاه القادة الأمريكيين والبريطانيين ، وخاصة الأمريكيين الذين نصحوا الشاه بعدم التنازل عن العرش . .

هذا الانفعال فى صوت الرئيس السادات كان هو منبع كل الجمل المفاجئة طوال اللقاء . . ففى نوعية وأسى وصف الرئيس السادات الموقف فى إيران قائلا . . " الثورة الإسلامية فى إيران لم تستخدم الدماء كوسيلة للوصول الى السلطة ، لكنها ضد الإسلام ، إنهم قطعوا علاقاتهم معى ، وسوف أسأل برلمانى الجديد إذا ماكان ملاما أن أمنح الشاه لجوءا فى بلدى ، رسميا سوف أمنحه اللجوء ، لأنها أخلاق مصر إننى أتعى أولئك الذين يشجبون منح الرجل اللجوء .

ولاشك أن هذا الاعلان من قبل الرئيس السادات قبل إخبار برلمانه يعتبر حدثا فريدا في الشرق الأوسط أو في أى مكان في العالم .

وفي الحقيقة لقد هزنتى هذه الإيماءات بعمق ، وكرد فعل لتصرحاته العاطفية أصبحت على قناعة بأن أنور السادات ارتأى في مقابلتنا وسيلة لإجازه توافق بين مصر وإسرائيل . . وفي ثانيا حديثه استدعى التشرد المؤثر لآلاف اليهود من مصر كنتيجة لقرارات ناصر ضد رجال الأعمال الأجانب ، والتي أصابت المجتمع اليهودى على وجه الخصوص بصدمة قوية .

وها هو اليوم ، يتحدث في عصره الذهبي عن التعاون بين اليهود والعرب ويأمل في ازدهاره مرة أخرى ، كما استبعد بغضب قيام سياسة الصداقة مع إسرائيل على أوهام شخصية أو أن المصريين سوف يتأثرون بأحلام الملكيات الكبيرة ، والتي إذا خاب أملهم فيها فسوف تقود إلى طي وانكسار تصميماته ، وهو نفس ما أدلى به لاحقا لجريفيلى جاتيير رئيس لجنة المفاوضات اليهودية ببريطانيا من أن السلام مع إسرائيل هو أمل كل المصريين ، وأنهم سوف يصرون عليه .

وبناء على ذلك يثبت أن حماس السادات للسلام مع إسرائيل قد اشتمل على العديد من الأبعاد والتصورات التي تظهر من خلال إجابته على الأسئلة التي وجهتها إليه ، والتي كانت على النحو التالي :

س : الناس في إسرائيل سعداء جدا باتفاق السلام ، لكنهم مازالوا قلقين مما إذا كانوا يفعلون شيئا صحيحا ، تحديدا هم يجب أن يتخلوا عن جزء كبير من الأراضي . أليس على مصر أن تطمئنهم وتفتح الحدود للسياح والدارسين ؟

ج : يجب ألا يقلقوا ، نحن وافقنا على أن نستخدم حسن الجوار ، ثم كيف يعتقدون ذلك ، ونحن سوف نسعى بكل وسيلة لتطبيع العلاقات بعد المرحلة الأولى للانسحاب الاسرائيلي من سيناء ، وحينما تنتهي المرحلة الأولى سوف أسعى لإجازه الثانية . ولقد

أتممت الوعد الذى قطعته على نفسى أثناء زيارتى للقدس سنة ١٩٧٧ ، والذى تضمن نقطتين : الأولى أنه لا حرب بعد أكتوبر . . والثانية أن إسرائيل يجب أن تنعم بالأمن ، وسوف أبذل قصارى جهدى أكثر مما يتخيل أى شخص آخر لتحقيق ذلك .

س: الآن تكون هناك سياحة سريعة بين مصر وإسرائيل ؟

ج : إذا تم المرحلة الأولى من الانسحاب الاسرائيلى من سيناء خلال ٣ أو ٦ شهور . . من الممكن أن يحدث ذلك . . أنت الآن تطلب شيئا لايمكن تخيله ، حيث المرحلة الأولى للانسحاب سوف تتم خلال ٩ شهور ، ورغم أن جزءا من أراضينا سيظل تحت الاحتلال لمدة سنتين أو ثلاثا فسوف نطبع العلاقات .. والآن أنت تحدثنى عن تطبيع العلاقات قبل أن تنتضى الشهور التسعة .

س: هل فوجئت بمعارضة المملكة العربية السعودية لمبادرتك للسلام مع

إسرائيل ؟

ج : دعنا نكون عادلين ، إن أية فكرة جديدة تحتاج إلى بعض الوقت لكى يتم استيعابها ، ومعروف أن العالم العربى ظل على مدار واحد و ثلاثين عاما يحشد الحشود ضد إسرائيل ، ونفس الشئ حدث فى إسرائيل تجاه العرب ، إذن ليس من السهل لرفاقى العرب أن يستوعبوا هذه الفكرة أو أن يلقوا هذه الروح وراءهم .

س: وماذا ستفعل مع الملك حسين ؟

ج: فى الحقيقة حسين مختلف ، ولقد خبر وعرف جميع العرب أن جده الملك عبد الله - وهو - على اتصال مع إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ ، فى الوقت الذى كان فيه الاتصال جريمة . . حقيقة أنا لم أكن مندهشا من المكانة التى يشغلها الملك حسين ، ولأجل السبب البسيط فى كونه لم يتم حله بالمملكة العربية المتحدة على الضفة الغربية ، فلم يكن بوسعى أو بوسع بيجين أو أى شخص آخر أن يقرر مصير الفلسطينيين من خلف ظهورهم .

س: ماذا عن باقى العالم العربى ، إنه يبدو باستثناء دولة أو دولتين مثل السودان ضد مبادرة السلام ؟

ج : إنه بعد أن قطعت المملكة العربية السعودية العلاقات معنا ، وصلتى رسائل من العديد من رفاقى فى الوطن العربى ، الغالبية منهم اتخذت هذا الموقف ضد مبادرة السلام للسير فى فلك المملكة العربية السعودية . .

هذه هى طريقتنا فى العالم العربى ، رغم أن ذلك قد يكون ضد المصلحة الكبرى للعالم العربى .

س: هل تعتقد أن العالم العربى سوف يقبل فى النهاية مبادرتك للسلام ؟

ج: إنه تحد ، وأنا قبلت التحدى ، مصر إما على صواب وإما على خطأ . . هذا ما سوف يثبتته المستقبل القريب . . لقد اعتدت على هذا . . بعد الاتفاقية الأولى والثانية فى سيناء . . بعد مبادرتى للسلام ، وبعد كامب ديفيد حدث نفس الشيء ، ولكنه لم يوقف الساعة ، ولم يعيد عقاربها للوراء .

س: السعوديون أناس غير معقولين . . فلماذا يعارضون بحدة مبادرة السلام ؟

ج: إنهم يعارضون لأن الفلسطينيين والعراقيين والسودانيين قد هددوا باغتيال كل أفراد العائلة المالكة ، أيضا يريد السعوديون أن يثبتوا للأمريكيين أنهم قادة العالم العربى والإسلامى .

س: الست قلقا من تجميد عضوية مصر فى اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية بالمغرب ؟

ج: على الإطلاق ، أنا أعتبر أن هذه المسألة هامشية ، وأنا لا أضيع وقتى فى مثل هذه المسائل الهامشية ، وحينما أتجح فى المشكلة الرئيسية ، فإن المشاكل الهامشية سوف تحل بصورة اتوماتيكية .

س: ألا تخشى أن تقوم المملكة العربية السعودية والدول العربية الغنية بالتهديد بقطع مساعداتها لمصر أو حتى مقاطعتها تجاريا ؟

ج : لن يفزعونى ، فقبل بداية حرب أكتوبر كان اقتصادنا تحت الصفر ، والآن فإن اقتصادنا ليس تحت الصفر ، وسوف نعيش ، الأموال لا يمكنها أن تنهى القيادة ، وحسين سوف يظل دائما فى كنف المملكة العربية السعودية ، الرجل يستقبل الأموال من المملكة العربية السعودية ، سواء بصورة شخصية أو للدولة .

س: وزير الدفاع الإسرائيلى عيزرا وإيزمان عارض رئيس وزرائه فيما يتعلق بقبول خطة الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، مارليك فى ذلك ؟ .

ج: إبنى أحب عيزرا ، وسوف نفتقده إن لم يحضر المفاوضات فى العريش وبئر سبع ، إننا سوف نخوض محادثات صعبة ومعقدة ، وسوف نعمل بجد واجتهاد ، وأنا متفائل حتى فى أحلك الساعات . . دعنا لا نتحدث عن عيزرا ، لا أريد أن أخلق له شقاكات مع زملائه . . العبارات يمكن أن تؤدى إلى خسارة كبيرة ، ودائما أقول لبيجن : دعنا نلتصق فى هذه اللحظة الثمينة عن الألفاظ ، لأنهم فى العالم العربى يأخذون الألفاظ على أنها حقائق .

س: ما البيانات الموجودة بذهنك ؟ .

ج: إنها بيانات عن الأراضي العربية المحتلة ، وجهة نظرنا معروفة ، إنها أوضاع غير قانونية ويجب أن تتغير بواسطة إسرائيل ، نفس الشئ بالنسبة للولايات المتحدة . . لكن كل يوم يعلن الاسرائيليون عن تسوية جديدة . . شارون بدأ يعارض بقوة ، ثم وزير الزراعة الاسرائيلى . . فهل على أن ألقى ببيان . . إن هذه مسألة جانبية يجب أن نتلاشاها الآن .

س: وماذا عن الفلسطينيين والحادثات السرية التى يتعامل معها أحد وزرائك ؟ . .

ج: فى هذه المرحلة من المفاوضات ، لا أرى أى حاجة لمندوبين عن الفلسطينيين من أجل الحكم الذاتى الكامل ، إنما لسنا فى طريقنا لتقرير مصير الفلسطينيين ، ولا أحد لديه الحق فى أن يقرر مصيرهم ، فهم يجب أن يقرروا لأنفسهم .

وخلال المرحلة التفاوضية ، التى سوف تحدث خلال سنة ، سوف نقرر الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

إننا نريد أن ننهى معاناة أولئك الذين احتلت أراضيهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، ونضعهم على بداية الطريق الصحيح ليقرروا مصيرهم بأنفسهم . . لكننا وجدنا أنه من الأفضل أن نجعل الفلسطينيين معنا لمدة عامين قبل نهاية الخمس سنوات (الفترة الانتقالية) . . وبهذا نمنحهم الفيتو . . فصرخوا وقالوا : إن السادات تولى مسئولية تقرير مصير الفلسطينيين ، لكننى لن أتحدث عن الفلسطينيين ، وأنصح أى شخص ألا يتحدث عنهم .

س: ما تصورك للدور الأمريكى فى منطقة الشرق الأوسط ؟

ج: النصر الحقيقى لمصر وإسرائيل هو أن الولايات المتحدة ارتبطت بهما كشريك كامل . . إنه النصر من أجل السلام ، ولذا أرى أن الدور الأمريكى سوف يكون مهما جدا فى المستقبل .

ولا أحد سوف يصدقنى إذا قلت إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة بأيدي الأمريكيين ، وهذا لا يعنى أن كلا من مصر وإسرائيل تخلتا تماما عن مسئولياتهما ، لكننا فى حاجة الى أحد يمنحنا الثقة للتغلب على شقاق دام ثلاثين سنة مليئة بإراقة الدماء والكراهية والعنف وأربع حروب .

س: بوصفك رجلا عسكريا وسياسيا ، هل يمكن ان تتنبأ بإمكانية ان يخوض العالم العربى حربا مع إسرائيل بدون مصر ؟

ج: لن تكون هناك حربا أخرى بعد حرب أكتوبر ، لسبب بسيط جدا وهو أن مصر هى مفتاح الحرب و السلام فى المنطقة ، وبدون مصر ليست هناك حرب ، ولكن على إسرائيل أن تتعلم حقائق المنطقة لأننا سوف نعيش سويا .

س: ألا ترى أن فرنسا أكثر برودا تجاهك ، ثم اليس هناك خطر من بروز قوة بريطانية فى أوروبا ، بالإضافة الى التكهانات التى تقول بأن الفرنسيين ينبغي أن يقوموا بتحويل السوق المعروفة إلى القوى المناوئة لكم ولإسرائيل ؟

ج: . . كلا . . إنهم إذا ذهبوا ضد مبادرتى فسوف يكونون ضد شعبى . . الذى منه ٤٠ مليونا فى صالح مبادرتى ، بينما عارضها ٥ آلاف فقط . .

كذلك كان للسيدة تاتشر اتجاه بناء بإزاء الصراع العربى - الإسرائيلى ، وهى مستقلة جدا . . أيضا شانسيلور سكمدت الألمانى . . لا أعتقد أن أحدا يستطيع جر هذا الرجل ، فهو أحد رجال السياسة وأحد الذين أعجب بهم كرجل وصديق .. وكذا الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان يعتبر صديقا ، لكن دعنا نأمل أن يتغلب على مشاكله الاقتصادية ، والتى ستؤثر حتما على مكانته ، ومعروف أن فرنسا منذ ديغول لعبت دورا رياديا ، وأظن الجميع لن يفتلوا ضد السلام أو ضد طموحاتنا .

س: هل ترى حلا لمشكلة القدس ؟ . .

ج: نعم ، نعم ، نعم . . دعنا بداية نعرف حقيقة أن سؤالك عن القدس حساس جدا لأجلك من ناحية ، ولأجل ٨٠٠ مليون عربى ومسلم من ناحية أخرى . . والاقتراب من المشكلة ليس صعبا ، ونستطيع أن نحلها على أساس أن المدينة لم يتم تقسيمها ، وإنما تمثل مزارا مقدسا مفتوحا لذوى الديانات السماوية الثلاث .

لكن ٨٠٠ مليون عربى ومسلم لن يقبلوا بأى حال من الأحوال بالسيادة
الامبراطورية على الجزء العربى من القدس . . هذه حقائق ، وإذا استطعنا أن نبني
معا انطلاقاً من روح مبادرتى ، فلن تكون هناك مشكلة للوصول إلى حل .

س: معروف أن الروس غاضبون منك ، فهل تعتقد أنهم سيكونون
ضدك ؟ . .

ج : نعم ، فهم وراء كل ما يجرى فى العالم العربى ، حيث عبر راديو
موسكو ليس فقط عن سعادتهم حينما قطع العرب علاقاتهم معى ، وإنما أيضا
يحرزونهم علانية . .

أنا لست ضد الروس لو أقلعوا عن سياسة التدخل ، إنهم وراء الفلسطينيين
والسوريين والعراقيين ، ولسوء الحظ السعوديين .. كما أنهم يثيرون العرب
المعتدلين ، وهذا لا يثقتنى ، لكن الذى يثقتنى هو التحرك السوفيتى فى أفريقيا
والخليج ، فهم يد بيد مع القذافى على الحدود الغربية ، ويد بيد مع اثيوبيا ضد
الصومال والسودان ، ويد بيد مع اليمن الجنوبى ضد اليمن الشمالى ، وبصورة
أتوماتيكية ضد المملكة العربية السعودية .

س: ماذا تعتقد بخصوص الخطة السوفيتية فى أفريقيا ؟ . .

ج : لقد ائتمنت وجودهم من هذه المنطقة حينما أخرجت ١٧ ألف مستشار روسى
من هذه الدولة فى أسبوع ، ورغم حقيقة التواجد السوفيتى فى سوريا والعراق ، إلا أنهم
اجتثت جذورهم من هذه المنطقة . . وهم يخططون ضد ثلاث دول : مصر والسودان
والمملكة العربية السعودية ، ولاسيما مصر ، فهم يريدون التخلص منى بوصفى الذى
بدأت كل ذلك وأخرجتهم من المنطقة .

س: متى ستحين اللحظة التي ستقرر فيها فعليا الذهاب إلى القدس ؟

ج : لن تصدقنى .. لم أقل ذلك لأى شخص .. كنت فى طريقى من رومانيا إلى إيران بعد أن لقيت صديقى شاوشيسكو ، وهو صديقى لكلينا -أنا وبيجين- وسألته سؤالين عن بيجن : أولهما : هل الرجل قوى بما فيه الكفاية ؟ وثانيهما : هل الرجل مخلص للسلام ؟

فأكد شاوشيسكو أن الرجل مخلص ، وأنه قوى بما فيه الكفاية ، ومنذ هذه اللحظة وأنا أفكر ، وحينما كنت طائرا إلى تركيا جاءت إلى الفكرة الأولى ..

س: على افتراض أن إسحاق رابين هو رئيس الوزراء وليس متاحم بيجن ، هل كنت ؟ ستظل راغبا فى السفر إلى القدس ؟

ج: كنت سأتردد ، لأننى عرفت رابين من خلال تعاملى معه فى اتفاقية فصل القوات الثانية ، ولهذا السبب سألت شاوشيسكو هل بيجن رجل قوى بما فيه الكفاية ؟ .
أما رابين فلم يكن قويا ، وكان هذا هو السبب الذى يدفعنى إلى التردد ، أما الأمر جد مختلف فى ظل وجود بيجن فلن أتردد على الإطلاق .

س: لو أن جولدا مائير هى رئيسة الوزراء ، هل كنت ستذهب ؟ ..

ج: نعم كنت سأذهب ، إثنان من إسرائيل بإمكانهما فعلها : بيجن والسيدة العجوز .

هذه الإجابات نشرت بحذافيرها مستهلة بإعطاء فكرة عن طريقة تحدث الرئيس بالإنجليزية وفرط مشاعره وإفشائه سر منح اللجوء السياسى لشاه إيران المخلوع ، وهو الخبر الذى أذهل الغرب والعالم العربى على حد سواء .. وكان من الطبيعى أيضا أن تحتد أصوات وزرائه على هذا التصرف ، المستهجن حتى قبل أن يقول لهم أو للبرلمان .

غير أن الرئيس السادات كان من ذلك النوع من الرجال الذين يستثارون ويسخطون بسهولة ، وهو ما حدث بالتأكيد حينما طرح موضوع الشاه خلال المقابلة .

ولقد كان السادات حذرا من أن يضايق الإسرائيليين خلال تلك الفترة ، فعندما سألته عما إذا توقف ببجن عن الاسحاب المبكر من الأراضي المصرية ؟ ضحك بصوت عال وقال مازحا : أرجوك لا تسألنى هذا السؤال .. وكذلك فعندما سألته عن أن العلاقات العربية اليهودية تختلف عن العلاقات المصرية - الاسرائيلية وحدثته عن العصر الذهبي لليهود تحت الحكم الاسلامى .. كان رده حارا .. إذ أجاب بنعم ، وكان منهم الأطباء والفلاسفة والكتاب وغيرهم ، فعلاقة اليهود بالمسلمين كانت كذلك دائما ، ونتمنى أن يشهد المستقبل هذه العودة ، ولكن ذلك سوف يتوقف بالدرجة الأولى على المناخ الذى تخلقه إسرائيل والشعب اليهودى .. إننا عشنا سويا على مدار التاريخ ، ودعنى أقولها لك : فى هذا الجزء من العالم لا توجد تفرقة عنصرية .. فى عائلتى مثلا بإمكانك أن ترى الأشقر والأسمر ، ونحن لدينا مجتمع يهودى صغير جدا هنا .. وفى الصيف الماضى أمرت المسئولين بالتأكد على أن من يريد العودة إلى مصر من اليهود المصريين ، فسوف يتم الترحيب به ..

ومما يذكر من الناحية التاريخية ، أن اليهود كانوا قد استقروا بمصر منذ فترة زمنية ، وخاصة بالقاهرة والإسكندرية ، وأقاموا مشروعات ناجحة ولعبوا دورا بارزا فى الحياة الاقتصادية والثقافية ، حتى لقد بلغ عددهم سنة ١٩٤٧ حوالى ٩ آلاف نسمة .

وقد خلقت إقامة دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ توترات حادة بين اليهود والمصريين الذين هاجوا حينما أهبى الجيش المصرى فقير التسليح والقيادة بواسطة القوات الإسرائيلية ، حينما التحق بالقوات العربية لتدمير الدولة اليهودية الجديدة .

وخلال حكم عبد الناصر دمر المجتمع اليهودى بجهله من المحال على كل أجنبى المولد أو يهودى الإبقاء على أعماله ، وحينذاك أصبح اليهود عرضة للسجن والتفرقة العنصرية ، خاصة بعد ذل حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، حينما دمرت إسرائيل الجيش المصرى وقواته الجوية .

وحيثما تقررت عودة ناصر بعد مظاهرة شعبية تنادى ببقائه ، غادر اليهود مصر بأعداد هائلة .

وفي غضون زيارة السادات التاريخية للقدس في سنة ١٩٧٧ كان يوجد بمصر حوالي مائة يهودي فقط ، معظمهم من العواجز الذين كانوا يعيشون بالقاهرة ، لذلك فإن الإقصاء قد جعل المجتمع اليهودي بالقاهرة كأن لم يكن .

وفي المناسبات الدينية يتم بالكاد توفير عدد كاف من الذكور لإقامة الصلوات بالمعبد الكبير بشارع عدلى بالقاهرة ، وإذا لم يكتمل العدد يتم الاستعانة بأفراد من السفارة الإسرائيلية لإقامة هذه الصلوات .

الفصل الأول القروى

ظل السادات طوال حياته يشير بصورة متكررة إلى أحواله كصبي قروى ، كرجل لصيق بالأرض ، كرجل أسير حبه لمسقط رأسه ، قرية ميت أبو الكوم التى تقع بدلتا النيل الخصيب .. غير أن خصومه ومنتقديه كانوا يهزأون بدعواه ، ويشيرون بسخرية إلى أزيائه الفاخرة ، ورابطات عنقه وقمصانه الغالية ، وكذلك الفساتين والمجوهرات الثمينة التى كانت تفتتها زوجها الجميلة جيهان ... وغير ذلك من الأشياء الأخرى العديدة .

إنهم لم يفهموا على الإطلاق شخصيته أو القيم التى يعزها ، وعلى المرء فقط أن يقرأ السيرة الذاتية لحياته كما سردها هو بنفسه فى " البحث عن الذات " ليصبح على قناعة بأن فخره بكونه رجل الأرض ، المتشبع بمعتقدات وأفكار القرية ، تمثل مكونا أساسيا من مكونات شخصيته ... إنه ينتمى إلى تلك الفئة من القرويين التى تتسم بالمتانة والأمانة والإحساس المرفق بالمبالغ فيه .

بالإضافة إلى ذلك فقد تشرب بعقيدة أن القروى يمتلك قيما تغيب عن قاطنى المدن ، إذ فى تقديره تمثل المهارات الهائلة -كالدهاء- التى يمتلكها القروى وهى عوامل رئيسية للتغلب على أعدائه ، سواء داخل وطنه أو خارجه .

ويمكن القول ، إن السادات استخدم الخدع التى تعلمها فى القرية عن عمد للعب على خصومه وأصدقائه معا ، موحيا إليهم بأنه ليس منافسا خطيرا ، حتى أن إمكانية اختياره من قبل سلفه عبد الناصر كنائب له لم تكن شيئا ذى أهمية .

من ناحية اعتقاد عبد الناصر أن السادات لن يكون مصدر تهديد له ، ومن ناحية أخرى لاقتناع المسؤولين الحكوميين فى مصر بهذا الاختيار بهدوء ، لأنهم اعتقدوا أن السادات ما هو إلا رجل ضعيف ومتردد .. أو بالأحرى يمثل دمية ، كما أنه غير ذكى ، لدرجة أنه لن يكون منافسا يعتد به فى أى نزاع محتمل على الرئاسة . وعلى هذا الأساس أراد السادات أن يبرهن على خطأهم فى التقليل من شأنه .

وفى أحاديث عن حياته أشار السادات إلى أن ذكريات القرية لم تضع غشاوة على عقله ، فقط كانت جدته -والى حد ما والدته ، واللذان فتنتاه وسيطرتا عليه- هما السبب الرئيسى فى تكوين شخصيته .

إن السادات كان يفخر بأن يكون بصحبة جدته الموقرة ، تلك الجدة التى كان الرجال يقفون لتحيتها حينما تكون مارة ، والتى رغم أميتها ، إلا إنها كانت تملك حكمة غير عادية .. حتى أن الأسر التى كانت لديها مشاكل كانت تذهب إليها لتأخذ بنصيحتها ... وفوق ذلك كانت مقبولة كماتحة للشفاء ، وكانت وصفاتها الدوائية يعتد بها كخصوصيات سحرية .

وحينما كان العسل الأسود يصل إلى القرية كان ينادى عليه بواسطة منادى القرية ، فتندفع الجدة إلى الخارج ساحبة السادات إلى حيث ترسو سفينة العسل بالقرب من كفر الزرقان ..

لقد كان السادات يبدو مسرورا حينما يصف كيف كان صبيا صغيرا أسود ، عارى القدمين ، يرتدى جلبابا عربيا طويلا على قميص "بغثة" ، وكيف اعتاد أن يركض طويلا مع جدته .

إن عينيه لم يرغب عنها إثناء العسل ، ذلك العسل الممتزج باللبن الرائب لذيذ المذاق ، كما أن السنوات التى قضاها بالقرية -والتي كان يبتسم كلما تحدث عنها- اتسمت بالقناعة والسعادة ، وهى سنوات اختلفت بشدة عن سنواته الأخيرة ، التى منى فيها بالمرارة وخيبة الأمل .. فقد بدت هذه السنوات بالنسبة له كمسكن مفقود ، به كل شئ جميل وقام .. قضى فيه أروع سنوات عمره مع جدته الحبيبة والبطلة الموقرة ، إنه لم ينس أبدا كلماتها إليه بأنه لا شئ أكثر دلالة من كونه ابن هذه الأرض ، مثل هذه الكلمات من قبل هذه الجدة البارزة مقتعة إلى حد كبير ، لكن هل الأرض هنا تعنى الخلود ، وهل على متنها تظهر أساطير الخلق ؟ ..

اعتقد السادات ذلك بالتأكيد .. حيث لبسها كغطاء للحكمة والتخيل ، إنها كانت كل شيء مبدع فى مخيلته ، كما كانت كذلك المكان الذى تقطنه الصلبة الصغيرة العظيمة وروح جدته الفاضلة .

أما والده فقد لعب دورا أقل .. إذ أن جد أنور الذى حاز تميزا قليلا كأديب فى القرية ، وقرأ الكتب الدنيوية والدينية معا قد اتخذ قرارا مصيريا بالألا يلتحق ابنه بجامعة الأزهر ، ويصبح شيخا فى المسجد ، بل عليه أن يتلقى التعليم الدنيوى ، وساعده فى الحصول على شهادة الابتدائية العامة ، ولأن كل مواد هذه الشهادة كانت تدرس بالإنجليزية فقد مكنته من الحصول على وظيفة بجيش الاحتلال البريطانى والخدمة فى السودان ، مما أبعد الأب فترات طويلة عن القرية ، وترتب على ذلك أن أصبح أنور الصغير أسير حبال جدته ، التى رأت أنه يجب أن يسلك تدريجيا نفس خطوات والده ، فأرسلته إلى كتاب القرية لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن عن ظهر قلب (بنفس النغمة من المبالغة كان يقول إنه حفظ كل القرآن عن ظهر قلب) .

ثم ذهب بعد ذلك إلى مدرسة مسيحية قبطية بالقرب من طوخ ، لكن يبدو أن المدرسة القرآنية كان لها التأثير الأعظم .. ويذكر السادات - على وجه الخصوص - الشيخ عبد الحميد الذى حُبب إليه التعليم وغرس فيه روح الثقة الحقيقية .. ويتذكر جلوسه بين الأطفال الآخرين ماسكا اللوح وغابة الكتابة ، وكذلك جلبابه العربى ذا الجيب العميق الذى كان يملأه فى الصباح بالخبز الجاف والجبن ، الذى كان يخطفه فى فمه أثناء الدروس أو أثناء فترات الراحة ..

إن السادات أحب أن يؤكد على أنه كان صبيا حقيقيا فى القرية ، يعتبر العمل جزءا من متعته ، شأنه شأن حفلات الزفاف الزاهية والطعام حلو المذاق .. فقد شارك فى جنى القطن ، حيث يملأ حجره قطنا ثم يعرج إلى بائعة البلح ليقايسها قطنا ببلح .. وكان يهتز حينما يأخذ الماشية لتشرب من القناة أو يسوق الثور أثناء درس الحنطة أو يلتحق بالصبية الآخرين فى جنى القطن .

ويذكر السادات أن جدته ووالدته كانتا تحكيان ، له قصصا غير عادية قبل النوم ، إذ إنها لم تكن قصصا تقليدية عن مآثر الحروب القديمة والمغامرات ، بل كانت عن الأبطال المعاصرين ونضالهم من أجل الاستقلال الوطنى ، حتى لقد كانت هناك قصة غير مألوفة عن دس السم لمصطفى كامل بواسطة البريطانيين الذين أرادوا وضع نهاية للصراع ضد احتلالهم لمصر ، أنور الصغير لم يكن يعرف من هو مصطفى كامل ، لكنه تعلم من خلال التكرار أن البريطانيين أشرار ويسمون الناس .

كذلك يذكر السادات قصة أقل غرابة ، إنها القصة الشعبية لأدهم الشرقاوى ، وهى تتحدث عن بطولاته وقدراته فى محاربة البريطانيين والمتسلطين الطفغة من المصريين فى ذلك الحين .

لكن القصة الشعبية التى أثرت فيه بعمق كانت قصة (زهران) الذى لقب ببطل دنشواى (قرية على بعد ٣ أميال من ميت أبو الكوم) .. وتتمثل أحداثها - التى يرى السادات أنها تمثل جزءا من الحقيقة - فى أن الجنود البريطانيين كانوا يصطادون الحمام فى دنشواى ، وأشعلت رصاصة طائشة الحريق فى أحد أجران القمح ، فاجتمع الفلاحون ليطفئوا الحريق ، لكن أحد الجنود البريطانيين أطلق عليهم النار وهرب ، وفى معركة تالية قتل الجندى ، وحينئذ تم القبض على العديد من الناس وشكل مجلس عسكري بالساحة ، وعلى وجه السرعة نصبت المشانق ، بعض الفلاحين جلد ، وبعضهم شنق ، وكان زهران هو بطل المعركة ضد البريطانيين ، كما كان أول من شنق ، وتذهب القصة الشعبية إلى أن زهران من فرط شجاعته مشى إلى المشنقة برأس مرفوعة بعد أن قرر قتل أحد المعتدين فى طريقه ..

وهكذا اعتاد السادات أن يستمع إلى هذه الملحمة ليلة بعد ليلة ، وهو نصف مستيقظ ونصف نائم ، إنه عاش بطولته فى أحلام المنام وأحلام اليقظة ، وتمنى لو كان زهران .

وهكذا نلاحظ رغبة السادات فى أن يصبغ طفولته بالصبغة الدراماتيكية .

بالإضافة إلى ما سبق ، فقد أعطته القرية احتراماً غير عادى لاكتشافه للمهتما غاندى ، إذ طبقا لما جاء بالتليويورك تايمز فى ١٨ من يناير سنة ١٩٧١ ، روت أخته شلبية " أنه اكتشف أعمال المهتما غاندى حينما كان صبيا يبلغ من العمر عشر سنوات ويقع فى قرية ميت أبو الكوم بدلنا النيل ، إذ استطاع أن يكتب الشعر ويتلو الخطب عن الاستبداد البريطانى الذى استشرى فى أماكن عدة ، وحينما كان فى المرحلة الابتدائية بدأ أنور يرتدى ملاء بيضاء مثل ملاء غاندى ، ويمشى فى القرية ساحبا ماعزا مربوطا بالدوبارة ، ثم يمضى ويجلس تحت شجرة متظاهرا بعدم رغبته فى الأكل "

وفى تعليقنا على ذلك فإنه رغم ما بالقصة من مبالغة وخلل ، فإن أنور السادات كان حقا طفلا غير عادى بتخيله البعد الذى ميزه عن أصدقائه ، سواء كانوا من داخل القرية ذاتها أو من خارجها ..

ويزعم السادات أنه فى الوقت الذى ترك فيه المدرسة كانت تحتكم لديه كراهية عميقة تجاه كل الأعداء وإعجاب بكل المناضلين من أجل تحرير أراضيهم .. وأنه تأثر بشدة بالقائد الكاريزمى الهندى .. ويضيف أنه على إثر مرور غاندى بمصر سنة ١٩٣٢ فى طريقه لبريطانيا وملء الصحف المصرية بأوصاف شخصيته وقع فى حب صورته القومية ، وبدأ يقتله خالعا ثيابه ومغطيا نفسه بإزار ، وأنه نسج لنفسه مغزلا واتسحب منعزلا على سطح المنزل ، ومكث كذلك عدة أيام حتى ألقعه والده بالنزول بعد أن قال له إن عمله هذا لن يساعد مصر ، بل إنه بالتأكد سوف يعرضه للإصابة بالالتهاب الرئوى ، حيث كان يرد الشتاء قارسا .

ومن الواضح أن أنور السادات لا يذكر ملامح فى حياته المبكرة لم تؤثر فيه بصورة بارزة .. إن حياته هذه كانت فى ميت أبو الكوم ، وهو نفس المكان الذى ولدت به إقبال عفيفى ، والتى تزوجها لمدة عشر سنوات ثم تركها .

وفى الواقع ، فإن المستوى الاجتماعى لأسرة إقبال كان أعلى بكثير من المستوى الاجتماعى لأسرة أنور ، فهى تنتمى إلى أصول تركية ، فضلا عن صلة القرابة التى كانت بينها وبين الخديوى عباس ، وكانت أسرتها تمتلك بعض الأراضى بالقرية والتى من خلالها أصبح والدها رقم واحد هناك ، وقد ذكرت إقبال فيما بعد أنها وأنور حينما كانا طفلين كانا يلعبان معا فى مربع القرية ، وأن والديها احتاطا لذلك الاختلاط بينها وبين هذا الأسود ، ليس لأن أنور كان ينتمى للفقراء ، ولا أرض لأسرته فحسب ، وإنما أيضا لأن أمه سودانية سوداء .

وحينما طلب أنور من إقبال الزواج عارضت أسرتها ذلك بسبب الفجوة الاجتماعية الكبيرة بينهما ، ولكونها كانت فتاة تعرف الواجب فقد أجلت ذلك إلى أن يتم دراسته بالأكاديمية العسكرية .. وهكذا لم توافق أسرة إقبال عليه كزوج لابنتهم سوى عام ١٩٣٨ .

واقترن ذبوع صيت أنور فى القرية بشجاعته البادية التى ميزته كثيرا عن أقرانه ، سواء كان متآمرا أو قائدا .. فذات مرة كان على أنور أن يجتاز اختبار سباحة ، ولأنه كان متهورا فقد وافق على عرض اثنين من أصدقائه بأن يعلماه ، وفى غمرة من حماسه قفز فى الماء فى رافد النيل ، وكاد أن يغرق لولا إسراع أحد أصدقائه بإنقاذه .. وقد ترك هذا الحادث تأثيرا عميقا لدى السادات ، وطبقا لرواية أخته راوية كان السادات يجلس كثيرا ويفكر بإمعان فى هذا الحادث .

على أية حال ، فإن تأثير القرية كان شديدا عليه طيلة حياته ، وهو الأمر الذى جعل منتقديه يهزأون من ارتباطه العاطفى بها ويضحكون على ما كان يردده من أنه ابن الأرض القروى والفلاح .

صحيح أن السادات كان مخطئا ومبالغا فى الكثير مما ذكره عن حياته - خاصة خلال فترة رئاسته - لكن ميله للقرية وقيمها كان شديدا وخالصا ، لدرجة أنه بدأ يبنى

منزلا بميت أبو الكوم ، آملا أن يعيش هناك بعد التقاعد من منصب الرئاسة ، لكن اغتياله حال دون إتمام بناء هذا المنزل ، وكذلك قدم امتيازات سيرته الذاتية - التي سردها بنفسه - وحصوله على جائزة نوبل للسلام لقريته .

لقد أراد لقريته أن تزدهر وتتميز ، وبجزيل من الاحترام استطاع تحقيق هدفه ، حيث بدت ميت أبو الكوم مختلفة ، وحل محل البيوت البنية - الرمادية المبنية من الطوب اللبن ، حلت محلها الأضواء الزاهية للقرية الجديدة ، فقد أراد أن يرى كل القرية مجددة ، رغم بقاء بعض البيوت التقليدية للفلاحين .

ولكونه كان فخورا جدا بقريته ، وينتمى لأناس بسطاء ، فقد كان متوقعا منه أن يشير إلى عطف وحنان والدته " ست البرين " ، ولكن ولكي يبدو واضحا أنه استبعد بخل ذكرها في سيرته الذاتية .

وكانت والدته قد عاشت مع والده محمد الساداتى (حذفت الياء فيما بعد من الاسم) بالسودان حينما حصل على وظيفة هناك مع الفريق الطبى البريطانى ، لكن أطفالها الأربعة لم يولدوا بالسودان ، إذ كان زوجها يرسلها إلى ميت أبو الكوم حينما يتقدم بها الحمل ، وتقوم الجدة بالعناية بها ، وحينما يتم فطام أطفالها تعود إلى السودان تاركة إياهم فى رعاية الجدة .

ويذكر أن "ست البرين" كانت امرأة ذات بشرة سوداء ورثها عنها السادات .. ولعل إجماع السادات عن ذكر والدته قد نبع من الطريقة التى كان والده يعاملها بها ، والذى تزوج عليها من أخريات ، ومن ثم بدت كما لو كانت قد فقدت أسبقيتها بين بقية الزوجات ، مما مثل جرحا غالرا لدى السادات .

وانتهت جنة القرية بالنسبة للسادات مع رجوع والده من السودان ، حيث فقد وظيفته هناك على إثر اغتيال سير لى ستاك ، وما ترتب على ذلك من سحب القوات المصرية من المنطقة .

بعد ذلك انتقلت الأسرة إلى منزل صغير بكوبرى القبة بالقاهرة ، وكان عمره حينذاك يبلغ حوالى ستة أعوام ، وهو يذكر فقدانه لمتع القرية واستهزاء بعض الناس بلهجته القروية ، ويؤكد أن الحياة فى منزل مزدحم مع والده وزوجاته الثلاث وأطفالهن وجدته لم تكن مريحة ، خاصة وأن دخل الأب كان صغيرا للغاية (ستة عشر جنيها شهريا) .

هذا ما يؤكد السادات بالقول بأنه عاش تحت خط الفقر .

ليس مفاجأة إذن أن السادات حينما أرسل إلى المدرسة فشل فى البداية فى الحصول على شهادة التعليم العامة وأن صدمة الفشل كان لها أثر عميق عليه حتى لقد شعر " إن ربنا غير راضى عنه " .. وإنه أصبح مهملا ، ولكنه بنوع من التصميم حاول أن يطوى هذه الصفحة من حياته ، مستقلا قطار التعليم ثانية ، ونجح .

وبإحساسه الشديد بالعدالة والعدل لاحظ أنور السادات المزايا التى ينعم بها أبناء الموظفين الكبار المدللين ، مثل ابن وزير الحربية وابن سكرتير وزير التعليم والذين كانوا يصلون إلى المدرسة بالسيارات ، بينما كان طلبة آخرون يرتدون ملابس فائقة الجودة .

ويجزم السادات بأنه لم يكن مستاء من هذه الفوارق ، ولكن الحقيقة هى أن هذه الفوارق أثرت على تشكيل رؤيته للعدالة الاجتماعية .

لقد كان من قبيل المصادفة المحضة ألا يغرقه فقره فى مستنقع الأمية كما حدث للكثير من الأطفال المصريين الأبرياء .. فوالده لم يكن ليقدر على أن يدفع مصروفات المدرسه له ولأخيه الأكبر طلعت ، التى كانت ٣٢ جنيها (أى ضعف راتب إلباب الشهرى) ، لكن طلعت جرى بالنقود قاصدا المدرسة ، وحينما عاد أعلن أنه ليس مهتما بأكثر من التعليم .. وكان على الأب أن يختار تعليم أحد ولديه ، وكان لابد أن يقع الاختيار على الابن الأكبر .

وكشّاب مراهق أعلن السادات حبه للمسرح ، وجرى وراء إعلان فى الجرائد عن دور مسرحى ، لكن دون نجاح ، ولرغبته الجامحة ورغم فقره أخذ دروسا فى التمثيل (أحد مدرسيه كان سيدة يهودية بالقاهرة) ، ولكن مسرح القاهرة لم يرحب به ويقال إن بشرته السوداء لم تعينه على تحقيق رغبته ، لكن إيماءاته المسرحية والدراماتيكية أصبحت جزءا من حياته .. فقد أحب أن يصدى ويغاجىء خصومه ويجذب انتباه جمهور العالم ، وإذا كان التمثيل جزءا من الخداع والزيف ، فإن أنور السادات لم يكن ممثلا ، بل كان دراميا مميّزا .

وبفشله فى أن يصبح موظفا متمرسا فقد فكر أن يلتحق بالجيش ، وبصعوبة بالغة استطاع الحصول على مكان بالأكاديمية العسكرية فى سنة ١٩٣٧ ، وتدرج كملزم أول ، وكان يتباهى بزي الضابط الجسور ويلوح به بافتخار ، وحينذاك فقط شعر أن مكانته متميزة وأنه لا يوجد أى مانع للحيلولة دون زواجه من إقبال عفيفى ، وتدرجيا تولى قائد وحدة فى ضاحية راقية بالقاهرة ، هى ضاحية المعادى ، وكانت متعة أكثر مما حلم به وتخيّل .

لقد كان السادات شابا جادا يملكه الإحساس بمكانة مصر الهزيلة بوصفها إقطاعية لبريطانيا ، وظهر هذا ماثلا بوضوح فى اتصالاته بشباب آخرين كانوا شغوفين بالتصدي للاحتلال البريطانى .

هذه هى الأحداث التى دفعته إلى السياسة ، والمكيدة ، والسلطة ، والشهرة ، والموت .

الفصل الثانى البحث عن الذات

لقد كان من الأشياء ذات الدلالة أن يسمى السادات منكراته " البحث عن الذات " .. كما أنه كان دائما -حتى آخر يوم في عمره- يحاول أن يفهم ما هو بالضبط دوره في إحداث التغييرات اللازمة بمصر ، ولماذا ابتعدت الدولة كثيرا عن مثالياته ، وعن قيم العدالة والعدل ، تلك القيم التي تعلمها من جديه ..

لقد كان قبل التحاقه بالجيش يشعر بالنفور والاشمئزاز من حالة الدولة ، وكان يدرك انتشار الفساد وما تتسم به الإدارة من سوء ، إذ طالت المحسوبية كل شيء ، حتى أصبح دخول الجيش يمثل صراعا بين المحرومين من المزايا مثله ، بينما لم يكن يسمح بالالتحاق بالأكاديمية الحربية سوى أبناء الطبقات العليا والوسطى ، لأن استمارة الالتحاق كانت تتطلب تفاصيل عما يمتلكه الأب والمناصب العليا التي يشغلها الأقارب .

ولقد كان أبوه الموظف بالجيش أفقر في المال من المكانة ومن خلال اتصالاته داخل الجيش (بإبراهيم خيرى باشا) حصل لابنه على مكان في تلك الدفعة الأولى من غير الأرسنقراطيين التي التحقت بالكلية الحربية عام ١٩٣٧ .

ورغم إعجاب السادات بفاندى ، فإن الأخير لم يكن مثله الأعلى ، بل كان مثله الأعلى هو المحارب السياسى التركى مصطفى كمال أتاتورك ، حيث شعر السادات بأن القوة وحدها هى التى يمكن من خلالها إخراج البريطانيين من مصر وتغيير النظام الفاسد والتعامل مع الساسة الفسدة القهرة عديمى الإحساس ، أسوة بما فعله أتاتورك قائد الدولة التركية الجديدة الذى استطاع اقتلاع الحكام الجبناء السابقين .

إن السادات شغل باله بالاحتلال البريطانى لمصر ، والذى اعتقد أنه تم غدرا سنة ١٨٨٢ ، كما شعر بالنفور من أن مصر محكومة بواسطة عائلة ملكية ليست مصرية ، كذلك كان يشعر بالخزى وانتهاك الحرمة من أن الساسة المصريين يساعدون فى ترسيخ شرعية الاحتلال البريطانى ..

أيضا كان أنور السادات مشغولا بالسؤال الذي راود الكثيرين من المصريين الوطنيين .. وهو أن شعب مصر ذو تاريخ فريد ، وميراث عظيم مستمد من الحضارة الفرعونية القديمة ، وليست العربية أو الإسلامية ، وأن هذه الإنجازات القديمة والحديثة قد امتزجت معا ، وهو ثراء تاريخي أعطى المصريين ميزة عن العرب البدويين في الصحراء .. فهل من الممكن أن تضارع الثروة التي تحققت لهؤلاء العرب مصادفة من جراء البترول الميراث المصري القديم من حيث الأهمية ؟ هذا السؤال وغيره من الأسئلة التي لم يتم الرد عليها بصورة مطلقة كان ضروريا أن يصبح في المقدمة حينما وضع أنور السادات في اعتباره كسر حلبة الكراهية حول إسرائيل ، ولكنه واجه صراخا من قبل القادة العرب ، والذين كان يتجاهلهم .

ولشعوره بنفاذ الصبر - الذي كان يميز كل حياته - تمنى أنور السادات أن يبنى تنظيمات ثورية بالجيش تقوم بطرد الاحتلال البريطاني من مصر ، وتبدأ الثورة الداخلية .. فقام بعقد الاجتماعات مع أتباعه من الضباط في الحجرة الخاصة به في وحدته الكائنة بمنقباد (بلدة صغيرة بصعيد مصر) .. شربوا الشاي وتجاوزوا كثيرا .. حتى أنه ادعى أنه حفظ الضباط - الذين لم يكن لديهم نقص في التعليم السياسي - ولقتهم أن ثمة شيء خطأ في مصر .

وليس مستغربا أن تتطرق هذه المحاورات الطويلة للمزاح والقصص لدرجة أنها مهدت للبرلمان الوطني .. ورغم أنه كان مفعما بالآمال إلا أنه كان ينصح رفاقه باتخاذ جانبها أخف حدة في محاوراتهم ومناقشاتهم ، من خلال أسلوبه الضاحك الوديع ، الذي لارمه طيلة حياته .

وحينما كان السادات " ملازم ثان " أظهر من الخصائص ما يميزه عن أصدقائه ورفاقه ، حيث شعر بالجوع للمعرفة والثقافة ، فحاول أن يلتحق بالمؤسسة البريطانية ويحصل على درجة BA من جامعة لندن ، ولكنه فشل ، على أساس أنها كانت محاولة مستحيلة .

واكتشف فى نفسه الحاجة لقراءة الكتب ، وكتب للناسيرين وموزعى الكتب عن الكتب التى يرغب فى قراءتها .. واشترى كتباً كثيرة مستعملة .. وعندما كان يخرج وأتباعه فى رحلة كانت تغمره السعادة ، وكان يجلس فى مقهى ويزداد قراءة فى الوقت الذى كانوا يذهبون فيه لرؤية الأفلام والبحث عن وسائل ترفيهية أخرى .

ومن الأمور ذات المغزى فى حياته أنه رأى تهكم الثرى الذى مكنه من دخول الجيش - إبراهيم خيرى باشا - والذى كان يمثل الطبقة المميزة .. إذ حينما حاول السادات إظهار الامتتان لخيرى على ما أسداه إليه من جميل ، ضحك خيرى والاستهزاء فى عينيه مقررًا أن قرار إلحاق السادات بالجيش كان قرارا بريطانيا بالأساس ، حيث إن بريطانيا هى التى قررت زيادة حجم الجيش المصرى وزيادة عدد ضباطه مع شمولهم البعض من أبناء الطبقة الدنيا .

وقد علق السادات على ذلك قائلا بأن " البريطانيين هم الذين ساعدونى على الالتحاق بالأكاديمية الحربية رغم أن السبب الذى أردت من أجله الالتحاق بالمكان هو طردهم خارج مصر " .

وتعتبر "منقباد" هى المكان الأول الذى التقى فيه السادات بخالد محبى الدين ، الذى اقترن به بصداقة دائمة ، ورغم أن خالد قد شكل الجناح اليسارى ، وكان دائما فى صدام مع السادات ، إلا أن صداقتهما لم تنته بالمرّة .. وطوال فترة رئاسة السادات قاد خالد الجناح اليسارى المعارض ووصل الأمر إلى أن يطرد حزبه من المشاركة السياسية .

كذلك كانت حجرة التّحاور والمناقشة بمنقباد هى المكان الذى شهد رؤية السادات لعبد الناصر لأول مرة ، والذى لم يؤثر بشدة على حياته فحسب ، وإلّا أيضا على تاريخ مصر كله .. وفى شأن عبد الناصر يقول السادات .. " كان انطباعى عنه أنه شاب ذو عقل خطير ، لم تدخل اهتمامات أتباعه فى الهزل ، ولم

يكن يسمح لأى منهم بأن يمزح معه ، إنه كان يشعر أن الكرامة فى المقام الأول ، لذلك كان معظم رفاقى يحتفظون بمسافة من البعد عنه ، ويتجنبون التحدث معه مخافة أن يسئ فهمهم .. " .

هذه هى ملامح عبد الناصر المروعة ، والتي قادت إلى إخلاص السادات ، والذي يبدو بوضوح أنه حاول التعرف على ناصر والتقرب منه ، لكنه منى بالفشل ، حيث أقام ناصر حاجزا لمنع أى صداقة مع السادات فى هذه الفترة ، ورغم وجود احترام متبادل إلا أن السادات وجد أن أفضل وصف لعلاقتهما المبكرة فى تلك الفترة هو الشك المتبادل .

ورغم أن ناصر قد اعتبر بمثابة حجر الزاوية فى تشكيل جماعة الضباط الأحرار ، والتي كان منوطا بها "خلق الملك فاروق الجبان والإعداد لثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، فإن السادات لم يقبل هذا التأويل للأحداث .

صحيح أن السادات لم ينكر قيادة ناصر للضباط الأحرار ، إلا أنه اعتبر أن الضباط الأحرار وحدهم هم الناجحون من ثوار الجيش وكذلك رغم إعجاب السادات الشديد بناصر بسبب قيادته الكارزمية وميله للتفرد حتى أصبح رمزا للوحدة العربية ، إلا أنه يزعم أن ناصر لم يكن ليقدر على أن يقود بنجاح مجموعة ثورية من الضباط الأحرار لو أنه -أى السادات- لم يعد الأرضية لذلك .

ومن المفارقة ، أن السادات كان يسمح لناصر بحيارة مجد الثورة حينما كان الأخير حيا ، ولكن بعد وفاة ناصر شعر السادات بحرية تحريك الأساطير ، هذه الأساطير لم تؤثر فقط على شخصية ناصر ، وإنما شوهدت أيضا قبوله الاجتماعى ، وإنجازاته الاقتصادية .. باختصار حاول السادات تعرية دولة ناصر عبر اصطياد الأمور التي فشل فيها الأخير .. باعتبار أن الذى أسس الضباط الصغار ليس أيديولوجية اجتماعية مألوفة ، ولكنه كان رغبة محموعة لطرد البريطانيين .

ففى تقدير أنور السادات -الذى كان دوما يبدى اعتزازه بالأمجاد القديمة للنظم الفرعونية- كان خضوع مصر المهين لقوة أوروبية متعجرفة وحالة النفور السائدة من الملك فاروق من الأمور التى لعبت دورا بارزا فى تشكيل فكر الضباط الأحرار ..

ولأن الملك كان قد فسد طبيعيا وماديا برضوخه لتوقيع البلاء عليه فى سنة ١٩٤٢ حينما حاصرت الدبابات البريطانية قصره مرغمة إياه على قبول الخيار البريطانى فيما يتعلق برئيس الوزراء ، كان على السادات أن يغير رؤاه وأن يحصى ستة مبادئ كان لها تأثيرها على صغار الضباط ، وهى :

- طرد الامبريالية .
- القضاء على الإقطاع .
- تحقيق العدالة الاجتماعية .
- تشكيل جيش مصرى قوى .
- خلق حياة ديمقراطية .
- تحرير الحكومة من سيطرة وسطوة الرأسماليين .

هذا الهجوم على الرأسماليين تم تشجيعه بواسطة عبد الناصر ، الذى كان عليه أن يؤسس صياغته الخاصة للاشتراكية .. والتى اشتملت على مصادرة الملكيات الأجنبية لا سيما اليهودية .

ويذكر السادات ساخرا أن المبادئ الستة أهديت للشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمون ، وهى جماعة تدافع عن وجهة نظر إسلامية للمجتمع ، والأمور السياسية تختلف مع وصفه بالحكم السياسى العثمانى ، كما تعارض بصورة مطلقة أهم النماذج الأوروبية ... وقرب نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح هؤلاء الإخوان أكثر تسلحا واستعدادا للاغتيال وتحقيق هدفهم (أحد أجنحتها المتطرفة هو الذى اغتال السادات سنة ١٩٨١م) .

وحيثما قابل السادات الشيخ حسن البنا واستمع إلى خطبه اعتقد أنه محتاط وحذر للغاية وأنه لصراحته وجسارته أعطى انطبعا لدى اتباعه الصغار بأنه وحش .. قال له : " اسمع يا شيخ حسن ، يبدو أنك قلق للغاية ، حذر للغاية ، وأقولها لك بجسارة وصراحة ، إننى فى سبيلى لتأسيس تنظيم عسكرى للقضاء على النظام القائم " .

وقد ظل الشيخ المندھش صامتا معتقدا أن السادات سوف يقدم خدمات جليلة وسوف يكون عضوا مثيرا مشاكسا .

وبعد العديد من الأسئلة التى اطمأن لها الشيخ قال له السادات : " إننى أريد أن أنجز ثورة مسلمة ، وإن عددا كبيرا من الضباط من مختلف الأسلحة يعملون معى بالفعل " .

وفى هذا السياق لم يكن ملاحظا أن السادات قد أصر على أنه بالفعل قائد للتنظيم وأن أعضاء يعملون تحت لوائه .

وعلى الشيخ - الذى ظل حذرا ورفض تنسيق أنشطتهم - " بأن التعاون سوف يكون مرضيا وكافيا " ، وكذلك نجح الشيخ فى تجنيد عبد الرؤوف التابع للسادات فى جماعة الضباط الأحرار لى يعمل لصالح الإخوان المسلمين .

وقد شجع نجاح ألمانيا النازية فى الحرب مع بريطانيا وفرنسا ، وبعد ذلك الاتحاد السوفيتى ، شجع هذا النجاح العديد من الشباب المصرى على الاعتقاد بأن لديهم الفرصة للتخلص من القوات البريطانية .

ولذا ناضل الساداتيون ، وجماعات ثورية أخرى من أجل إزاحة البريطانيين ، لكن دون جدوى ، وكان هؤلاء المناضلون مدعمين باللواء عزيز المصرى الذى عرف بكرهيته للبريطانيين ، لدرجة أن سير ملز لامبسون (السفير البريطانى حينذاك) قد طلب من رئيس الوزراء على ماهر أن ينحيه عن منصبه ، لكن رئيس الوزراء أحس أنه لن يستطيع ذلك ، وإن كان قد أعطاه وعدا بتجريدته من سلطته بإرساله إلى منطقة نائية .

ومن هنا قام السادات وعدد من أعضاء الجماعة بمقابلة عزيز المصري عارضين عليه مساندتهم وتأييدهم ، وقد نفر الرجل في البداية من صراحة السادات المعهودة ولكنه تأثر بوضوح بما ساقه إليه (السادات) ابن الثانية والعشرين عاما .. وخلال المقابلة أخبرهم المصري بأنه قابل مخادعين قادته تصريحاتهم الصاروخية إلى فقدان مركزه وخيئته ، بيد أنه أعلن استعداده لقبول عرض السادات وجماعته شريطة أن يكونوا جادين وعمليين .. ولا شك أن مقابلات السادات - التي توالى - مع المصري كان لها أثر عميق على حياته .

ولأن وضع البريطانيين في الحرب ضد ألمانيا النازية أصبح في خطر أكثر ، فقد أظهر المصريون معارضتهم للحرب بصراحة ، تلك الحرب التي سيقوا إليها ، وفي ذلك الحين أعد الشيخ المراعى شيخ الأكره خطبة جاء فيها .. " ليس لدينا شئ نفعله مع الحرب " .. كذلك قدم على ماهر رئيس الوزراء اقتراحا للبرلمان بهدف إنقاذ مصر من كارثة الحرب ، وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح بالإجماع ، وتبعاً لذلك انسحب المصريون من مرسى مطروح ، والتي كانت بمثابة منطقة حيوية مهمة للدفاع عن الدولة من هجوم ألماني محتمل ، مما أثار غضب السلطات البريطانية ، و التي طالبت بتسليم الجنود المصريين أنفسهم على الفور إلى جيوشهم .

ويزعم السادات أنه قاد معارضة هذا الهوان ، حتى سمح البريطانيون له ورفاقه بالانسحاب مع قواتهم .

وفي صيف ١٩٤١ قام أنور السادات بمحاولته الأولى للثورة في مصر ، وبدأت السذاجة المحضة لخطة الثورة المشار إليها في أنها كانت معلنة ، حيث كانت تقضى بأن كل القوات المنسحبة من مرسى مطروح سوف تتقابل بفندق مينا هاوس بالقرب من الأهرامات .. وبالفعل وصلت مجموعة السادات الخاصة إلى الفندق وانتظرت الآخرين للحاق بهم ، حيث كان مقرراً أن يمشى الجميع إلى القاهرة لإخراج البريطانيين ومسانديهم من المصريين ، إذ أن السادات اعتقد أن البريطانيين يعيشون

حالة من الضعف واهتزاز الروح المعنوية ، وهو مظهر بوضوح فى النجاح الألمانى الذى لم يبدوا تجاهه أدنى مقاومة .

ومما يثير الدهشة ، أن مجموعة السادات انتظرت دون جدوى ، إذ لم تلتحق بها أى من المجموعات الأخرى ، وحينذاك رأى السادات أن عملية التجميع فاشلة ، وحتى لو تمت المحاولة وفشلت فسوف تكون السلطات يقظة ، وسوف يقوم خصوم الجيش بمراقبته عن كسب .. وفيما بعد قرر - السادات أن ذلك لو حدث لما كان من الممكن حدوث ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

منى السادات بفشل آخر عندما عرض على عزيز المصرى عرضا يتلخص فى أن الضباط الأحرار سوف يساعدونه للفرار إلى العراق ، وكان الألمان قد قدموا عرضا مشابها للمصرى ، خاصة أنهم كانوا يقدمون المساعدات لرشيد على الكيلانى القائم بالثورة ضد قوات الاحتلال البريطانى هناك .

ورغم أن السادات تلقى تحذيرات بأن يكون بعيدا عن المصرى - المفصول من الجيش وذى الاتصالات التى كانت تعرفها السلطات البريطانية بالضباط الأحرار - رغم ذلك قرر السادات أن يساعده بصفة شخصية ، وعرض عليه نقله إلى بيروت - التى كانت خاضعة لحكم فيشى الفرنسى حينذاك - ومن هناك سوف يكون قادرا على تدبير طريقه لبغداد .

أما الألمان فقد قالوا للمصرى إنهم سوف يمدونه بطائرة ، بيد أن الطيارين اللذين كان مقررا لهما الطيران بالمصرى اضطرا إلى الاشتباك مع طائرة عسكرية ، ولكن بعد صعودهما اكتشفا أنهما ليس لديهما بنزين ، وبدلا من أن يشغلا مضخة البنزين أغلقاها ، ومن ثم أجبرا على الهبوط الاضطرارى ، وانتهى بهم الحال إلى الارتطام بقمة شجرة ، ومن المثير للسخرية والضحك أن المصرى وطياريه قد تم انقاذهم بمساعدة ضابط بوليس ودود ، وفروا هاربين إلى القاهرة .

وفى الحال عرف البوليس ووكالات المخابرات هوية المتآمرين ، ولأن اتصال السادات بالمصري تم اكتشافه فقد كان مرتابا وخائفا من أن يتورط فى المؤامرة ، وبالفعل تم القبض عليه واستجوابه ولكن لعدم وجود أى دليل ضده فقد أنكر أى معرفة له بخطة الهروب ، ولذلك تم إطلاق سراحه وسمح له بالرجوع إلى وحدته ، لكن مكانته ساءت ... وقد كان لذلك مردوداته فيما بعد .. إذ عندما أصبح السادات رئيسا لمصر بالفعل لم يدع سرا فى مساعدته لقوة الألمان تحت قيادة روميل لقهر البريطانيين فى الصحراء .. كما أيد السادات ثورة رشيد على الكيلانى بالعراق ، على أساس أن أى شئ يمكن أن يضعف مكانة .. بريطانيا فى الشرق الأوسط ، كان يعتبر من أولى مواضع اهتمامه .. لأن ذلك من شأنه خلق فرصة أفضل للضباط الأحرار فى ضرب العدو .

إن السادات لم يخف إعجابه بهتلر ، حيث ذكر أنه كان يزور قريته حينما كان يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، وسمع أن هتلر عبر المانش إلى برلين ليمحو آثار هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وأعاد بناء دولته ، فجمع أصدقاءه وقال لهم : " اتبعوا نموذج هتلر بالعبور من ميت أبو الكوم للقاهرة " فضحكوا وانصرفوا .

كذلك كان السادات مفتونا بروميل واستراتيجيته وبراعته فى معارك الصحراء ، ومن مظاهر إعجابه إنشاء قلعة (متحف) بالعلمين تشريفا للقائد الألمانى ، وهذا المتحف تمت توسعته ليصبح متحفا حربيا عاما .

وواقع الحال ، إن إعجاب السادات بهتلر يصعب فهمه ، ورغم أن السادات لم يعلن عنه سوى سنة ١٩٥٣ حينما قال " أعجبت بهتلر من أعماق قلبى " ، إلا أن الذى لا شك فيه أن توجه السادات نحو النازى الألمانى قد نبع من كراهيته للاحتلال البريطانى .. وهو ما يبدو جليا فى أنه بمجرد أن ترك البريطانيون مصر بدأ رأيه تجاه هتلر يتغير (وحينما حاز السلطة فى مصر سنة ١٩٧٠ تغيرت كل مرجعياته) ،

إذ قام بانتقاد هتلر وتحدث عن تفضيله لتشرشل ، حينما أدان إسرائيل من جراء احتلالها للأراضي العربية .

لقد تلاشى إعجابه بالنازي الألماني بعد أن قورنت إسرائيل بعدد سكانها الصغير للغاية بالقتل الجماهيرية الغفيرة في العالم العربي .. إذ طبقا لتقديره نجحت النوعيات الجرمانية في أن تصبح دولة قوية وعدوا شرسا .

وقد ارتبطت كراهية السادات لليهود بالإشارات القرآنية المهيئة لليهود ، كما تأثر اتجاهه بالمكائنة الضليلة التي يشكلها اليهود في النظرية السياسية الإسلامية ، ووصل الأمر إلى أنه حينما أصبح رئيسا استخدم تعبيرات - ضد اليهود - استخدمها الدعايون النازيون للاساميون ضدهم بصورة مألوفة من قبل ، حيث تحدث السادات عن أن اليهود قد اشتركوا في مؤامرة دولية سيطروا من خلالها على اقتصاديات العالم ، واتهم الصهيونية بالتنسيق مع الامبريالية العالمية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد اتهم بعض الرؤساء الأمريكيين - وخاصة جونسون - بالرضوخ للضغوط الصهيونية واليهودية ... ووصلت مشاعره المعادية لليهود ذروتها حينما هاجم التعويضات - غير العادلة - التي تلقاها اليهود الذين عانوا في ظل النازية .

إن الخيبة التي منى بها السادات في مطلع حياته كان منبعها أن الهجوم الألماني في مايو سنة ١٩٤٢ قد اقترن بشائعات مفادها أن روميل بعد أن يغزو مصر سوف يعطيها للإيطاليين ، مما أثار حفيظة صغار الضباط ، الذين أرادوا استمالة روميل إليهم ، وذلك بإرسال رسالة إليه مؤداها أنهم سوف يشكلون جيشا لمساعدته في حرب بريطانيا لو أنه أعطاها من الضمانات ما يفيد أنه سيتمنح مصر الاستقلال ، ولكن للأسف لم تصل الرسالة إلى روميل ، حيث كان حاملها يستقل طائرة بريطانية ، ورغم إعطائه الإشارة المتفق عليها فقد أطلق الألمان النار على الطائرة مما أسفر عن مقتله .

دراما أخرى فى حياة السادات انتهت بالفشل ، حيث يذكر أن اثنين من الضباط الألمان أرادا الاتصال به واستجاب هو لذلك بحماس ، وكان الاثنان من ذلك النوع من المندوبين غير المناسبين بالمرّة ، أحدهما كان لأم ألمانية وأب مصرى ، ويتحدث العربية بطلاقة ، أما الآخر فكان سيرىالى الحديث ، ولا يتحدث أى كلمة باللغة العربية ، وكان الاثنان يقضيان أمسياتهما فى نادى الكيت كات ، ينفقان مبالغ طائلة من الاسترليني ... وكان من الطبيعى أن يجذب ذلك الانتباه ، سواء انتباه الموظفين أو البوليس ، الذى بدأ يراقبهما ، وحينما تم القبض عليهما ذكرا اسم السادات وقررا أنه زارهما فى عوامتهما ، ووجد عندهما جهازى إرسال أحدهما به محول ، فأخذه معه إلى المنزل وحذرهما من القبض عليهما ، وعندما ذهب إلى المنزل قام بإخفاء هذا الجهاز ، وعندما جاء البوليس فتش عن الجهاز ولم يجده ، بينما استخدام هو -أى السادات- مهارته التى مكنته من الإفلات من السجن ، إذ رغم توافر القرينة وشهادات الاثنين الألمان التى أشارت إلى تورطه ، تمكن من خداع قضااته وتجنب السجن ورجع إلى رفاقه الضباط فى الجيش .

وكان أحد اللواعت المصريين قد قال لوالد السادات إنه سوف يعدم إذا لم يعترف ، لكن أنور أقتع والده بأنها خدعة .

وواقع الحال ، فإن أيام حرية السادات كانت معدودة ، إذ بعد الزيارة التى قام بها ونستون تشرشل وتعيين مونتجمرى قائدًا للجيش الإنجليزى ، ضيق الإنجليز قبضتهم على مصر وتم طرد السادات من الجيش واعتقاله وإيداعه سجن الأجانب .

الفصل الثالث

سنوات فى السجن

حاول أنور السادات أن يبحث عن معاني حياته بصورة أعمق في السنتين اللتين قضاها بمختلف السجون حتى هروبه من المستشفى العسكري في أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ففي هاتين السنتين اتجهت أفكاره نحو المستقبل وإلى نوع من الحياة سوف يتبناه حينما يسترد حريته .

ورغم أن سجنه لم يكن دائما انفراديا ، بل كان لا يخلو من صحبة ، فقد شعر السادات بالحنين والحنين تجاه قريته كي يواسي نفسه .. لقد رقد في زنزانه وسبح بخياله إلى قريته ميت أبو الكوم ، جنة الدنيا - كما كان يراها - والبقعة التي كانت تمثل القروي الذي يقبع بداخله ، والتي منحته القوة والصلابة لكي يعايش أنظمة السجن دون أن يتضرر جسديا أو معنويا .

تعلم السادات كيف يكون أكثر مكرًا وأكثر تحفظًا .. حاول أن يخدع حراس السجن ومأموريه وخاصة هؤلاء الآخرين ، الذين كانوا يعتقدون أنهم الأذكى ، والأكثر ثقافة والأفضل تعليما .. كان يبدو كما لو كان ممثلا يحصل على متعة من الخداع ويستطيع أن يلعب بسهولة دور الغباء ... وهكذا فإن سنتي السجن وهروبه والفقر المدقع الذي عاش فيه بعد الهروب والمشقة التي تكبدها ، كانت كلها أمور برهنت بصورة حيوية على أنه كان لزاما عليه أن يتعايش مع سجنه الكبير فيما بعد .

ورغم عزله عن رفاقه بالجيش كان يشعر بأنه جزء من جماعة .. وأنه جزء من الثورة القادمة في تاريخ مصر .. حتى لقد هاجت عواطفه حينما علم أن رفاقه قرروا منح عائلته عشرة جنيهات شهريا (وهو مبلغ معتبر في ذلك الوقت) .. إنهم رفاقه الذين كان عليهم أن يتذكروه وأن يبدلوا في سبيله تضحيات وهو على بعد مئات الأميال .

ولا شك أن هذه الأمور كانت ترفع روحه المعنوية .. فقد كان لديه إحساس عميق بإسداء المعروف والجميل ، في الوقت الذي كان يشعر فيه بالكراهية العميقة للأكاديمية المستفحلة .

إن خصوم أنور السادات الذين دفعوا ثمننا غالبا لفشلهم فى فهمه والوعى بمكره القروى وشكهم فى قدرته على التعايش ، كان عليهم أن يأخذوا العبرة من سلوكه فى سنوات سجنه واعتقاله .

ليس بمستغرب إذن أنه حتى فى أيام يأسه خلال هروبه كان مسرورا بإهانة السلطات بهروبه وإعلانه بصراحة عن هذا الهروب ، وأنه خطط لهروبه باصطناع الإضراب عن الطعام ، والذي قاده إلى المستشفى .

إلا أن حياته كهارب لمدة سنة سببت له العديد من المشاكل ، كان أبرزها حاجته إلى مد زوجته وأطفاله بضرورياتهم ، وهو فى ذلك الحين لم يكن ليقدر على طلب المساعدة من والده .. لسبب بسيط ، وهو أنه حتى لو كانت لدى والده الرغبة فى إعطائه فإنه كان يملك بالكاد الضروريات اللازمة للعناية بالدة أنور وأبنائها وبقية زوجاته وأبنائهن ..

وخلال اختبائه الاضطرارى غير السادات ملامحه وأطلق على نفسه الحاج محمد ، وعمل تباعا على عربة تابعة لصديقه الحميم حسن عزت . . حيث كان يأخذ الخضروات والفاكهة هو والسائق إلى معسكرات الجيش البريطانى لحساب شخص ثرى يدعى جيواى بيه (كان مليونيرا) ، وكان مجرد تاجر فى نوعيات رديئة من البرتقال ، ثم انقطع التعامل بين الرجل وضابط التعيين البريطانى ، حيث بدأ البريطانيون يحصلون على إمداداتهم من يهود فلسطين بدلا من هذا التاجر . . فاستفز هذا الأمر السادات الذى علق بأنه ربما أثبت اليهود أنهم نصابون ومرتشون ، ورغم أنه لم يكن لديه دليل على أى حادث إلا أن عمله مع هذا الرجل الثرى قد انتهى .

وحينما أعلن الرئيس ناصر قوانينه الاشتراكية سنة ١٩٦١ ومصادرة الكثير من أرصدة من أطلق عليهم أثرياء الحرب ، والذين زعم أنهم بنوا ثرواتهم بالرشوة والفساد ، قام جيواى بيه بوضع ثروته المشبوهة تحت البلاط ومضى بدونها . . وطبقا لما أعلنه

السادات فإن معظم الأغنياء قد فعلوا مثله ، وبدلاً من توبيخ هذا السلوك امتدحه السادات قائلًا : " على مدار تاريخهم الطويل وجد المصريون دائماً طرقاً لخداع الحكام المتعسفين ، الذين كانت أوامرهم عكس مصالح هؤلاء المصريين .

وهكذا اضطر السادات للقيام بممارسة العديد من المهن ، ومن بينها تلك الأعمال العضلية الثقيلة ، والتي كان يحصل فيها على أجور زهيدة ولذلك كان فقره مدقعا ، حتى أنه يقال إن إحدى بناته ماتت من سوء التغذية ، ويذكر السادات أن عربته نقلت الرخام لبناء استراحة للملك فاروق ، كما كتب بتصر عن ذلك اليوم الذي رهن فيه الجاكيت المحبب إلى نفسه ، لكنه سار بعيدا عن محل الرهان مخافة أن يرى صاحبه ما كان يرتديه من خرق بالية تحت الجاكيت ويتهمه بأنه سارقه . . ومما له دلالة في هذا الخصوص أن السادات وصف الجاكيت المشار إليه في عبارات مؤثرة ، وكيف كان يفخر به ويحبه ، وكذلك اعترف بتوجهه من الملابس الأنيقة .

ومع نهاية الحرب وانتهاء العمل بقانون الأحوال العسكرية في سنة ١٩٤٥ توقف السادات عن الاختفاء عن السلطات واستعاد طريقة حياته الطبيعية ، حيث عاد إلى منزله وأسرته بعد أن قضى ثلاث سنوات يعاني فيها من عدم المأوى ومن الحرمان . لكنه لم يشعر قط بشعور الرجل الذي يتمتع بحريته بعد خروجه من السجن ، إذ في تقديره كان بلده مازال في سجن مظلم ، خاصة أن السجائين البريطانيين لم يبدوا أى بادرة في الرحيل .

ولذلك ، لم يتورع السادات عن إطلاق الرصاص على الجنود البريطانيين أو على أولئك الساسة المصريين الذين - في رأيه - خانوا الشعب المصري . . وكان من أكثر الناس عداوة لديه تلك المجموعة التي كانت تقاد بواسطة مصطفى النحاس ، رئيس حزب الوفد ، الذي وافق على أن يتوج رئيساً لوزراء الملك فاروق تحت ضغط الدبابات البريطانية سنة ١٩٤٢ . . إذ كتب السادات يقول :

" إن الوفد خلال فترة زمنية معينة كان يبدو وكأنه حزب الحرية المصري العظيم ، وكان النحاس يبدو وكأنه بطل قومي " ، ويذكر السادات " أنه حينما كان صبيا بالمدرسة اعتاد أن يذهب في اليوم مرتين ليرى النحاس ، مرة حينما كان يدخل مكتبه ، ومرة حينما كان يخرج منه . . وأنه بخضوعه لضغط وتملق البريطانيين فقد احترام الوطنيين ، وأصبح ينظر إليه على أنه خائن " . .

وأضاف السادات " إننا لذلك قررنا التخلص منه " .

ولكن الصدفة وحدها أنقذت النحاس ، فالسادات درب مجموعته الصغيرة على استخدام القنابل اليدوية ، وتلقى شاب صغير يدعى حسين توفيق - كان قد قُتل العديد من الجنود البريطانيين من قبل - تكليفا بإلقاء قنبلة يدوية على سيارة النحاس ، وحينما أطلقت القنبلة أخطأت النحاس وأصابته شظاياها أتوبيسا كان يقبل خادمة بريطانية .

وفيما بعد ، عقد المتآمرون تحت قيادة السادات العزم على قتل أمين عثمان باشا ، والذي لم تكن جريمته أنه وزير للمالية في مجلس وزراء النحاس ، وإنما لأنه كان صديقا لبريطانيا . وفي هذه المرة نجح القاتل .

ففي السادس من يناير سنة ١٩٤٦ تسلل حسين توفيق - نفس الشخص الذي حاول اغتيال النحاس - إلى مبنى الحزب ، وفي البداية صرخ : باشا . . باشا ، فالتفت إليه عثمان باشا فأرداه قتيلا ، وليس من الظاهر كما كان يفعل المتآمرون .

وكان السادات قد أعطى توفيق قنبلتين يدويتين للطوارئ ، فقام باستخدام واحدة في ركن الشارع للتمويه والتعتيم ، ولكن لسوء حظه ، شاهده أحد ضباط القوات الجوية وهو يطلقها ، واستطاع هذا الضابط تحديد ملامح توفيق بدقة ، ومن ثم تم القبض عليه واستجوابه بصورة سرية ، ولم تمض فترة طويلة ، إلا وكان توفيق قد اعترف بصورة كاملة . وطبقا لما رواه السادات فإن توفيق لم يعترف لأنه خضع للتعذيب أو لأنه وجد استحالة في خداع البوليس ، ولكن لأن محامى الادعاء

أوعز إلى الصحافة بأنهم ينبغي أن يلمحوا بأنها جريمة نفسانية ، مما أثار حفيظة توفيق ، الذي اعترف للدفاع عن سمعته وكرامته ، ثم خلال أيام قلائل كان هناك طرق على باب السادات ، وها هو يقتاد إلى سجن الأجانب دون اتهام رسمي .

وفي الحقيقة فإن عبد الناصر لو كان قد وافق على كل أفكار السادات فيما يتعلق بطرد البريطانيين ، فإن حركة الضباط كان سيتم اكتشاف خطورتها وإفنائها مبكرا . . ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك أن إحدى خطط السادات في هذا الخصوص اتجهت للزحف على سفارة بريطانيا بالقاهرة وما بها من محتلين ، لكن ناصر عارض الخطة مستشهدا في ذلك بأنه بعد مقتل سير لى ستاك بالسودان سنة ١٩٤٢ قامت بريطانيا بعدة حالات تار مؤثرة . .

وبناء على ذلك ، فإنه ليس من قبيل المفاجأة أن يكتسب السادات شهرة بين أتباع ناصر الأكثر تحفظا بكونه متهورا أو حتى متوحشا ، كما أن اتصالات السادات بالإخوان المسلمين أثناء الفترة التي قضاها كهارب أو حتى حينما استعاد حريته ، رغم أنها لم تكن وطيدة أو مستمرة ، إلا إنها كانت كافية لإشباع وإتعاش رغبته في الانتدفاع وأعمال العنف لإزالة النظام الحكومي القائم وطرد البريطانيين ، وشجعه في ذلك الاتجاه السائد بين الطلبة والمتقنين من حيث كراهيتهم للنظام الحاكم والبريطانيين ، وقد علق السادات على ذلك بقوله : " الآن . . يشعر السياسي والمتقف الواعي في الشارع مثلي بأن الأمور يجب أن تتغير ، ما الذي يبدو مستحيلا الآن ؟ . . ومن خلال تطلعنا يبدو أننا في نصف الطريق لكسب المعركة . . " .

غير أن السادات لم يكن صريحا أو مخلصا في اتجاهه إلى العنف لإزالة أولئك الذين اعتبرهم محتلين ومغتصبين ، ولكنه حينما رأى أن الضباط تحت قيادة ناصر تزداد قوتهم ، طالب بأن يمثل الجزء المسلح المنظم من أجل نظام ناصر الثوري ، ولذا فإنه في وصفه للاغتيالات السياسية يقول : " كانت مناقضة لمبادئ الثوريين . . إذ أن تمجيد العنف يعتبر مميتا ، خاصة بالنسبة لذوى الدم الحامى بالشرق ، لأنه يعتبر إطلاقا لمعظم الغرائز الحيوانية " .

إن الفترة التي قضاها السادات بالسجن وما تلاها من عيشه في فقر مدقع ، وإن كانت قد أكسبته صلابة وخبرة ، إلا أنها حتماً تركت جرحاً غائراً في شخصيته . حيث لاقى فيها الذل والمهانة وعاش في أجواء تنقصها الرعاية الصحية ، ومن هنا شعر بأنه لا يمكن أن يعوقه أو يمنعه بشر عن تحقيق هدفه المحدد .

إن السجن علمه الصبر وأكسبه درجة أكبر من القدرة على الخداع ، فقد لاحظ أن الآخرين مستسلمون لرعب المكان ، وبلا أمل ، وفي حالة نفسية سيئة يرى لها ، أما استجابته الخاصة فتمثلت في زيادة حدة نفوره وكراهيته للنظام الفاسد الذي يوقع مثل هذه المعاناة على مواطنيه ، وفي التصميم الذي لم يتركه على أن يقوم بإتجاز ثورة .

إن الزنزانة رقم ٤٥ بالسجن لم يكن بها سرير ولا منضدة صغيرة ولا كرسي ولا مصباح ، بل كانت خاوية تماماً إلا من حصيرة لا تكفي لأن ينام عليها رجل وبطانية قذرة ، والحوائط كانت تنضح (تتشبع) في فصل الشتاء ، بينما تظهر الحشرات في فصل الصيف ليتعذب منها السادات . ومن أجل إحباط الروح المعنوية للمساكين كانت السلطات تجبرهم على استخدام حمامات غير صحية بصورة جماعية ، جزم السادات بأنها كانت تسبب الأمراض . .

وفي الحقيقة وصفت السجون المصرية حينذاك بكلمة "الجرب" . [وفي حالة السجن المركزي كانت الأمور أكثر سوءاً ، حيث وقع عدد كبير من المساجين فريسة للأمراض ، وكانت فرص استردادهم لصحتهم تكاد تكون معدومة ، وعلى حد تعبير السادات كان السجن هو الجحيم الذي حطم قوة إرادة الضحايا . . إذ عاش السادات لمدة ١٨ شهراً في هذه الحفرة الجهنمية غير قادر على القراءة أو الكتابة أو حتى سماع الراديو ، ولكنه لم يكن تمثل المساجين المتهمين في حوادث قتل ، وإنما عاش بروح معنوية غير منكسرة ، وهنا استمد بقاءه من الخشونة والصلابة التي اكتسبها في قرينته المحبوبة من ناحية ، ومن استحضاره قسوة النظام من ناحية أخرى ، لدرجة أن السلطات كانت تشكو إحباطه محاولتهم الرامية إلى الحصول على اعتراف

ضد قتلة أمين عثمان بذكائه ، ذلك أنه - أى السادات - نصح المستجوبين بكيفية عدم إيقاع أنفسهم ، ولم يجد تحرجا أو تأنيبا للضمير فى أن يكذب كذبا شائنا أو يدلى باعتراقات مزورة تحت وطأة التعذيب الذى كان يتلقاه من الضباط ، باعتبارهم يخدمون نظاما شيطانيا .

وقد رأى السادات أن التقدم المرغوب فيه تمثل فى إعادة ظهور الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، والذى اتصل بطلعت أخو السادات وأخبره بأن الإخوان قرروا إرسال عشرة جنهات شهريا لأسرة السادات ، خاصة أن رفاق الجيش كانوا قد توقفوا عن إرسال هذا المبلغ لتلك الأسرة بعد هروبه من سجنه الأول ، وقد كتب السادات عن ذلك مؤخرا " الله يسامحهم " .

هذه النقود كانت تثبت بما لا يدع مجالا لأدنى شك الأهمية الكبرى للسادات وأسرته ، خاصة أن أخيه طلعت كان فقيرا لدرجة أنه لم يكن قادرا على شراء قدر من الفاكهة لأخيه السجين ، والتى اعتاد هذا الأخير على أن يتلقاها صباحا معتقدا أنها تقيه العدوى ، وهو الاعتقاد الذى لازمه طوال حياته ، مما كان يدهش زوجته وموظفيه . تمكن السادات أيضا من استئجار - سرير ومنضدة وكرسى وكان هذا أمرا غريبا وشاذا ، علق عليه السادات فيما بعد قائلا : " إن الموجودين بسجن الأجانب والخارجين على القانون يتمتعون بظروف أفضل من المسجونين المصريين العاديين فى السجون العامة ، ففى الوقت الذى يحتاج فيه الأخيرون أثاثا لزنائيرهم التى يرثى لها ، يحصل الأولون على أسرة مريحة وكهرباء وطعام جيد " .

لذلك كان السادات مكتبيا ومشمئزا من حالة السجون العامة مثل سجن القاهرة المركزى ، حينما تولى الرئاسة وأتيحت له الفرصة فى سنة ١٩٧٥ قام باستخدام "قذوم" فى ضرب أول ضربة رمزية لتدميره ، إذ تخيل أنه يحطم حائط سجنه السابق بضربه هذه الضربة ، وعندئذ ظهرت صراصير لا تحصى ، واستمر فى الضرب بحرقة وغضب معتقدا أنه حطم سجنه الجهنمى الأول وسط دهشة الضباط المحيطين

الذين سألوه أن يكف ، لكنه استمر في ضرب القوالب المبتلة والمتعفة ، وقد كتب عن ذلك مدفوعا بمشاعره المستثيطة : " إن أى سجن من هذا القبيل يجب أن يدمر ويستبدل بآخر يكون مناسباً لأدمية الإنسان "

ولكونه أصبح الرئيس فقد شرع فى بناء سجون تتميز بظروفها الصحية الملائمة والأدوات المريحة ، والتي يمكن من خلالها حفظ كرامة الإنسان على الأقل . ورغم أن رواد هذه السجون كان هو ذاته الذى قام بسجنهم إلا أنهم كانوا ممتنين لتقديره إياهم .

وعندما نعاود الكلام عن فترة السجن ، نجد أنه عندما تم نقل المتأمرين الآخرين إلى السجن المركزى ، أصبح السادات ناصحا ماهر لهم فى تلقينهم الكيفية التى من خلالها يمكنهم المناورة مع محامى الادعاء ، وكان محامو الدفاع مسرورين لذلك ، خاصة أنهم نصحوا موكلهم بسحب الاعترافات التى أدلوا بها ووبخوهم على إذعائهم بسرعة للسلطات صارخين فيهم " لو أنكم فقط استمعتم لأثور السادات ، إنه رجل وأنتم صبية . " (فى هذا الوقت كان السادات يبلغ من العمر سبعة وعشرين سنة ، بينما كان أكبر المتهمين يبلغ اثنتين وعشرين سنة ، فى حين لم يتعد عمر أصغرهم أربع عشرة سنة) .

إن محن السادات لم تقتصر على وجوده فى الزنزانة ٤٥ بسجن القاهرة المركزى ، لكنه رغم معاناته الشديدة أسس فلسفة جديدة للحياة والثقة الدينية ، إذ دفعه جلوسه ليل نهار منعزلا فى هذه الزنزانة القذرة إلى التفكير فى حياته الشخصية ومعتقداته السياسية والدينية ، وكيف أنه تزوج صغيرا - كما يحدث بالقرية ، لكنه لم يفعل أى شئ لرفع معاناة زوجته . . فهى لم تكن مهتمة بالسياسة ، ولا بالثورات ، بل حياتها كلها انصبت على أطفالها وكيفية إطعامهم ، وقد كانت تفخر بأن زوجها ضابط بالجيش المصرى ، ولكنها كانت محتارة ومستاءة من جراء أنشطته الخطيرة وسجنه الطويل .

وبناء على ذلك تولدت لدى السادات فتاة بأن يطلقها ، لكنه ظل يعذبها حتى حصل على الإفراج ، وقد أدرك أنها زوجة مخلص ، وليس ذنبها أن اهتماماتها لا تتماشى واهتمامات زوجها غير العادية . . وهكذا درب نفسه ، وعندما كان تلميذا بالحربية قابل فتاة تربت تربية حسنة ، كانت تتعلم الفرنسية ، واعتقد أنها سوف تكون زوجة مناسبة له عن زوجته ، لكنه شعر بالخجل لأنه ليس من ذوى الأصول الملكية .

هذه الأفكار كانت تنتاب السادات وتعاوده وتقص مضجعه ، وأخيرا قرر أن يرسل رسالة إلى زوجته ، ليس لزيارته فى السجن ، وإنما بما عقد العزم عليه .. ومما يثير استغراب أى فرد يؤمن بالأفكار والقيم العربية هو مدى قسوة السادات فى خطوة كهذه . إن السادات فى وصفه لمحنته لم يذكر اسم زوجته إقبال عفيفى - كما أنه فى مطلبه الغريب قرر أن عائلته وعائلتها أقارب ، وهذا لم يكن حقيقيا ، ولكن من الممكن أن يكون السادات غير واع تماما حينما ربط نفسه بعائلة زوجته ، لأنها كانت أعلى من حيث المستوى الاجتماعى .

وفوق كل ماسبق ، كانت الزنزانة ٥٤ هى المكان الذى ظل فيه السادات ساعات مفكرا فى علاقته بعد الناصر . . وحينما كتب السادات عن ذلك فى سيرته الذاتية كان بالفعل رئيسا بينما كان عبد الناصر ميتا ، ومن ثم استطاع أن يذيع علاقتهما الغربية كاملة . . وفى هذا السياق أشار إلى أنه استرجع بالسجن حالتها المزاجية وصداماتهما . . وكيف أشبع بعد الثورة أن اختياره كخليفة لناصر قد جاء نتيجة لعدم أهميته وتفاهته بالقياس لرفاقه ، وأنه على خلاف رفاقه لم يقف ضد ناصر ، وأن الطرح الذى ساد آنذاك هو أن رفاقه لن يعارضوا اختياره نائبا للرئيس أو تعيينه خليفة له ، لأنه كان يعد بلا قيمة من الناحية السياسية .

وينبرى السادات لدحض ذلك مكرسا فكرة أن ناصر استطاع انتزاع قيادة الضباط الأحرار فقط حينما كان هو بالسجن .

إن السادات رغم تقريره بأنه كان مخلصا للقائد فإنه قام بانتقاد سياسات وأسلوب ناصر . . ورغم تقريره بأنه كان سعيدا حينما أصبح صديقه رئيسا لمصر وقائدا للعالم العربى ، إلا أنه علق مضيفا "لكنه أحاط نفسه بهالة من المجد" ، وهكذا فإن التعليق الذى كان غير مقصود أفشى مشاعر السادات الحقيقية .

ورغم إدعائه بأن حبه لناصر كان حبا حقيقيا ، جعله يلزم ناصر فى النصر والهزيمة ومنعه من أن يتعارك مع القائد ، إلا أنه قرر أن الشفقة أيضا لعبت دورا فى هذا الاتجاه ، ففى رأى السادات كان ناصر رجلا غير سعيد ، وغير قادر على أن يتمتع بثمار السلطة حينما آلت إليه . . لقد مات دون أن يتعلم ، أنه كان مغيبا بصورة سيئة عن المشاكل الوطنية والملكيات المشبوهة لرفاقه . . كذلك فإن القلاقل الدائمة نخرت فى قلب ناصر ، الذى اتهم بالثقل ، وأن هذه المشاكل غير المحلولة كانت تركة خطيرة خلفه .

ولم تنف انتقادات السادات لناصر عند هذا الحد ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك ، حيث اتهم السادات "ناصر" بنقص الرؤية الواضحة لمستقبل دولته ، والتكلفة الباهظة لرويته الثورية تحت دعوى أنه سوف يخلق حياة جديدة للمصريين . .

ويضيف السادات ، أن ناصر فشل فى أن يوائم بين تطلعات مواطنيه وتطلعاته هو ، والتي كانت أبعد ما تكون عن طموحات مواطنيه ، حيث ضيق عليهم وضع فرصهم فى تحقيق الاكتفاء الذاتى .

لقد اعترف السادات بأن سنواته كعضو من أعضاء مجلس الثورة حطمت سلام العقل الذى اكتسبه فى سجن القاهرة المركزى ، رغم أنه كان مضطربا فى أوقات عديدة ، أبرزها حينما سمع بالهزيمة المهينة لمصر فى سنة ١٩٤٨ .

ومهما كان الأمر فإن السادات كان سعيدا حينما سقطت إدانة المدعى عليهم فى قضية عثمان بنصر كبير للدفاع ، واقتصرت الإدانة فقط على المدعى عليه الرئيسى .

وحينما سمع السادات الحكم شعر بأن عليه القيام بمهمة عاجلة بمجرد إطلاق صراحه ، ولذلك ما إن حدث ذلك حتى توجه إلى حلوان ، بدلا من أن يتوجه لرؤية زوجته وأولاده بمنزل القاهرة ، حيث استأجر حجرة هناك بمقابل زهيد حتى يتسنى له التخطيط لمستقبله .

ولم تمض فترة طويلة حتى قذف به في حوى الأنشطة الثورية التى قادت إلى الانقلاب على نظام فاروقى الفاسد .

وليس من قبيل المبالغة على الإطلاق القول بأن المعاناة التى لاقاها السادات فى السجن كانت لها فائدتها فى تقوية شخصية السادات أكثر من أن تكسرها كما حدث للآخرين ، وفى تلك الفترة استطاع السادات بناء عدد من الصداقات فى السجن لتقاعته بأن الإخلاص من جانب الأصدقاء يعتبر عاملا جوهريا فى حياة المرء . وعلى النقيض من ذلك فإن الخيانة من الأصدقاء تجعل الوجود البشرى ينحط إلى أدنى مستوى .

كذلك بنى السادات فى سجنه علاقة روحية مع ربه ، لأنه رأى أن الاتجاه إلى الإله المعبود أحب إليه من الثأر ، وأنه لن يخذله ويتركه .

وزعم السادات أنه بسبب علاقته الجديدة بالله كانت الأشهر الثمانية الأخيرة بالسجن هى الأسعد فى حياته .

إن السادات أراد أن يخلق أناسا مبتهمين يتمتعون بحياتهم ، وتخييل عالما فاضلا (مثاليا) جديدا .

أما فيما يتعلق بتعليقنا على فشله فى النهاية ، فإن ذلك لم يحدث لأنه كان متعبا من محاولته إنجاز أهدافه ، وإنما يرجع ذلك بالأساس إلى إهماله الكم الهائل والضخم من المشاكل الذى واجه دولة متخلفة اقتصاديا وعلميا كمصر ، وإلى أنه لم يقدر بصورة كلية الحقد والتعصب العميق الذى أغلق عقول الملايين من مواطنيه ، والذى دفع بعضهم لاغتياله فى اللحظات التى كان يتمتع فيها بنصره العظيم .

ومن الأمور التي تجدر الإشارة إليها أن أتور السادات اكتشف في السجن أنه محتاح لحب طرف آخر: حبا جسديا ، حب امرأة . . فقد تزوج صغيرا ، لأنه كان متوقعا له ذلك ، لكن بالرغم من أن زوجته أنجبت له أربعة أطفال ، مات أحدهم في فترة رضاعته نتيجة لسوء التغذية التابع من الفقر ، إلا أنه لم يكن يشعر بحب جسدي عميق تجاهها .

وقد قرر مؤخرا . . أن حب المرأة كان أعظم نعمة ممكنة في حياته مكنته من إنجاز العديد من رغباته ، وبدون هذا الحب يبدو الرجل عجوزاً دون الشعور بأنه قد عاش على الإطلاق . .

ومن المؤكد أنه قصد بهذه التعليقات تفسير وتبرير هجره لزوجته وزواجه من جيهان الجميلة والمتحدثة البارة . ويحتمل كذلك حقيقة أنه بدون الاستقرار الذي منحتة إياه ، وبدون الانجاز الذي أمد به الزواج فإنه كان سيصاب بنقص الثقة في التصدي لناصر وتحدي خصومه في الصراع الدراماتيكي على السلطة والبقاء .

الفصل الرابع

مقابلة مع جيهان

تبنى السادات اتجاهها دفاعيا واضحا حيال دوره المبكر فى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ والتي أزعجت نظام فاروق ؛ بما كان يتسم به من فساد وورشة .. ذلك لأنه كان يخشى أن يبدو أقل بطولية من رفاقه فيما يتعلق بتلك الليلة الحرجة للثورة ، ويبدو أن اعتناقه من السجن لم يسبب له السعادة أو السرور إذ قضى حوالى ٣١ شهرا فى حيرة ، شاعرا بأنه ولد فى عالم جديد .. كما أن سلام العقل الذى اكتسبه فى السجن قد عزله ظاهريا كما لو كان قد جلس يقرأ فى الحدائق اليابانية بحلوان ؛ تلك المدينة الصغيرة التى تشتهر بمياهها المعدنية ؛ والتي كان يستخدمها فى علاج عصر الهضم وهذا ما ظهر بجلاء فى إعراضه عن مصاحبة البشر ، وعدم الرغبة فى التحدث ، وعدم القدرة على بذل أى مجهود .

وقد انعكس ذلك على حياته فى المستقبل ، إذ كان كلما واجهته مشكلة عويصة أو تكسدت عليه المشاكل كان يخلد إلى العزلة .. وكان يجد صعوبة فى قيادة سيارته فى رحمة المرور حينما كان يسير بالقاهرة ، رغم أنه كان يعزّز بالقيادة .

ومن ثم تبنى اتجاهها جديدا فى حياته .. ولكن ما الدور الذى كان منوطا به أن يلعبه ؟ وإلى أى الأهداف يجب أن يمتد بصره ؟ .. وكيف يمكنه الحصول على الإثبات والشعور بالرضا بوصفه وطنيا مصرية .

وقد تأثرت حياته بمقابلتين غيرتا مجرى هذه الحياة ، إذ لم ينسهِ صديقه القديم حسن عزت ، الذى ظهر فى حجرته (السادات) بصورة غير متوقعة قائما يصلى ، وكان السادات قد بدأ يتعثر ماديا ، فأقنعه حسن بأن يذهب معه إلى بيته بالسويس ، وحينما لاحظ حسن ملابس السادات القديمة قام بشراء بدلة وقتينص جديد له .

بيد أن مجهودات حسن التى بذلها من أجل صديقه ، لم تكن إثارا كاملا أو خالصا لهذا الصديق ، إذ كان حسن لديه مشاكل مع شركائه فى أعماله ، واعتقد أن السادات - الذى اعتبر بطلا فى حالة عثمان - سوف يثقل وزنه فى خلفه مع شركائه

حيث لاحظ السادات أنه بعد أن ساعد حسن في إقامة عدد من التعاملات مع السعوديين ، أعطاه الأخير أكل من نصف الأرباح التي كانت مقررة له ، ومع ذلك كان هذا المبلغ ضروريا للسادات ،الذى عاد إلى حلوآن للاستمرار فى العلاج ، واحتفظ بالنقود فى خزينة الفندق .. وهكذا أصبح قادرا على أن يدفع من أجل المعيشة الجيدة التى كان قد اعتاد عليها .

ولكن الشيء الذى كان أكثر أهمية للسادات من النقود هو مقابلته مع جيهان رؤوف ، التى كانت تبلغ من العمر ستة عشر عاما أثناء زيارتها لابنة عمها وزوجة حسن .. والد جيهان كان مسلما ، أما والدتها فقد كانت إنجليزية ، تعتر بأصولها وتصر على التحدث بالإنجليزية ، كما أنها نقلت العديد من القيم الإنجليزية الى البيت الذى كانت تقيم فيه.

وكان السادات مفتونا بجيهان التى كانت ظريفة وجميلة ومتحدثة بارعة بصورة لم يرها السادات فى أى سيدة أو فتاة . . باختصار وجد فيها السادات أنها المرأة التى تتوافق وأفكاره ، والاحتمال الأرجح أنه شك فيما إذا كانت ستقبل الزواج منه أو حتى أن يكونا أصدقاء.

والانطباع الذى أورده السادات فى سيرته الذاتية يوحى بأن زواجهما قد تم مباشرة .. ورغم أننا لم نعرف انطباع جيهان الخاص وتفسيراتها لحياتها مع أنور السادات ، إلا أنه من الواضح أن والديها لم يكونا مسرورين لأن يطلب السادات يد ابنتهما الجميلة الصغيرة .. إذ أن السادات قضى سنوات بالسجن ، كما أنه معزول من الخدمة ، وليست لديه وظيفة أو حتى مهنة ، ولم تكن النقود التى حصل عليها من الصفقة التجارية بالمبلغ المغرى ، الذى يمكن من خلاله اجتذابهم ، والأهم من ذلك أن أنور السادات كان رجلا متزوجا ولديه أطفال .

على أية حال ، فقد استطاع أن يحصل على موافقتهم كزوج لابنتهما بصعوبة بالغة ، بعد أن قدم نفسه على أنه يوم ما سوف يوفر الحياة المريحة لجيهان الجميلة ، كما وعد والديها بأنه سوف يبحث عن وظيفة محترمة ، هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى كان والد جيهان - وهى - يأمل أن سوف يعود إلى وظيفته المحترمة بالجيش ، وهو الأمر الذى كان هو نفسه يأمله وفوق كل ذلك كان هناك حماس جيهان الرومانتيكى للاقترب بالسادات ، إذ كانت ترى صورته بالجرائد يوميا أثناء التحقيق فى قضية مقتل عثمان ، وكان بالنسبة لها - كما كان بالنسبة للعديد من الشباب - بطلا أعد لى يبدل حياته فداء للشعب المصرى ، لكنها قبل زواجه منها أصرت على أن يطلق زوجته الأولى ، وهو الشئ الذى كان قد خطط له من قبل ، ومن ثم لم تكن هناك مشكلة .. ومع ذلك لم يهجر زوجته الأولى ولا بناته الثلاث ، إذ كان يرسل إليهم النفقات بصورة منتظمة ، وتدرجيا أخذ اثنتين من بناته إلى حيث تقيم زوجته الجديدة .

وفيما يتعلق بعودته إلى الجيش ، فقد كان هذا هو الحدث الذى لو لم ينجح لما تأتى أن يكون له دور فى الثورة ولا أن يصل إلى الرئاسة.. أما عن الكيفية التى أعيد من خلالها إلى منصبه فيوجد لها تفسيران على الأقل أحدهما يمثل تفسيره الخاص ، والذى يبدو مقنعا ، حيث كتب السادات أنه كان على اتصال بالدكتور يوسف رشاد ، الذى كان صديقا له أثناء الخدمة ، واستعطفه أن يساعده فى العودة إلى الجيش ، لاسيما أنه قد برئ من جريمة قتل عثمان .. فاتصل رشاد بحيدر باشا فى رئاسة القوات المسلحة ، والذى وافق على أن يرى السادات ، وفى الوقت الذى اقترب فيه السادات من حيدر باشا بدأ الأخير يوبخه قائلا : (أنت عامل مشاكل وسجلك أسود) .. وحينما حاول السادات أن يتكلم أسكته حيدر باشا قائلا (أنت لست بحاجة لأن تتكلم ، اسكت ، لا تقل ولا كلمة) .. والتفت حيدر باشا إلى سكرتيره الخاص ، وأعطاه أمرا عاما (هذا الولد يعاد إلى منصبه فى الحال ، من اليوم) .. وعلى هذا الأساس ، أعاد الأمر العسكرى السادات إلى منصبه فى ١٥ من يناير سنة ١٩٥٠ برتبة (بوزباشى) تلك الرتبة التى كان عليها حينما عزل من الجيش ..

وقد علق السادات على ذلك بأن رفاقه كانوا قد رفوا مرتين إلى رتبة رائد أولا ثم إلى رتبة مقدم ثانيا .

وهى نقطة كانت تنفص السادات رغم سعادته بتلك اللحظة التى عاد فيها إلى الجيش ، وذلك لأن الرتبة كانت ستلعب دورا ما فى صراعاته التالية مع رفاقه بمجلس قيادة الثورة .

أما التفسير الثانى لكيفية عودة السادات إلى الجيش فقد قدمه الصحفى والكاتب محمد حسنين هيكل ، وهو يعتبر تفسيرا عدائيا ، إذ أضاف هيكل أحداثا دراماتيكية متنوعة على القصة التى ساقها السادات ، إذ كتب يقول (إن الدكتور يوسف رشاد قد طلب من السادات أن يقدم نداء مباشرا إلى الملك فاروق ، حينما يذهب إلى صلاة الجمعة بمسجد الحسين بالقاهرة ، وكان على السادات أن يقبل يد الملك طالبا العفو عن أى شئ ارتكبه خطأ ، فأوماً فاروق برأسه مشيرا إلى معرفته ، وقد أدى هذا إلى إعادة السادات إلى منصبه). هذا الحادث - المزعوم - استخدم ضد السادات لاحقا فى صراعه مع مجلس قيادة الثورة .

وزعم هيكل أيضا أن السادات كان على صلة بالقصر أثناء فترة وجوده بالسجن ، وأنه حصل على جميع المزايا التى ترتبت على هذه العلاقة ، ويستدل هيكل على ذلك بأن الملك فاروق وموظفى القصر استخدموا شخصيات مهمة ومجرمين لاغتيال الشخصيات التى كانوا يخشونها أو يكرهونها .

غير أن السادات لم يخف سرا برغبته فى اغتيال الرجال الذين اعتبرهم خائنين لشعب مصر ، ولو أن السادات كان يعتقد أن الاتصالات مع الملك سوف تساعده أو تساعد المسألة الوطنية ، فليس هناك سبب مقنع لعدم رغبة السادات -فى صغره- فى المشاركة فى النظر إلى الملك فاروق كوطنى يتصدى للسيطرة البريطانية .

ومن هنا ينبغى على المرء أن يأخذ دعاوى هيكل بحذر ، فهى تضع السادات فى صورة هامشية وإلى حد ما مبهرجة عبر ما تحتويه من اتهامات حادة عن الصراعات التى دبت فى مجلس قيادة الثورة ، وعبر ما كرسه عن أن السادات كان له مواطن ضعف ، وأنه كان أبعد من أن يتغلب على نفسه .

والرد على ذلك ، أنه لو كان السادات قد استخدم البهرجة فإن ذلك كان بغرض
يخدع لا أن يُخدع .

كذلك قدم هيكل اتهامها هشاً ضد السادات بأنه كان حساساً إزاء لون بشرته
أسود الموروث من والدته (ست البرين) .. ابنة عبد زنجى سابق .. فهل كان هيكل
حقاً فى ذلك ؟

إن السادات قال عن ذلك : (كنت شاباً صغيراً ، ذا شكل رقيق ، قوى البنية ، ذا
لامح جيدة ، صحيح أنسى لم أكن أبيض ، لكننى لم أكن أسود تماماً ، فقد كان
سوادى أقرب للحمرة) .

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى ، وهى ميل السادات للتمثيل والذى ظل ملازماً له حتى
أيام الأخيرة من حياته .. حيث قال السادات فى مقالة له نشرت بجريدة الجمهورية التى
صبح محرراً بها بعد الثورة : (طوال حياتى وأنا منجذب نحو التمثيل ، وفى عام ١٩٣٠
قبل أن أذهب للكلية الحربية ، كنت دائماً أسعى لمقابلة أى شخص يمكن أن يمنحنى دوراً
فى مسرحية ، ورأيت إعلاناً لأمينة محمد تطلب فيه وجوهاً جديدة لفيلم ستقوم بإنتاجه
مع الصينيين تحت اسم "تيتا وونج" ، ولذلك ذهبت للشركة فى شارع إبراهيم باشا
ووقفت فى الصف مع بعض المرشحين الآخرين ، وجاءت أمينة ورأتنا ، كنا حوالى
٢٠ شاباً ، لكن لسوء الحظ اختارت اثنين لم أكن واحداً منهما ، وقالت للباقيين منا :
أرسلوا صورتين ، إحداهما كاملة الوجه ، والأخرى منظر جانبي ، ولكننى فيما بعد
وجدت أن هذه أسهل طريقة للتخلص منا) .

وقد فند هيكل المقالة مقررًا أنها احتوت على اعتراف من السادات بأنه فى وقت
من الأوقات سمى نفسه الحاج محمد رغم أنه لم يحج إلى مكة كجزء من التمثيل .
ونتيجة مباشرة لحب السادات للتمثيل وقدرته على التمثيل كان السادات ولعا بالملابس
الأنيقة ، حتى حينما أصبح رئيساً ، وقد كتبت جيهان عن ذلك بتأثر ولكن بصورة مضحكة
(عن أزياء زوجها التى كان يأمر بها بعناية فائقة) ..

وقد كان ولع السادات بالملابس الأنيقة مجالا لأن يسجل البعض ملاحظة جديدة على الجيش والثياب الرئاسية .. وأعنى تحديدا هيكل الذي كانت لديه كل المبررات لكراهية السادات وعداوته (أنكر هيكل هذه العداوة) ، خاصة أن السادات كان قد وضعه بالسجن .. ففي كتابه "خريف الغضب" وفي ضوء اغتيال السادات سنة ١٩٨١ ، ظهرت مشاعره الحقيقية حينما اتخذ صورة للسادات معلقا عليها بعبارة (الزى العسكري بالتسريح) .

وحتى تكتمل الصورة يجب أن نعرف ما الذي تم في علاقة السادات بالجيش والضباط الأحرار ؟

طبقا لرواية السادات الدافع لناصر لتهنئة السادات وتشجيعه على اجتياز اختبارات تدريبية لكي يحصل على ترقية سريعة ، والتي اجتازها السادات بالفعل حتى وصل إلى رتبة مقدم .

والأكثر من ذلك أهمية أن "ناصر" أبلغه بالنمو السريع لحركة الضباط الأحرار ، رغم أن "ناصر" نصحه ألا يلعب دورا تأمريا مكشوفًا مع جماعة الضباط الأحرار ، بسبب ملف سجنه ومراقبته بواسطة البوليس السياسى .

لكن فجأة ، قام ناصر بإعطاء السادات خريطة توضح توزيع الضباط الأحرار في مختلف وحدات الجيش ، ويبدو هذا المسلك من قبل ناصر متناقضا ، لكن ربما اعتقد ناصر أن السلطات قد رفعت أيديها عن السادات بعد أن عاد إلى منصبه في الجيش .

إلا أن أعداء السادات ادعوا فيما بعد أن دور السادات كان محدودا لرؤيته غير مناسب للالتحاق بقيادة المجموعة ، حيث طرح هيكل أنه كانت هناك معارضة قوية لناصر بين قيادة الضباط الأحرار حول موضوع السادات .. لكن ناصر شجعهم بأن السادات أقل وزنا في صنع المشاكل ، وهكذا فإن ناصر قد قبل السادات على احتمال أنه لن يكون ذا قيمة .

وطبقاً لرؤية خصوم السادات ، فقد قرر ناصر أن يتعامل مع السادات بحذر . ومن جانبه ادعى السادات أنه هو الذى ألحق "ناصر" بمجموعة الضباط الأحرار ، وأضاف أن تاليه فى القيادة كان عبد المنعم عبد الرؤوف ، والذى كان على صلة بالإخوان المسلمين والشيخ حسن البنا ، إذ بعد أن عاد ناصر من الحرب فى السودان فى أواخر سنة ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف وعرض عليه ضرورة أن يلتحق بالضباط الأحرار .. ووافق ناصر على العرض ، وبعد ذلك لم يجد صعوبة أو مشكلة فى أن يحل محل عبد المنعم فى القمة ..

ولكن التذبذب فى وصف السادات لإحساس ناصر بالزعامة والقيادة يعتبر أمراً ملحوظاً ، كذلك ذكر السادات أنه لولا سياسته فى إلحاق البارزين فقط من الضباط بالمجموعة الثورية ، لما تأتى لناصر الالتحاق بالضباط الأحرار .

ولاشك أن هذا يتناقض مع ما ذكره السادات حينما كان ناصر حياً ، حيث قال : (كان حوله مجموعة من الشباب اعتاد ناصر أن يتحدث إليهم ويعلمهم .. كنا كلنا معجبين به .. كنا نراقب صمته وننتساعل : فيما يفكر ؟ .. وبعد ذلك يتحدث جمال إلينا ، شارحاً لنا أن البريطانيين هم مصدر كل مشاكلنا .. جمال جعلنا كلنا كباراً بما هو سابق لأوانه .. جعلنا نشعر بأننا يمكن أن نتحمل كل أعباء مستقبل بلدنا على أكتافنا) .

شئ آخر أشار إليه السادات يؤيد هذا التناقض ، وذلك عندما أشار إلى إعلان ناصر بأن السادات ركن مهم فى الثورة القادمة . بمعنى أن القرار كان قرار ناصر وليس السادات ..

أما عن مظاهر الولاء والانتماء بينهما فقد علق السادات قائلاً : (بالرغم من أننى ابتدعت تنظيم الضباط الأحرار بالأساس ، فقد ظللت بعيداً عنه لمدة ٨ سنوات .. منذ سنة ١٩٤٢ [حينما رفت من الجيش] حتى سنة ١٩٥٠ [حينما رددت إلى منصبى] .. ومع ذلك فلم يكن ناصر من ذلك النوع من الرجال الذى ينبغى أن يُشجع بمثل هذا الولاء من الآخرين ، اللهم إلا فى حالة الصداقة الطويلة والشديدة كما فى

حالة عبد الحكيم عامر ... ورغم أنني وناصر تعرفنا على بعض منذ كان عمرنا تسعة عشر عاما ، إلا أنني لا أستطيع الادعاء بأن علاقتنا كانت تتعدى الثقة والاحترام المتبادل ، إننا يمكن أن نسيها بالكاد صداقة) .

وواقع الحال ، فإنه لم يكن من السهل بالنسبة لناصر أن يتخذ أى شخص صديقا له بسبب ميله الشديد للحذر والشك ..

ومن ثم -طبقا لرؤية السادات- كان ناصر مدركا أنه يجب أن يشكل له صحبة مخلص وموثوقا بها ، وقد أجمع ناصر على أن السادات رجل ذو مبادئ عالية وقيم رفيعة ، وأنه برهن على أنه رفيق مخلص .

أما عن سر إدلاء ناصر بهذا الرأي عن السادات فليس معروفا ، ولكن التفسير ينصب على أن السادات كان متحدئا جماهيريا وصحفيا .

وفيما يتعلق بالثورة ، فقد بدأ ناصر إلقاء دروس فى الثورة بفكرة فاشيستية تتمثل فى أنه تم التخطيط لأن يستولى الضباط الأحرار على السلطة سنة ١٩٥٥ لينحوا أنفسهم فترة كافية للإعداد ، ولكن انفجار يناير سنة ١٩٥٢ ، وما قام به الغوغاء من سلب ونهب بالقاهرة ، وإشعال النيران فى مبان عديدة ، قد دفعهم لتغيير خططهم .

ونظرا لأن الجيش قد استدعى للحفاظ على النظام فى المدينة ، فقد قرر الضباط الأحرار أن يبدؤوا ثورتهم فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، خاصة أن الملك فاروق كان على وشك أن يعين وزيرا جديدا للحربية هو اللواء حسين سرى عامر ، والذي كان يعرف شخصا العديد من أفراد الضباط الأحرار ، وبالتالي كان سيقبض عليهم بصورة سريعة . وقد زعم السادات فيما بعد أن ناصر أقام معه مناقشات طويلة عن الثورة القادمة ، وأنه - أى السادات - اقترح اغتيال اللواء حسين سرى كاستهلال للثورة ، لكن "ناصر" رفض اتخاذ مثل هذه الخطوة الخطيرة .

كما ادعى السادات أيضا أنه نصح "ناصر" بطرد بعض رفاقه المنازعين ، لكن لسبب غير معروف رفض ناصر ذلك .. إذ قال عبد الناصر : يجب أن تتم الثورة فيما بين ٢٢ من يوليو و ٥ من أغسطس .

وفي ٢٢ من يوليو ترك السادات وحدته في طريقه إلى القاهرة متوقفا أن "ناصر" سوف يقابله على محطة السكة الحديد ، كما كان معتادا ، ولكن "ناصر" لم يأت .. فاعتقد السادات أن الوقت مازال مبكرا على حدوث الثورة ، فذهب للمنزل وأخذ جيهان للسينما ، وكان هناك برنامج إعلاني طويل عن الأفلام التي ستعرض مستقبلا ، أحدها كان دراما شارك في تمثيلها رونالد ريجان ، الذي أصبح رئيسا للولايات المتحدة فيما بعد .. ومن الموائف الطريفة أن السادات حينما تحدث مع رونالد ريجان فيما بعد عن فيلمه في هذه الليلة الدامية (٢٢ من يوليو سنة ١٩٥٢) تعجب ريجان قائلا : "إذن أنا كان لي دور في الثورة المصرية " .

وحيثما عاد السادات إلى منزله قرب أو بعد منتصف الليل ، وجد رسالة مكتوبة من ناصر يطلب منه فيها أن يذهب إلى منزل عبد الحكيم عامر في الحال ، لأنه قد حان وقت الثورة .. لكنه عندما وصل إلى المنزل رفض الحراس دخوله .

اضطرب السادات في تفكيره مدركا أنه رجل نكتة ، فبسبب زيارته للسينما لن يكون قادرا على المشاركة في الثورة ، وعندئذ لاحظ أحد الحراس أنه رائد فأخبره بأن ناصر قال يجب أن يذهب كل الضباط لبيوتهم .. فقاوم السادات معطيا عامر إشارة جيش مباشرة .. ورغم أن عامر - الذي كان موجودا بالداخل - لم يره ، إلا إنه أدرك أن هذا هو صوت السادات ، فقال له إن مراكز قيادة جيش فاروق قد عصفت بها .. وفي الحال قاد السادات سيارته إلى حيث مركز القيادة ، حيث شاهد ناصر ، الذي أعطاه تعليمات بأن يتصل لتليفونيا بقيادة الوحدات ليخبرهم بأن كل شيء على ما يرام ، وقد كان السادات صالحا لهذه المهمة بسبب خبرته الذاتية .

ورغم أن دوره كان حيويًا ، إلا أنه أقدم أيضا على دور آخر خالده من خلال الوسيلة الدعائية .. حيث أمره ناصر - الذي كان يحترس من مقدرته الكلامية- بأن يذهب إلى الإذاعة ليعلن عن الثورة (هذا هو نفس الكلام الذي قاله هيكل عن هذا الحادث) .

وقد طال انتظار ناصر ورفاقه للإعلان المتوقع ، وعندما سألوا السادات عن سبب التأخير أجابهم بأن الشيخ كان يقرأ القرآن ، ولم يرد أن يقاطعه .

وبدون شك ، كان السادات مفيدا لناصر في هذا التوقيت الحرج ، وقد ظهرت أهمية مهارته الصحفية (يلاحظ أن السادات قبل عودته إلى الجيش كان قائدا على أن يحصل على وظيفة محرر لبعض الوقت بسهولة) وكذلك مواهبه البلاغية حينما أرسله ناصر إلى رئيس الوزراء السابق المتمرس على ماهر بفرض تشكيل حكومة مؤقتة قائلا له " أنت موجود دائما بالسياسات ، اذهب وأوجد على ماهر " .. ولم يكن السادات يعرف حتى أين يعيش على ماهر ، إلا أن أحد الصحفيين أخبره بذلك ، وذهبا معا إلى على ماهر الذي قبل المهمة بعد كثير من التردد .

وبعد ذلك عين السادات في وفد المفاوضات مع الملك فاروق ، الذي كان لا يزال بالإسكندرية يقضى إجازة الصيف ، وكان أحد مستشاري الملك الموثوق بهم قد همس للسادات بأن الملك قرر أن يتنازل عن العرش ويغادر البلاد ، وفي البداية أعطى السادات الملك انطبعا بأن إقامته لن يتم تحديدها ، بينما كان ناصر قد أعد قواته للتقدم إلى الإسكندرية ، وبمجرد أن حددت إقامة الملك تم توجيه الإنذار الأخير إليه ، وكان السادات شخصا هو الذي كتب الإنذار الأخير وقدمه لعلى ماهر .

وقد حدث تراشق قصير بالرصاص بين حرس الملك وقوات ناصر .. ولكن الملك كان خائفا من أن يقتل ، فنادى حراسه وناشد البريطانيين والأمريكيين أن يأتوا لمساعدته .

وفى نفس السياق تساعل موظف أمريكي : لماذا تحاصر قوات ناصر قصر رأس
التين الملكى ؟ ولماذا تبادل إطلاق النار ؟ فأمره السادات أن يجعل نفسه فى شغله .

كذلك كان للسادات أسلوبه المميز فى التعامل مع وكيل الشؤون البريطانية والقوات
الملحقة ، والتي كانت ترتدى زيا امبرياليا كاملا مخيفا .. إذ كان البريطانيون يحبون
معرفة ما هو اتجاه (نية) الثورة إزاء أسرة محمد على ، والملك فاروق تحديدا ، وهل
هناك نية للبقاء على حقوقها التاريخية .

كما طلب البريطانيون أيضا ضريبة لحماية حياة الأجانب .. وحسب رواية
السادات ، فإنه - أى السادات - التفت اليهم قائلا : " بالنسبة للجزء الأول ، ليس هناك
بالتأكيد شئ نفعله لكم ، إذ أن أسرة محمد على ليست أسرة ملكية بريطانية ، أما
بخصوص حماية الأجانب فتذكروا أنه بلدنا ولا أحد يستطيع أن يدعى المسئولية
سوانا ، وسوانا فقط .. هل هذا واضح .. بالإضافة إلى ذلك نريد أن نعرف ما إذا
كانت مذكرتكم رسمية من عدمه ؟ " .

وطبقا لذات الرواية أجمع الموظفون البريطانيون على أن اقتراحهم ليس
رسميا ، لكنهم يتصرفون كأصدقاء شخصيين ، فرد عليهم بأن التدخل يجب أن ينسى
تماما كما لو لم يحدث بالمرّة ، واحتج القائم بالأعمال على هذا .

أما الملك فاروق ، الذى كان خائفا من أن يقتل ، فقد استسلم بسرعة .. وأعلن
عن أنه سوف يستقل يختا الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢
تحت مراقبة أعضاء من مجلس قيادة ثورة ناصر .

وهكذا ، أخذ الملك فاروق اليخت وبعض موظفيه المخلصين لخارج مصر إلى
الأبد حيث منفاه الأخير .

وقد كتب السادات عن أنه راقب المنظر من على متن سفينة قريبة ، وأنها
كانت أبهج لحظة فى حياته .

ومما يثير دهشة أى فرد أن السادات بمكره قد أخفى فهمه لمغزى كونه صاحب السجن فى الاعلان عن الثورة ورحيل الملك فاروق ، وهو الأمر الذى تسبب فى غيرة رفاقه ، ولم يكن من الطبيعى ألا يسألوا أنفسهم .. ماذا فعل السادات ليستحق مثل هذا السبق ؟ ومن ثم كان عليهم أن يتأمرؤا ضده ..

وفى سنة ١٩٥٣ قرر ناصر أن أعضاء مجلس قيادة الثورة ، الاسم الجديد الذى أطلق على الكيان الحاكم بواسطة القائد - سوف يحصلون على مناصب وزارية .

غير أن السادات كان الوحيد الذى لم يتول وظيفة رسمية وارتضى أن يصبح محررا للمجلس فى جريدة الجمهورية الجديدة .. ولكن الشئ الذى لم يعرفه رفاقه هو أن السادات - الصحفى الجماهيرى الوليد - كان مسرورا بمهامه الجديدة ..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى لم يفهمه فيها خصومه حتى وجدوا أنفسهم فيما بعد مخدوعين بواسطته.

الفصل الخامس

الصراع بين ناصر والسادات

جاء انتصار الثورة بالإحباط والحزن بالنسبة للسادات ، تماما كما حدث بالنسبة لناصر ، فأعضاء الجماعة الثورية - بما فيهم ناصر - لم يدعوا أنفسهم لتولى السلطة .. فقد كانوا صغارا وليس لديهم خبرة بالمرءة ، باستثناء اللواء محمد نجيب الذى تم الإجماع منذ البداية على أنه شخص قيادى محترم .

والحقيقة التى لم تؤخذ بالحسبان لمدة طويلة بالغرب ، هى أن الضباط الأحرار لم يشغلوا حتى وظائف إشرافية فى الجيش المصرى ، واعتقدوا أن كل ما هو مطلوب منهم هو حيالة السلطة وإزالة الملك الضعيف الفاسد ثم إعطاء الأوامر .

وقد أشار السادات بوضوح إلى أنه لا أحد منهم شعر بلسعة الجوع أو الحرمان كما هو معتاد بالنسبة للثوريين ، ولا أحد منهم عانى فى زنازين السجن مثله ، كذلك فلا أحد منهم جرد من رتبته كما حدث معه .

وهكذا فإن الثورة بالنسبة للسادات كانت خاتمة لحلم راوده خلال السنوات التى قضاها بزنازين السجن .. أما بالنسبة لهم فقد كان انتراهم السلطة هو بداية للصراع على المناصب .

إلا أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال قبول تفسيرات السادات المؤلمة لمعركة الثوريين الداخلية ، والتى بلغت ذروتها فى كارثة حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بصورة مطلقة .

ومع ذلك فإن الرواية التى ساقها السادات - رغم ما بها من مغالطات - تعتبر مقتعة عن تلك التى ساقها هيكى فى هذا الخصوص .

والواقع أن عبد الناصر لم يكن ماردا أو ذا قوى خرافية كما بدا فى العالم العربى والغربى على حد سواء ، لدرجة أن السادات وصفه بأنه كان شخصا مترددا باستثناء بعض مواقفه الدراماتيكية التى صدمت الشرق الأوسط ، وأنه كقائد ورئيس

بدا كما لو كان يسعى في طلب الموت المبكر . وفي محيط أقرانه تبدت خطوته الثابتة خلال المجادلة التي دارت بين المجموعة الحاكمة حول النظام الواجب اتباعه ، وفيما إذا كانت الديمقراطية أنجح أم الديكتاتورية .

عند ذلك رأى السادات أنه ليست هناك سوى إجابة واحدة ترتكز على الديكتاتورية . وبرر ذلك بأن الناس الديمقراطيين سوف يناون بأنفسهم حتى يتحولوا إلى فاسدين ، لكنهم لن يفعلوا شيئا من أجل شعب مصر الطيب ، بل سوف يتخذون من القرارات السريعة ما سوف يتحمل تكلفته الشعب .

إلا أن ناصر جادل بشدة تجاه خطورة عزل الديمقراطيين ، ومن ثم كسب المجادلة ... وبالطبع لم يجد رفاقه بدا من أن يستعطفوه لكي يعود إلى شروطه ونقاطه الخاصة .

وبناء على ذلك فاز ناصر ، لكن السادات كان متضررا من سلوك ناصر ، وكادت المسألة تصل إلى أن يتهمة بالديكتاتورية والتحيز لمعتقداته الخاصة بالديمقراطية ... وهكذا جمع ناصر كل السلطات ، وأصبح بمقدوره صنع كل القرارات بمفرده ، سواء في الحرب أو السلم .

ومع ذلك اعتقد السادات أن ناصر أشرك صديقه المقرب عبد الحكيم عامر ليمهدا - سويا - الأرضية للنكسة يونية سنة ١٩٦٧ .

وفيما يتعلق بالتشكيل الوزاري ادعى السادات -وعلى عكس ما ذهب هيكل- أنه عارض المكتب الرسمي قائلا : " لا اعتقد أنني أريد حقيقة وزارية ، إننى أعنى بكيفية تحقيق آمال مصر بسرعة قدر الإمكان ، نحن نريد أن ندخل في الحقبة الجديدة من تاريخ مصر " .

وقد أشار السادات إلى أنه كان من غير الممكن فهم لماذا تحول صلاح سالم والآخرين -وحتى ناصر- ضده مستهزئين بتصريحه غير الهجومى . بوضوح يبدو أنه كانت هناك عوامل أخرى .

إن "ناصر" بالفعل كان غاضبا من السادات ، بسبب سلوكه الذى بدا من خلاله وكأنه شغوف بالقيادة عبر ما دعا إليه من مبادئ عليا وشك السادات فى أن "ناصر" والآخرين -لاسيما صلاح سالم- قد غاروا من الشهرة التى نالها السادات أثناء المحاكمة الخاصة بعثمان ، كما شعر السادات لاحقا بأن ناصر كان متشككا فى الحفنة المحيطة به ، وأنه لم يكن واحدا من أولئك الذين وثق بهم ناصر .

وخارج دائرة الغيرة ، كتب السادات أنه - نظرا لانعدام هذه الثقة - فإنه كتب خطابا لمجلس الثورة يعرض فيه استقالته ، وطلب جوازات سفر له ولجيهان تمكنهما من الاستقرار فى لبنان ، ليس فقط لجمالها ، ولكن أيضا لكونها آمنة . إلا أنه لحسن حظ السادات لم تقبل الاستقالة .

ويبدو واضحا من كلمات السادات الخاصة أن "ناصر" بمفرده ، وربما بمساعدة بعض الرفاق القلائل " لاسيما عامر " كانوا يصنعون القرارات الحيوية .

إذ قبل مارس ١٩٥٣ تمت ترقية عامر إلى رتبة مشير وتولى قيادة الجيش ، بينما خرج ناصر وأفراد عديدون من مناصبهم فى الجيش . حدث هذا فى مكتب الرئيس رسميا ، ورغم أن هذه القرارات كانت مبنية على أرض مهترجة ، إلا أن أحدها كان متعلقا بعامر لبيهرن على مقدمات النكسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لبيهرن على أن ناصر قد بدأ يستخدم السلطة تحت تصرفه . وقد أثبتت رؤية السادات المستقلة مصداقيتها .

ورغم زعم هيكل بأن السادات حاول أن يكون صديقا لعامر الذى أصبح الأقوى ، فإن السادات كتب كثيرا بعد وفاة عامر عن رؤيته له كفاسد وسياسى غير مؤثر لساء إلى صديقه المقرب ناصر .

ونظرا لصورة عامر الشخصية هذه لدى السادات فإن السادات لم يرغب فى أن يكون صديقا لمثل هذا الرجل .. بينما منتقدو السادات - مثل هيكل - ليس لديهم شك فى أن هذا التحليل لا يعدو سوى أن يكون نوعا من السذاجة .

والآن .. ماذا حدث على الساحة السياسية ؟

خلال عدة شهور من إعلانه عن ثقته بالديمقراطية - بتسقى كامل مع رفاقه - قرر ناصر حل كل الأحزاب السياسية ، متهما إياها بالتواطؤ مع الجيش لانتزاع السلطة .

وفى الحقيقة كان رد فعل الأحزاب السياسية حكيما ، لكن بالنسبة للإخوان المسلمين كان ردهم عنيفا ، إذ رفضوا أى حظر عليهم ، وقاموا بمحاولة خطيرة لاختيال ناصر بالإسكندرية .

وبدلا من الأحزاب السياسية حاول ناصر ملء الفراغ السياسى بخلق مؤسسات اصطناعية ذات أسماء رنانة ، لكنها جميعا فشلت فى كسب التأييد .

كذلك حاول ناصر أن يقلد نموذج " الدولة الاشتراكية " لتيتو فى يوغسلافيا ، وأسماء الاتحاد الاشتراكى ، لكنه لم يكن نموذجا جيدا ، على الرغم من تنقيح ناصر له لتيواعم واحتياجات المصريين .

وقد قرر السادات أن ثمة تصرفا وحيدا بليغا وقويما لرساء ناصر هو قسطن الإصلاح الزراعى ، والذى حدد ملكية الأراضى الزراعية ، التى يمكن أن يمتلكها أى فرد .

فإذا ما انتقلنا إلى المسائل الدولية ، فإن ناصر قد تلقى فى هذا الصدد تأييدا حماسيا من السادات . وكان ناصر قد قام بإجبار اللواء محمد نجيب على الاستقالة ، وتطلع إلى رئاسة الوزراء ، تماما مثلما تطلع إلى رئاسة مجلس قيادة الثورة ،

مكتسبا بذلك سلطات ديكتاتورية حيوية ، وعلى صعيد آخر كانت المفاوضات بشأن انسحاب القوات البريطانية من منطقة القتال قد اتخذت منحى أكثر تقدما ونجاحا حينما فاز ناصر بتنسيق مجلسه .

والذى حدث أن السادات حمل بصورة شخصية على خصوم مسودة الاتفاقية ، والتي استغرقت مناقشات أبعد قائلا : " إننى أوافق على المسودة ، نحن لا نريد أن نذهب بعيدا عن المناقشات . . ماذا هنا ينبغي أن يناقش ، بريطانيا تريد بقاء ١٢٠٠ خبير عسكري ، والذين سوف يتطلبون حراستهم بواسطتنا ، والمصريون يعتبرون هؤلاء الخبراء لإرهابنا ، فقط السياسى القبى هو الذى يمكنه معارضة مثل هذا الحل لمشكلة يبلغ عمرها ٧٥ سنة " .

ولو أراد شخص ما أن يجد إجابة للسؤال " لماذا حرك السادات مثل هذا الغضب بين رفاقه " فإن ذلك سيفوقه حتما إلى أن يضع يديه على العديد من المفاتيح.

وبخصوص التعامل مع السياسة الأمريكية يبدو واضحا أن عروضه على ناصر فى هذا السياق كانت أشبه بالمكائد . . إنها ولا شك كانت عدائية ، وذلك لسبب بسيط مغزاه ، أنه بعد أن قضى سنة خارج دائرة السلطة أصبح وزيرا ، وبالتأكيد حصل على دور أكبر فى السياسات المؤقتة والدائمة ، حيث انتهز الفرصة حينما كان محررا بجريدة الجمهورية ليقاوم عرض الولايات المتحدة الخاص بميثاق التبادل الأمنى .

إن السادات زعم أن الأمريكيين قد قدموا هذا العرض لإمداد المصريين بالسلاح بدون ثمن فى حالة واحدة ، هى أن يقوم عدد من الخبراء الأمريكيين بمرافقة هذه الأسلحة ليضمنوا عدم استخدامها ضدهم .

وحيث أن رجوع العرض إلى الأمريكيين بالإجابة التالية " نحن نريد أن نشترى الأسلحة بأموالنا الخاصة ولا نريدها بدون ثمن ، وأيضا نحن لا نريد ميثاق التبادل الأمنى لكنه يؤثر على استقلالنا " .

ومن ثم تحفظ الأمريكيون ، إلا أنهم قدموا عروضاً ومواثيق أكثر مدفوعين في ذلك بالرغبة في احتواء الاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك رفضتها جماعة ناصر كلها مجادلين - كما قال السادات - بأن المصريين بعد أن حصلوا على حريتهم لا يريدون تكبيلها .

وهكذا وبدلاً من الارتقاء في أحضان الأمريكيين ، تحول المصريون إلى الاتحاد السوفيتي ، لكنهم كانوا خائفين .

وقد زعم السادات أن القادة السوفييت لم يكونوا راغبين في تطويق الدول غير الشيوعية ، ولكن مقابلة بين ناصر و"شوان لاي" في باتدونغ بمؤتمر دول عدم الانحياز قادت إلى الوساطة الصينية بين ناصر وموسكو ، تلك الوساطة التي كانت لها نتائج مصيرية .

ويدوره لعب السادات دوراً ريادياً في منع الدول العربية الأخرى من الانضواء تحت مظلة حلف بغداد مثل العراق وتركيا وباكستان ، ذلك الحلف الذي كانت تشجعه بريطانيا .. حيث سافر ليرى الملك الشاب حسين في عمان وأقنعه بأن يظل بعيداً ، رغم أن عمه كان على عرش العراق .. حتى لبنان تم إقناعها بأن تتصدى للعرض البريطاني . وقد أغضبت السياسة المصرية ضد الحلف ، الذي رآه السادات لا يخرج عن كونه مجهوداً بريطانيا للعودة إلى المنطقة بعد مغادرة منطقة قناة السويس ، أغضبت الحكومة البريطانية ، وزاد هذا الغضب البريطاني حينما قام الملك حسين بطرد كلوب باشا قائد الفيلق العربي على إثر حملة طويلة شنّها راديو القاهرة أثارت الشكوك حول إخلاص كلوب باشا ، كما ارتكزت هذه الحملة على أنه يأخذ أوامره من لندن . ورغم أن عملية الطرد هذه لا ترجع بصورة كلية إلى التأثير المصري وفشل الفيلق العربي في رد الهجمات الانتقامية الإسرائيلية ، إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك هو أكثر الأسباب ترجيحاً ..

هذا الغضب المشار إليه شعر به -وبصورة أكثر حدة- أنطوني أيدن في لندن ، أحد الذين صعدوا الموقف ، والذي قاد إلى حرب السويس .

على كل حال ، لم يكن هناك أحد أنسب لهذه السياسة أو الدعاية من أنور السادات ، الذي كان مقتنعا جدا ..

وبالعودة إلى حياة السادات نجد أنها قد انتقلت نقطة كبيرة حينما جعله ناصر سكرتيرا عاما لمنظمة المؤتمر الإسلامي .. تلك المنظمة التي كانت قليلة الحيلة ، لكنها أمدته بفرص سفر للخارج علمته الكثير ، فعلى سبيل المثال كان السادات مندهشا في إحدى رحلاته إلى الهند من اثنين شيوعيين شهيرين يعانقان نهرو ، إذ اعتقد أن ذلك يعد مثالا على الديمقراطية الحقيقية ، حيث يعامل الخصوم بعضهم بعضا على أنهم أخوة .. ولذلك اتجه السادات إلى المبالغة في أهمية الإشارات وقارن هذا المسلك بالتغيرات الفظة في مجلس قيادة الثورة .

وكان من الواضح أن السادات قد سره حل المجلس في يونيو سنة ١٩٥٦ ولكن كما هو متبع بوجه عام انتخب ناصر رئيسا للجمهورية في وقت كانت الدولة فيه تعج بالفساد والاعتقالات التعسفية .. مما دفع السادات إلى أن يلقي باللوم على ناصر تحديدا في فشله في تنظيم وزرائه ، بينما ظهر ناصر كشخصية غير مستقلة ، تحركه الشكوك والهواجس بدون سياسة متماسكة لحل مشاكل المصريين الهائلة ، وهو ما جعل كلا من بريطانيا والولايات المتحدة تسينان فهم ناصر .

وكان من الضروري في ظل السلطة الهشة التي أدارها ناصر والنقص في فهمه لاحتياجات المصريين أن يخلق أزمة قذفت به إلى الجماهيرية وجعلته البطل السياسي الأول في العالم العربي ، وتتمثل هذه الأزمة في أن جون فوستر دالاس قد قام بسحب عرض تمويل بناء السد العالي ، مما أغضب "ناصر" الذي ألقى خطابا ملتهبا في الإسكندرية أعلن فيه عن تأميم شركة قناة السويس والسيطرة عليها .

وعلى هذا الأساس رأى أنطونى إيدن أن "ناصر" يعد تجسيدا للعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأ التخطيط لإذلاله . أما فرنسا التى وبخت ناصر بإثارتة للمشاكل فى الجزائر ، فقد كانت شريكا رئيسيا .

وبدورها قامت إسرائيل - التى أصبحت مناط تركيز ناصر ، خاصة بعد حيازته للأسلحة السوفيتية - بالانضمام إلى الهجوم ، إلا أن الإسرائيليين - دون غيرهم - هم الذين أدينوا من جراء المعركة . إن طريقة ناصر فى الحكم وصنع القرارات عكسها سلوكه فى إخفاء خبر تأميم قناة السويس عن السادات ، الذى قيل له أن يستمع إلى الخطاب بالراديو . صحيح أن ناصر كان عليه أن يناقش القرار مع عدد من مستشاريه الموثوق بهم - من المحتمل أن "عامر" كان منهم - إلا أن السادات لم يكن داخل دائرة هؤلاء المستشارين .

وبدوره لم يظهر السادات أى غيظ عميق تجاه حرمانه من المشاركة فى صنع القرار ، لكنه عاتب "ناصر" الذى عاد إلى القاهرة كبطل بعد أن أثار حماس الجماهير بإعلانه ، قائلا له بلطف : "إنك لم تقل لى عن القرار واتخذته بالفعل ، وإنك لو كنت أخذت استشارتى لكنت قلت لك : كن أكثر حذرا ، فهذه الخطوة تغنى الحرب ، وأنت لست مستعدا لها ، كما أننا لم نتدرب على الأسلحة التى وصلتنا من الاتحاد السوفيتى ، بل تدريبنا كان مع بريطانيا ، ونحن لسنا لدينا وقت لتغيير توجهنا العسكرى من غرب أوروبا إلى شرق أوروبا ، لو أنك سألتنى لكنت قلت لك كن حذرا ، لكنك الآن أخذت القرار بالفعل ، وبالطبع كلنا سوف نؤيدك ، وأنا أول من يفعل ذلك " .

هذا العتاب الرقيق قوبل من جهة ناصر بالحزن ، وإلى حد ما بالمرارة ، فطبقا لرواية السادات ، فإن ناصر الذى استشاط غضبا لحجج شريكه الأصغر ، لم يستطع أن يبدى سروره بهذا النموذج التأديبى (التهديبى) ، إذ أن "ناصر" كان يعرف الكثير عن وصول الأسلحة السوفيتية ، وكيف سيتم توظيفها فى الجيش المصرى .

وهكذا يبدو من تعليقات السادات أن الجيش المصرى المدرب فقط هو الذى كان بإمكانه مقاومة غزو بريطانيا ، أو حتى قوات مشتركة من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل (التي تبدو أكثر حنقا) ، بينما كان ناصر بمثابة المغامر الذى تصرف غالبا بحدة .

وناصر - بلا شك - هو الذى كان وراء ردة المصريين ، إذ ادعى السادات فى هذا السياق أن ناصر تنبأ بعواقب انسحاب قواته من سيناء ، والتي كان إحداها فوز القوات الإسرائيلية بالمعركة ، فناصر كان أمامه خيار ضعيف ، نظرا لأن موسى ديان كان قد أعد لحملة ذكية كان نجاحها مؤكدا ، لو لم يكن هناك غزو بريطانى - فرنسى كامل .

لكن مع قيام الطائرات البريطانية بضرب طائرات ناصر ونسف طرقه الرئيسية كانت محاولة التمسك بسيينا ستعد جنونا مطبقا .

إلا أن السادات أعطى انطبعا خاطئا بأن ناصر قام بسحب قواته بسرعة ، بينما هاجمه الإسرائيليون ، ولو كان ذلك حقا لكان من الصعوبة فهم لماذا لم يتم الرئيس المصرى بإتخاذ كل القوات ، وليس ثلثيها تقريبا كما قرر السادات .

إن السادات لم يكن دقيقا فى شرح توجه الإسرائيليين أو فى تقديمه للحرب المصرية - الإسرائيلية .

لقد انتهج ديفيد بن جوريون - رئيس الوزراء الإسرائيلى وأحد المؤسسين للدولة فى سنة ١٩٤٨ - سياسة الخط الصعب بإزاء تسلل العرب إلى الدولة اليهودية الجديدة ، تلك التسللات التى كانت تُشجع طبقا لرغبات متباينة ، إذ كان العرب الذين فقدوا منازلهم وأراضيهم ينظرون بأسى ومرارة تعنصر قلوبهم إلى القادمين الجدد من اليهود الذين سوف يزرعون البذور فى أراضيهم الزراعية ويتمتعون بالحصاد .

وعلى خلاف بن جوريون كان موسى ديان - أحد المؤسسين لقوات الدفاع الإسرائيلية تحت إشراف بن جوريون - يفهم هذه المشاعر نظرا لأنه ولد فى المكان الذى أصبح فيما بعد دولة إسرائيل ، كما كان له العديد من الأصدقاء العرب . .

ويتضح ذلك جيدا مما قاله فى تأبين شاب يهودى مؤسس قتل على أيدي العرب . .
حيث قال : " بالأمس ، أسفل ، قتل روى ، أعماه صباح الربيع ولم ير أولئك الذين
أودوا بحياته مختبئين وراء الأخدود اليوم . . دعنا لا نلقى اللوم على القتلة . . ماذا
نقول إزاء كراهيتهم الفظيعة لنا ؟ وكيف أنهم جلسوا فى معسكرات اللاجئين فى
غزة ، وراقبوا بأعينهم كيف حولنا أراضيتهم وقراهم التى قطنوها وأجدادهم من قبل
إلى بيوت لنا ، إنه ليس بين عرب غزة ، ولكن بيننا وفى وسطنا نحن يجب أن نبحث
عن دم روى ، كيف نغضض أعيننا ونرفض أن ننظر إلى مصيرنا ، وقدر جيلنا بكل
قسوته ووحشيته .

هناك .. وراء الأخدود .. وعلى حدود بحر الكراهية والانتقام ، الانتقام الذى
زحف اليوم حينما خيم الهدوء على يقظتنا واستمعنا إلى مبعوثى النفاق المؤلم الذين
ينادوننا بالرفود خلف قواتنا .

إن الشاب روى ذهب بعيدا عن تل أبيب لينى منزله على بوابات غزة لكى
يكون حصنا لشعبه .. إن النور الذى فى قلبه أخفى مشهده ، حتى أنه فشل فى أن
يرى طريق الخضرة ..

هذه الكلمات غير مألوفة ، لكنها لا تعبر عن اعتدال مزاج ديان وآلاف من اليهود .
وقد كانت فقط بعد فقدان حياة ألف فى إسرائيل وفى الدول العربية بما فيها مصر .

إن السادات لم يدرس بعمق كافة الأحداث فى إسرائيل أو سلسلة الاغتيالات
الناعبة من الغارات الهجومية التى يشنها العرب فى إسرائيل ، وردود الفعل الثأرية
الإسرائيلية ، والتى زادت العنف ووسعت أرضية العداءات .

وإذا كان من الطبيعى أن تستدر الهجمات التى شنها العرب الذين فقدوا
منازلهم وماشيتهم استعطاف الأيديولوجيين الإسرائيليين إلى حد ما ، حتى لقد ذهب
أحدهم إلى أبعد من مواساتهم ، إلا أنه حينما أصبحت هذه الهجمات جزءا من سياسة

الدولة المصرية بغرض زعزعة وإضعاف الدولة اليهودية إلى الدرجة التي يكون فيها الجيش هو الضحية ، كان لابد أن يكون رد الفعل الإسرائيلي الحاد أمرا حتميا . . حتى أن موسى شاريت وزير الخارجية الإسرائيلية الأتقي ، والذي انزعج من أثر الرأي العام الغربى ، اعترف بأن بعض هذه الهجمات كان ضروريا .

والحادث أن ٢٠٠ يهودى قد قتلوا خلال فترة التسلل ومن جراء الهجمات التي شنها الفدائيون المصريون المدربون .

ونتيجة لذلك أصبح الساسة الإسرائيليون مكشوفين أمام الشعب ، كذلك حذر وزراء إسرائيليون من أن الدولة باتت فى خطر وتجدر الإشارة إلى أن شاريت وعددا من زملائه فى وزارة الخارجية هم الذين تلقوا انتقادات غالبية الهجمات التي تمت بواسطة قوات إسرائيلية خاصة مدربة .

لم يرجع السادات إلى هذه الأحداث ، ولا كان يفهم ما عرف بمسألة لافون ، والتي كانت تعتبر بمثابة مسألة محورية فى التاريخ اليهودى .

إن السادات ظل وقتا طويلا من الزمن غير متعق فى بعض الأحداث التاريخية ، بل وكان مهينا لقبول تلك التقديرات التي أعدت بواسطة آله الإعلامية .

لكن أتاحت له الفرصة لاحقا ، لا لبحث عمق فى شخصيته فحسب ، وإنما أيضا لبحث دون خوف وهرق فى عالم يتضمن مشاكل اليهود الإسرائيليين .

إن هناك دليلا سيق بواسطة مؤرخ إسرائيلى (بنى موريس) ، فحواء أن بن جوريون وموشيه ديان حاولا أن يستقروا ناصر إلى الحرب لأنهم كانوا خائفين من أنه بواسطة المساعدات العسكرية السوفيتية سوف تصبح مصر قوية للغاية ، لكن ناصر - أثناء تجنبه لفخ ديان - فشل فى فهم أنه بتشجيعه للقتلة الفدائيين سوف يكون مخربا ، وأنه بذلك خلق الجو الساخط فى إسرائيل ، والذي دفع إلى قرب الحرب .

نقطة أخرى غاية في الأهمية والحيوية لا يجب إغفالها ، وهى أن السادات كان ملتقيا لتأثير مصادرة الممتلكات الأجنبية فى مصر أكثر من كونه فاعلا فيها .

وكانت الفترة الطويلة التى قضتها مصر تحت السيطرة الأجنبية قد شجعت العديد من اليهود المصريين على اكتساب الجنسية البريطانية أو الفرنسية ، إلا أنهم مع ذلك قد ظلوا فعالين فى الحياة الوطنية المصرية ... حيث كانوا يمتلكون عددا كبيرا من المحال التجارية ، كما كان لديهم من الخبرات الصناعية والتجارية ما يلزم لتنمية الصناعة والتجارة المصرية ، بالإضافة إلى ذلك كان منهم الكتاب والأطباء والمحامون ... باختصار كانوا جزءا حيويا من حياة القاهرة اليومية خاصة ، والدولة عامة .

إن ناصر بسلوكه فى نهب ثروة المجتمع اليهودى بإجبار شباب مبتكر ، ولديه طاقات ، ورجال فى منتصف العمر على ترك الدولة وتحطيم مجتمعاتهم التى استمرت لآلاف السنين ، قد تسبب فى خسارة لا تعوض بالنسبة للاقتصاد المصرى .

وقد تسارعت عملية الطرد هذه بصورة دراماتيكية بعد نسخة ١٩٦٧ لدرجة أن المجتمع الذى كان يبلغ عدده سنة ١٩٤٧ أكثر من ٩ آلاف ، ويجد له أصولا توارثية آل إلى عدد محدود للغاية من الرجال والنساء العواجز القادرين بالكاد على إقامة الشعائر الدينية .

فإذا عدنا إلى موضوع السادات نجد أنه فى دولة يستوطن فيها الفساد ليس بغريب أن تكون هناك اتهامات موجهة للسادات من قبل خصومه ، وهى لا تعدو أن تكون مجرد شهيق أو أخذ نفس .

فى هذا الإطار كتب محمد حسنين هيكل : إن السادات وجيهان كانا يعيشان فى منزل متواضع بشارع الهرم بالقاهرة ، وإنهما شعرا بأن هذا المنزل لا يليق بنائب رئيس مصر ، ولذا أخذوا فى البحث عن منزل أفخم ، ووقع اختيارهما على أحد

المنازل ، وكان يمتلكه لواء متقاعد ، وحينما عرضا عليه استئجاره رفض الرجل ، فما كان من السادات إلا أن استخدم سلطاته الرسمية في مصادرتة .

وحينما سمع ناصر بهذا الحادث تضايق جدا ، ووبخ السادات بقوة ، لدرجة أن السادات قعد في قريته ميت أبو الكوم لبعض الوقت ، مدعيا أن غضب ناصر قد كسر قلبه . ومع ذلك - طبقا لهيكل - كوفئ السادات في النهاية بصورة مادية ، إذ بدلا من عقابه أمر ناصر بأن يؤول منزل مقام على النيل كان مملوكا لمليونير يهودي ثم تحول إلى استراحة رسمية لنائب الرئيس .

وهناك رواية أخرى تقول إن ناصر حول منزل اللواء المشار إليه سابقا إلى مقر إقامة لنائب الرئيس .

إن السادات نفسه ذكر أن ناصر كان متضائقا من الأجر العالي الذي كان يحصل عليه السادات كمقابل لعمله براديو مصر .

وأيا كان الأمر ، فإنه رغم ما أثاره هيكل من قضايا مدمرة متنوعة فيما أطلق عليه "تهب منظم" في مصر نتيجة لسياسات السادات ، إلا أنه لم يتهم السادات شخصيا بالفساد .

إن السادات حتى حال امتداحه لناصر على سلوكه الشجاع خلال أزمة السويس أوجد السبب لانتقاده على أيلولة الانسحاب إلى السوفييت أكثر من التدخل الأمريكي ، وكان السادات بالطبع على حق في تقديره لخضوع أنطوني إيدن للتهديد السوفيتي باستخدام الأسلحة الذرية . . إذن هذا لم يكن السبب الذي من أجله دعا إيدن ومجلس وزرائه إلى وقف العملية ، وإنما كان رفض إسقاط الجنيه الإسترليني هو الذي أجبره على الانسحاب المهين من مصر .

الفصل السادس الطريق إلى النكسة

فى وصفه للفشل وسوء التقدير الذى قاد إلى حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ، وما تلى ذلك من سنوات العذاب ، والتي بلغت ذروتها فى الموت المفاجئ لجمال عبد الناصر ، ألقى السادات اللوم على عدد من رفاقه وليس عليه هو ذاته .

ورغم شغف السادات وحبه للسلطة ، إلا أنه لم يكن يعرف لماذا اختاره ناصر نائبا للرئيس .. وربما أعطى ناصر نوعا من التفسير لمحمد حسنين هيكل كما سنرى . إلا أنه من الواضح أن ناصر اختار السادات الأقل عدائية والأقل حذرا فى مجلسه . . وحتى يظل هو محتفظا بالسلطة لنفسه .

إن ناصر -شأنه شأن السادات- كان يشير إلى أنه فريسة لكل أنواع الشكوك ، إنه كان يشك فى أن ثمة مؤامرات تحاك ضده ويشارك فيها بعض رفاقه . . كما كان قلقا من أهداف الإسرائيليين وخططهم الرامية لزيادة قدراتهم وتطوير قواتهم المسلحة ، وكذلك كان مثارا مما كان يطلق عليه الرسائل الأخلاقية للأمريكيين ، وأخيرا كان مشمئززا مما كان يعتبره إمدادات غير كافية أو مرضية من جانب الاتحاد السوفيتى . . ولعل النقطة الأخيرة هى التى جعلت القادة السوفييت - خرشوف ومن بعده بريجنيف - يشعرون بالحيرة تجاه شكواه غير المنقطعة .

والجدير بالذكر أن غضب الولايات المتحدة قد ازداد من جراء اعتبار الاتحاد السوفيتى أنها - أى الولايات المتحدة - تشكل خطرا مخيها ، وقيامه بتمويل السد العالى .

أيضا قام الاتحاد السوفيتى بإعادة تسليح القوات المصرية ، وصاحب ذلك إيفاد المستشارين السوفييت لتدريب الجنود المصريين ... كل ذلك تم رغم أن مصر لم تكن قادرة على دفع ثمن المعدات ، ورغم أن معظم حصيلة قطن مصر كانت تستخدم تقريبا فى تسديد حصة مصر المستحقة من الديون .

ولسبب ما ، لم يكن القادة السوفييت راغبين فى إعادة جدولة ديون مصر .. ولربما كان ذلك لابتزاز مصر ماليا ، وإجبارها على اتباع سياسات معينة مقبولة لدى

الكرملين .. خاصة وأن القادة السوفييت كانوا منخرطين في الحرب الباردة مع الأمريكيين ، وأن لمكانة مصر الاستراتيجية أهميتها القصوى في أى صراع محتمل بالشرق الأوسط .

وحتى حرب أكتوبر اتخذ السوفييت سلوكا لحماية المصريين ، إذ أعدوا لاتخاذ تدابير معتبرة لحمايتهم ، بما في ذلك التلويح العسكري ، شاملا السلاح النووي ، والصدام مع الولايات المتحدة .

ومع ذلك ، لا توجد دولة هيجت مثل هذا الغضب الحاد في قلب ناصر مثل الاتحاد السوفيتي ، ولا حتى الولايات المتحدة ذاتها ، والتي كان عليه أن يلومها على نكسته العسكرية .

وحيثما باغت الموت ناصر بالسكتة القلبية قال شوان لاي -وزير الخارجية الصيني- للبعثة المصرية : "هل تعرفون من قتل ناصر عن عمر يبلغ الاثنين والخمسين عاما ؟ إنهم الروس" .

وقد علق السادات على ذلك بأنه يعتبر أن هذه المسألة حقيقية .. وفسر ذلك بأن ناصر كان يجب أن يحظى بحرية في تصرفه .. بينما في الوقت الذي قطع فيه ناصر علاقاته الدبلوماسية مع الأمريكيين والقوى الغربية والدول العربية وإيران لم يجد له صديقا سوى الاتحاد السوفيتي .

وأضاف السادات : إن ناصر لم يكن يعامل بالاحترام الكافي ولا الكرامة من الاتحاد السوفيتي ... وكان هذا هو السبب الذي تدهورت من جرائه صحته ، إلى أن انتهى به الحال إلى إصابته بمرض قلبي مميت .

ويزعم السادات أن ناصر قبل وفاته بشهرين قضى ٢١ يوما بالاتحاد السوفيتي ، وحال عودته إلى القاهرة سأل السادات فيما إذا كانت زيارته ناجحة ؟ ... فرد عليه ناصر بأنه لا أمل ، وأنه مستاء من عدم استجابة الكرملين لإمداده بأسلحة أكثر وأفضل ، مما

جعله يقول لبريجينيف إنه سوف يقبل خطة روجرز الأمريكية لتسوية النزاع بين العرب وإسرائيل في الحال ، مما أثار بريجينيف الذي سأله بغضب : هل يعنى هذا أنك قبلت بالحل الأمريكى ؟ ... فأجابه ناصر : بعد الذى فعلته سوف أقبل حتى لو كان من الشيطان نفسه .

ويبدو أن الذى أغضب ناصر لم يكن الفشل السوفيتى فى إمداده بالأسلحة التى طلبها على وجه السرعة ، ولكنها المعلومات السوفيتية التى قادت إلى الكارثة ، والتى تلقاها ناصر من الكرملين قبل حرب الأيام الستة ، والتى أشارت إلى وجود قوات إسرائيلية على الحدود السورية ، وأدت إلى هزيمته الكبرى .

ومع ذلك يعتبر هذا التفسير منقوصا ... إذ أن هناك عوامل واضحة مفقودة .. حيث كتب هيكل عن هذه المناسبة : "عندما هنا السادات ناصر على أنه بدا أكثر شباهاً وحيوية لدى عودته من رحلته إلى موسكو .. كان سبب زيادة حدة ناصر غير المظنة هو الوعي بأنه رغم الآمال العريضة للثورة ، ورغم المدح الذى ظل يتلقاه من الجماهير العربية فإنه لم يحقق شيئا لشعب مصر .. الإصلاحات الاقتصادية التى وعد بها ، الخلل الاجتماعى الذى أراد إصلاحه بإشاعة المساواة بين شعبه ، الاستقلال المنقوص باقتطاع أجزاء من أراضيه " ... كل هذه أمور لم تشهد تغييرات ملحوظة ، لدرجة أن قسوة الفقر المدقع بدت أكثر ظهوراً ، خاصة بين الفلاحين الذين وعدهم ناصر بأن يساعدهم بالذات .

كذلك كانت إسرائيل بمثابة شوكة تفت فى عضده من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت تمثل ذكرى مؤلمة لإذلاله ويأسه .

وواقع الحال ، فإنه رغم تحذير القادة السوفييت لناصر من خطورة مسلكه وخطورة الإقدام على ذلك ، فقد قام ناصر بإطلاق نيران المدفعية على المواقع الإسرائيلية عبر قناة السويس ، بادنا بما يطلق عليه حرب مناوشات ، مدفوعاً فى

ذلك بتفكيره بأن مصر لديها مدفعية أكثر وشعب أكبر ، ومن ثم يمكن ضرب المواقع الإسرائيلية على طول الحدود ، وإجبار الإسرائيليين على الانسحاب ، ولكن صمدت إسرائيل رغم وجع وآلم ضربات المدفعية المصرية ، وكانت النتيجة مخالفة لتوقعات ناصر.

إن أى مراقب منصف يجب أن يعلن أن النتيجة الرئيسية للحرب كانت هي اضطراب مصر إلى زيادة الاعتماد على الأسلحة السوفيتية ، وأن الذى لم يشجع ناصر على الاستمرار فى الضرب هو أن الحكومة الإسرائيلية قررت ضرب أهداف داخل مصر ، وهى السياسة التى دافع عنها إسحاق رابين (السفير الإسرائيلى بواشنطن حينذاك) ونادى بأنها تلقى قبولا لدى البيت الأبيض ... ولكنها عورضت من بعض الخبراء والوزراء الذين تمثلت وجهة نظرهم فى أن الغارات الجوية على مصر ستقود حتما إلى زيادة الحضور السوفيتى هناك .

وهذا بالضبط ما حدث ، حيث أغارت إسرائيل على المصانع ، وكان من قبيل الصدفة المأساوية أن تسقط النيران على المدارس والمناطق المأهولة بالسكان ، مما حفز ناصر على البحث عن قوافل مضادة للطائرات للدفاع عن دولته ، ومع هذه القوافل جاء المستشارون والطيارون السوفييت ... وهكذا أضحي ناصر أكثر تورطا فى الفخ .

ولكن القادة السوفييت رفضوا إمداد ناصر بالكميات الكبيرة التى طلبها من الأسلحة ، والتى اعتقد أنه يحتاجها لهزيمة إسرائيل بما ترتب على ذلك من زيادة خيبة ناصر ، وفى نفس الوقت زيادة كراهيته للسوفييت .

وعلى صعيد آخر ، لم تكن اشتراكية ناصر بالنموذج الذى يمكنه جلب الرخاء لأى دولة أو حتى لأقل قدر من المصريين ، وقد أعلن السادات مؤخرا أن ناصر استعار قطعة من صديقه القائد اليوغسلافى تيتو .. وأن النموذج اليوغسلافى لم يحقق الثراء ، ولكنه أتاح فرصة خطيرة لبعض الرجال للانتقام من خصومهم .

والتناقض الحقيقى هنا يبدو فى أنه رغم فشل عبد الناصر إلا أنه أصبح أكثر الناس توقيرا فى العالم العربى ، حيث هتفت الجماهير العربية لدعواه بالعودة إلى

الوحدة العربية الكبرى بعد التخلص من قوى الاستبداد .. كذلك كان النصر الذى حققه على البريطانيين والفرنسيين ، وسبه الأمريكيين الذين ارتسموا له تمثالا خاصا ، دافعا لأن يقارن الناس بينه وبين المحارب التاريخي صلاح الدين ، وأنه لا يقل عنه .

إن المفهوم الذى أخذ عن ناصر أنه العملاق الذى تخطت مجهوداته العالم العربى ، وصورته هذه هى التى كانت وراء المعارك التى دارت فى سوريا ، والتى شجعت حزب البعث الحاكم هناك على أن ينادى بولع بأن يقود ناصر الوحدة المصرية - السورية الجديدة .

ومن جانبه ، كانت لدى ناصر شكوك قوية تجاه هذه الوحدة لعلمه الجيد بالتشققات والانقسامات الحادة التى يعج بها المجتمع السورى ... ولكنه بعد أن توسل إليه الضباط السوريون لمدة ثلاثة أيام وافق على مضمض .

إلا أنه ما لبث وندم على قراره ، إذ لم تمض ثلاثة أشهر على الوحدة المصرية - السورية ، والتى أطلق عليها الجمهورية العربية المتحدة ، إلا وبدأت تواجه شروخا . حيث قابل الضباط السوريون "عامر" ممثله هناك بالغيرة والضيق ، وكما كان متوقعا لم يستطع ناصر الحيلولة دون فك الوحدة المؤسسة المريضة . إنها أظهرت تناقضات حادة ، وأهين عامر وأرسل إلى القاهرة وكان غاضبا لدرجة أنه قال لناصر إنه يريد أن يتحى عن قيادة القوات .. وطبقا لرواية السادات - الذى لم يكن معجبا بعامر - رحب ناصر بالاستقالة لكنها سحب سريعا .

ليس إذن من قبيل المبالغة على الإطلاق أن صورة عبد الناصر كرجل قوى قد لوئت بهذه المعاملة لعامر .

ولبما يتعلق بعامر قرر السادات أن ناصر قام بالعديد من المحاولات للتخلص منه ، وأنه لم يكن مصرا على استمراره ، ولكنه سمح أخيرا لهذا الرجل غير الكفاء بأن يبقى فى وظيفته الحيوية .

وبلغ الأمر غايته في أن ألقى السادات باللوم على عامر فيما يتعلق بالتورط المصري في الحرب الأهلية اليمنية ، والذي أبعد الآلاف من أفضل القوات المصرية خلال حرب الأيام الستة .

أيضا ، رأى السادات أن التدخل المصري كان بمثابة وسيلة لإشارة المملكة السعودية ، والتي قادت الغارات السياسية في العالم العربي ضد مصر . ولكن - السادات - نوه بأن التدخل المصري كان بمثابة وسيلة لتكريب القوات على الحرب الحديثة .

إن عامر تسرع في إرسال ٧٠,٠٠٠ من القوات لمواجهة مقاومة عنيفة من محاربي الإمام ، والذين كانوا أكثر اعتيادا على الحرب في إقليمهم .. ومع ذلك رأى السادات فائدة من الحضور المصري هناك .. فالتدخل ساعد على إزاحة الإمام وتقليص الاستبداد السعودي .

في السياق ذاته اتجه السادات لأن يعزو معظم الأمراض التي أرقت المصريين وأسقطتهم ، ليس لناصر وإنما لعامر ، حيث -طبقا لرؤية السادات- عامر وليس ناصر هو المدان في القصة المأساوية لجر مصر غير المستعدة إلى فخ حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل ، تلك الحرب التي لم يترتب عليها تدمير الجيش المصري فحسب ، وإنما أيضا البلوى غير المحسوبة التي عصفت بعبد الناصر .

ومن الأشياء المثيرة للغربة أن السادات - وهو الشخص الذي أدان بقوة دور الاتحاد السوفيتي في تدمير مصر - كان معتدلا في وصفه للدور المركزي الذي لعبه الكرملين في رسم سياسة ناصر في حرب مدمرة .

وفي الحقيقة لا أحد يستطيع أن يفسر بنجاح لماذا مر الكرملين بمعلومات خاطئة لناصر وغيره مفادها أن الجيش الإسرائيلي يتجمع بأعداد ضخمة على الحدود السورية ؟ إن الكرملين عندما فعل ذلك كان يقصد التأكد من الحقيقة ، التي كان يعرفها بدليل أنه عندما توسل ليفي أشكول رئيس الوزراء إلى السفير السوفيتي بأن

يصطحبه إلى الحدود السورية ويرى بنفسه كذب الزعم السوفيتي ، رفض السفير السوفيتي في الحال .

يجدر بالذكر أيضا أن السادات عندما زار موسكو في مايو سنة ١٩٦٧ قابل - في مطار موسكو - كلا من وزير الخارجية المفوض (سيمينوف) والمتحدث باسم البرلمان السوفيتي ، والذين قالاه بالتحديد : "إن عشرة فرق إسرائيلية تمركزت على الحدود السورية " ... وعند وصوله إلى القاهرة علم السادات أن ناصر تلقى معلومات خاطئة ، ولكنه زاد الطين بلة بالادعاء أن ليفي أشكول قد قرر أن القوات الإسرائيلية سوف تحتل دمشق إذا تطلب الأمر ذلك ... وأضاف السادات أن هذا يشير إلى وجود تهديد إسرائيلي مخطط .

غير أن مثل هذا التهديد لم يكن موجودا ، وأنه لم تكن هناك خطة لمهاجمة سوريا واحتلال دمشق .

ولا شك أن رئيس الأركان الإسرائيلي الفظ قد استخدم لغة غير موفقة في تحذير سوريا كرد فعل على تشجيع الغارات الإرهابية داخل إسرائيل .

وهكذا أصبح الموقف في توتر متزايد على الخطوط الأمامية .. وفي ٨ من أبريل ١٩٦٧ ، حدثت معركة جوية حادة دمرت خلالها ستة طائرات سورية من طراز (MIG) بواسطة الطائرات الإسرائيلية فرنسية الصنع (Mirag) دون خسائر إسرائيلية ... وقد أثار ذلك غضب الكرملين ، الذي أخبر السفير الإسرائيلي في موسكو بأن إسرائيل قد أذنبت ببدئها العدوان ، وأنها سوف تدفع ثمن نجاحها غالبا .

وأثناء ما كانت تقارير رابين وأشكول تشير إلى عدم تحمل إسرائيل للغارات الإرهابية السورية إلى الأبد ، أعطى ذلك المجال لناصر للقول بأن سوريا تواجه مخاطر . . ولكن هذا لم يكن كافيا لكي يشن حربا وقائية ضد إسرائيل .

من الواضح إذن أن الاتحاد السوفيتي وآخرين قد أساءوا قراءة الموقف وسقطوا في فخاخ صنيعهم ، تلك الفخاخ التي لم يستطيعوا الفكك منها . . إن الروس

كانوا متلهفين لأن يحققوا مجدا في دمشق ، واحتاروا في فشل طائراتهم ، ومن المحتمل أنهم أرادوا ليس أكثر من إقناع ناصر بعمل مظاهرة عامة تأييدا لسوريا .

ولكن الذى حدث أن ناصر قام بتجميع جيش كبير ، وفي الحال تعالت الدعاية بأنه متوجه لسيناء لمواجهة إسرائيل ، وربما اعتقد ناصر -على الأقل في البداية - أن الدعاية سوف تبقى على صورته كحامى وبطل الشعب العربى ، ومع ذلك كان ناصر مدركا أنه يلعب بالنار ، وليس أدل على ذلك من أنه حينما اقترح عامر إغلاق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيلية حذره ناصر من أن مثل هذه الخطوة سوف تؤدى إلى نشوب حرب ، وأنه حينما أرسل جيشا كبيرا إلى سيناء كان يعتقد أن فرص نشوب حرب هي النصف .

المهم ، أن ناصر حينما سأل عامر فيما إذا كانت القوات المصرية جاهزة للقيام بحرب ، أجابه الأخير بتأكيد جازم بأن كل شئ على ما يرام .

حينذاك أبدت بعض النشرات العربية ، كتلك التى اتبثقت من عمان ، شكوكها في شجاعة ناصر ، وقدرته على الصدام مع إسرائيل ، وذلك لتحثة على تصرفاته غير المعقولة .

وعلى صعيد آخر كان الدبلوماسيون الغربيون مندهشين من موافقة السكرتير العام للأمم المتحدة (يوثانت) على طلب ناصر بسحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ .

والسادات نفسه لم ينكر حقيقة أنه صوت لصالح إغلاق مضيق تيران ، وبالتالي الحرب ... وبرر ذلك لاحقا ، بأن الجيش المصرى كان يحوز أسلحة أفضل من تلك التى كان يحوزها في حرب سنة ١٩٧٣ . . بينما جاءت المعارضة فقط من جانب صدقى سليمان رئيس الوزراء الذى طلب من ناصر الانتظار ، وأن يضع فى اعتباره الموقف الاقتصادى السيئ ، وكذا مشروعات التنمية الطموح التى تجمدت من جراء قطع المساعدات الأمريكية . .

ولكن ناصر لم يلقى بالا لنداءات رئيس الوزراء ، طبقا للسادات . . لكى يحتفظ بهيئته فى العالم العربى . . حيث كتب السادات فى هذا الخصوص . . "ناصر ذهب

بعيدا ، بتهوره فى إشعال دراماتيكية الموقف ، واستخدام وسائل الإعلام العالمية فى زيادة التوتر " .

وفى ظل هذه الأجواء أصبح الكرملين يقظا ، محتجا على أن الأحداث تسير بسرعة أكثر من اللازم . . وأصبح مجهود القوى العظمى وحده هو الذى بإمكانه منع الحرب . . لكن لا بريطانيا ولا فرنسا ولا حيوية الولايات المتحدة كانت الممكن أن تمنع ناصر من الاندفاع للحرب . الأمر الذى كان واضحا بما فيه الكفاية من جهة السادات هو أن ناصر لم يفاجأ بالهجوم ، بل كان يعرف التوقيت ، ولكنه انزعج من تدمير قواته الجوية ، لأنه كان متأكدا من أن قواته الجوية واعية بالخطر ، وأنها على الأكثر سوف تفقد حوالى ١٠ ٪ من طائراتها .

لا يصطدم هذا السيناريو السابق ورؤية هيكل بأن ناصر كان محجما عن التورط فى حرب مع إسرائيل مع اعتقاده بإمكانية عزل إسرائيل ثم إبادة بالاندراج أو طردها من الشرق الأوسط .

وعلى كل فليس هناك برهان على أن إسرائيل عمدت إلى الحرب مع ناصر فى هذا الوقت أو إثارته إلى الحرب عن عمد بصورة واضحة ، بينما تصرف أنور السادات كحليف غير يقظ .

كذلك فإن رئيس الوزراء ليفى أشكول قد حاول جاهدا تجنب الحرب ، وحينما أصبح من المؤكد أن هذه الحرب لا يمكن تجنبها استدعى جنرالات الجيش على وجه السرعة ، لأن أى يوم يمر كان يحتمل معه إمكانية حدوث كارثة للإسرائيليين . . وفوق ذلك لم يكن هناك برهان - من وجهة النظر العسكرية الصرفة - على أن إسحاق رابين أو عيزرا وايزمان لديهما خطة طويلة المدى لجر ناصر إلى حرب مدمرة .

إن السادات لم يلم عامر على عدم إعداد القوات المصرية بصورة كاملة لتحدى الإسرائيليين فحسب ، وإنما أيضا اتهمه تحديدا بتصرفه الأحمق فى جعل المجال الجوى المصرى خاليا أمام القوات الجوية الإسرائيلية المدربة تدريباً عاليا خلال

الساعات الأولى للحرب مما مكنهم من تدمير كل الطائرات الحربية المصرية تقريبا ،
ومن ثم كسب المعركة .

إذ رغم تحذيرات عبد الناصر من أن الإسرائيليين سوف يهاجمون في ٥ يونيو
فإن عامر استقل طائرة ، مصطحبا معه قادة الجيش ، وقاموا بعمل جولة تفتيشية في
سيناء ، وهكذا أعطيت الأوامر لكل طائرات (SAM) والصواريخ المضادة للطائرات
بإطلاق النيران بينما عامر ما زال في الجو .. أثناء هذه الفترة هاجم الإسرائيليون كل
القواعد الجوية المصرية ، الأمر الذي يمكن القول معه إن الحرب بدأت وانتهت عندما
كان عامر في الجو .

ومهما كان الأمر فإن خلاصة ما قرره السادات في هذا الصدد يتمثل في أن
النصر الإسرائيلي كان يمكن منعه لو أن عامر ظل على الأرض ، وأن الصواريخ
المضادة للطائرات التي سمح لها بالإطلاق لم تكن مقنعة .

إنه ليس من الصدق القول بأن لا صواريخ مصرية أطلقت ، كذلك فإن عددا من
الطائرات الإسرائيلية تم ضربها ، وكادت الخسائر الإسرائيلية تكون أكثر ، لكن تم
النصر ، ولم تكن الدفاعات الجوية المصرية لتقدر على الصمود أمام تكاثف الهجوم
الإسرائيلي المباغت .

إن عامر كان على قناعة بأن الأمريكيين سوف ينضمون للإسرائيليين في الغزو ،
ورغم معارضة ناصر لهذه الفكرة ، إلا أنه ألقى باللوم فعليا في إهانتته الكبرى على يد
الولايات المتحدة .

لقد كان لتدمير القوات المصرية على الأرض ، وما تلى ذلك من سرعة تدمير
القوات الجوية ، أثر سيء على القادة المصريين .

ورغم أن السادات أصر على تقديم نفسه في مواقف بطولية ، إلا أنه اعترف
بأنه في هذه الأيام كان مندهشا ، ويمشى كما لو كان يحلم . . كان شعوره بعدم

تصديق الحقيقة يتصاعد مع منظر الجماهير العريضة التي تملأ شارع الهرم الواسع تقى
وتصفق للنصر الذي أنجزته القوات ، والذي حدثتهم عنه وسائل إعلام الدولة ، وللمرة
الأولى والوحيدة في مذكراته يصف السادات نفسه بأنه (كان منكسر القلب) .

ولكن لماذا لم يطرد ناصر "عامر" في الحال عندما سمع بالكارثة الجوية ؟ لماذا لم
ينفذ الجيش المصرى من التدمير ؟ ، لماذا لم يتم خطوطا دفاعية في معمرات سيناء ؟ زعم
السادات أنه حاصر ناصر بهذه الأسئلة لكن ناصر كان يتملص ويعطى إجابات غير كافية .
وعلى هذا الأساس ، ما كان من ناصر الجريح إلا أن ذهب إلى الراديو في الحال ليعطن عن
تحديه ، وتسليم سلطة الرئاسة إلى زكريا محيي الدين الذي كان غير ذائع الصيت .

وخلال دقائق من حديث ناصر ملأت الجماهير العريضة شوارع القاهرة مطالبة
ببقائه قائدا لهم .

عن هذا الموضوع استنتج السادات في مذكراته أن شعور الجماهير لم يكن
نابعا من معاناة قائدهم المحبوب مثلما كان نابعا من ارتباط الولايات المتحدة بعودهم .
ورغم عودة ناصر إلى كرسى الرئاسة ، إلا أن السادات أصبح على قناعة بأن
كارثة ٥ يونيو قد جعلت ناصر شبه ميت .. فوجهه كان عابسا ومتوترا ، وصوته كان
أجوف .. وكتب السادات تعليقا على ذلك " بأن ناصر لم يميت في ٢٨ سبتمبر سنة
١٩٧٠ ، ولكنه مات في ٥ يونية ١٩٦٧ " .

ولا شك في أن حكم السادات هذا يعتبر مبالغاً فيه إلى حد ما بالنسبة لرجل
ميت ، حيث أظهر ناصر طاقة غير عادية ، وكان شخصا بارزا في قمة الخرطوم ذات
قرارات اللآءات الثلاثة الشهيرة (لا سلام - لا مفاوضات - لا اعتراف بإسرائيل) .

كذلك كان ناصر قادرا على الحصول على مبالغ كبيرة من الملك فيصل ملك
المملكة العربية السعودية ، وكذلك من الكويت وليبيا نظرا للخسارة التي أصابت
عوائد قناة السويس .

وفيما يتعلق بوضع عامر ، فإن السادات ركز على أن "ناصر" لو احتاج للشجاعة لاتخاذ إجراء قوى ضد عامر لكان استمدها منه ، لكنه كان يتوقع احتمال تصرف ناصر بدون الالتجاء إليه ، لأنه اعتقد أن عامر أصبح يمثل تهديدا لأمنه الشخصي ، خاصة أن عامر قد قام بتكديس الأسلحة في بيته ، وجمع العديد من صغار الضباط حوله ، والذين طالبوا ببقائه على رأس الجيش ... وهكذا أصبح الخوف على أمن ناصر الشخصي ، لا سيما حينما سمع أن هؤلاء الضباط ينوون السير إلى مقر الرئاسة .

ولذلك قام ناصر بطرد عامر وعين مكانه محمد فوزى لأنه كان محل ثقته ، كما أعطى أوامره بنزع سلاح رجال عامر ... وبعد مواجهة مع ناصر اعتقل عامر ثم قرر الانتحار .

وكان ناصر مندعشا من رد فعل السادات الغليظ تجاه موت صديقه السابق ، إذ حينما أبلغه ناصر الخبر رد عليه السادات قائلا " لو كان هذا قد حدث فعلا فإنه يعتبر أفضل قرار اتخذته عامر كقائد خسر المعركة .. ولو كنت مكانه لمعلتها في الخامس من يونية " .

وحينما عارضه ناصر رد السادات قائلا : " حسنا .. طبقا للتقاليد العسكرية يفعل القائد المهزوم ذلك " .

ويبدو أن السادات في كتابته لهذا المشهد لم يكن مدركا أن "ناصر" بدا أكثر إنسانية منه ، وكان عليه أن يتذكر فيما بعد أنه كانت توجد علاقة شخصية بين ناصر وعامر ... تلك العلاقة التي جعلت ناصر يتسامح مع عدم كفاءة عامر التي كلفت مصر غاليا .

لقد كانت هناك مسحة توراتية في حسرة ناصر الواضحة على موت رجل كان صديقا له طوال حياته ... كان هناك رنين محبة في بكاء ناصر الذي لم يستطع أن يحضر جنازة عامر .

ورغم أفعاله الخادعة شعر السادات بأن "ناصر" لا يمد شعب مصر بالسياسات التي يحتاجها ... كذلك رغم ظهوره متعاطفا مع مظاهرات الطلبة في نهاية ١٩٦٨ حينما ترددت عبارات مهينة لقادة القوات الجوية ، إلا إنه - في نفس الوقت - تحامل على نفسه لكي يتحدث إلى الطلبة ، ويدعوهم إلى أن يكفوا عن هذا التصرف .

أيضا ، استحسن السادات قرار ناصر بإعادة بناء القوات المسلحة .

وتلى ذلك قيام ناصر بشن حرب استنزاف ضد إسرائيل بمساعدة روسية عبر قناة السويس ، تمثلت في ضرب المواقع الإسرائيلية عبر قناة السويس ، وردت إسرائيل بغارات جوية في عمق الأراضي المصرية .. هذه الحرب سببت اتقساما في الرأي داخل الحكومة الإسرائيلية ، إذ دافعت المجموعة القائدة عن الغارات داخل مصر ، بينما حذر الآخرون من أن هذه الغارات سوف تضطر ناصر للبحث عن أسلحة سوفيتية أكثر ، شاملة قوافذ (SAM) وهذا ما حدث بالضبط ، فحينما ضربت إسرائيل مصنعا في أبي زعبل على أطراف القاهرة في يناير سنة ١٩٧٠ مسببة خسائر فادحة ، طار ناصر في زيارة سريعة لموسكو وطلب من الكرملين إمداده بثلاث قوافذ (SAM) لدرجة أنه وافق على أن تصطحب الطواقم السوفيتية تلك القوافذ .

ولمعرفة أن السوفييت لا يوفون بوعودهم ، فقد تعاهد معهم على أنهم في حالة التأخير وخلافه فإتهم سوف يقومون بإمداده بنظام دفاع جوى عن قناة السويس ، ذلك النظام الذي أثبت أنه معرقل جدا للطائرات الإسرائيلية في حرب أكتوبر .

وفي يوم ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٦٩ حدث شيء لم يسر السادات ، كما كان له تأثيرات بعيدة المدى .

ففي لحظة تجلى ، كتب السادات بسخرية نفس غير مقصودة أن "ناصر" جاء إليه قائلا إنه سوف يغادر البلاد لحضور قمة عربية في المغرب ، وأن مؤامرة قد دبرت له ، وأن المتآمرين سوف ينالون منه في يوم من الأيام ، وإنه لا يريد أن يترك

البلاد فى حيرة من بعده ، ولا يريد أن يترك فراغا وراءه ، لذلك قرر تعيينه - أى السادات - نائبا للرئيس .

ويضيف السادات أنه أبدى فزعه وعدم سروره ، متمنيا أن يعرف إذا كان ذلك رأى ناصر ، وحينما أوما ناصر بأنه كذلك ، لم يتردد السادات ووافق على أن يدلى بالقسم قبل مغادرة ناصر البلاد بيومين .

وفيما بعد ادعى السادات أنه سمع بنفسه عن هذه المؤامرة ، لكن الغريب أن ذكر الروس .. وأن أحد الأطباء الروس -والذى زار القاهرة- اعترف بأن الأكرما القلبية التى يعانى منها ناصر خطيرة وأنه لن يعيش طويلا .

ومن المثير للفضول حقا أن يشعر السادات بالقوة بعد تقرير الطبيب المميز لمرض ناصر الواضح ، والذي سوف يزيد ألمه ومعاناته .

ورغم أن "ناصر" كان يصرخ من شدة الألم حينما يكون بمفرده فى مقر إقامته ، إلا أنه لم يرغب عن اللقاءات الرسمية ، ولم يفش سر أنه يعانى ألما فعليا .

ومن ثم بدأت البثور تظهر فى جسمه ، كما كانت ساقاه تؤلمانه لدرجة أن الوقوف كان يمثل بالنسبة له محنة شديدة ، ومع ذلك كانت تبذل مجهودات ضخما للحفاظ على سلامة عقله .

نقطة أخرى مهمة ساهمت فى تدهور حالة ناصر ، وهى أنه بعد قبوله خطأ روجرز الأمريكية لتسوية النزاع الإسرائيلى - الفلسطينى ، أصبح ناصر موضوعا للهجوم العننى من قبل الفلسطينيين .

وواقع الأمر ، فإن السادات كان على حق حينما أشار إلى أنه ليس هناك قائد عربى آخر فعل أكثر من ذلك للتمهيد للمسألة الفلسطينية ، كما حمل بقسوة على أى ملك عربى بارز بدا أنه ترك الشعب الفلسطينى ، كذلك فإنه أسس مبدأ الثقة بما يترتب عليه من وجوب أن تكون كل دولة عربية مستعدة لأن تبذل الممكن والمستحيل من التضحيات من أجل تخفيف المعاملة السيئة التى يتلقاها الفلسطينيون .

وهكذا كانت إهانة الفلسطينيين له وسخرتهم تجعله يتألم بعمق ، ويشعر بأنه يغرق في الخيانة ونكران الجميل ، الأمر الذى عمق حالة الشك وعدم الأمان لديه ... وربما كان السادات على حق أيضا فى الادعاء بأن هذه الخصومة غير المتوقعة مع الفلسطينيين وهجومهم عليه من الأشياء التى عجلت بتدهور حالة ناصر الجسمانية وموته بالسكتة القلبية .

لقد كانت رغبة ناصر الحديدية فى أن ينقذ حياة الفلسطينيين هى التى قادت إلى قمة الضغط المرتفع بالقاهرة ، وهى التى أثقلت كاهله بعبء لا يطاق .

فعلى أثر المذبحة الأردنية للفلسطينيين ، والذين حاولوا الاستيلاء على السلطة فى عمان ، وخلع الملك حسين أو قتله ، قام ناصر على الفور بالدعوة إلى القمة المشار إليها .

وفى البداية لم يدع الملك حسين للقمة ، كما كانت هناك معارضة لحضوره ، لكن ناصر كان مصرا على أن وجود الملك بالمحادثات ، ومن ثم أرسلت إليه الدعوة فى حينه وقبلها .

كانت المحادثات متوترة ، والمشاكسات حامية ، وحينذاك قرر ناصر ضرورة وقف جرائم القتل التى انتشرت على نطاق واسع .. موضحا أن العديد من الفلسطينيين هربوا إلى إسرائيل تجنباً للغضب الأردنى ، كما دفع الفلسطينيون الثمن بأن نقلوا مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية إلى بيروت ، وانتقل معها آلاف الرجال ، الذين أشعلوا الحرب الأهلية وفتحوا المجال للغزو الإسرائيلى .

هذه المحادثات أثارت أعصاب ناصر ، الذى لاحظ السادات أنه فى حالة أقرب إلى الانهيار ، فتوسل إليه أن يذهب إلى بيته للراحة وتفويضه للقيام بالمهام الرسمية .

وفيما يتعلق بهذه المناسبة كتب السادات أنه عرض على ناصر رؤية أمير الكويت قبل أن يأخذ طريقه إلى المطار ، لكن "ناصر" أصر على توصيله للمطار ،

وبعدما أصبح أمير الكويت على متن الطائرة لوحظ أن ناصر لا يقوى على التحرك ،
وطلب سيارته لتأخذه إلى بيته .. وودعه السادات على أساس أنهما سوف يغادران
إلى الإسكندرية للراحة فى اليوم التالى .

وما إن رجع السادات إلى منزله حتى تلقى رسالة من سكرتير ناصر مفادها أن
ثمة دعوة للعشاء مع ناصر .. استراح السادات ثم استيقظ فى غضون ساعات وطلب
أن يغادر إلى مقر إقامة ناصر .. وساعة وصوله أخذ إلى حجرة النوم ، حيث شاهد
ناصر راقدا ومحاطا بالأطباء ، الذين قالوا له إن "ناصر" مات منذ ساعة .

وحينما رفع السادات الغطاء ليرى وجه ناصر ، خيل إليه أنه حى وأنه يغط فى
نوم عميق ... فلما وضع خده على ناصر لم يشعر بفشعريرة الموت ، فصرخ بصوت
عاطفى مرتفع : لا ليس حقيقيا ... إن الذى تقولونه خطأ ... فرد عليه الأطباء بأنهم
بذلوا كل ما بوسعهم لإيقاظ ناصر بعد أن حدثت له سكتة قلبية .

ظل السادات يصر على ذلك ، ثم قال : ولكن ينبغي أن تحاولوا ثانية .. وعند
هذا الحد انفجر الأطباء بالدموع .

ولكونه نائب الرئيس ، قام السادات بعمل ترتيبات الجنائز ، التى كان لابد أن
يحضرها العديد من الملوك والرؤساء ، لكنه هو نفسه لم ير الكثير منها حرقا وأسى .

ما كادت مراسم الجنائز تبدأ حتى بدأ السادات يشكو من التوتر العصبى
والانهيار ، فتم نقله إلى مبنى مجلس قيادة الثورة .

ولأنه أعطى الكثير من الحقائق فقد راح فى نوم عميق ، وحينما استيقظ بعد
ساعات كان أول سؤال له غريبا ، إذ سأل : هل دفن ناصر ؟

وتبين فيما بعد أنه سأل هذا السؤال لأنه كان خائفا من أن تخطف الجماهير
الغفيرة جثة رئيسهم المحبوب وأن تحملها معها بعيدا .

وتبدو رواية السادات هذه صحيحة عند قراءتها لأول وهلة ، ولكن خصومه لا
يوافقون على روايته كلية ... حيث يرى محمد حسنين هيكل أن السادات كان من

أواخر من دعوا لفراش موت ناصر .. وتتخلص رواية هيكل في أن درجة تحمل
السادات لم تكن عالية ، وهي رواية غير مقنعة .

وفي ضوء ما سبق ، وفي ضوء أن السادات كان نائب الرئيس ، فإنه لا أحد
سوف يستطيع الآن تأخير الإعلان عن الرجل المنوط بتولى المسئولية ، بداية بالمهام
المؤقتة للرئيس .

وختاما ، فإن كل خصوم السادات يتفقون وتعطيه بأن موت ناصر مثل مأساة
هزت كل أرجاء العالم العربي .

الفصل السابع

السادات .. الرئيس المفاجئ

كان أنور السادات مستاء للغاية من اختيار ناصر له كنائب للرئيس لأسباب خاطئة ، ذلك أن السادات كان مدركا أن اختياره نبع من كونه شخصا وديعا ، يجب ألا يخشى الرئيس المتعب عصبيا من تأمره ضده .

ويعتقد محمد حسنين هيكل - المشهور سواء بمصر أو في الغرب ، والصحفي والمحرر بجريدة الأهرام القومية ذات التأثير الواسع ، والصديق الشخصي لعبد الناصر ، وأحد وزراء المؤسسة الناصرية - يعتقد أنه لا شك في أن السادات دمر الميراث الناصري كما قدم هيكل صورة غير مشوقة للسادات ..

كذلك جادل هيكل بأنها كانت فقط طبيعة ناصر في فترات توتره ، خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ هي التي أسقطته في منزل السادات ، والذي كان قريبا منه ليتسامر مع ما يمكن أن يطلق عليه أنه صديق ، ولكي يكون هناك بعيدا عن الناس .

ويجدر بالذكر أن الأزمة الأولى لقلب ناصر داهمته في سنة ١٩٦٩ ، ولم يكن غريبا أو من قبيل المفاجأة أن يعين السادات على رأس لجنة للغايات بشأن الدولة أثناء فترة خضوع الرئيس للعلاج ، ولكن سرعان ما كان الرئيس قادرا على العودة إلى وظيفته .

ومع ذلك ، فإن قرار ناصر بتعيين السادات نائبا للرئيس مثل مفاجأة بالنسبة لهيكل ، الذي حاول أن يعطى الانطباع بأن الأمر لم يكن حقيقيا .. وفي هذا الخصوص يروي أن ناصر اصطحب هيكل في رحلة جوية إلى القمة العربية بالرباط ، وحينما كانا يأخذان مجالسهما قال ناصر ضاحكا : "خذ بالك من هذه الكلمات .. هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ .. جاء السادات ليودعني بالمطار ، لذلك أكدت عليه أن يحضر معه مصحفا ، واعتقدت أنه فهم التلميح ، وأقسمت له على المصحف بأنه سيكون نائبا للرئيس حينما أكون خارج مصر" .

فسأله هيكل مندهشا : لماذا فعلت ذلك ؟ .. لذلك قال ناصر : اقرأ هذه .. ثم أظهر مجموعة من البرقيات واردة من فريق أمنى سبقهم إلى الرباط للقيام بعملية

الفحص الأمنى هناك .. بالإضافة إلى تقرير عن أن وزير الداخلية المغربى اللواء محمد أوكفير كان مشاركاً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) فى مؤامرة لاغتيال ناصر .

وعلى ناصر بأنه إذا حدث له شئ خلال هذه الفترة فإن السادات سوف يكون على قمة السلطة شكلياً ، وأن الناس فى الاتحاد الاشتراكي والجيش سوف يعتنقون بالعمل الفعلى ، أما وظيفة السادات فهي متعلقة بالرسميات فقط ، بالإضافة إلى أن الآخرين كلهم سوف يكونون نواباً للرئيس .. وأضاف ناصر : على كل حال فإن الأمر مجرد أسبوع حتى تتجلى أمور تقرير الاغتيال .

تتشابه هذه الرواية إلى حد كبير مع تلك الرواية التى ساقها السادات نفسه مع بعض الاختلافات اللافتة للنظر .

أما الرواية التى ساقها هيكى فهي مدمرة لصورة السادات ، ومع ذلك ، فإنه لو تمت قراءة هيكى بتمعن لاستبان عدم إمكانية قبولها على أنها كل الحقيقة .. حيث تعاني العديد من مواضع الخلل .

ورغم أن السادات لم يعط تفسيراً كاملاً للذى حدث فى مقابلته مع ناصر ، فإن الدليل الذى عول عليه هيكى أنه كان من الطبيعى بالنسبة لناصر أن يعين السادات ، لأن صداقتهما المترهلة كان من الصعب أن تأخذ مأخذ الجد .

وواقع الأمر ، لو أن الصدفة كانت هى المعيار الوحيد للاختيار ، فإن ناصر كان لديه رجال أقرب ، كان بإمكانه اختيارهم للوظيفة .

لقد ذهب هيكى إلى أن ناصر كان لديه رأى بالنسبة لعدم مقدرة السادات وانعدام صفاته وقدراته القيادية .

وفى الحقيقة فإن الوظائف التى سمح ناصر للسادات بتوليها لم تمده بأى أسس للقوة ، فلا الجمعية الوطنية ولا المؤتمر الإسلامى ، ولا وظيفة التحرير بجريدة الجمهورية

كانت من الوظائف التي يمكن أن تدفع السادات إلى غمار الرئاسة ، ولكن الاستنتاج الذي يريد هيكल إيصاله إلى قرائه هو أن ناصر تجنب منح السادات وظائف تتطلب صناعة قرارات مؤثرة في حياة الدولة لأنه شك في قدرات السادات .

ومجمل الأمر ، أن السادات في رأى هيكل قد جرد ميراث ناصر كلية واعتقل واضطهد أنصاره .

وبدون قبول كل العبارات الذاتية التي ساقها السادات ، فبالإمكان قبول ذلك السيناريو الذي قدمه عن ذلك هيكل .. إذ لا شك أن السادات ظل فترة طويلة مزيلا شخصيا لحساسية ناصر العالية .

أما ما ذكره هيكل من أن ناصر قد تحدث عن السادات كنائب للرئيس وأن أشخاصا ما في الاتحاد الاشتراكي والجيش سوف يقومون بالعمل الحقيقي ، وأنه لم يحدد أية أسماء ، فإن ذلك يمثل دليلا على أن ناصر كان حذرا من تلك الشخصيات الجوعى التي حاولت إقناعه بأن مكانتها ينبغي أن تكون في قمة القيادة ، تلك الشخصيات التي بنت تأييدا لها في الدولة والقوات المسلحة والتي أصابته ومصر بالفشل .. إذ لم يثبت على صبرى أنه رئيس غير كفء للوزراء فحسب ، وإنما أظهر حماسه إزاء التوجه السوفيتي في الوقت الذي أصبح فيه ناصر غير موهوم بخداع الكرملين له .. أما زكريا محيي الدين الذي حاول ناصر - دون نجاح - أن يترك له رئاسة الدولة بعد نكسة ١٩٦٧ أثبت فشله كقائد في ظل ناصر .. وفيما يتعلق بعامر ، فقد انتحر بعد اتهامه بأنه أس النكسة ، وأن سبب فساده كان تسامح ناصر .

وببقى السادات فقط هو الذي استطاع الإفلات من الفشل ، ولم يحرك الشك لدى ناصر ، لأنه لم يتمرس السلطة فعليا ، ولم يظهر تمنيه لاستغلالها .

- لقد كان هناك تحول غريب في العلاقة بين ناصر والسادات ، حينما عاد الرئيس من زيارته غير الناجحة إلى موسكو ، حيث كان قد ذهب لبحث عن الأسلحة بجنون حتى يمكنه التصدي للغارات الجوية الإسرائيلية ، بيد أن قواذف (M . G - 23) والتروس

الإلكترونية التي وعد بها لم تصل .. وكانت كل تفاصيل تلك الصفقة قد نوقشت مسبقا بواسطة كل من السادات وفينو جرادوف السفير السوفيتي بالقاهرة .

ولدى نزوله من الطائرة عائدا من موسكو أدهش ناصر السادات بتعليقه بأن السوفييت حالة ميؤوس منها .. مضيفا أن كل الأمور التي ناقشتها أنت وفينو جرادوف لم تصل إليهم أو أنهم قصدوا تجاهلها .

كان السادات متأذيا من هذه التعليقات ، لكنه كان واعيا بأن ثمة سببا آخر كان وراء رحلة ناصر إلى موسكو ، يتمثل في العلاج من البول السكري .. ولذا قال له : "والله إنك تبدو شابا في سن العشرين .. ماذا فعلوا لك ؟ .."

فرد ناصر .. "إنهم وضعوني في غرفة أكسجين ، ذلك المكان الذي يعالجون فيه كبار زوارهم .. لكنك ربما آملت ألا أعود حتى تبقى في السلطة " ..

وهنا ضحك الرجلان من القلب .. ولا شك أن الرجلين كانا في مزاج مازج ولكن تعليق ناصر برغبة السادات بالبقاء في السلطة كان غريبا .. ورغم أن ناصر كان دوما قلقا من تعرضه للمؤمرات ، إلا أن هذه هي المرة الأولى التي ينوه فيها ناصر عن نوايا السادات .

إن ناصر قرر بوضوح ألا شيء يخيفه من السادات ، ولكن كان لزاما عليه أن يعرف أولا أنه شخص بعيد عن التعقيد ، وأنه أقدر من رفاقه على اكتساب ثقة الجمهور .

وهكذا ، حاول السادات أن يسارع بشفاء ناصر من نكسة سنة ١٩٦٧ .. إذ ، كما ذكر السادات ، لم يشف ناصر حقيقة من صدمة الهزيمة الكاملة .

استطاع السادات أن يتحدث إلى ناصر بالجدة وبالصورة المباشرة التي لم يقو الآخرون على التحدث معه بها ، ظهر ذلك جليا في أنه حينما دخل حجرة ناصر ووجده يكتب خطاب الاستقالة استدار إليه قائلا : " لماذا أنت جالس هنا منشرجا

للفاية ؟ يجب أن تغادر إلى صعيد مصر لكي تكون رمزا للنهضة ، بينما نبقي نحن هنا لنحارب ، سوف نعد الناس للرفاهية في الشرقية ومقاطعات السويس ، ونحارب إسرائيل وجها لوجه " .

فرد عليه ناصر : "ولماذا تريد أن تتصرف بهذا الأسلوب ؟ " فأجابه السادات : " ألم تسمع بإعلان القادة اليهود عن أنهم عبروا إلى الضفة الغربية للقتال ؟ " حينذاك أجاب ناصر بإسهاب شارحا الموقف الحقيقي ، و متهما السادات بأنه سقط في نفس المطب شأنه شأن أي فرد آخر ، ذلك أن ناصر قد فحص الموقف ، واكتشف أن القادة عديمي الأهمية أساءوا ما يحدث وأنهم أنجزوا أهدافهم باغتيال الرئيس جونسون ، وأن الإسرائيليين ليست لديهم نية باحتلال مناطق مصرية مأهولة بالسكان .

هذا الحوار كشف عن العديد من الأبعاد .. حيث أظهر السادات الغيور الحماسي ، تلك الصفات التي كانت يجب أن تقلق ناصر ، لكنها أيضا أثبتت السادات في إطار ميله للفضائل أكثر من الرئيس المصدوم .. كذلك كشف عن عدم الاستعداد القتالي لدى رتب اللواءات .

أما بخصوص ما طرحه البروفيسور رفائيل إسرائيلي من أن ناصر أراد بتعيين السادات نائبا للرئيس أن يكافله على قيادته الناجحة للوفد المصري في مؤتمر القمة الإسلامي بالرباط ، فإنه طرح ليس مقتعا ، حيث نهض المؤتمر بالأساس للتصدي للمحاولة التي قام بها الجنوبيون المجنونون لإحراق المسجد الأقصى بالقدس في أغسطس سنة ١٩٦٩ ..

ورغم أن إسرائيل فسرت جريمة الحرق بأنها فعل جنوني غير مقبول بالعالم العربي ، الذي زعم أنه جريمة إسرائيلية متعمدة ضد الإسلام ، حتى بعدما ثبت بالدليل القاطع أنها فعلة مجانين ، فقد رفضت السياسة العرب سحبهم للاتهام .

وقد قادت المملكة العربية السعودية ، والتي ترى نفسها وصية على المزارات الإسلامية المقدسة ، والتي ترتفع فيها مكانة الأقصى ، قادت الحملة للتحريض ضد إسرائيل .

واستجابت مصر بسرعة للمبادرة السعودية ودعت ٢٠ دولة إسلامية للقمة في الرباط .

وجدير بالإشارة أن هذا المؤتمر كان أول المؤتمرات العديدة التي اعتادت الشخصيات الإسلامية استخدامها لإثارة الكراهية ضد دولة اليهود في إسرائيل .

وكان أنور السادات ، من خلال خبرته كسكرتير للمؤتمر الإسلامي اختيارا طبيعيا لقيادة الوفد المصري في القمة .. وفي عيون المصريين - كما في عيون الإسرائيليين وأنجز السادات بصورة جيدة في القمة الإسلامية حيث أكسبه حديثه إلى أعضاء وفده ، والذي كان أشبه بالرد ، احتفاء كبيرا .

إلا أن ذلك النجاح لا يمكن اعتباره كافيا لأن يقلده ناصر وظيفه نائب الرئيس . سبب آخر طرحه البروفيسور رفائيل إسرائيلي ، ولكنه هو نفسه دحضه ، يتمثل في أن الجماعات المعارضة قد زعمت أن ناصر كان قد وعد عبد اللطيف البغدادي بمنصب نائب الرئيس (والبغدادي هو أحد الضباط الأحرار كبار السن ، عينه الرئيس مرة رئيسا للجمعية الوطنية بعد أن كان قد وعد بها السادات ، لأنه رأى - حينذاك - أن البغدادي أكبر سنا) .

ومع ذلك ، وتحت أمل الضغط على الكرملين لإمداد مصر بالقوافل وبعض الأسلحة الأخرى هدد ناصر بالاستقالة إذا لم يتم ترك الوظيفة للسادات ، والذي يمكنه التعامل مع الأمريكان .

وفي الحقيقة ، فإن ناصر لو كان ينوي تهديد الروس بالكارثة الأمريكية لكان اختار زكريا محيي الدين المعروف بصورة أفضل لدى الأمريكان .

ورغم أنه من الصعب بالنسبة لخصوم السادات قبول أنه كان الأنسب بالنسبة لناصر ، إلا أن هيكمل صاغ عبارة لا يمكن أن يقبلها العقل تتمثل في أن السادات لم يكن لديه التنظيم الكافى لفهم تعقيدات العالم العربى وتطلعاته .

فبالعكس ، رغم أن السادات لم يكن حاصلا على تعليم رسمى أكاديمى ، إلا أنه كانت لديه معرفة واسعة بالحياة اليومية العربية أكثر من أى من زملائه بمن فيهم ناصر وصبرى ، حيث قابل السادات أعدادا ونوعيات مختلفة من البشر .. منهم الخاطئون ومنهم القديسون ، كما عرف كيف يتعايش فى البيئة القاسية من خلال السجن .. وإذا كان هناك شخص مناسب من حيث الخبرة ليحكم دولة مثل مصر بجماهيرها الفقيرة والفقيرة والامية والتي دأبت على العمل الشاق والمعاناة ، والمستعدة لقبول المصاعب وذات الإيمان العميق بالله .. فإن هذا الشخص هو أنور السادات ، الذى ولد لأبوين فقيرين فى قرية ميت أبو الكوم .

إن محمد حسنين هيكمل استهزأ بالعديد من بيانات أنور السادات عن العقيدة والممارسة لإيمانه الإسلامى .

ولا شك أن السادات كابد تغيرا عميقا فى شخصيته وفى توجهه نحو الله فى السنوات العديدة التى قضاها فى السجن ، وكانت مأساة حرب يونيو سنة ١٩٦٧ أشد عتوا .

إذ بعد انهيار النكسة أقام السادات حله على ضرورة إعادة الشعور بالاعتزاز لدى الشعب المصرى ليجعل من نفسه أداة للإيجاز ، وكذلك حثته النكسة على أن يرى الإسلام فى صورة جديد ، حيث اعتاد الملايين من المصريين العاديين (الفلاحين والعمال وسكان المدن) النظر إلى الإسلام على أنه الخضوع لمشينة الله .

والآن ، ولأن دولته أصبحت ذليلة فقد بدا السادات يرى الإسلام بصورة أكثر إيجابية .

ففى خطبه أعلن السادات قائلا : "إن الله أمرنا بأن نؤمن ، ونحن جميعا فى حاجة لأن نملأ قلوبنا بالإيمان ، بالإضافة إلى الأسلحة التى نحملها ، حتى ندخل المعركة مسلحين بالإيمان ، وحتى نكون على مستوى المسئولية فى حمل الرسالة التى حملنا الله إياها فى المعركة .. فقد سلحنا النبی محمد (صلی الله علیه وسلم) بكل سلاح إيمانى يستطيع أن يجعل يدنا هى العليا ، ويمثل الاتحاد جزءا من الحملة التى ننشدها من أجل عزة وشرف العرب .. نحن مشجعون بالإيمان وبالرسالة التى جاء بها النبی (صلی الله علیه وسلم) لنا .

الفصل الثامن

السادات يبدأ ثورة جديدة

كان أول ما فعله السادات بعد توليه الرئاسة هو طرد وزير الداخلية شعراوي جمعة ، وتبع ذلك في الحال استقالة أعضاء قياديين آخرين من مجموعة على صبرى ، من بينهم مدير مكتب الرئيس ومدير المخابرات ووزير المعارف وآخرون .. إذ اعتقد هؤلاء أن غيابهم سوف يؤدي إلى توقف عجلة الحكومة ، وسوف يجبر الرئيس المعاقب على استرجاعهم بشروطهم .

كذلك فإن هناك تهديدا آخر كان منبعه اللواء محمود فوزى وزير الحربية ، والذي أعطى أمرا للواء محمد صدقى بأن يتخذ ترتيبات للسيطرة على القاهرة ، كما استدعى فوزى قادة الجيش وأخبرهم بأن السادات يبيع مصر للأمريكيين .

وكان وزير الدولة الأمريكى قد وصل القاهرة حيث قال للسادات - المذهول - إن الجيش المصرى ارتأى أن اقتراح روجرز واقتراحات الرئيس غير مقبولة .

والذى حدث أن اللواء فوزى حينما توجه للواء صدقى سائلا إياه على ملأ : هل أنت جاهز ؟ فهم ما يعنيه فوزى .. ولكن رد اللواء صدقى كان مفهما ، إذ اتهم فوزى بجر الجيش إلى السياسة وأصر على أن القوات المسلحة لن تتدخل فى السياسة ، فى الوقت الذى يتم فيه الإعداد للمعركة ضد إسرائيل .

وقد كوفئ اللواء صدقى بصورة سريعة على إخلاصه ، وتم تعيينه وزيرا للحربية بعد أن تم إنقاذ السادات بمزيج من الحظ ونظام الجيش تحت القيادة الشجاعة للواء صدقى .

وعلى كل حال ، فإن هذه هى رواية هيكل للأحداث ، والذي رأى أن السادات بدا فى صورة البطل المنتصر على عصابة المتآمرين المرعبة دون حاجة لأن يفعل شيئا .

إلا أن هذه الرواية التى صورت السادات فى صورة الرئيس الضعيف المرتبك ، لا يمكن الوثوق بها ، وسبب ذلك أنه لو كان السادات ضعيفا - كما صورته هذه الرواية - لكان قد ألقع عن الصراع ، ولكن الحقيقة أن السادات وقف حازما وأهان

المتأمرين إلى أن انتهى بهم الحال إلى المعتقل ، ليس هذا فحسب ، وإنما أيضا أذهل الأمريكيين بقدرته على البقاء .. إذ عندما جاء ريتشارد سون إليسون مندوبا عن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون لحضور جنازة عبد الناصر ، رفع تقريراً للإدارة الأمريكية مفاده أن السادات لن يستطيع البقاء أكثر من أربعة أو ستة أسابيع .

أما فيما يتعلق برواية السادات للأحداث ، فقد ذكر فروقا جوهرية عن مجموعة صبرى ذات التوجه السوفيتى ، حيث رأى السادات أن هؤلاء - الخصوم - لم يكونوا ضد خطة روجرز فحسب ، وإنما أيضا لم يكونوا متحمسين لخوض المعركة ضد إسرائيل ، وبرد السادات ذلك بأن ٥٠٪ من الأراضي المصرية كانت مفتوحة أمام الغارات الجوية الإسرائيلية كما ثبت أثناء عامى ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

ورغم أن السادات تحدث عن الضعف المصرى فإنه كان واعيا بأن القوات المسلحة قد حققت تقدما ملحوظا نحو الشفاء من عار ١٩٦٧ ، حيث أظهرت حرب الاستنزاف أن القوات يمكنها التعامل مع المدفعية الثقيلة بفاعلية ، لدرجة أن القادة الاسرائيليين كانوا مهتمين بذلك سرا ، ولكن بصورة غير كافية كما أثبتت الأحداث اللاحقة .. كذلك كانت هناك صدمة للجمهور الإسرائيلى كان منبعها غرق غواصة إسرائيلية ، وساد الاتطباع بأن البحرية المصرية لم تعد كما كانت من قبل .

ولذا قام هذا الجمهور بإضراب .. ورغم ذلك اغتر الإسرائيليون بالنصر المدمر لحرب الأيام الستة ، ولم يرسوا استنتاجات صحيحة ، وكان عليهم أن يدفعوا الثمن غالبا جدا فى حرب أكتوبر .

وبخصوص صدام السادات مع القادة السوفييت ، قرر السادات أنه حينما زارهم فى مارس ١٩٧١ كان يبحث تحديدا عن أسلحة ردع بطاريات (صواريخ) SAM وذخيرة يسد بها النقص الذى حدث من جراء حرب الاستنزاف .

بيد أن السادات - شأنه شأن ناصر - عانى الإحباط من جراء التأخر السوفيتى فى إمداده بالأسلحة التى كان يحتاجها ، بل إن بريجنيف وعد بإمداد مصر بالعديد

من الأسلحة غير تلك التي طلبها السادات ، ومع ذلك اضطر السادات للموافقة .. حيث عرض بريجنيف أن يرسل ٣٠ من أحدث القوافل المحاربة وأكثرها تميزا (MIQ-25) وحينما سمع السادات ذلك أوضح أن الطيارين ينبغي أن يتلقوا الأوامر منه مباشرة ، وأنه ليس في حاجة لتكرار كلامه بشأن الاختلافات التي دارت بشأن الصفقة .

وطبقا لرواية السادات ، فلم يرسل بريجنيف مما وعد به سوى أربع قوافل (MIQ-25) ، تلك القوافل التي اتهم السادات الاتحاد السوفيتي بأنه أرسلها لاستخدامها في التجسس ضد الأسطول السادس الأمريكي ، وليس من أجل استخدامها في المعركة ضد إسرائيل . وأنه أبدى استعدادا لشراؤها ولكن الكرملين رفض وسحبها .

وفي أبريل ١٩٧١ أرسل بريجنيف جزءا من بطاريات SAM والذخيرة التي وعد بها ، بينما لم يصل الباقي ..

وفي تعليقه على النهج السوفيتي قال السادات .. " إن الكرملين أراد أن يرى أيدي المصريين مكبلة حتى لا يكونوا قادرين على اتخاذ قرار "

ويحتمل أن تكون هذه الفترة من الإحباط الشديد هي التي دفعت السادات لأن يصوغ السياسة التي أدت فيما بعد إلى رحلته إلى القدس (بعد حرب أكتوبر) ، إذ قبل التضحية بحياة الآلاف في المعركة ، وتحديدًا في ٤ من فبراير ١٩٧١ أعلن السادات عن مبادرة للسلام تتلخص في أنه لو قامت إسرائيل بسحب قواتها الموجودة في سيناء من قناة السويس إلى المعمرات ، فإنه سيفتح قناة السويس ويقيم علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة ويعقد اتفاقية سلام مع إسرائيل تحت رعاية الأمم المتحدة ، ويومذاك علق السادات " بأنها المرة الأولى منذ ٢٢ عاما التي يكون فيها لدى قائد عربي الشجاعة ليعلم عن ذلك " .

وواقع الحال ، فإن هذا العرض كان بمثابة خطاب موجه إلى الجمعية الوطنية والتي أعيد تسميتها لتصبح مجلس الشعب حينما كان الصراع مع مجموعة على صبرى على أشده ، ورغم أن هذا العرض لم يلق احتجاجا من قبل المعارضة ، بل

كان هناك ترحيب بالانفتاح على العالم الخارجى ، إلا أنه لم يكن له نفس رد الفعل، كما حدث بالنسبة لعرض الذهاب إلى القدس بعد ست سنوات .. كذلك فإن مثل هذه المبادرة لم تكن لتخرج إلى حيز النور ، حيث إن السادات لم يعهد للولايات المتحدة أو حتى لأى من وزرائه بالتحرك ، وأيضا لم تكن هناك أية اتصالات دبلوماسية خلف الستار بين حيايين والوزراء المصريين كما حدث أثناء حكم ناصر .

وعلى الصعيد الإسرائيلى اقترح موشى ديان – أحد القادة العسكريين والسياسيين الإسرائيليين – ساخرا على مجلس الوزراء ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من على ضفاف قناة السويس ، أما رئيسة الوزراء جولدا مائير – والتي لم توافق على اقتراحات ديان - فلم تتأثر بعروض السادات ، خاصة أن تلك العروض لم تكن تتضمن أية تنازلات أو توضيحات من قبل مصر .

إن هذه المسألة كان يمكن اعتبارها عملية مضاربة من قبل السادات لو أنه كان قد أعد لأى نوع من السلام مع إسرائيل - كما حدث فى كامب ديفيد - لكنه كان يريد التعطيم على الاسرائيليين الذين بدا الأمر واضحا لديهم بما فيه الكفاية ، إنه كان يستهزئ بهم بصورة ما ، عندما انتهت سنة ١٩٧١ (وهى سنة القرار الذى اتخذه بكسر حالة اللاسلم واللاحرب مع إسرائيل) ، لذا اتجه بعض الاسرائيليين إلى أن يعاملوه كمهرج سياسى .

لكن عندما يدرس المرء تصريحات السادات فى تلك الفترة سوف يكتشف أن النقطة التى كان يحاول أن يثيرها فيما يتعلق بذلك السلام كانت - شأنها شأن خيار الحرب - تتمثل فى عدم إعطاء وعد محدد ، والتعلل دائما ببعض الظروف التى خدعت المراقبين الأجانب .. والاستنتاج القوى الذى يمكن الخروج به من عباراته هو أن حالة اللا سلم واللاحرب لا يمكن أن تستمر .

ولم يكن بغريب حينذاك أن يتجه إلى نفس الشخص الذى اتجه إليه بعد خمس سنوات للمبادرة مع الإسرائيليين ، هذا الشخص غير المحبوب هو ديكاتور رومانيا الشيوعية نيكولاس شاوشيسكو ، والذى رغم أنه كان منضما للواء حلف وارسو ، إلا

إنه أظهر استقلالاً مدهشاً في سياسته الخارجية .. كذلك فرغم أنه كان أكثر لينينية في برامج دولته الاجتماعية ، فإن دولته كانت الدولة الشيوعية الوحيدة التي أبقت على علاقات دبلوماسية مع إسرائيل بعد حرب الأيام الستة ، كما سمح شاوشيسكو باستمرار هجرة اليهود الرومان إلى إسرائيل ، وأقام علاقات عمل مع النثرى اليهودي المعروف موشيه روزين ، الذي ساعده في كسب امتيازات تجارية مع الأمريكيين .

بالإضافة إلى ذلك سمح شاوشيسكو لليهود الرومان بممارسة شعائهم الدينية والإبقاء على العديد من المدارس اليهودية ..

ونيكولاس شاوشيسكو لم يكن انتهازياً ، ولم يكن كما تم وصفه بالطاغية الفاسد ، وإنما كان الرجل الشجاع والقائد الوحيد في أوروبا الشرقية الذي تصدى للكومين ، كما أنه - دون شك - لعب دوراً في معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .

لقد وصفته جولدا مائير في مذكراتها بأنه كان رجلاً جذاباً وحيوياً حينما قابلته في سنة ١٩٧٠ ، وأبدت له إعجابها بأنه لم يذعن للضغط العربي ، وأنه صمم على الإبقاء على الروابط الدبلوماسية مع إسرائيل والدول العربية جنباً إلى جنب .

وكانت مائير قد زارت بوخارست سنة ١٩٧٢ بناء على دعوة وجهها لها شاوشيسكو ، وحينذاك أخبرها شاوشيسكو بأن السادات قد قال له إنه مستعد لمقابلة الإسرائيليين ، سواء كانت المقابلة مع جولدا مائير أو أى قائد إسرائيلي آخر ، المهم أن تتم المقابلة . فردت عليه مائير بأنها أفضل أخبار سمعتها منذ عدة سنوات .

وهكذا كان القائدان (مائير وشاوشيسكو) مثارين ، ولم يكن ثمة شك في ذهن شاوشيسكو ، الذي كتبت عنه مائير أنه كان يقدم رسالة حرة وتاريخية .

ويومذاك تحدث القائد الروماني عن أن الطرفين لا ينبغي أن يعملوا من خلال مكاتبيهما الأجنبية ، وإنما سوف يتم الاتصال بها عبر مستشارها السياسى . وبعد سنوات عديدة ظهر أن الجليد - حينذاك - قد أوشك على الذوبان ، ولكن ذلك لم يحدث .

وعن السادات قالت جولدا مائير "إننا حينما عدنا إلى القدس انتظرنا وانتظرنا ولكن دون جدوى . . فلم يكن هناك تقدم على الإطلاق ، وأن الذى قاله السادات لشاوشيسكو - وهو بالتأكيد قال له شيئا - كان لا معنى له على الإطلاق ، وشككت فى أن السبب هو أننا لم نسمع من شاوشيسكو أى شئ أكثر مما قاله عن المقابلة مع السادات ، إن شاوشيسكو لم يستطع أن يعترف لى بأن السادات خدعه " .

غير أنه بالنظر إلى ما حدث بعد خمس سنوات ، يبدو أنه من المحزن أن هجوم جولدا مائير ضد السادات كان ينقصه التبرير ، إذ أنها لم تذكر إنها قامت بأى مجهود لتعرف لماذا لم يتصل بها شاوشيسكو بخصوص عرض السادات . لقد كان عليها أن تسأل نفسها : لماذا أراد السادات أن يخدع القائد الرومانى ؟ إلا أننا نعود ثانية ونقول إنه إذا كان التقرب الاسرائيلى إلى شاوشيسكو كان من الممكن أن يحل اللغز، فإن جولدا مائير والقادة الاسرائيليين الآخرين كان لديهم من الأسباب والدوافع ما يجعلهم يشكون فى رغبة الرئيس المصرى فى مقابلتهم .

أبرز هذه الأسباب والدوافع أن ديفيد بن جوريون - مؤسس دولة اليهود ورئيس وزرائها أثناء حربى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ - قد عرض أكثر من مرة أن يقابل القادة العرب من أجل محادثات السلام ، ولكن عرضه كان دائما يقابل بالرفض .

لكن هذا الطرح أيضا يشكك فيه المؤرخون فى إسرائيل ، خاصة من جيل الشباب ، إذ لم يكن هناك سبب يجعله يندفع الى مائدة التفاوض ليقدم تنازلات للعرب وهو فى موقف الأقوى لا الأضعف .

وتذكر جولدا مائير أنها وجهت نداء للقادة العرب للقائها عام ١٩٦٩ قائلة " نحن نعد لمناقشة السلام مع جيراننا فى أى يوم وبخصوص كل المشاكل " .

وأضافت أن " ناصر " رد عليها قائلا " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، ولا دعوة أقدم من الدعوة للحرب " .

كذلك ذكرت مائير أنها تلقت نفس الرد من عمان ودمشق وببيروت ، وأن مقالة في أحد الصحف الأردنية الرائدة في يونيو ١٩٦٩ قد علقت على هذا الموضوع كالآتي " أعدت السيدة مائير للذهاب إلى القاهرة لإجراء مناقشات مع الرئيس ناصر لكن للأسف ، فهي لم تدع لذلك ، وهي تعتقد أنه سيكون يوما رائعا بالنسبة للعالم أن يظهر الشرق الأوسط بدون بنادق . . إن جولدا مائير تتصرف مثل الجدة التي تحكى لأحفادها حكايات قبل النوم " .

وعلى هذا الأساس ، لم يكن مستغربا أن تتصرف جولدا مائير بهذه الطريقة تجاه الصمت الحادث بعد رسالة شاوشيسكو ، ورغم ذلك يبقى المراقب يحس بمشاعر الندم على السلام الذي لم يتحقق في هذه الفترة .

وربما أدرك السادات أنه يحتاج لمزيد من الوقت لتثبيت مكانته في الدولة ، وربما أيضا أساء فهم جولدا مائير ، وربما ثالثا كان يخطط لخداع شاوشيسكو بإعلانه بأن سنة ١٩٧١ أو سنة ١٩٧٢ سوف تكون سنة الحرب أو السلام ، وهو على يقين بأنه لن يستطيع تحمل تكاليف الحرب .

والاحتمال الأكثر ترجيحاً أن السادات قد أبدى استعداداه لمبادرة سلام مع إسرائيل - مع علمه بأن التوقيت غير مناسب لذلك - لأسباب خاصة بكسب عامل الوقت ، لبدأ التخطيط لحرب محدودة بنية مزدوجة ، من ناحية لرد شرف القوات المصرية ، ومن ناحية أخرى لإيقاظ القوى العظمى - وخاصة الولايات المتحدة - لكي تصبح طرفا قريبا في عملية السلام ، وهو السيناريو الذي بدا مناسباً لشخصية السادات ورؤيته للمستقبل واحتياجات مصر العاجلة .

ولو تأملنا علاقات أنور السادات والاتحاد السوفيتي لوجدناها قد اتخذت ملامح عامة وملاح خاصة . . وفي خطبه كان السادات يمتدح القادة السوفييت بكثرة ، ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك أنه في خطاب شهير له في ٢٣ من يوليو سنة ١٩٧١ قال للشعب المصري : " لقد تم بناء أكثر من ١٢٠٠ مصنع ، إنني بكل احترام

يجب أن أوجه شكرى وامتنانى للاتحاد السوفيتى الذى ساندنا خلال محنتنا ، والذى ساعدنا فى التصنيع قبل وبعد العدوان وحتى اليوم . . إن الاتحاد السوفيتى ساعدنا فى بناء السد العالى ، وبما أثبتت للولايات المتحدة أو أى شخص آخر أننا لسنا عاجزين . . . إنه من الصعب ايجاد كلمات تعبر عن الشكر للاتحاد السوفيتى ، لأننا فى كل وقت نقدم فيه على التنمية أو أى مجال آخر نجد الروس يقفون بجانبنا ، يساندوننا ، ويمنحوننا مساعدات غير تقليدية من صديق "

أما بخصوص حديث السادات عن الحرب والسلام ، فقد استخدم لغة معقدة أدت إلى إساءة الفهم ، كذلك تجدر الإشارة إلى أن خطابات السادات يصعب توصيفها بأنها لها نفس القيمة التى يتوقعها الناس من قادتهم فى الغرب ، حيث كانت ملتفة وغير سلسة ، ومن الممكن أن تستمر لأربعة ساعات ، وربما تحتوى بعض القصص والوقائع عن خبراته كضابط ، وعن صباه فى القرية التى أمدته بالغرام فى إلقاء الخطب .

ولأن الأحاديث الشفوية والخطب فى مصر - شأن كل الدول العربية - تلقى أهمية خاصة وتعد ضرورية للتعرف على حيثيات الأحداث الحقيقية ، فإن إسهابات السادات واستطراداته كانت تلقى استجابة من قبل الجماهير ، الذين اعتادوا أن يحتشدوا فى جموع صغيرة لمناقشة معنى عبارات معينة ، كما أن التعبيرات التى تتعلق بالأرض ، والتى تعلمها فى ميت أبو الكوم ، كانت ترفع الابتسامات ، وتسخن المناقشات . [مجمل القول أن خطابات السادات يصعب تقييمها ، لاسيما أنها كانت تحمل مشاعر متناقضة فى المناسبات المختلفة ، ومن أبرز الأمثلة وضوحا على ذلك أن السادات خطب ذات مرة قائلا : " حينما نأتى إلى قرار الحرب أو السلام يجب أن نتحلى بأكبر قدر من الحكمة والمسئولية . . إذ ليس هناك أسهل من القول بأننى سأأخذ القرار غدا ، وسندخل المعركة . . لا . . هناك شئ اسمه رأى العالمى والقوى الأخرى وخلافه . . الروس ساعدونا وبصورة غير تقليدية ، أعطونا مساعدات بدونها لم نكن قادرين على الوقوف بسرعة خلال الأربع سنوات الماضية ، ونتحدث بصوت مرتفع اليوم . .

أنا أعلنت سابقاً أن قواتنا المسلحة تتبع الخامس عشر من مايو ، وأنا أكرر الإعلان لكم ، ومن خلاكم إلى الناس ، والعالم كله ، لأصدقائنا وأعدائنا . . أنتنى لن أسمح بمرور عام ١٩٧١ بدون تقرير هذه المعركة . .

أنا قلت وأكرر أن سنة ١٩٧١ سوف تكون سنة خادعة ، ولو تطلبت المعركة أن نضحى بمليون ، فإننا مستعدون للتضحية بمليون . .

الاتحاد السوفيتى يساندنا سياسياً وعسكرياً ، ودول عدم الانحياز مثل يوغسلافيا والهند تساندنا ، الدول الإسلامية وعلى رأسها باكستان تساندنا ، أوروبا الغربية وخاصة فرنسا ساندتنا ، وأنا من كل قلبى أوجه الشكر للرئيس الفرنسى والشعب الفرنسى والحكومة على موقف فرنسا كشعب عظيم ، ظلوا على تأييدهم لنا فى حقوقنا المشروعة . . واتجاه بريطانيا أيضاً تحسن بلا شك . . حزب المحافظين أخذ موقفاً شجاعاً عن ذلك الذى اتخذه حزب العمل . . نحن نقبل حل الأمم المتحدة والانسحاب الكامل وغير المشروط . . نحن نؤيد بعثة جيرنج . .

إن المرء يجب أن يكون متعاطفاً مع أى سفير بالقاهرة يحاول أن يحل هذا الخطاب ، ويرصد نوايا السادات الحقيقية . . فلا السادات يبدو وكأنه يدعو للحرب ، وفى نفس الوقت يقبل البعثة التابعة للأمم المتحدة . .

والملاحظ أن السادات بدا مخلصاً فى شكره للاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك فإنه كان خائفاً ومستكراً تدخل السوفيت فى شئون مصر الداخلية . . كذلك شعر السادات بأن عملاءهم لا يريدون فقط إزاحته عن السلطة ، ولكن أيضاً اغتياله ، وقد زعم أنه اكتشف مؤامرة من هذا القبيل واستطاع أن ينجو منها .

والملاحظ أيضاً أن السادات كان مسروراً بوصف صداماته مع القادة السوفيتيين فى الكرملين ، لدرجة أنك حينما تقرأ وصفه لهذه الصدامات تستشعر أنها كتبت بعد سنوات عديدة لاحقة ، وأنه استفاد فيها من وحى الدراما المسرحية . .

ومع ذلك ، فإنيك تستشعر في إحدى هذه الكتابات بأنها تتطوى على قدر كبير من الحقيقة .

يذهب هذا الوصف إلى أن خروشوف قائد الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي قد قال للسادات إن الظروف في الاتحاد السوفيتي أفضل من الظروف في مصر ، لأن الاتحاد السوفيتي جنى ثمار الشيوعية ، وكان رد السادات عليه غريبا حيث قال له : إذن لابد وأن تكون الرأسمالية أفضل من الشيوعية ، لأن الظروف في الولايات المتحدة أفضل من الظروف في الاتحاد السوفيتي .

وهكذا فإن الفتر العام الحادث بين أنور السادات والاتحاد السوفيتي كان لابد وأن يزيد بسبب سمات شخصيته ، وكرجل فخور كان السادات واعيا بالميراث الطويل لمصر ، وكان مستاء من محاولة الكرملين أن يستعيد الدولة المصرية ، بل شعر بصورة أساسية أن الاتحاد السوفيتي يريد أن يلعب نفس الدور الذي كانت تلعبه بريطانيا قبل إزاحتها من حكم مصر . . وذلك من خلال التأخير في تسليم المعدات الحربية التي وعدوا بها ، وتغيير نوعية الأسلحة المطلوبة .

لقد شعر السادات بأن القادة السوفييت - وعن عمد - يحاولون انتزاع السلطة الحقيقية من الحكام المصريين ، ولكنه - أي السادات - كان دوما جاهزا لإمداد القادة السوفييت بالكلمات والمعاهدات التي تنغص روح بيروقراطيتهم .

وبعد إزاحة على صبرى ومجموعته ذات التوجه السوفيتي ، وصل بودجورنى إلى القاهرة يحمل مطلباً يتمثل في ضرورة أن توقع الدولتان ميثاقاً للصدقة . . وبخصوص ذلك يزعم هيكل أن السادات هو الذى اقترح مثل هذه المعاهدة ليطمئن الكرملين إلى أنه لن يتخلى عن روابطه معه ، لكن هذا الزعم غير مقتنع ، إذ كان من الطبيعي أن يندفع بودجورنى إلى القاهرة بغرض الحصول على تعهدات رسمية كنوع من الرد على السياسة الغربية .

وقد تحدث السادات عن صورة هزلية كبيرة نشرت في الصحف الغربية لبودجورنى وهو يقابل عملاء موسكو في مصر وهم يرتدون زى السجن .

كذلك تحدث السادات عن أن بودجورنى قد طلب توقيع معاهدة صداقة مصرية-سوفيتية فى الحال ، لكنه شرح له أنه ليس لديه اعتراض ولكن التوقيت ليس مناسباً ، حيث إن رجال موسكو قيد الاعتقال ، وإن حالتهم سوف تتأثر بتوقيع المعاهدة ، حيث ستلغى سمعتهم حينما يتم الاستنتاج بأنهم بالفعل رجال موسكو . .

بيد أن بودجورنى أصر على أن تكون المعاهدة أساسية ، ورغم أن مصر لم تكن سعيدة بطريقة الاتحاد السوفيتى فى إبرام معاهدة معها ، إلا أنه - أى السادات - قال أنه جاهز للتوقيع ليظهر النوايا الطيبة لدولته مردداً " الرجاء الثقة بنا . . الثقة".

ولذا بدا بودجورنى راضياً ، وأثناء مغادرته وعد قائلاً " أعطنى أربعة أيام ، وكل الأسلحة التى طلبتها سوف يتم شحنها إليك شاملة سلاح الانتقام . "

وانتظر السادات - الذى سمع هذا الكلام من قبل - أكثر بكثير من الأيام الأربعة ، حيث وصلت المدة إلى ثلاثة أشهر ولم تصل الأسلحة . .

وفى سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وعلى إثر معارضة السادات للتغفل الشيوعى فى السودان ، تلقى السادات رسالة من موسكو تضمنت دعوة له للمحادثات فى الشهر التالى ، فكظم السادات غيظه من القادة السوفييت وقبل الدعوة ، لكنه قال " لا أصدق أنكم جعلتمونى أخطو خطوة واحدة خلف إسرائيل ، لكننى وجدت من الشفقة والبؤس أن أعود ٢٠ خطوة للوراء " .

وقد كتب السادات أن القادة السوفييت أعطوه وعوداً مرة أخرى بإرسال الأسلحة المطلوبة - رغم أن هذه الأسلحة لم تعد مستحسنة لدى موسكو لاستخدامها ضد إسرائيل - ولكن وحتى قرب نهاية السنة لم تصل هذه الأسلحة .

وعلى خلفية الاحتواء السوفيتى للحرب الهندية - الباكستانية ، أخبر السفير السوفيتى السادات بأن القادة السوفييت كانوا مشغولين للغاية وأنهم سوف يرونه فى فبراير التالى .

وعلى الصعيد الإسرائيلي والأمريكي كانت هناك سخرية واسعة من دعاوى السادات غير التامة ، وأن ما أطلق عليه سنة القرار قد مرت دون أى حدث ذى دلالة ، وقد كان السادات متأذيا من التعليق المهين لويليام روجرز بأن عام ١٩٧١ جاء وولى ولم يقع أى حادث خادع من قبل الرئيس المصرى . .

إلا أن السادات عزا هذه الإهانة من جانب روجرز إلى رغبة الأخير فى استعادة مكانته لدى المجتمع اليهودى الأمريكى بعد عودته المبكرة من مصر .

وفوق ذلك ، أعلن روجرز أن الإمدادات العسكرية إلى إسرائيل سوف تزداد ، وأن الولايات المتحدة سوف تقوم بتصنيع الأسلحة فى إسرائيل ، وسوف تضمن الولايات المتحدة لإسرائيل التميز والتفوق ليس على مصر وحدها ، وإنما على كل الدول العربية .

وهذا - طبقا لرؤية السادات - كان بمثابة غارة نفسية كاسرة ضده ، كما كان غيظ الشعب المصرى تجاه القاده السوفييت قد بلغ درجات أشد حدة ، رغم استمرار السادات فى مدحهم ، ورغم أن بعض الأسلحة السوفيتية كانت قد بدأت تصل بالفعل .

ولكن بلغ تأثير السادات غايته حينما تمت القمة الأولى بين الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون والسوفييتى بريجنيف فى موسكو عام ١٩٧٢ .

إذ طبقا لما قرره السادات . . فإنه فى زيارة أخرى إلى موسكو تمت الموافقة على إرسال تحليل له عن القمة السوفيتية - الأمريكية عبر الكرملين ، وحينما تعرف على مضامين هذه القمة قرر أنه بعد انتخاب الرئيس الأمريكى الجديد فى شهر نوفمبر من ذلك العام سوف يغلب خيار الذهاب للحرب مع إسرائيل لو سدت طرق السلام . . حيث ادعى السادات أنه عندما قرر بريجنيف ونيكسون الدعوة إلى الاسترخاء العسكرى فى الشرق الأوسط ، فإن ذلك سبب له صدمة عنيفة لأن الاسترخاء العسكرى كان يعنى عدم إرسال أسلحة أكثر إلى المنطقة ، وأن تظل مصر عشرين خطوة وراء إسرائيل ، أو بمعنى آخر الاستسلام لإسرائيل .

الفصل التاسع

الحرب والخدعة الكبرى

عندما سمع السادات برد الفعل الأمريكى والإسرائيلى لطرده للسوفييت عرف أن خطته سارية المفعول . . وكان السادات قد أخبر السفير السوفيتى بالقاهرة بأنه استغنى عن ألف خبير سوفيتى فى مصر .

وهكذا خيل للخبراء الأمريكيين والإسرائيليين أنه لاينوى الاندفاع للحرب ، وهكذا أيضا فشل هؤلاء الخبراء الذين اعتمدوا بصورة أساسية فى دراستهم وفهمهم لشخصية السادات على خطابه ، فشلوا فى فهم أن عمليات الطرد هذه كانت مزدوجة الغرض .. فالسادات بداية - كان حائقا من أن القادة السوفييت تركوه يسقط من خلال إظهاره كبهتوان على خشبة المسرح العالمى ، بقبول الدعوة الأمريكية للاسترخاء فى الشرق الأوسط .

وعلى حد تعبير هيكى ، رأى السادات نفسه أشبه بفرعون . . ورغم أن هذه مبالغة من قبل هيكى ، إلا أن السادات كان شديد الفخر بالتاريخ الطويل للشعب المصرى ، وحكامه القدماء الأقوياء ، كذلك نظر للقادة العرب بالذراء مشيرا إلى أنهم مدينون بمراكزهم لصدفة اكتشاف البترول ، ولولا ذلك لظلت بلادهم مجرد أشلاء تعيش من الأميين تعيش على إحسانات الدول الغربية وتخضع لرغباتها .

إن السادات اعتبر سلوك القادة السوفييت مزيجا من الغطرسة والفضولية والكراهية الشديدة ، وأن شعوره الوطنى قد أهين بواسطة الأعذار العرجاء التى أعطت الانطباع بأن القادة السوفييت يظنون أن كذبهم سيظل مخفيا .

ويمكن القول بأمانة ، أنه لا شئ منح السادات الرضا أكثر من أنه كان قادرا على إخبار السفير السوفيتى بترحيل الخبراء السوفييت . . وفى هذا الصدد كتب السادات بلذة واضحة " إنهم لم يكونوا ليغادروا فحسب ، وإنما أيضا كان يلزم إهانة مقابل إهانة " .

لقد كان لدى السادات العقل التآمرى الذى سمح له بالاحتياىل على أولئك المدعين الذين حاولوا أن يظفروا به ، كما كانت لديه القدرة على فهم قيمة الطرد فى خطته الخادعة .

وفى أحد أكثر المقطوعات تسلطا على مذكراته ، توقع السادات رد الفعل العالمى للطرد ، وقال أنه أراد أن يتخذ خيار الحرب أو السلام ، لكن القادة السوفييت لم يسمحوا له بالذهاب إلى الحرب . . وكان عليه أن يلتزم درسا بطرد الخبراء ، وفى نفس الوقت يكتسب حرية التصرف . . ولذلك كان رد فعل الكرملين والأمريكيين والإسرائيليين متمثلا فى التفكير بأنه لن يحارب الآن .

بيد أن القادة السوفييت لم يكونوا مخدوعين تماما كما عرف ، وعندما سمعت جولدا مائير بأمر السادات أوحى لها حدسها إن التحرك يعنى الخطر وإن الحرب محتملة ، ولكنها خفت مخاوفها قائلة لنفسها : إن بعض هذه المخاوف والهواجس خاطئة ، كما قامت بتوبيخ كل الخبراء الكبار ، الذين حللوا التقارير السرية التى أرسلت بغزارة من قبل العملاء من الدرجة الأولى .

فالاتحاد السوفيتى كان عليه أن يبرهن على حدث أكثر فاعلية رغم سوء التقدير الذى أحاط بهدف السادات من طرد الخبراء السوفييت . . وقد وصف السادات كيف ذهب إلى الإسكندرية ، والتى لم يزرها منذ هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وبدأ يعد للمعركة مع إسرائيل أو لمحادثات سلام معها ، وأنه استدعى حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى وأخبره بأن هناك تحبيذا للتقرب من الولايات المتحدة ، وأنه يجب أن يكون جاهزا بالبدايل الضرورية للمحادثات ، والتى يمكن إنهاؤها بنجاح .

كذلك استدعى وزير الحربية محمد صادق وأمره بحشد المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى اليوم التالى ، وبأن يخبره بأن السادات قرر أن القوات المسلحة يجب أن تكون جاهزة للاشتباك فى ١٥ من نوفمبر ١٩٧٢ ، وباكتشاف السادات أن وزير

الحربية محمد صادق أقل حماسا للدفاع بالهجوم ، قام بتتحيته فى الحال وتعيين اللواء أحمد إسماعيل مكانه ، واتهم السادات " صادق " بأنه ليس من دعاة الهزيمة فحسب ، وإنما بالكذب عليه أيضا .

ومع ذلك كان لبقية اللواءات المصريين رؤى أقرب لرؤية صادق ، ومنهم اللواء عبد المنعم واصل الذى أعطى صورة سيئة للقوات المصرية مقارنة بالقوات الإسرائيلية ، وجادل واصل بأن المصريين مكشوفون تماما ، لدرجة أن أية حشود سوف تتم ملاحظتها بسرعة من قبل الإسرائيليين ، وسوف تتم مهاجمتها بصورة سريعة قبل تمكنها من عبور القناة .

وطبقا لما أعلنه " واصل " ، فقد بنى الإسرائيليون سلسلة ضخمة من التحصينات الترابية على ارتفاع ٤٧ قدما ، بينما مثلتها المصرية على ارتفاع عشرة أقدام فقط . . وأشار واصل إلى خوف المصريين من أن الإسرائيليين بنوا شبكة هائلة من المعدات الإلكترونية خلف خطوطهم ، ويزداد الخوف لعدم إمكانية مراقبتها من قبل المصريين على الضفة الغربية للقناة .

كان هذا الأمر يقلق السادات ، الذى ادعى أن " ناصر " ترك له الخطة العسكرية ٢٠٠ ، وأنه إذا زاد الاسرائيليون ارتفاع حصونهم بمعدل ٣ أقدام فإن المصريين يجب أن يزيدوا ارتفاع حصونهم بمعدل ٥ أقدام .

وواقع الحال ، فإن ناصر رغم عباراته الطنانة لم يترك أية خطة هجومية ، وبغض النظر عن مصدر الخطة المذكورة فإنها كانت معقولة فى عين السادات . . إلا إنها تم العزوف عنها . .

وهكذا ظل السادات ليالى لا ينام مفزوعا من السؤال التالى : كيف تدافع مصر عن نفسها لو اندفعت إسرائيل بالهجوم ؟ . . إلا أنه كان يفضل عدم إظهار ذلك للمراقبين الأجانب .

ورغم خطورة الموقف الاقتصادي المصرى ارتفعت الحصون المصرية إلى ٥
 قدما ، وأصبح الجنود المصريون يرون الدفاعات الإسرائيلية ، والتي كانت أقل فظاء
 عما تم تصويره ، وكانت عبارة عن نظام يضم عددا من الحصون المحمية بواسطة
 عدد صغير من القوات ، كما أنها لم تكن مصممة للتصدى لهجوم مكثف .

لقد لازم الخوف السادات انطلاقا من أن القوات المصرية سوف تتعرض
 للهزيمة المريرة التي تعرضت لها في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ . . وتأكد من
 أنه لن يقبل تكرار مثل هذه النكسة .. واعتقد أنه لو حدث ذلك فإن الاستقرار الداخلي
 للدولة سوف يتم تدميره .

ورغم معرفة السادات الجيدة بأنه يعد لحرب محدودة ، ظلت مغامرته بمثابة
 مقامرة ، ومع ذلك فلا أحد من الحكام المصريين أعد لمعركة بمثل هذه المهار
 النفسية ، خادعا كل العقول اللامعة ، سواء في إسرائيل أو في الغرب .

وفي مذكرات السادات تجده قد وضع تفسيرات وشروحا غير مكتملة .. لفتر
 الإعداد - قبل الحرب - للافتحام عبر قناة السويس . . إلا أنه لا ينكر أنه بعد زيار
 لموسكو في فبراير ١٩٧٣ ، وتحديد بعد مضي قرابة ثمانية أشهر على طرد الخبراء
 السوفييت ، لم يوافق القادة السوفييت على إمداد المصريين بكمية الأسلحة المتفق
 عليها فحسب ، بل بأكثر منها .

غير أن السادات قرر أنهم توقفوا في الحال ، وأنهم عاودوا فقط في عام
 ١٩٧٥ ، ويذهب السادات إلى أن توقف السوفييت عن إمداد المصريين بالأسلحة لم
 يكن لخوف الكرملين من خوض هجوم أكبر عما كان معتقدا ، بل بسبب الشكوك التي
 ساورت عقول السوفييت فيما إذا كان المصريون قادرين على خوض حرب شاملة مع
 إسرائيل .

وتجدر الإشارة إلى أن السوفييت في محادثاتهم مع الأمريكيين لم يخفوا
 احتقارهم للجنود المصريين .

وفيما يتعلق بالتخطيط للحرب ، تعتبر الخطة الأكثر فعالية هي التي تبناها السادات نفسه ، حيث استخدم الدعاية وحشد القوات بالقرب من قناة السويس في مايو ١٩٧٣ لإعطاء الانطباع بأن الحرب وشيكة الوقوع .

ومع تسرع موشى ديان ، أعطت الحكومة الإسرائيلية الأمر بالتعبئة ، ومرت الأيام دون حدوث أى هجوم ، وفى شهر أغسطس من نفس العام لعب السادات نفس الخدعة ، وللمرة الثانية تمت التعبئة وحدثت نفس النتيجة .

ادعى السادات أنه بعد حرب أكتوبر سئل ديان : لماذا لم تعبى قواتك فى الموعد المحدد ، فأجاب بأن السادات جعله يفعل ذلك مرتين مكلفا إياه عشرة ملايين دولار فى كل مرة ، لذلك لما كانت المرة الثالثة اعتقد أنه ليس جادا ، ولكن السادات خدعه .

إن السادات لعب على ما استقر لدى الاسرائيليين من أن قواته المسلحة لم تعد كافية بما فيه الكفاية ، وأنه ليس لديه فرصة لكسب المعركة ، وأنه لا يستطيع بدء الحرب ، هذا المفهوم الذى ترسخ على أثر حرب ١٩٦٧ المدمرة .

الحدث الأكثر دلالة على أن إعداد المصريين والسوريين للحرب كان مجهولا ، تمثل فى أن موشى ديان قد حذر لواءاته فى مايو ١٩٧٣ بأن يتوقعوا الحرب فى أواخر الصيف .

لكن من الغريب أنهم لم يأخذوا هذه التحذيرات بالجدية المناسبة ، حتى عندما تحركت القوات المصرية والسورية وأخذت مواقع هجومية فسر اللواءات الاسرائيليون الأمر بأنه ليس إلا مجرد خدعة من الخدع السنوية ، فقط طلب اللواء هوفى القائم على مرتفعات الجولان دبابات إضافية بعد توجيه النداء لديان .

يالهم من لواءات عميان ومتعرجين ، بما فيهم أولئك المسئولون عن وكالات الاستخبارات ، حيث إن كل المعلومات المتسربة عن المصريين لم يتم تقييمها بصورة جيدة .. ليس أدل على ذلك من أن وكالة منانيز الرسمية قد نشرت تقريرا مفاده أن

الفرقتين المصريتين اللتين اندفعتا للهجوم عبر قناة السويس كانتا بمثابة جرس إنذار كذلك شاهد العديد من الملحقين العسكريين الأجانب مواكب المعدات تتحرك بالقرب من مطار القاهرة في طريقها إلى السويس ، كما تحركت صواريخ SAM أيضا تجاه القناة .

هذه الحقائق تم استقبالها بواسطة الاستخبارات الحربية في إسرائيل ، لكنها لم تؤخذ باهتمام ، ولا عجب أن اللواءات المصريين كانوا مندهشين من حظهم ، إذ كان هناك تقدير بأن الاسرائيليين بنظام تجسسهم الكفاء (كان من المعتقد أن لهم خلية تجسس في مصر) ، ومصادر استطلاعهم الجوية سوف يرصدون الطائرات المصرية على الأقل قبل الهجوم بخمسة عشر يوما . .

ولكن ما أثار دهشة اللواءات المصريين هو أنهم لاحظوا أن القوات الإسرائيلية لا تقوم بأية استعدادات لمواجهة الهجوم المصري عبر القناة . .

ورغم المجهودات الكبيرة للاحتفاظ بسرية الهجوم الذي أطلق عليه كوديا اسم "بدر" ، فقد حصلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) على نسخة من الخطة ، لكنها اعتقدت أن السادات لا ينو أن يضعها موضع التنفيذ ، وبهذا التقدير كانت CIA متأثرة على الأقل جزئيا بالثقة الإسرائيلية بأن فرص السادات للدفاع في الحرب بعيدة جدا .

ويحتمل أن يكون السبب الرئيسي في سريان مفعول الخطة جيدا هو أن كل الساسة - باستثناء الملك حسين - لم يكونوا يفهمون إلى ماذا يهدف السادات . . إذ عندما طرد السادات الخبراء العسكريين السوفييت رأى الأمريكيون والإسرائيليون أنه كان يغزل الخيار العسكري ، بينما حذر الملك حسين الأمريكيين من أن السادات يمهّد الأرضية للحرب ، على أساس اعتقاده بأن الخبراء السوفييت الخاضعين لأوامر الكرملين من الممكن أن يحاولوا اعتراضه . .

وحتى هنرى كيسنجر بكل دهائه لم يكن قادرا حتى اتدلاع الحرب على أن يتوغل فى أعماق نوايا السادات .

وواقع الأمر ، فقد كانت هناك ضغوط على نيكسون وعلى رئيس الوزراء والوزراء الجدد بأن يحاولوا حل مشكلة الشرق الأوسط المعقدة ، وبينما غاص روجرز على عجل فى المستقبل مظهرا قسوته ورفض الاسرائيليين خطته ، كان كيسنجر أكثر حذرا .

ورغم عدم الميل والتمرس اليهودى لكيسنجر ، إلا إنه لم ينس موت ١٣ فردا من أسرته فى معسكرات النازية ، كما أنه لم يكن يسمح بهولوكست (محرقة) أخرى تجبر إسرائيل على اتباع سياسات تفنك بآمنها .

ولكن بوصفه رجلا أحرز تفوقا كأستاذ فى جامعة هارفارد وكسياسى - بعد أن جاء صبيا لاجئا من ألمانيا عام ١٩٣٨ - كان عليه أن يظهر أولوية لكونه أمريكيا وليس يهوديا ، كذلك لوحظ من مذكراته أنه كانت لديه شكوك فى ديانتة اليهودية وأنه كان يعمل كأمريكى فقط ، الأمر الذى سبب له بعض التجارب المؤلمة .

ومما يثير الغرابة أنه اتهم فى إسرائيل بأنه يتصرف بصورة غير عرقية ، وربما جاءت معظم الانتقادات من جانب أولئك الذين يخلطون الدين بالسياسة . . والذين نعتوه بأنه يتبع سياسات موجهة ضد إسرائيل ، كما أخذوا عليه تزوجه بامرأة غير يهودية .

وربما كان كيسنجر غير ذكى فى اتباعه تصرفات غير حكيمة ليبرهن على أنه ملتزم دون أى سبب يهودى .

ويشبه كيسنجر فى هذه المسألة هربرت صمويل ، الذى عين مندوبا ساميا فى فلسطين سنة ١٩٢٠ ، حيث بعد أن لعب هو نفسه دورا بارزا فى إعلان وعد بلفور

بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، بدت تصرفاته أقل فطنة ووجاهة ، ومنها على سبيل المثال تعيين الحاج أمين الحسيني كمفتي أكبر ، مما كان له أكبر الأثر في الإثارة والشغب ضد البريطانيين أنفسهم .

ظهر كيسنجر باعتباره معرضا لمثل هذا الضعف ، ولكن العجيب أنه يعترف بأنه خدع - مثل أي من موظفيه الرسميين أو رفاقه - بنوايا السادات . . ورغم كل ذلك فإنه إذا تم قبول ما كتبه كيسنجر كاملا تجد أن روايته تمثل دراسة عميقة لأسباب فشل المحاولات المختلفة في حل المشكلة العربية الإسرائيلية .

ومما يثير الدهشة أن كيسنجر توصل في النهاية إلى أن كل ما يحتاجه الشرق الأوسط ليس إلا محاولة جنونية لصنع سلام بين العرب وإسرائيل ، وإما الابتذال والتفئن في تطويل المدى ، والذي على أثره سوف يتحرك العرب صوب الاعتدال .

وبدأ نجم كيسنجر يصعد عندما خاف نيكسون من أن إدارة الدولة بمصاحبة روجرز يمكن أن تكسبه عدااء أمريكيين عديدين ، خاصة مع دنو انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٧٢ ، فقام بنقل المسؤولية إلى كيسنجر في أواخر ١٩٧١ . . وهذا ما جعل وجهات نظر كيسنجر الخاصة تحظى بأهمية قصوى .

أما أولئك الذين يعتقدون أن جولدا مائير فقدت فرصة ذهبية برفض عرض السادات عام ١٩٧١ ، فقد اتضحت لهم الحقيقة بواسطة كيسنجر عندما أشار إلى أن السادات لم يكن على استعداد لعقد اتفاقية ثنائية مع إسرائيل ، حيث لا السوريون كانوا سيوافقون على عقد سلام مع الإسرائيليين ولم يوافق على ذلك ياسر عرفات .. كذلك رفض العراقيون التوقيع على وقف إطلاق النار بعد حرب ١٩٤٨ ، أما الملك حسين الذي تحدث إلى الإسرائيليين سرا - مباشرة ، فقد كان غاضبا من أن أي تعامل مع الإسرائيليين سوف يوعز إلى الراديكاليين العرب بأنه يسير في كنف اليهود .

وكما علق السادات لاحقاً ، أنه كان مطلوباً هو كسر الحاجز النفسى بين العرب واليهود ، وأن المسألة كانت محتاجة لحرب وسنوات طوال من المساومة تحت إشراف كيسنجر لإجراز ذلك .

نقطة أخرى غاية فى الأهمية ، تتمثل فى أن قرار الأمم المتحدة الشهير رقم ٢٤٢ والصادر فى ٢٢ من نوفمبر ١٩٦٧ ، والذي كان جورج براون وزير الخارجية البريطانى فخوريا به ، يبرهن بصورة كبيرة على أنه معرقل للسلام وليس معينا عليه . .

حيث تحدث القرار عن السلام الدائم والشامل والأمن والحدود المعترف بها ، لكنه ترجم بصورة مختلفة من قبل العرب وإسرائيل ، إذا كان هناك فرق حيوى بين الترجمتين الإنجليزية والفرنسية .

فى الرواية الإنجليزية " إسرائيل مطالبة بالانسحاب من أراض محتلة " . . وليس من الأراضى . . وهو حذف متعمد بواسطة الأمريكيين حتى يوافق الإسرائيليون على القرار .

وربما كان كيسنجر يعرف أو لايعرف القول بأن العرب لايمكن أن يصنعوا سلاهما بدون سوريا أو حرباً بدون مصر . .

إن المصريين يشكلون الجزء الأكبر والمثقف من العرب ، وكانوا عاطفياً مدركين لماذا خاض الفلسطينيون الحرب وفقدوا آلاف الشباب . . ورغم أن " ناصر " يدين فى إنقاذه خلال حرب السويس ١٩٥٦ فإنه اتجه للتكيف مع السياسة السوفيتية المضادة للولايات المتحدة ، والتي جعلت سلام الشرق الأوسط محالاً . .

وطبقاً لرؤية زعيم القومية العربية فإن إسرائيل لا مكان لها على خارطة الشرق الأوسط ، وشأنه شأن معظم القوميين العرب رأى ناصر إسرائيل مثيرة لمشاعر الشعب العربى ، كما لم يعلن على الإطلاق عن الوقت الذى ستوقع فيه اتفاقية سلام شامل مع الدولة اليهودية ويستقبل سفير إسرائيل فى القاهرة .

وبعد رحيل ناصر بعام ظل السادات يعيش فى عالم الراضين ، لكنه بدأ يعطى إشارات كانت مفهومة جزئيا فى الغرب ، ومن حسن الحظ أن أحد أولئك الذين بدأوا يفهمون دور مصر الخاص هو دكتور كيسنجر .

إلا أن كيسنجر شعر أنه من غير المفيد للمصالح الأمريكية أن تتزعزع إسرائيل ، حيث كان ذلك سيعيد انتصارا للاتحاد السوفيتى والراد يكالبيين العرب ومن الغريب أن السادات لم يذكر شيئا عن تلك المفاوضات التى عقدها مع الحكومة الأمريكية ، حينما كان كيسنجر مستشارا للأمن القومى ووليم روجرز وزييرا للخارجية قابل مبعوث السادات الخاص - حافظ اسماعيل - وزير الخارجية الأمريكية ومستشاريه رسميا ، لكن لم يكن معروفا ما إذا كان حافظ اسماعيل قد قابل كيسنجر سرا أم لا .

واتدفعت الإدارة الأمريكية بعقد اتفاقية تفاهم مع مصر كرهها نكيسون ، وعارضها السادات أيضا .

وعلى الصعيد الإسرائيلى كانت فكرة التنازل عن أى أراضى تؤلم جولدا مائير ، لأنها اعتقدت أن إسرائيل قوية للدرجة التى لاتجعلها فى حاجة لتقديم أى تنازل للعرب ، خاصة فيما يتعلق بالأرض ، كما كانت على استعداد لتوقيع معاهدة فض اشتباك مع مصر على طول قناة السويس ، لكنها لم تكن لتوافق على حدود نهائية قبل أن يبدأ التفاوض وهو الأمر الذى ترددت الحكومة الإسرائيلية بصدده .

وتدل الشواهد على أن المحادثات السرية بين كيسنجر وحافظ اسماعيل - حال حدوثها - قد آلت إلى الفشل ، لأن الولايات المتحدة لم تكن مهتمة ، ولا هى أبدت رغبة فى إمداد السادات بالتسوية المفهومة كتذكيرة عبور لتسوية ذات معنى مع إسرائيل . .

وهى التسوية التى لو حدثت لكنت على الأقل ستلزم إسرائيل بالموافقة على ترك الأراضى التى حازتها فى حرب الأيام الستة ، بما فيها القدس الشرقية . .

وهى مسألة كانت مستحيلة فى الوقت الذى كانت تشعر فيه إسرائيل بالعظمة والاذراء لكل الدول العربية .

إن السادات - كما رآه كيسنجر - تورط فى المعضلة التى لم يكن قادرا على التخلص منها بالوسائل الدبلوماسية ، حيث رفض الإسرائيليون التفاوض معه بشروطه ، كما أنه لو وافق على منهج الخطوة خطوة فإنه كان سيفقد الدعم السوفيتى والمساندة السورية ، ولو إنه ذهب لعقد سلام منفصل مع إسرائيل فإنه كان سيتنقد ويجتنب بواسطة العالم العربى ، كما كان سينبذ بواسطة شعبه المهان .

وقد شعر كيسنجر لاحقا أن السادات اختار حريا محدودة ليحصل على نهايات دبلوماسية . . وفى هذه النقطة جاء كيسنجر بتفسير قوى ومقتنع مفاده أن الضابط الصغير الذى شعر بإهانة ١٩٦٧ وتحدث مع عبد الناصر عن حرب ضخمة مع الإسرائيليين كان يبحث عن فرصة للقوات المصرية لاستعادة شرفها فى معركة ، كان عليه أن يثبت للشعب المصرى إنه يتفاوض مع الإسرائيليين من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . .

ومع ذلك - وحتى منتصف ١٩٧٢ - كان السادات يأمل فى استعادة الأراضى العربية دون الاندفاع إلى الحرب ، فالسادات كان رجلا عاطفيا يهتم بالدموع كلما تحدث عن عدالة القضية العربية ، وربما شجعت ثقته العميقة بالله بأن يأمل فى حدوث معجزة ، ولم يكن ليتأتى له ذلك إلا حينما أصبح مقتنعا تماما أن مصر سوف تقوم باسترداد الأراضى العربية عامة وسيناء خاصة . . حتى أعطى الأمر بالاندفاع إلى حرب أكتوبر .

الفصل العاشر

كيف ارتبط القادة السوفييت
بخدعة السادات ؟

بعد حرب أكتوبر سخر القادة العرب من القول بوجود درجة من التواطؤ بين أنور السادات والقادة السوفييت . .

وفى مذكراته وصياغاته العامة أدان السادات الدور السوفيتي متهما الكرملين بالضغط عليه لوقف إطلاق النار منذ بداية الهجوم وتهديده بأنه لن يمدّه بالأسلحة التي وعده بها وباستثناء الدليل الذي ذاع بأن الكرملين كان يعرف بخطط السادات والأسد للحرب ، فقد كان هناك العديد من علامات الاستفهام حول الدور الذي لعبه الكرملين في الظلام في حرب كيبور أو كما يطلق عليها السادات حرب أكتوبر .

كانت هناك - على سبيل المثال - القصة الغريبة لاختطاف إرهابيين عرب في سبتمبر ١٩٧٢ لمجموعة من المهاجرين السوفييت كانوا في طريقهم لإسرائيل ، حيث قام الرجلان المسلحان باقتحام قطار وكان يقتله هؤلاء المهاجرون ، حيث وجود معسكر انتقال في سوخونو .

وقد هدد المسلحان الحكومة الاسترالية بأنها لو لم تتوقف عن مساعدة المهاجرين من الاتحاد السوفيتي وتغلق معسكر سوخونو فلن يتم قتل المختطفين فحسب ، وإنما أيضا ستكون هناك أعمال عنف ضد استراليا . .

ومما أدهش وأرعب الحكومة الإسرائيلية أن شاتسيلور كريسكي استسلم لطلبات الإرهابيين بسرعة وأعلن عن غلقه لمعسكر سوخونو . . وقد بدا هذه القرار شائنا ومتوحشا ، لأن كريسكي نفسه كان من أولئك اليهود الذين عاثوا أثناء فترة هتلر .

حينذاك رأت جولدا مائير أن كريسكي تصرف كعاصفة مضادة لهجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي ، وقد أشعرها هذا النصر للإرهابيين العرب بأنها مجبرة على أن توجه نداء إلى كريسكي شخصيا ، غير أن الأخير ظل متصلبا ورفض أن يتنحى عن قرار غلق المعسكر ، وفي هذا الصدد ذكرت مائير أنها شعرت كما لو كان فمها ممتلئا بالتراب .

كان هذا فى الأسبوع السابق لاندلاع الحرب ، مما جعل أخبار الاختطاف والقرار الاستراتيجى تملأ الصحف الإسرائيلية باستثناء بعض التقارير عما يحدث فى مصر وسوريا .

وقد سأل المعلقون بعد ذلك فيما إذا كان هذا الحادث متعمدا بواسطة السادات والأسد لجذب انتباه إسرائيل بعيدا عن النقاط الحرجة أم لا ؟
والإجابة أن هذا الحادث بكل تأكيد كان مفيدا لهما .

ولكن السؤال الذى ثار بصورة أكبر فى هذا السياق هو : كيف استطاع الإرهابيون العرب دخول القطر أثناء مروره على تشيكوسلوفاكيا ، إذ ليس من المقنع أن السلطات الشيوعية لم تكن واعية بوجود مسلحين أجانب على متن قطار فى دولتهم ، وليس من المقنع أيضا أن ذلك لم يكن جزءا من خطة لحرب خادعة .

كذلك كان هناك التصرف الغريب للقيادة السوفيتية عندما كانت الحرب على وشك الوقوع . فالسادات والأسد اتفقا على أنهما سوف يخبران السفير السوفيتى بالقاهرة فى ٤ من أكتوبر بموعد الهجوم ، لكن فى هذا اليوم تحديدا أبلغ السادات أن السفير السوفيتى يريد رؤيته ، واعتقد السادات أن السفير السوفيتى سوف يعطيه ردا على طلبه أسلحة من الكرملين ، إلا أنه عرف من السفير السوفيتى أن القيادة السوفيتية قد خصصت أربع طائرات سوفيتية كبيرة لمصر لتأخذ المدنيين السوفيت وأسرهم من العاملين فى المصانع والمنشآت . .

ونظرا لخطة الخداع الغامضة لم يعارض السادات هذا المطلب ، والذى كان يعتبر عامل تخدير للأمريكيين والإسرائيليين بأن الهجوم وشيك الوقوع . .

وفى ذلك الحين شعر السادات بخيبة الأمل من أن السفير السوفيتى ليست لديه أخبار عن الأسلحة السوفيتية وهكذا اعتقد السادات أنه من الأفضل السماح للأسر بالمغادرة وعدم استبقائهم حتى اندلاع الحرب وأن معاداة الاتحاد السوفيتى فى هذه المرحلة سوف تسبب أضرارا . .

وفى نفس الوقت كان يشعر بالرضا حينما يستمع إلى مناقشات مجلس الوزراء الإسرائيلي . .

وفى مذكراتها لم تشر جولدا مائير إلى مغادرة الأسر السوفيتية لمصر ، ولكنها أشارت إلى مغادرة أسر المستشارين الروس لسوريا ، وكان ذلك كله بمثابة إشارة عالية تظهر قلة اهتمام القادة الإسرائيليين بخطورة الأمر .

وقد ادعت جولدا مائير أنها كانت قلقة من أحد التقارير التى وصلتها ، والذى ذكرها بما حدث قبل حرب الأيام الستة ، لكن لا أحد آخر أبدى قلقا ، وادعت كذلك أنها سألت موسى ديان - وزير الدفاع - واللواء اليعازر ، رئيس الأركان ، ورئيس جهاز المخابرات فيما إذا كانت المعلومات الواردة بالتقرير مهمة أم لا ، فأجابوها بالنفى ، وأضافوا أن التقرير لا يجعلهم يغيرون تقديرهم للموقف ، وأن التعزيزات الكافية قد أرسلت إلى الخطوط الأمامية .

هكذا قيل لرئيسة الوزراء ، ومع ذلك وبخت نفسها فى نهاية أيامها على عدم الاستجابة لوجدهاتها ، واعتمادها على نصيح وزرائها وقادتها العسكريين .

إن الكثير من سلوك القادة السوفيت كان سيصبح منطقيا ، لو أنهم والسادات اتبعوا سياسة الخدعة المزدوجة ، ولكن السادات أثبت أنه أكثر أستاذية وشجاعة عن تلك الصورة التى ارتسمها له الكرملين .

وقد رفض ديفيد كيمحى - رئيس الموساد الإسرائيلى سابقا - فى كتابه الموسوم " الخيار الأخير " تصور المراقبين الغربيين بأن السادات هو الذى أصر على طرد الخبراء العسكريين السوفيت ، وجادل كيمحى بأنه كان قرارا استراتيجيا سوفيتيا اتخذ بواسطة بريجنيف ١٩٧٠ . .

ويذهب كيمحى إلى أنه رغم استعداد بريجنيف لإمداد مصر بالأسلحة فإنه على حذر من أن يندفع المصريون للحرب دون أن يكونوا مستعدين تماما ، ظهر هذا

واضحاً أثناء المقابلات التي أجراها مع السادات في موسكو في فبراير وأبريل ١٩٧٢ في الوقت الذي كان بريجنيف يعد فيه لقمة موسكو مع نيكسون وكيسنجر .

إلا أن السادات كان يضغط بصورة أكبر من أجل الحرب وتسريع وتيرة المواجهة الأمريكية - السوفيتية ، حتى يتسنى له تحرير الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل .

وعلى هذا الأساس يقرر كيمحي أن الاستعدادات المصرية - السوفيتية للحرب مع إسرائيل استمرت خلال عام ١٩٧١ ، ولكن بدون نقطة الأمريكيين ووعيم بها .

ويضيف كيمحي أن بريجنيف وجريشكو اعتقدا أنهما استطاعا تنظيم وتأخير خطط الحرب المصرية بتنظيم تدفق الأسلحة إلى مصر ، ولكن حينما أدرك بريجنيف في أبريل / مايو ١٩٧٢ أن السادات مستعد لكشف خطط السوفييت للاحتواء ، قرر أن يسحب المستشارين والخبراء السوفييت قبل أن يتم انغماسهم في حرب السادات المخطط لها ضد إسرائيل .

ولفوق ذلك يذهب كيمحي إلى أن تلك الحركة كانت مزدوجة الهدف ، فمن ناحية سيؤدي انسحاب الخبراء والمستشارين السوفييت إلى تأخير خطط السادات ، ومن ناحية أخرى إرسال المزيد من المساعدات العسكرية إليه لطمأنته وجعله ينتظر المزيد .

وهكذا فإن تأخير الفعل العسكري للسادات كان مغزاه أن تكتمل كل الخطط للدفاع بالهجوم عبر قناة السويس ، وهكذا أيضا أخذ قرار سحب المستشارين العسكريين السوفييت أثناء محادثات موسكو في ٢٧ من أبريل إلى ١٠ من مايو .

ويرى كيمحي أن السادات أراد أن يوافق بريجنيف على إنقاذ الشراكة المصرية - السوفيتية بالإعلان عن الانسحاب السوفيتي والتعبير عن الامتنان للمساعدة السوفيتية .

ورغم أن بريجنيف كان لا يحب القول بأن رجاله قد طردوا بفعل السادات الشائن ، لكنها كانت الميزة التي يطمئن بها الأمريكيين .

واتعكاسا لرواية السادات عن طرد الخبراء السوفييت كتب محمود رياض : " إن الروس رحبوا بطردهم من مصر ، وهو ما بدا مقلتا بوضوح في السرعة التي تمت بها العملية ، حيث كان الكرملين متشائما من بقاء الحضور العسكري السوفيتي في مصر حتى اندلاع الحرب " .

وفي الحقيقة أمد الاتحاد السوفيتي مصر بأسلحة أكثر من تلك التي أمدها بها سابقا واستمر في ذلك حتى بدأت حرب أكتوبر .

وقد علق الفريق الشاذلي على أنه حينما بلغ بقرار السادات في ٩ من يوليو ١٩٧٢ والخاص بطرد الخبراء الروس ، قد وجد نفسه يرتد سبع سنوات للوراء ويتساءل : لماذا الآن ؟ . . ورغم أن السادات ادعى في مذكراته أنه اتخذ القرار كرد فعل لخيانة السوفييت ، إلا إنني متأكد في ضوء ماحدث في سنوات الوساطة أن القرار رتب بصورة مسبقة مع آخرين ظل السادات شغوفًا بإخفاء دورهم .

ويذهب كيمحي إلى تأكيد رواية الشاذلي بأنه كان يوجد بمصر ٧٧٥٢ سوفييتا وليس ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ كما تم تقديرهم بواسطة الأمريكيين ، رحل منهم ٢٥٩٠ في نهاية يوليو ١٩٧٢ ورحل الباقون (٥١٦٢) في نهاية أغسطس ، غير أنهم لم يعودوا إلى الاتحاد السوفيتي ، بل انتقلوا إلى سوريا للمساعدة في الإعداد لحرب أكتوبر .

ويضيف كيمحي أنه بعد طرد الخبراء السوفييت باثني عشر شهرا أخبر الجنرال ساما خودسكي - الممثل غير الشرعي للسوفييت في مصر - الشاذلي بأن الجنرال سابكوف و ٦٣ من المستشارين السوفييت الخصوصيين سوف يصلون خلال عشرة أيام لتدريب الأفراد المصريين .

وبعد شهر لوحظ أن البعثة العسكرية الروسية الجديدة بدأت تدريب الفرق المضربة ، بينما كانت المعدات السوفيتية تتدفق . وأشار كيمحي إلى أنه في ديسمبر ١٩٧٢ جدد السادات الاتفاقية المصرية - السوفيتية ، معطيا السوفييت تسهيلات بحرية أخرى حتى ديسمبر ١٩٧٧ . وقد سمحت تلك التسهيلات باستخدام مواقع البحرية المصرية بالإسكندرية والسلوم وأماكن أخرى كإطار لمعاينة ومراقبة الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط . . وقد استمرت الأسلحة البحرية السوفيتية في الوصول خلال صيف وخريف ١٩٧٣ ، مما دفع السادات إلى التعليق " يبدو الأمر كأن السوفييت يريدون أن يدفعونني للحرب " .

ورأى كيمحي أن بريجنيف - وبصورة أكثر من ناصر والسادات وأسد سوريا - هو الذي قاد متعمدا أوركسترا حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وفي هذا السياق كان كيمحي ضد التحليلات التي جاءت من إسرائيل ومن قادة الولايات المتحدة وكذلك من قبل المؤرخين الأكاديميين .

و ادعى كيمحي أن بريجنيف صدم من جراء الهزيمة المصرية في ١٩٦٧ وخطط لحرب انتقامية ضد إسرائيل التي أهانت السوفييت مثلما أهانت العرب .

وطبقا لرواية كيمحي اتبع بريجنيف سياسة مزدوجة جعلته يلعب دورا رياديا ، ليس بالنسبة لمصر ، وإنما بالنسبة لسوريا ، خاصة إنه كان لديه اقتناع - بعد أن أجرى مناقشات مع السفير السوفيتي في إسرائيل - بأن مصر ليست قادرة على القيام حتى بخدعة حربية ضد إسرائيل ، كما أن المصريين غير منظمين في شبه جزيرة سيناء ، بينما سوريا يمكنها القيام بذلك متى توافرت ظروف معينة ، لذلك ارتأت ضرورة توفير هذه الظروف لسوريا .

ورغم معارضة المؤسسة العسكرية لهذه الفكرة ، نظرا لما رصد من كم كبير من الأسلحة لمصر فقد تصرف بريجنيف على هذا الأساس بادئا بالإمداد الحيوى بالمارشال جريشكو .

والمعروف أن القوات المسلحة السورية قد دمرت في حرب الأيام الستة ١٩٦٧ ، وفي نهايتها لم يكن لدى سوريا سوى ٢٥ طائرة بالخدمة وأقل من ٢٠٠ طائرة متقدمة ، بينما فقدت معظم مدفعيتها .

وبعد مضي سنة صعبة كان لدى سوريا ١٥٠ طائرة و ٨٠٠ دبابة و ٧٠٠ مدفع أمدها بها بريجنيف ، الذي أرسل إليها أيضا الفنيين والمستشارين السوفييت ، وكان لكل ذلك أثر فعال على القوات السورية ، خاصة بعدما حاز الأسد السلطة في سنة ١٩٧٠ . .

وبمساعدة هذه الأسلحة السوفيتية القوية استطاع الأسد تثبيت سلطته رغم كونه أحد أفراد الطائفة العلوية الأقل عددا ، ولم تأت نهاية عام ١٩٧١ ، إلا وكانت سوريا تمتلك ١٢٠٠ من الدبابات السوفيتية المتقدمة .

ولأن كلا من المصريين والسوريين والسوفييت بدأوا التخطيط معا للحرب القادمة ، والتي كانت في مدخلاتها ومخرجاتها مختلفة للغاية عن حرب الأيام الستة ، فإن الاعتبار الأول أكدته كميحي كان بقاء الأمريكيين والاسرائيليين على غير وعى بما يحدث . ولاشك أن هنري كيسنجر كان مرعوبا لعلمه مؤخرا بارتباطه ولعبه دورا في قافلة المعلومات المضللة .

ويرى كميحي أن السادات يعتبر المصدر الرئيسي للتاريخ في هذه الفترة ، وأنه كان يتصرف بناء على اقتراحات المستشارين السوفييت بالقاهرة ، والذين أوحوا إلى الممثل الأمريكي بالقاهرة - دون بيرجس - بضرورة أن يقيم قناة خاصة للاتصالات مع كيسنجر . وحينما تم قبول الأمريكيين ذلك قام السادات - مستفيدا من هواجس نيكسون حول إدارة الدولة ومعتمدا إلى حد كبير على كيسنجر - قام باعتماد حافظ إسماعيل الذي كان مقبولا لدى السادات وكيسنجر معا للذهاب إلى واشنطن .

وقبل الذهاب إلى واشنطن كان حافظ إسماعيل بموسكو وناقش سر إفاده مع بريجنيف وكوسيجين وجريشكو ، وأبلغهم الرسالة التي حملها السادات إليها والأثر العميق لخيبة مصر من جراء السلوك السوفيتي وعدم السرور من القادة السوفييت .

وقد حبذ بريجنيف الفكرة التي وجدها مناسبة لتحديد كيسنجر الذي كان يعد خطرا على المصالح السوفيتية ، حيث بلغ كيسنجر برواية حافظ إسماعيل عن العلاقات السوفيتية - المصرية ، وكانت النتيجة ماتمناء السادات والكرملين متمثلة في تحول انتباه الأمريكيين والإسرائيليين عن الإعدادات الفعلية للحرب .

ويضيف كيمحي ، أنه كانت هناك درجة من الحقيقة في عدم الرضاء المصري عن الروس ، الأمر الذي جعل التضليل المعلوماتي أكثر سهولة في تمريره وتصديقه ، حيث علم السادات أن كميات كبيرة من الأسلحة السوفيتية قد أرسلت إلى سوريا ، لكنه ظل محتاجا للاتحاد السوفيتي من أجل خطته الخاصة ، ولذلك قبل بتردد خطة السوفييت للحرب .

ويذكر أنه عشية حرب يوم كيبور كان لدى إسرائيل ١٢٠٠٠ رجل ، و ١٧٠ دبابة في مواجهة ٦٠٠٠٠ من القوات السورية ، و ١٣٠٠ دبابة ، و ١٠٠٠ مدفع ، و ٥٠٠ فرقاطة ، و ٣٠٠ طائرة قتالية . . هذه القوة الكبيرة كانت منوطة بالضرب في قلب الأراضي الإسرائيلية في حادث أصبح على وشك النجاح .

وطبقا لكلام كيمحي كانت هناك مضامين أخرى على رأسها أن السادات قبل الهدف العسكري المحدود لقواته ، لكنه كان معولا بصورة أكبر على المشروع الدبلوماسي . . فبالنسبة له كان استخدام الحرب يعتبر بمثابة أرضية للتمهيد للوسائل الدبلوماسية دون القول لبريجنيف ، أو ربما أراد السادات إحداث صدمة كبيرة للقوات الإسرائيلية وتكبيدها خسائر فادحة بعد عبور قناة السويس تستميل إسرائيل والقوى العظمى للتدخل لوقف إطلاق النار . . وهكذا يتم السماح له بالسيطرة على القناة بوصفها الجزء الأكثر أهمية في سيناء ، أما إسرائيل التي ستغدو ضعيفة فسوف تجبر بالوسائل السياسية على ترك ماحققته في حرب الأيام الستة ، متمثلا في : باقي سيناء ، الضفة الغربية وغزة ، مرتفعات الجولان ، والقدس الشرقية .

وفي مجهوداته للتنسيق بين جيشين عربيين ذهب بريجنيف لمدى أعظم ، حيث كان يقظا من أن السادات يحاول خداعه بتكليف خطة تعتمد على أقل المطالب

العسكرية ، بدلا من الخطأ التي كانت مقرة سلفا ، لكن القائد السوفيتي قبل التغيير ناشدا من إعطاء الأسبقية لسوريا وإعطاء مصر الدور الأقل أن تستخدم واجهة السويس كمصيدة ، أما الرئيس الأسد فقد أعطى جناحا في الكرملين لدرجة أنه كان يقترب بسرعة من بريجنيف أثناء رحلاته إلى موسكو .

وفي ضوء ذلك ، أصبح تدريب الجيشين العربيين يحظى بوفرة في الأسلحة الحديثة التي كانت تتدفق رأسا وبسرعة من الاتحاد السوفيتي ، وللتأكيد على أن عبور القناة سوف يتم كما هو مخطط له ضد العدو الضعيف والمفاجأ ، فقد تدربت القوات المصرية على عبور قناة معائلة لها .

غير أنه كانت هناك لحظة أخيرة للجهود الدبلوماسية بواسطة كيسنجر ، تحديدا في ربيع ١٩٧٣ وقبل اندلاع الحرب بستة أشهر تقريبا أخبر كيسنجر جولدا مائير بأنه تلقى رسائل من السادات من خلال قناة سرية خاصة تفيد بأن وجود مبادرة سلام إسرائيلية سوف يلقي اعتبارات جادة في القاهرة .

وحيثما أقيمت جولدا مائير مجلس وزرائها بالعرض الذي قدمته منذ عام لنيكسون وكيسنجر ، ومفاده أن على السادات التنازل عن كل شبه جزيرة سيناء كأساس للتسوية مع إسرائيل .

غير أن السادات رد على ذلك - وطبقا لرواية كيمحي - بأن على إسرائيل أن تتنازل عن كل الأراضي العربية التي احتلتها منذ سنة ١٩٦٧ ، وفي مقابل ذلك سوف تقتلع مصر عن حالة الحرب مع إسرائيل ، ولكن ليس أكثر .

وبناء على ذلك لم يكن ثمة تفاوض ولا علاقات دبلوماسية ، بل إن كيسنجر زاد على ذلك بأن مصر حازت سلطة الرفض بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وأن الفلسطينيين لا يريدون السلام .

وبصر كيمحي على أن السادات إلى هذا الحد عقد العزم على الحرب وليس السلام ، وأن كل التفاصيل تم حسابها بواسطة بريجنيف ، الذي اقترح أن الأسد

وليس السادات هو الذى سيطلب وقف إطلاق النار فى الحال بعد البداية السورية بالافتحام ليقطع الهجوم الإسرائيلى المضاد المتوقع ، خاصة بواسطة القوات الجوية ، حيث توقع الكرملين أنه خلال أيام ستدخل القوات السورية المدرعة الجليل وسيقتلهم وقف إطلاق النار هناك .

مجل القول إذن . . إن بريجنيف خطط ، ليس لمحو إهائته فى حرب الأيام الستة ، ولا لكسب معركة سريعة مع إسرائيل ، وإنما ليقص تلك الجروح التى أصابت الاتحاد السوفيتى ، حتى لا تكون قادرة على إرباكه ثانية .

الفصل الحادى عشر انفجار أكتوبر

لقد كانت أساليب أنور السادات مضللة ، سواء للغرب أو للعالم العربى ، فها هو هنرى كيسنجر لم يقبل القول بأنه كان هناك تواطؤ تام ما بين السادات وبريجينيف ، بينما أكرر السادات نفسه وجود أى تواطؤ ، وركز على أنه خاض الحرب رغم عدم تشجيع السوفييت ، فى حين استعرض ديفيد كيمحى دلائل ارتضاها بأن حرب أكتوبر خطط لها ونفذت بواسطة بريجينيف ، ولكنه عول على جوانب خادعة من كل اتجاه ، كما أشاد بشجاعة الدولة اليهودية .

وفيما يتعلق بالأهداف السورية - السوفيتية الخفية ، استمر الخداع الذاتى للقصاص من الإسرائيليين تقريبا إلى تلك اللحظة التى بدأت تعبر فيها القوات المصرية قناة السويس وتتحرك الدبابات السورية فوق مرتفعات الجولان .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الحكومة الإسرائيلية ورئيسة الوزراء ووزير الدفاع لم يتلقوا معلومات مقنعة بأن المصريين والسوريين ينوون الهجوم فى الساعات الأولى من يوم السادس من أكتوبر ، لكنهم أساءوا تقديرهم لساعة الهجوم ، الأمر الذى كلفهم الكثير من الأرواح ، لقد توقعوا الهجوم فى العتمة ، لكن السادات والأسد اختارا توقيتاً مختلفاً للاكتساح المنسق ، وهى الساعة الثانية ظهراً .

وقد اختار السادات يوم كيبيور فى أكتوبر كأفضل توقيت للحرب ، لأن يوم كيبيور يعد أقدس يوم فى التقويم اليهودى ، حتى إن اليهود غير المتدينين يحترمونه سهابة .. وتبدو مظاهر الاحتفال بهذا اليوم فى أن معظم اليهود يتواجدون بالمجمع اليهودى لمدة ٢٤ ساعة ، وتتعطل الدولة باستثناء بعض المصالح الأساسية ، كذلك تصعب الاتصالات ولكون معظم القوات فى الاحتياط فإن التعبئة تحتاج إلى ٨ ساعة ، ومن ثم كان يوم كيبيور يعد أسوأ الأيام للاستدعاء .

واعتقد السادات أن إسرائيل سوف تعتمد على الحرب الخاطفة ، وهو اعتقاد حقيقى بما فيه الكفاية ، لأنها من الناحية العددية أقل بكثير من العرب الذين كان بإمكانهم التضحية بعدد كبير من الجنود ، وهو ما جعل السادات يتباهى بأنه على استعداد للتضحية بمليون جندى .

ولم تكن المفاجأة الهائلة فى الأيام الأولى للحرب هى العامل المروع الوحيد ، بل كان هناك أيضاً التغيير الإسرائيلى فى قادة الجيش والمخابرات ، حيث تم استبدال الجنرال الكيس الفطن " أهرون ياريف " رئيس المخابرات الحربية بالجنرال " زى إيرا " الذى بدا أكثر تميزاً ، لكنه لم تكن لديه ملكة المرونة العقلية مثل سابقه ، بل كان متصلب الرأى ، معولاً على أنه ليست هناك حرب وشيكة الوقوع ، متجاهلاً كل الدلائل ، وهو الأمر الذى أدى إلى طرده بعد المعركة .

حدث آخر كان غير متوقع بالنسبة للعرب تمثل فى تعيين الجنرال شمويل جونيبن كمقاتل للخطوط الأمامية المواجهة لقناة السويس ، وقد كان جونيبن محارباً عظيماً ، وذا مواقف عديدة صلبة وشجاعة أكسبته احترام القوات ، لكنه لم يكن ليضارع أريئيل شارون ذا القدرة القتالية المقترنة بالحس الاستراتيجى ، وقد طرد جونيبن من وظيفته أيضاً .. وكان على شارون المندھش ، والذى عين بدلاً منه أن يبحث عن الثغرات الموجودة فى مواقع القوات والتى هاجم المصريون من خلالها ، كذلك اكتشف شارون أن التدمير المصرى لإسرائيل كان أحد مصادره أن جونيبن لم يكمل خطة الانسحاب من على خط بارليف بمجرد أن هجم المصريون .

وعلى هذا الأساس لا يمكن رد النجاح المصرى للمفاجأة وحدها ، أو للتفوق العدوى ، وإنما لابد من الأخذ بالحسبان التكتيكات السيئة التى اتبعتها إسرائيل فى الأيام الأولى للحرب .

وفى محاولته لاستعادة تراجيديا الموقف شكى شارون بشدة من أن الدبابات الإسرائيلية لم تستخدم كقوة لجبر المصريين على التراجع ، كما جادل شارون بأن الجنرال جونيبن لم يكن يفهم الدور الذى كان على خط بارليف أن يلعبه فى أية مصادمات مع المصريين ، إذ طبقاً لرؤية شارون -الذى كان معارضاً لبناء الخط فى البداية- لم يكن هذا خطأ دفاعياً على الإطلاق ، لكنه كان عبارة عن نظام استطلاعى لمراقبة المواقع على طول قناة السويس وأحد مصادر الحماية للجنود الإسرائيليين من المدفعية المصرية .

إن السادات كان متأكداً من أن كل العالم العربى سوف يتراجع عن تدبيره الخطير ، حيث سافر إلى عدة دول عربية معربا لهم عن نواياه لخوض حرب ضد إسرائيل ، لكن دون إعطاء أى تاريخ محدد .. وإن كان قد أعطى تلميحات بأن الحرب قريبة ، كما اقترح أن يصل المتطوعون الفلسطينيون إلى القاهرة فى أوائل أكتوبر .

غير أن هذه الزيارات والتلميحات لم يكن لها تأثير بالنسبة لوكالات المخابرات الغربية .. ومن سخريّة القول .. أن رؤساء المخابرات الغربية كانوا على حق لأن يثقوا بالموساد ، لكنهم كانوا على خطأ فى اعتقادهم بأن العسكريين ورجال السياسة الذين قاموا بتقييم المعلومات الواردة من العملاء لم يكونوا عميائاً ، فالموساد كانت لديه مجموعة تجسس نشطة فى مصر ، كانت تبث تقارير منتظمة عن تجمع القوات المصرية بمنطقة القناة ، كذلك كانت هناك علامات أخرى عديدة واضحة عن الاستعدادات السريعة للحرب ، لكن -وكما لم يهتم ستالين بالتحذيرات العديدة التى تلقاها عن هجوم النازى فى ١٩٤١ - رفضت جولدا مائير الدلالات التى وردت إليها بخصوص حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وهكذا فاتته فى الساعة الثانية ظهر بالضبط ، يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ طارت ٢٤٠ طائرة مصرية فوق سيناء وأخذت تقتل القوات الإسرائيلية المسترخية ، أما القوات المصرية -التي كانت فى شهر رمضان- فكانت تحفزها اقتباسات من القرآن لإخراج اليهود ، وتشجعها سخونة المشهد من حولها ، فتدافعت موجة وراء موجة لعبور الممر المائى ، وكان الجنود مندهشين من قلة المعارضة التى واجهوها ، وفى الحال كان العلم المصرى يرفرف على قمة واحدة من النقاط القوية وحوله الجنود مبتهجين مرددين (الله أكبر) .

أما الضربة الجوية الأولى فقد تبعتها أخرى بنجاح .. وأثناء ذلك فقدت بعض الطائرات المصرية ، والتى كان يقود أحداها عاطف السادات شقيق الرئيس ، لكن لم يخبر فى الحال بذلك .

لقد حارب المصريون جيداً أفضل مما توقع الإسرائيليون ، كما كانت هناك ملامح للاستعدادات المصرية المتينة؟ أيضاً كانت لدى السادات أحكام مسبقة ضد اليهود .. ظهر هذا جلياً في تفاخره بمعرفة أن الإسرائيليين ضعاف أمام إتفاق المال واللعب وأنهم لا يحبون العديد من الاستدعاءات .. أما القوات المصرية - سواء في ظل ناصر أو السادات - فقد لفتت أن الإسرائيليين أعداء يجب تحطيمهم كما حطم النبي (محمد) أسلافهم .

وفوق ذلك - رأى السادات - وناصر من قبله - ضرورة التدريب الجيد للرجال والضباط المصريين ، كما كان التركيز على العناصر المتعلمة ، حيث التحق خريجو الجامعات بالجيش .. ويثبت ذلك أن المصريين تعلموا دروساً عديدة من حرب الأيام الستة ، تلك الحرب التي كان الجنود الإسرائيليون فيها أكثر تعظماً ودافعية .

وعند بداية عبور القوات المصرية كان الإسرائيليون متدهشين من كم الأسلحة التي كان يمتلكها هؤلاء المهاجمون على خلاف ما ادعاه اللواعت المصريون من جنود المشاة المصريين بأنهم لن يستطيعوا الصمود أمام المدرعات الإسرائيلية ، حيث كانت هناك زيادة في الأسلحة المضادة للدبابات مثل R P G وخلافه حتى إن عدداً كبيراً من الدبابات الإسرائيلية قد أصيب بواسطة هذه الأسلحة .

أيضاً كان المهندسون المصريون قادرين على هدم الحواجز الرملية التي أقامها الإسرائيليون على الضفة الشرقية للقناة ، والتي كانت هناك استحالة في هدمها اسطة أي آلة مدرعة ، حيث اكتشف هؤلاء المهندسون أن تدفق الضغط العالي من مياه هو الحل الذي يمكن من خلاله هدم هذه الحواجز الرملية .

إن القوات المصرية تدربت جيداً ودرست مشكلة عبور القناة جيداً واستطاعت التغلب على المفاجأة بأنها ستخوض حرباً فعلية وليست مناورات فقط ، حيث أجريت إحصائية بين ٨٠٠٠ أسير مصري اكتشف من خلالها أن واحداً فقط هو الذي كان

يعرف أن ٣ من أكتوبر هو ميعاد الحرب ، بينما ٩٥٪ منهم عرفوا الحقيقة فقط يوم ٦ من أكتوبر ، أى يوم الحرب .

كذلك فإن القوات المصرية تحركت كما تدربت بالضبط ، وهجمت عبر قناة السويس ووجدت مقاومة عنيفة فى بعض المواقع ، ومقاومة قليلة فى مواقع أخرى ، وكان اللوات المصريين قد قرروا أن العبور سوف يكلفهم ما بين ٢٥ و ٣٠ ألف جريح وقتيل ، ولكن الرقم الفعلى كان أبعد من ذلك بكثير ، حيث لم يقتل سوى ٢-٨ فقط .. وبناء على ذلك فُزن الهجوم المصرى الأولى أنجز أكثر مما توقعه اللوات المصريين ، وتوقعه وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه ، كما أثبتت القوات المصرية نفسها جيداً على الضفة الشرقية للقناة ، بينما حطمت مئات الدبابات الإسرائيلية وأسقط العديد من الطائرات ، وبدا الموقف معتماً بالنسبة لديان ، الذى اقترح فى اليوم الثانى للمعركة أن ينسحب الجيش إلى خطوط أكثر دفاعية ، تحديداً إلى ممرات سيناء ، وكان ديان مقتنعاً بأن هذا الإجراء ضرورى للدفاع عن دولة إسرائيل ذاتها ، وحينما رفع الأمر إلى جولدا مائير واستدعى اليعازر للقائه كل من جولدا مائير وديان جادل اليعازر بقوة بأن الاتسحاب إلى الممرات سوف يحمل القوات الإسرائيلية تكلفة عالية بإقلاعها عن معسكراتها ومراكزها ، كما اقترح التجمع على الخط التالى على الممرات ، حيث يندفع بهجوم مضاد فى اليوم التالى ، لكن هذا الهجوم أثبت فشله عند التنفيذ ودمرت فرقة إسرائيلية .

بعد هذه الردة تصدر عناوين الصحف الإسرائيلية قول ديان المكتسب " لا نستطيع أن نردهم الآن ونهزمهم ، والذى ينبغى أن نفعله هو أن ننتشر عبر الخطوط الجديدة فى هذا الجانب وفى الجزء الجنوبى من سيناء ، ولا أعتقد أن أى قرار لمجلس الأمن سوف يوقف العرب لو أنهم يعتقدون من وجهة النظر العسكرية والمادية أنهم قادرون على الاستمرار فى الحرب ، ثم إن هذا القرار لن يكون -من ناحية- لأن السوفييت والصينيين سوف يطلبون الفيتو ، ومن ناحية أخرى لأنه سوف

يتم تجاهل أى إثارة للتوقف ولا يستطيع المرء الاعتماد على ذلك .. إسرائيل يمكن أن تعتمد فقط على عنصرين : الخطوط التى تقيم بها وزيادة قوتها " .

وكان المحررون أكثر يقظة حينما وصفوا خسائر إسرائيل ، حيث دمرت مئات الدبابات وفقدت خمسين طائرة فى غضون ثلاثة أيام .

وقد أعلن ديان أنه ينوى الذهاب إلى التلفزيون ليقول الحقيقة للشعب الإسرائيلى ، ولكن أحد المحررين داهمه بالسؤال " إذا كنت ستقول ذلك للشعب الإسرائيلى اليوم ، فماذا ستقول لنا نحن ؟ إن ذلك سيكون زلزالاً فى عقل الأمة " .

وهكذا رسم ديان صورة كئيبة للغاية لدرجة دفعت أحد المحررين إلى الانفجار بالدموع حيث اعطاه الانطباع بأن إسرائيل على حافة الهزيمة وأنها تسير خارج دائرة التحكم ، وقد تنبّهت جولدا مائير لذلك ومنعت ديان من الظهور بالتلفزيون .

المهم ، أنه بعد النجاح المبدئى الذى حققه السوريون فى مرتفعات الجولان اقترح ديان انسحاباً واسعاً مشابهاً ، أما جولدا مائير التى كانت قد ارتاحت إلى تطمينات بارليف بأن الموقف أبعد ما يكون عن الضياع ، فقد لوحت بيدها قائلة : "موشى ديان العظيم .. يوم ما مثل هذا ... يوم ما مثل ذاك" .

وبالمقارنة واجه أنور السادات أزمته بسلوك أكثر عقلانية واحتفظ بعقله حينما فقد الآخرون عقولهم .

وفى دراسته البارزة عن المعركة والمسماة "حرب الغفران" أوضح شيم هيرزوج -أصبح رئيساً لإسرائيل فيما بعد- أن القرار الإسرائيلى بعبور قناة السويس من الشرق للغرب لم يكن ابتكاراً خالصاً بواسطة شارون ، وكان من الممكن اعتبار ذلك تكتيكاً حتى قبل أن تتدلع الحرب .

وقد تدافعت الأحداث إلى ما عرف بمعركة الدبابات ، والتى شنّها المصريون فى ٢٦ أكتوبر ، واشترك فيها أكثر من ٢٠٠٠ دبابة ، وكان من نتائجها تدمير ٢٦٤ دبابة مصرية .

وعلى أثر ذلك أدرك اللواء سعد مأمون -الذي عانى من أزمة قلبية- أن الباب فتح للهزيمة ، بينما كان ذلك يوماً مصيرياً وعلامة مميزة على الشفاء التام للقوات الإسرائيلية ، كما كان التدمير العالى للمدركات المصرية يعنى أن عبور القناة يمكن إنجازه وهو ما حدث فى اليوم التالى (١٥ من أكتوبر) حيث تم العبور من خلال نقطة استراتيجية تسمى الدفرسوار على أيدي جنود إسرائيليين بارزين مثل شارون ودانى مات ، حتى إن السادات نفسه قد أعطى شارون بعض الوفاق ، صحيح أن سمعة شارون تلوئت من جراء دوره فى حرب لبنان ، لكن دوره الحيوى فى حرب يوم كيبور لا يدانيه شك .

ولم يأخذ السادات العبور الإسرائيلى مأخذ الجد ، أما المصريون فقد كان رد فعلهم عدم التصديق ، حيث اعتقدوا أن بعض الدبابات الإسرائيلية استطاعت العبور ، وأنها ستمحى حالاً .

كذلك خيل للسادات أن العبور مجرد عملية تليفزيونية لرفع معنويات الشعب الإسرائيلى ، ولم يقدر اللواءات المصريون قيمة الغرض الإسرائيلى من العبور الإسرائيلى متمثلاً فى محاصرة الجيش الثالث .. فقط حينما زار السادات الأفرع الرئيسية أدرك جسامته التهديد الذى يتعرض له الجيش ، وحينذاك تسلل الرعب إلى السلوك المصرى ، وفى هذا الخصوص يعترف هيكى بأن العبور كان له أثر معتبر فى الضغط على الأعصاب .

إن السادات حينما دعا إلى جلسة خاصة لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر كان ما زال غير واع بأن الإسرائيليين أصبحوا على الضفة الغربية للقناة منذ ساعات وأن دباباتهم تطوف حول البلد ، تدك الأرض والمواقع الجوية ، وتحطم الدبابات ، إذ طبقاً لما وصله من معلومات أعتقد السادات أن الأمر لا يعدو سوى أن يكون عبوراً محدوداً يمكن احتواؤه ، وقد ظهرت عدم معرفته حينما علق قائلاً .. " نحن جاهزون فى هذه الساعة .. نعم .. بل حتى فى هذه اللحظة ، لأن نبدأ تطهير قناة السويس ، ونفتحها للملاحة الدولية " .

وكان هذا الخطاب أعظم لحظة في حياة السادات الرئاسية ، حيث ظهر مرتدياً زياً عظيماً ، واستقبل كبطل قومي محبوب ، إنه أعاد الشرف للشعب المصري ، وأزال عار حرب الأيام الستة ، عيونه كانت تنطق بالفخر ، من يمكنه أن ينكر أنه يستحق التصفيق والمدح .

ولكن حادثاً ما قطع هذا كله حينما وصله أول التقارير عن التدفق الإسرائيلي ، حيث غادر مبنى البرلمان - وكان التصفيق ما زال يدوي في أذنيه - في الحال إلى غرفة العمليات بالقيادة العليا .. وكان السادات قد قيل له إن عدداً من الدبابات البرمائية الإسرائيلية قد نجحت في عبور القناة من خلال ثغرة الدفرسوار إلى الضفة الغربية ، وإن تدمير هذه الدبابات وشيك الوقوع ، وقد تحركت بالفعل كتيبة كوماندوز لإجلاء هذا الهدف .. وحينذاك أشار السادات إلى اللواء الشاذلي بمحاصرة هذه القوة وبعد ثلاثة أيام استدعى السادات إلى غرفة العمليات ، وهناك وجد الشاذلي الذي أعلن شخصياً أن الإسرائيليين تمكنوا من عبور القناة صارخاً الحرب انتهت ، وقعت كارثة يجب أن ننسحب من سيناء .

وبناء على ذلك قرر السادات طرد الشاذلي وتعيين اللواء الجمسى مكانه ، لكن السادات احتفظ بالقرار لنفسه حتى لا يؤثر ذلك على معنويات الجيش لأن الشاذلي كان اسماً جيداً .

إن شعور السادات بالانكشاف كان له ما يبرره ، فالحرب بالنسبة للواءات الآخرين كانت مسألة معركة .. كسب أرض .. هجوم على العدو الغاشم ، أما بالنسبة للسادات فإنه كان يرى للحرب أهدافاً أخرى ، ففي اللحظة التي يأتي فيها إحراز النصر وعبور القناة لم يغيب عن السادات حيازة المعجد القومي وكسر العزلة الدبلوماسية .

وعلى صعيد الجبهة الداخلية شعر الناصريون المتحمسون أمثال هيكل بشدة أن القوات المصرية سوف تفقد نجاحاتها إذا اندفعت في ممرات سيناء ، وأيد هذا الطرح

بواسطة الكثيرين في العالم العربى ، كذلك ظهر نفس التعليق على صفحات جريدة النهار اللبنانية المحترمة ، والتي أذرت بسوء عاقبة اندفاع القوات المصرية بعد عبور القناة للاستيلاء على ممرات متلا وبير جفجافا .

وهكذا لم تنته الحرب كما بدأت ، وعانى السادات هزيمة كبيرة يوم ١٤ من أكتوبر ، وقد شكوا السادات مبهراً أن المعركة كانت أكبر نطاقاً وأكثر تهكيراً عما كان يتمنى بسبب الضغط السورى لإزاحة القوات والطائرات الإسرائيلية من الشمال السورى .

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو : من الذى طلب وقف إطلاق النار ؟

إن السادات عندما كان يتقبل أخباراً طيبة من الجبهة أبلغ بأن السفير السوفيتى يرغب فى رؤيته على عجل ، وكان مع السفير السوفيتى رسالة من القيادة السوفيتية مفادها أن الرئيس السورى طلب وقف إطلاق النار فى الصباح التالى .

ورغم أن السوريين أنكروا الطلب بالذراء ، فإن رد الفعل العام هذا لا يعنى أن الأسد لم يتقدم بالطلب . تدفعه فى ذلك حكمته السياسية ورغبته فى الإبقاء على المرتفعات التى هاجمها فى اليوم الأول من الحرب ، حيث فتحت قواته المدرعة الممتازة ثغرات فى الدفاعات الإسرائيلية ، كما كان قريباً جداً من اقتحام الجولان إلى الجليل ، ومن ثم فإن وقف إطلاق النار يعنى إمداده بنصر هائل .

واعتقد السادات أن الكرملين كان يبحث عن تجديد تحالفه مع الأسد موحياً إليه بأن وقف إطلاق النار ضيع السادات .. وعندما اتصل السفير السوفيتى فى اليوم التالى متظاهراً بأنه يحمل رسالة من الأسد أربكه السادات بالفعل ظاهراً له إجابة الرئيس السورى برفض وقف إطلاق النار .

وحيثما أصر السفير السوفيتى على أن الكرملين يرفع رغبات حقيقية للأسد قرر السادات أن كلماته نهائية وحازمة .

وقد نبع شك السادات فى أن الكرملين وراء الضغط عليه للموافقة على وقف إطلاق النار من خلال حدث آخر ، حيث فى ١٣ من أكتوبر تلقى رسالة عاجلة من رئيس الوزراء البريطانى بواسطة السفير البريطانى مفادها أن هنرى كيسنجر (كان قد أصبح وزيراً للخارجية الأمريكية ولكن بدون وزارة) بالقاهرة وطلب منه -أى من وزير خارجية بريطانيا- مراجعة الدعوة التى تسلمها من البعثة السوفيتية ، والتى تطالب السادات بوقف إطلاق النار .

وأجاب السادات بأنه عقد العزم على استمرار المعركة ، حيث بالنسبة للسادات لم يكن الأمر ذا معنى بأن يتوقف عن المعركة عند هذا الحد ، خاصة أن مدرعاته ومشاته قد أتجزت أكثر مما توقع أى شخص خارج أو حتى داخل مصر .. كذلك كان فخوراً بما قدمته القوات الجوية المصرية تحت قيادة مبارك (الرئيس الحالى) وبما قاله له مبارك من أن القوات الجوية المصرية على استعداد لإتجاز ضربات هجومية أكثر مع الاحتفاظ بالعلاقة الطبيعية بين الجيش والقادة الجويين . وقد قيل لمبارك أن يذهب ليدرى طياراً إسرائيلياً ضربت طائراته ، وعلق الطيار على المستويات الإسرائيلية قائلاً : يا سيدى إنها ليست المستويات الإسرائيلية المتدنية ، وإنما هى مستوياتكم العالية .

الفصل الثانى عشر

كيسنجر يدخل المشهد

لم يخف كيسنجر إعجابه بالسادات فى تلك اللحظة التى استسلم فيها القائد المصرى لليأس ، كما فعل عبد الناصر من قبل بعد حرب ١٩٦٧ .

وقد زعم السادات أن الفترة ما بين النجاح الإسرائيلى فى عبور القناة وتوقيعه على اتفاقية وقف إطلاق النار كانت أروع فترة ، ولكن ليست كل دعاوى السادات أو انتقاداته لها ما يبررها .

وإذا عاودنا الحديث عن ساحة المعركة يمكننا القول بأن الشاذلى شعر بالإحسار ، وربما عبر عن حقيقة الموقف الاستراتيجى الذى سيعقب العبور الإسرائيلى بصورة بعيدة عن الخطأ . وإذا أخذنا رواية هيكل مأخذ التصديق ، ولم نضع بالحسبان أنها كتبت حينما كان هيكل لا يزال يحتفظ بعلاقات ودية مع السادات ، فإن توصيات الشاذلى لم تكن كلها معيبة أو دعوة للهزيمة ، إذ لاحظ أن القوات الإسرائيلية تحت قيادة جنرال بارع ، تحوم حول الدولة المصرية ، وتدمر مواقع الصواريخ ، وأصبح الطريق إلى القاهرة مفتوحاً .

وانطلاقاً من تقديره للموقف بصورة أفضل من المستشار الرئيسى للرئيس (اللواء إسماعيل) وجد الشاذلى أن بعض الإمدادات التى أرسلت إلى القناة ينبغى أن تعاد ، وخاصة فرقة المدرعات التى أرسلت لتلحق بالجيش الثالث ، كما دافع عن عودة بعض الدبابات والقوافل المضادة للدبابات . وأضاف أنه إذا لم تتخذ مثل هذه الإجراءات فإنه يخشى أن يتم حصار الجيش الثانى ، وتهديد الجيش الثالث ، ولن يكون هناك مفر من الضياع .

وطبقاً لوجهة النظر العسكرية الخالصة ، فقد كان الشاذلى على صواب بكل تأكيد ، كما كانت لمخاوفه ما يبررها ، حيث انعزلت الآلاف من القوات المصرية وأخذوا أسرى ، وإذا لم يتوسط كيسنجر لدى الإسرائيليين لكانت القوات المصرية ستترك دون ماء أو طعام ، وكذلك إذا تم حصار الجيش كان سيحدث إذلال وتأثيرات مدمرة على باقى القوات المسلحة ، مثلما حدث من جراء نكسة ١٩٦٧ .

أما عن شخصية الشاذلى ، فقد كان مقبولاً بوصفه لواء لامعاً فى الجيش المصرى ، ذا مظهر جيد ، شجاعاً ، وقد استطاع تحقيق الشهرة السياسية التى تمنّاها ، كما كان فتياً ومبدعاً ، ويتشابه فى قدرته القتالية مع اللوآت الإسرائيليين من الدرجة الأولى .

بيد أن الخطأ الذى قاد إلى طرده المشين (حيث تلقى رسالة بأن الرئيس قد قبل استقالته) كان عدم فهمه أن الرئيس ليس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة فحسب ، وإنما القائد السياسى للدولة والمقامر العظيم ، والذى ذهب للحرب لأنه أراد سلاماً مشرفاً. لقد خشى السادات من أن أى انسحاب من الضفة الشرقية سوف يودى إلى تلك النتائج المروعة التى تتبأ بها الشاذلى ، مستحضراً فى ذاكرته تلك الكارثة التى حدثت للجيش المصرى ، حينما أمر عامر بالانسحاب فى حرب الأيام الستة ، وهكذا ترسخ لدى السادات واللواء إسماعيل أن الجيش المصرى لن يقلب على كل الصدمات إلا إذا انقلب الموقف ، وشعر الإسرائيليون بالحاجة إلى عودة فرقهم المدرعة إلى الضفة الغربية .

لم تكن هناك معارضة سياسية لعملية فصل القوات ، ولم يكن مقتعاً أن أى وزير أو لواء سوف يعارض فى ذلك .. وبالنسبة للسادات كانت هناك حجة حيوية تتمثل فى وجود فرصة جيدة لأن يمنع الكرملين والأمريكيون الانهيار .. كما أعطته محادثاته السرية مع كيسنجر - عبر مستشاره الأمنى - الأمل بوجود الشخص المناسب الذى سوف يضغط فى النهاية على الإسرائيليين .

أما على الجبهة السورية فقد وصل الموقف إلى درجات خطيرة من الضياع ، حيث ارتد السوريون الذين كانوا مندفعين للهجوم فى قلب الأراضى الإسرائيلية بواسطة نخبة من أمهر وأشجع الجنود فى تاريخ الحروب .

وفى أيام قلائل استطاعت القوات الإسرائيلية تدمير ٦ دبابات سورية ، كما فتحت الطريق إلى دمشق .. ولم يكن الأسد يعرف بالتأكد ما إذا كانت نوايا الإسرائيليين تتجه إلى دخول المدينة التى تعج بعدد سكانها الضخم .

فى هذا اليوم المصيرى حكم السادات زمام عقله وبعث برسالة إلى الأسد تقول:

" لقد حاربنا إسرائيل على مدى خمسة عشر يوماً .. فى الأيام الأربعة الأولى كانت إسرائيل بمفردها ، لذلك كنا قادرين على أن نكشف موقعها على كلتا الجبهتين ، وباعترافهم فقد العدو ثمانمائة دبابة ، ومائتى طائرة ، لكن خلال الأيام العشرة الأخيرة كنت أحارب الولايات المتحدة على الجبهة المصرية من خلال الأسلحة التى أرسلتها . أنا لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة ، ولا أن أتحمّل مسئولية تدمير قواتنا المسلحة أمام التاريخ للمرة الثانية ، لذلك أخبرت الاتحاد السوفيتى بأننى على استعداد لقبول وقف إطلاق النار بناء على المعطيات التالية :

١- على الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ضمان الانسحاب الإسرائيلى كما تم الاقتراح بواسطة الاتحاد السوفيتى .

٢- الإعداد لمؤتمر للسلام تحت رعاية الأمم المتحدة لإنجاز التسوية كما تم الاقتراح بواسطة الاتحاد السوفيتى .

إن قلبى ينزف وأنا أخبرك بذلك ، لكننى أشعر بأننى مضطر لاتخاذ هذا القرار ، وإننى على استعداد لأن أواجه أمّتنا فى اللحظة المناسبة ، كما أننى على استعداد لأن أتحمّل ثمن هذا الفعل .

هناك أسباب عديدة للاعتقاد بأن الرئيس الأسد كان أقل أمانة مع السادات ، كما كان هناك أكثر من عنصر يمكن تضمينه فى الشقاق الذى رتب له الأسد ضد السادات .. إلا أنه ليس هناك سبب لتصديق أن الأسد لم يكن مستريحاً مثل السادات لتوقيع وقف إطلاق النار بمساعدة الكرملين والأمريكيين .. وقد تضمنت الطلقات الأولى فى رد الأيدى التالى :

" تلقيت خطابك بالأمس بانفعال بالغ .. أخى أرجوك أن تعيد النظر مرة أخرى على الموقف العسكرى على الجبهة الشمالية وعلى جانبى القناة ، إننا لا نجد سبباً

للتشاور ، ويمكننا الاستمرار فى القتال مع قوات العدو إذا كانوا قد عبروا القناة أو مازالوا يقاتلون شرق القناة .. إننى مقتنع بأنه بالاستمرار وتشديد المعركة يمكن تدمير وحدات العدو التى عبرت القناة .

أخى السادات ، من أجل الروح المعنوية للقوات المحاربة من الضرورى التأكيد على أن تمكن العدو من كسر جبهتنا نتيجة لحادث ما لا يعنى أنه قادر على إنجاز النصر ، وقد نجح العدو فى اختراق جبهتنا الشمالية منذ عدة أيام ، لكننا صمدنا ، ومنحتنا المعركة الضخمة التالية أرضية للتفاوض ، ومعظم النقاط التى تم اختراقها بواسطة العدو أغلقت ، وإننى على يقين بأننا سوف نكون قادرين على التعامل مع بقيتها خلال الأيام القليلة القادمة . إننى اعتبرت أنه من المحتم أن تحتفظ جيوشنا بروحها القتالية .

أخى الرئيس ، إننى متأكد من أنك ستقدر أننى وزنت كلماتى بعناية بالغة ، وبإدراكك كامل بأننا نواجه الآن أصعب نقطة فى تاريخنا ، لقد شعرت بأنه من الثقيل على أن أشرح لك ما أفكر فيه ، خاصة بالنسبة للجبهة الجنوبية .. والله معك " .

عندما حدث العبور الإسرائيلى مكث كوسيجين لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة لإقناع السادات بالموافقة على وقف إطلاق النار ، إذ طبقاً للمعلومات التى حصل عليها القادة السوفييت عبر قمرهم الصناعى -الذى كان مرشداً للمصريين ومصدرا مهماً وحيوياً للمعلومات بالنسبة للكرملين منذ بداية الحرب- أصبح هؤلاء القادة خائفين من حدوث كارثة للمصريين ، خاصة بعدما شاهدوا معركة الدبابات فى ١٤ من أكتوبر ورغم اعتماد السادات على الأسلحة السوفيتية ، إلا أن تشككه الدائم فى نواياهم جعله يرفض اقتراحهم فى البداية ويصر على الاستمرار فى المعركة ، ولكن بعد دخول عنصر حيوى جديد -المساعدة الأمريكية لإسرائيل- غير السادات اتجاهه كلية .

وفى الحجج التى ساقها السادات لقبول وقف إطلاق النار ، ركز السادات على قوة الولايات المتحدة ، ووصل إلى مدى أبعد للتأكيد على هذا العامل ، كما ركز على

تميز الأسلحة الأمريكية بالمقارنة بمثلتها السوفيتية .. ففي وصفه للتفوق الإسرائيلي الجوى بسبب امتلاك الفانتوم والميراج قال السادات :

”لم يملك الطيار شيئاً في الميج - ٢١ باستثناء البوصلة ، وليس لديه تسهيلات على الإطلاق ، أما بالنسبة للميراج والفانتوم فإن كل شيء يكون مبرمجاً بالكمبيوتر للطيار ، لو دخل في منطقة قواذف (دفاع جوى) سوف يظهر ضوء لتحذيره ، ولو حاول أى شخص أن يهاجمه من الخلف سوف يظهر ضوء آخر لإذاره ، إنه يضع فقط كارتاً بجهاز الكمبيوتر ، ويؤخذ في الحال إلى المكان الذى يختاره ، إنها تخبره متى سيسقط المفرقات ، ثم تعود به إلى القاعدة الجوية ، أما في الميج ٢١ فإن كل هذه الأشياء تتم بواسطة الطيار ، فهي بدائية جداً ، وذلك هو الذى يمنح إسرائيل تفوقاً جويًا“ .

ومع ذلك كان السادات يعرف تفوق القواذف السوفيتية التى مثلت حماية لقواته وأسقطت العديد من الفانتوم ، كذلك كان يعرف أن خسائر إسرائيل تعدت نطاق الأوامر المعطاة لتجنب القصف ..

وقد حاولت إسرائيل بصورة متكررة جر القوات المصرية خارج منطقة الدفاعات الجوية ، وحينما حدث ذلك فى معركة الدبابات فى ١٤ من أكتوبر كانت إسرائيل قادرة على التخلص من الهزيمة الخادعة .

لماذا إذن لم يشرح السادات عدم فاعلية الأسلحة الأمريكية فى بدايات الحرب بينما يعول الآن على الأسلحة الجديدة التى نجحت فى ضرب وسائل الدفاع الجوى ، وهو الأمر الذى فشلت فيه إسرائيل من قبل .

وهكذا ، حينما شددت سوريا على شكواها من وقف إطلاق النار ، أجاب السادات بأنه على استعداد لمحاربة إسرائيل ، لكنه لا يقوى على محاربة قوة عظمى مثل الولايات المتحدة ، حيث تولدت لدى السادات قناعة بأن الولايات المتحدة هى التى تقود إسرائيل استراتيجياً ، وأنها هى التى شجعت على الهجوم المضاد لعبور

قناة السويس ، وأنها هي التي أمدت إسرائيل بنظام للمراقبة لا يمكن التصدى له ، كذلك أرسلت الدبابات الأمريكية الجديدة مباشرة إلى ميدان المعركة .. ومثل هذه الدعاوى أعادت إلى الأذهان اتهامات ناصر بعد معركة ١٩٦٧ بأن الطائرات الأمريكية التحقت بالطائرات الإسرائيلية في المعارك الجوية .

لقد كان السادات يائساً حينما وصف الحرب بأنها كانت على الأقل نصراً جزئياً ، كما كانت له مبرراته في الزعم بوجود اختلافات كبيرة بين حرب يوم كيפור وحرب الأيام الستة ، مشيراً إلى أن قواته حاربت بشجاعة فائقة ، وأنهم أخذوا إسرائيل على غرة ، كما كبّدوا إسرائيل خسائر أضخم بكثير من حرب الأيام الستة .

كذلك أظهر السادات أنه بطل قومي حقيقي عندما شجع جنوده على التصدى للقوات المتناثرة للجنرال شارون .

وحينما اقتربت القوات الإسرائيلية من مدينة السويس قام السادات بتشجيع المقاومة المسلحة ، التي ألحقت خسائر بالقوات الإسرائيلية كانت ذات دلالة بالنسبة للجنرالات الإسرائيليين الذين قرروا المرور على المدينة . وبالنسبة للسادات كانت معركة السويس تمثل ضوئاً عالياً في الصراع ضد إسرائيل ، حيث كانت مقاومة بطولية أثبتت أن الشعب المصري قادر على مقاومة حتى أقوى الأعداء ، وادعى السادات أن المعركة سوف تدون في التاريخ على أنها واحدة من أشجع المعارك ، وبلغ الأمر ذروته حينما قرر اتخاذ يوم ٢٤ من أكتوبر عيداً قومياً للسويس .

غير أن ضواحي السويس لم تكن مقبرة للدبابات والجنود الإسرائيليين كما ادعى السادات ، وإنما كانت بمقاومة حادة لعرقلة تقدم الإسرائيليين عندما أرادوا تطويق الجيش الثالث بالاستيلاء على السويس وقطع الرباط الأخير لهذا الجيش بقلب الأراضي المصرية ، ولكنهم حينما وجدوا صعوبة في الاستيلاء على المدينة زحفوا وراءها لتكملة عملية التطويق .

وقد مثلت المصيدة التى نصبت للجيش إهانة عميقة للسادات ، لدرجة أنه لم يكن قادراً على مناقشتها علانية ، كما عالج هذه الهزيمة بأسلوب الفرقة ، الذى كان يعرف جيداً أنه ليس مقتنعاً .. وفى المستويات العليا من الجيش نوقش الأمر على أنه سمة هزلية لوقوع جيش كامل فى شرك قوة صغيرة .

إن السادات أبدى إعجابه الخاص بأريل شارون ، كما تمنى أن يكون لديه مثله ، وظهر ذلك بوضوح فى أن السادات حينما سافر إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ كان مشتاقاً لرؤية شارون ، ولأن الرجلين كانا مرتبكين قال السادات للجنرال مازحاً أنا تقريباً نصبت لك فخاً فى الدفرسوار .. لقد كان يدلى بالاعتراف بفشله .

وواقع الحال ، فإنه لم يكن هناك شيء أشد قسوة وحدة على مسامع السادات من تلك النكات التى كان يطلقها المصريون العاديون -بروحهم المرحّة- عن السلطة ، والتى بدأت تركز على الإهانة التى تعرض لها الجيش الثالث .

ورغم الرقابة على المطبوعات ، بدأت الشائعات التى لا مفر منها تملأ أرجاء القاهرة ، تلك الشائعات التى بالغت فى حجم هزيمة المصريين بالقول بأن عشرة آلاف من القوات المصرية استسلموا وأن الإسرائيليين اقتربوا من العاصمة . يالها من صورة مختلفة عن تلك الصورة التى سادت أيام النصر حينما عرضت الدبابات المستولى عليها فى شوارع القاهرة وتم استعراض الأسرى الإسرائيليين !!

وقد اصطبغت النكات بمرح المصريين ، وكانت إحدى هذه النكات تقول إن التطويق لم يعد جيباً فى الأراضى المصرية ، بل أصبح زوجاً من البناتيل ، وأخرى كانت تقول إن جولدا مائير قالت للسادات Bonjour (صباح الخير) فرد عليها Al-ubour (العبور) وأن السادات قال لها Bonsoir (مساء الخير) فردت عليه Deversoir (الدفرسوار) .

والآن .. أين كيسنجر من كل ذلك ؟

إن كيسنجر كان قد أوقف على مهل ليتلقى أخباراً عن حرب يوم كيبيور ، حيث كان نائماً بفندق (Waldorff) بنيويورك حينما أيقظه مساعد وزير الخارجية الحكيم جوي سيسكو مفعماً بإياه بمعلومات تقول إن إسرائيل ومصر وسوريا على وشك خوض حرب ، وأضاف سيسكو ل كيسنجر المحملى ، إن كل الخطأ يكمن فى أن كلا الطرفين أساء قراءة نوايا الطرف الآخر ، ولو أن كيسنجر أخبرهم بحقيقة الموقف لثم تجنب الأزمة .

وفى الحقيقة فقد كان سيسكو متفائلاً للغاية ، فلا كيسنجر ولا غيره كانوا يستطيعون منع الهجوم المصرى السورى فى هذا اليوم ، وكانت جولدا مائير فى الصباح الباكر لهذا اليوم قد قالت للسفير الأمريكى (نحن قلقون) فذكرها بما قاله المسئولون فى وزارة الدفاع الإسرائيلية منذ ١٢ ساعة بأن احتمال الحرب بعيد .. وقد علقت جولدا مائير -التي يبدو أنها ظلت لا تفهم نوايا العرب- بأنه منذ أن أصبح العرب متأكدين من هزيمتهم ، اعتقدت أن الأزمة سوف تتبع من سوء فهمهم لأهداف إسرائيل ، وأنها طلبت من الولايات المتحدة إبلاغ الاتحاد السوفيتى والدول العربية بأن إسرائيل ليست لديها نية لمهاجمة مصر أو سوريا .. كذلك كانت إسرائيل تستدعى بعض قوات الاحتياط ، لكنها كدليل على نواياها السلمية توقفت عن التعبئة العامة .

وعلى الرغم من أنه فوجئ بالحرب شأن أى فرد آخر ، شعر كيسنجر بأن الولايات المتحدة كانت فى موقف جيد يجعل بإمكانها السيطرة على الأحداث بمجرد اندلاع الحرب ، كما شعر كيسنجر بأن الأمريكيين كان لديهم عدد من الأهداف المتناقضة ، فهم كانوا يؤكدون على بقاء دولة إسرائيل ، كما أرادوا الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع بعض الدول العربية مثل الأردن والمملكة العربية السعودية .. أما الدول الأوروبية التى تنقسم بالبرود تجاه إسرائيل فكان من المتوقع -كما حدث فعلياً- أن تتبع مواقف مختلفة ، وفوق ذلك كان هناك قلق من أن يتبع الاتحاد السوفيتى سياسات مؤذية إن لم تكن خطيرة لتحريك زبائنه العرب ، ولم يكن متوقعاً أن يقدم القادة السوفيت أية مساعدة حقيقية لإطفاء النيران ، وتحديدأ فى البداية .

وقد تبارى كيسنجر مع السفير السوفيتي دوبر ياتين الدبلوماسي المحنك ،
ومن خلاله مع بريجنيف في موسكو ، مكرساً السقوط المظلم في ميادين القتال ، إلا
أنه طوال الوقت كان واضعاً نصب عينيه عقلية ذلك الرجل غير العادي (يعنى أنور
السادات) .

إن كيسنجر كان متفائلاً من أن الولايات المتحدة باستطاعتها السيطرة على
الموقف ، لكنها كانت شاردة جداً .. بيد أنه لولا القوة العسكرية الضخمة التي كانت
تمتلكها الولايات المتحدة لكان الاتحاد السوفيتي قد حاول التدخل مباشرة بإرسال
العديد من الفرق الجوية للشرق الأوسط لتغيير دفة الحرب .. وربما لم يكن كيسنجر
مدركاً في البداية الآلام وعدم الرشاد الذي يكتنف الصراع العربي الإسرائيلي ، ولا
درجة الإهانة التي تعرض لها الاتحاد السوفيتي بانتصار الإسرائيليين المسلحين
أمريكا على العرب المسلحين سوفيتياً .

وهكذا اتضح الموقف لـ كيسنجر ، فالإسرائيليون كانوا في طريقهم لكسب
المعركة سريعاً ، لكنه لن يكون بالنصر الكاسح الذي حدث بعد حرب الأيام الستة ،
وسوف يؤدي ذلك إلى عدم وجود قائد عربي قادر على صنع السلام ، وفي نفس
الوقت كان من الضروري أن يُمنع الاتحاد السوفيتي من أن يصبح منقذ العرب وعقد
اتفاقية سلام تشمل على تنازلات جسيمة .

وقد أصر كيسنجر -لأول وهلة- على أنه تعهد باستخدام الحرب كنقطة انطلاق
إلى العملية السلمية ، والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق هو : هل شجع
كيسنجر السادات ليبدأ حرباً محدودة ؟

إن السادات نفسه لم تكن لديه شكوك في هذا المضمار ، حيث كان قد قرأ
تعليقات المبعوثين الأمريكيين ، والتي أشارت إلى أن كيسنجر قد شعر بأنه إذا لم يكن
هناك كسر للجمود الدبلوماسي بواسطة فعل عربي محدود ، فلن يكون بالإمكان عقد
محادثات سلام ، وهو ما ظهر جلياً فيما بعد .

إن كيسنجر لم يكن يدعى أن الاتحاد السوفيتي توقف عن تشجيعه للحرب ، لكنه لم يبذل مجهوداً لإيقافه ، وليس ثمة شك في أنه بدون الإمدادات الضخمة من الأسلحة السوفيتية ، لما كانت الحرب متصورة ، سواء على الجبهة السورية أو الجبهة الإسرائيلية . أيضاً ذهب كيسنجر إلى التعليق بأنه من المحتمل أن يكون الكرملين قد اعتقد أن مصالحه سوف تنتعش عندما يكون الأداء العربى جيداً ، حيث ستتوج الثقة الأسلحة والدعم السوفيتي ، أما إذا كان الأداء ضعيفاً فسوف تظهر موسكو قائداً للعالم العربى وسوف يقوى ذلك الراديكاليين العرب .. وحتى التخلص من أتور السادات المزعج ، ومع ذلك سقط هذا المفهوم على أرضية معرفتنا بلهفة بريجنيف الفعلية على تأكيد النصر العربى ، لا سيما السورى .

وفى الإعداد لرد الفعل الأمريكى إزاء الحرب ، كان على كيسنجر أن يضع بالحسبان أن رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون شخصية مهزوزة ومعقدة ، كما كان متورطاً بصورة سيئة فى فضيحة ووترجيت ، التى كادت تخلعه من السلطة . ورغم أنه عين لاجئاً يهودياً ألمانيا من ضحايا النازية كمستشار للأمن القومى ، ثم وزيراً للخارجية ، إلا أن سلوكه إزاء اليهود كان بعيداً عن الإطراء أو المجاملة ، لأنه كان لا يشعر بأنه مدين لهم بمساندته الانتخابية ، حيث صوت معظم اليهود الأمريكيين لصالح خصمه الديمقراطى .

كذلك اعتقد نيكسون أن الجالية اليهودية جماعة متماسكة قوية فى المجتمع الأمريكى ، وأنهم يضعون مصالح إسرائيل فوق كل شيء ، كما أن سيطرتهم على وسائل الإعلام تجعل منهم خصوماً خطيرين ، أيضاً اعتقد نيكسون بضرورة إلزام إسرائيل لتسوية السلمية ، وعدم السماح لها بتعكير صفو العلاقات الأمريكية العربية.

ومع ذلك اعترفت جولدا مائير بأن نيكسون وقف بثبات بجوار إسرائيل ، سواء يتعلق بإمدادها بالأسلحة أو فيما يتعلق بمساندتها أكثر من أى رئيس أمريكى ر بما فيهم هارى ترومان .. ولولا الجسر الجوى الأمريكى المدهش عندما ينس

موشى ديان من رد العدو العربى إلى الورااء لأضحى موقع اسرائيل الاستراتيجى كله فى خطر ، وكانت إسرائيل ستبقى كدولة لكن الدول العربية والفلسطينيين كانوا سيتلقون التشجيع فى ضوء نصرهم ، وتصبح عملية السلام التام مستحيلة .. أما إسرائيل الشريرة الضعيفة فكانت ستصبح فريسة لحروب لاحقة ، على أمل أن يقوم العرب بتشجيع سوفيتى بسحق عدوهم الصغير الكريه .

لقد كان من حسن حظ إسرائيل والعالم الحر أن ريتشارد نيكسون كان داخلاً فى مشاكل دولية جعلته يجبر الاتحاد السوفيتى على توخى الحكمة .. إذ أدرك نيكسون أن العرب كان عليهم إنجاز نصر كبير بمساعدة الاتحاد السوفيتى ضد النفوذ الأمريكى ، كما أن هيئة الكرملين ستبلغ درجات متعاطفة فى العالم العربى ، بينما هيئة الولايات المتحدة سوف تغوص إلى أعماق جديدة . أما الدول العربية المعتدلة كالمملكة العربية السعودية ودول الخليج البترولية الغنية الأخرى ، فسوف تواجه الراديكالية السوفيتية وسوف يصبح الاتحاد السوفيتى هو سيد الشرق الأوسط كله وموارده البترولية الأساسية ، وهو سيناريو لم يكن ليقبله نيكسون على الإطلاق .

وعلى هذا الأساس بدأ نيكسون وكيسنجر الافتراض بأن إسرائيل سوف تكسب نصراً سريعاً مدمراً يجعلها أقل رغبة فى تقديم تنازلات للعرب ، ثم كانت مفاجأة أن إسرائيل تحملت ضربات مؤلمة فى يوم مفتوح للحرب ، وفى اليوم التالى بدأ السادات يملئ شروطاً غير مقبولة لإنهاء الحرب ، تمثلت فى الاتسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة .. لكن بالنسبة ل كيسنجر كانت هناك حقيقة جلية ، وهى أن السادات كان يدعو الولايات المتحدة - وللمرة الأولى - للمشاركة فى عملية السلام ، حيث كانت هذه هى خطوة السادات الأولى فى اللعبة الخطيرة والمعقدة ، والتي فهمها نيكسون لحسن الحظ .

ومن الغريب ، أن كيسنجر يعترف بأنه حتى هذه الرسالة لم يكن يعتقد أن السادات جاد ، حيث كانت تهديدات السادات العديدة بالذهاب للحرب غير مقترنة بأى

تنفيذ ، لذلك اعتقد أن السادات ممثل وليس سياسياً ، ومع ذلك كان ذهاب السادات للحرب - والذي خدع تقريباً كل شخص - سبباً لأن يأخذ كيسنجر انطباعاً مغايراً عن شخصية السادات المعقدة .

بيد أن الاعتراف بالأهمية الحيوية للشرق الأوسط جاء متأخراً ، والآن فهم كيسنجر أن الإشارات المتحذلة كانت جزءاً من استراتيجية واعية ، فقد كان كيسنجر مندهشاً من أن السادات لم يطلب مكافأة من الولايات المتحدة على طرده للخبراء السوفييت ، وظن كيسنجر أن هذه الحركة كانت لإزالة العرقلة السوفيتية للحرب والتوجه إزاء الولايات المتحدة ، وهكذا أصبح بإمكان السادات إقناع كيسنجر بأنه سياسى من الدرجة الأولى .

لقد كان هناك العديد من الطلائع العديدة فى تحليل كيسنجر التاريخى ، فقد كان هناك عنصر الخوف من المقامرة فى سياسات السادات ، وكذلك كانت المسألة خطيرة وأقرب إلى الانقلاب .

وربما كان من قبيل العون أن السفير الإسرائيلى الجديد سيمخا دينيتز قد وصل إلى واشنطن ليشغل مكان إسحاق رابين ، حيث وجد كيسنجر بوضوح أن إسحاق رابين الكتوم - كما أطلق عليه - يعانى بعض التوترات ، بينما سيمخا دينيتز لديه حرارة وصفاء من خلال ما كان يرويه من قصص شيقة وميله للدعابة ، مما جعل ثلثين - كيسنجر ودينيتز - يرتبطان بصداقة حميمة .

وعند الاندفاع لإمداد إسرائيل بالجسر الجوى حينما أدت دراماتيكية وفساد الموقف إلى طلب طائرات ودبابات وذخيرة على عجل ، كان كيسنجر يعطل دائماً بواسطة نيكسون والمعارضة التى كانت تبديها الإدارة ، حيث كان هناك أولئك الذين يدعون أن الأسلحة سوف تصل متأخرة للغاية ، ومن ثم فإن إسرائيل وحدها لم تكن قادرة على نقل كل الأسلحة الضرورية ، إلا أنه يمكن القول بوجه عام أن الولايات المتحدة بضمانها تعويض كل خسائر إسرائيل قد منحت الأخيرة إمداداً ونجدة هائلة .

الفصل الثالث عشر

فرص وتحديات الوساطة

ثمة العديد من علامات الاستفهام تثار حول سلوكيات الكرملين ، وإذا كان السادات قد أعلن أن الكرملين يسعى لوقف إطلاق النار ، فلماذا بحث بريجنيف إذن عن احتواء الجزائر والأردن ، ولماذا أرسل هذه الإمدادات الضخمة إلى دمشق ثم إلى القاهرة ؟ لماذا تأخر في مشاوراته مع الأمريكيين حينما اعتقد أن عملاءه سيفوزون؟ لماذا كان فقدان الأعصاب الذي جعله يهدد بالتدخل المباشر ، رغم علمه جيداً بأن ذلك سيؤدي إلى الصدام المباشر مع الولايات المتحدة ، وقد يؤدي إلى الحرب النووية التي كان لا يرغب فيها بالتأكيد ؟ .

والإجابة بالتأكيد هي أن بريجنيف لم يكن مسيطراً على الموقف ، وأنه لم يخبر جيداً بنوايا الإسرائيليين والأمريكيين ، ولم يكن متعمقاً في خطط السادات المعقدة ، وفوق ذلك فقد كان يخشى نتيجة الحرب ، والتي كانت ستعرض مكانته على قمة الكرملين للاهتزاز .

وهكذا فإن الذل والإهانة عنصران لم يستطع قائد الكرملين التعامل معهما مثلما حدث لخورثشوف خلال أزمة الصواريخ الكوبية في عهد الرئيس الأمريكي جون كيندي .

وقد لاحظ الكسندر جوليستين -أحد المسؤولين السوفييت القائمين على العلاقات المصرية السوفيتية في تلك الفترة ، والذي كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، كما خدم في العديد من الدول العربية - أن الحقيقة كانت مخالفة لروايات الأحداث كما أعلن عنها في حينه ولاحقاً ، ولذا لم يكن مذعوراً مما أفتشاه كيمحي في هذا الخصوص .

وطبقاً لرواية جوليستين فإن قرابة ٧٠٪ من الخبراء السوفييت الذين طردهم السادات من مصر ظاهرياً ظلوا باقين في مصر ، بينما أفاد الطرد الجزئي في الزيادة الكبيرة في إمدادات مصر بالأسلحة السوفيتية .. والأهم من ذلك أن جوليستين أفشى حقيقة أن بداية تدريب القوات المصرية للمعارك مع إسرائيل كانت في يوليو ١٩٧٢ تحت إشراف الجنرال أوكينوف ، الذي لم يدخل مع من رحل من الخبراء .

وأضاف جوليستين أن السادات لم يخطط على الإطلاق لحرب خارجية مع إسرائيل ، وإنما كان هدفه هو خلق الموقف الذى يؤدى إلى الحضور الأمريكى .. وقد اعتقد المسئولون السوفييت أن عبور المصريين لفتاة السويس كان عملاً خالصاً مخططاً له ، لكن الحقيقة هى أنه لم يكن لدى المصريين استراتيجية لاستغلال نجاحهم ، هم فكروا فقط فيما يمكن أن تسببه الصدمة بالنسبة للإسرائيليين والأمريكيين ، ففى عقل السادات كان هناك تفكير فى السلام ، بينما كان الأسد هو الذى يفكر فى حرب جادة ، وهذا هو الفارق بين الرجلين ، والسبب الذى من أجله شعر الأسد بأنه خُدع .

وحتى على افتراض أن الكثير كان معروفاً للمسئولين السوفييت فإن سلوك بريجينيف بدا متقلباً ، حيث لم ينصت لما قاله له هؤلاء المسئولون ، وهو ما يبدو ماثلاً بوضوح فى أنه حينما تشكل الجسر الجوى الأمريكى بواسطة نيكسون وكيسنجر كان الكرملين ينذر بإرسال فرقه الجوية إلى الشرق الأوسط .

وفى نفس الوقت كانت الدول العربية الغنية بالبترول تهدد بمقاطعة بترولية ، وكان من حسن حظ إسرائيل أن الولايات المتحدة لم تكن معتمدة على البترول العربى بصورة أشبه بالاعتماد الأوروبي عليه .. إذ لو كان الأمر كذلك لترتب عليه إثارة القلاقل فى الإدارة الأمريكية والبيت الأبيض ، كما حدث فى حالة حكومة هيس البريطانية ، التى قامت بفرض حظر على توريد الأسلحة لكل من العرب وإسرائيل ، وهو سلوك قاس لا يمكن تبريره عملياً ولا خلقياً ، خاصة فيما يتعلق بالتوقف عن إرسال الذخيرة إلى إسرائيل وما آل إليه ذلك من نتائج سيئة .

وعلى كل حال ، فإن أقل ما يمكن أن توصف به السياسات البريطانية أثناء الحرب هو أنها لم تكن ذكية من الناحية الدبلوماسية . وقد تأكد ذلك فى رؤية لورد هوم وزير خارجية بريطانيا بأن وقف إطلاق النار يعتبر سراباً ، وأن السادات لم يكن يقبل بأقل من التزام إسرائيل بالعودة إلى حدود ما قبل حرب الخامس من يونيو

سنة ١٩٦٧، ولم تكن اقتراحات الولايات المتحدة لوقف إطلاق النار لتقبل إذا لم يهدد الكرملين بوقف الإمدادات للسادات ، وبدلاً من ذلك اقترح لورد هوم مراقبة وقف إطلاق النار بواسطة قوة دولية ، على أن يلي ذلك عقد مؤتمر دولي .

وقد أظهر الاختبار السطحي لهذه الأفكار أنها لم تكن مقبولة بالمرة لدى إسرائيل ، بينما كانت تطبيقاتها مستواءم والحل العربي للصراع ، وكما أدرك كيسنجر فإن هذه الأفكار كانت غير مناسبة لإسرائيل ، على عكس السادات .. حيث كان الرئيس المصري يطالب فقط -من حيث المبدأ- بقبول الانسحاب من الأراضي المحتلة ، بينما كانت الفكرة البريطانية بوجود قوات دولية تغني -من حيث الأثر- تخلي إسرائيل عن السيطرة على هذه المناطق في الحال .. ورغم إعجاب كيسنجر الشديد بشخص لورد هوم فإنه لم يكن لديه أدنى شك في معارضة هذه المقترحات .

والحادث أنه بعد هزيمة معركة الدبابات في ١٤ من أكتوبر ، كان هناك اقتراح غير متوقع من قبل السادات ، إذ أرسل دعوة إلى كيسنجر عبر مستشار الأمن القومي لزيارة مصر ، ولم تكن الرسالة المرفقة مع مستشار الأمن القومي تتحدث عن الانسحاب الإسرائيلي الكامل ، بل أظهرت أن السادات يبحث عن مخرج سياسي للحل العسكري ، وتمثل طلبه الوحيد في ألا تقدم مصر أي تنازلات عن سيادتها وعن أراضيها .

ولا عجب أن كيسنجر رأى رسالة السادات تمثل تصرف رجل دولة ، مؤكداً تقديره الجديد للسادات ، ذلك أنه أدرك أنه لا شيء يمكن أن يصرف نظر السادات عن السلام الموضوعي الشريف ، كما أشار كيسنجر إلى أن السادات استطاع في هذه اللحظة القاسية من الهزيمة على أرض المعركة أن ينهي الحشد العربي ضد الأمريكيين ، وفي نفس الوقت بدأ السادات في التحول رسمياً عن الاتحاد السوفيتي رغم بقائه يعتمد عليه بصورة كلية في حصوله على الأسلحة .. ويحتمل أن يكون هذا طلاقاً للمواعمه ، لأن الاتحاد السوفيتي ربما أصبحت لديه شكوك فيما يتعلق باغتيال مصر تحت حكم السادات .

أما عن الشكوك التي انتابت الدول الأوروبية فقد تحولت إلى زعر حقيقي ، لأن الأوروبيين أدركوا أنهم في هذا الوقت لن يمكنهم تملك القدر الكافي من إمدادات البترول .. وقد قاد هذا الذعر إلى محاولة الساسة الأوروبيين استمالة القادة مع العرب المنتجين للبترول .

وعلى الفور ظهر أثر ذلك واضحاً ، إذ حينما كان الجسر الجوي الأمريكي إلى إسرائيل على وشك أن يبدأ لم تكن هناك أية دولة أوروبية واحدة على استعداد للسماح للطائرات الأمريكية بالتحليق فوق أجوائها في طريقها للشرق الأوسط ، بينما أجبرت البرتغال على ذلك .

وبمجرد أن أدرك الكرملين امتداد الجسر الإسرائيلي عبر القناة على مسافة ٨ أميال من جهة الشمال و٤ أميال من جهة الجنوب مع ما يزيد على ٣٠٠ دبابة قام بمجهودات عاجلة لإيقاف الحرب ، وكانت زيارة كيسنجر لموسكو جزءاً من هذه المحاولة .. أما جولدا مائير التي كانت قد وافقت على وقف إطلاق النار منذ أسبوع فقد أصبحت الآن أكثر وعياً لأن الموقف العسكري تغير كليةً ، كذلك لم تكن متحمسة لأخبار قبول كيسنجر دعوة الكرملين وهكذا .. قام كيسنجر بتأخير مغادرته إلى موسكو لمدة ٢٤ ساعة ، وهكذا أيضاً قوى موقف إسرائيل العسكري بصورة أكبر ، وقد جادل كيسنجر بأنه شخصياً كان راضياً عن ذلك وبأن ما فعله هو الصحيح ، وبأن الكرملين يعرف سر تأخره .. وحينما التقى كيسنجر بهريجينيف أظهر الأخير لهفته ، سرعة وقف إطلاق النار ، ولم ير كيسنجر -الذي كان مخولاً له كل السلطات من قبل الرئيس- أية مانع ، لا سيما أنه شعر بأن إسرائيل ليست في حاجة إلى عدد أكثر من الأيام لإحكام خناقها على القوات المصرية ، كما أنها في وضع تساوى أفضل .

ثم كان قبول كيسنجر لدعوة جولدا مائير بالسفر من موسكو لإسرائيل ، وهي الزيارة التي ركز الكثيرون على أنها أظهرت يهوديته . وفي مذكراته يشير كيسنجر بوجه خاص إلى عواطفه تجاه إسرائيل وخلفياته ، وإلى أنها احتلت مكانة رفيعة في قائمة أولوياته أثناء خدمته الحكومية ، ومع ذلك لا يمكن قبول هذا الانطباع كلية .

ويرجع سر هذه الدعوة إلى القلق الذى انتاب كلا من جولدا مائير وموشى ديان ، والذى لم يكن منبعه عملية وقف إطلاق النار فى حد ذاتها ، وإنما كان ما تم تقريره فى موسكو ، وما إذا كان قد تضمن اتفاقاً سرياً للتراجع إلى حدود ١٩٦٧ ، وأيضاً إذا ما كانت هناك محاولة لفرض حدود جديدة على إسرائيل .. وقد أعطيت جولدا مائير وموشى ديان تلميحات حازمة بأنه لا شيء من هذا القبيل قد تم تقريره .

وكان بريجنيف قد بدأ يستخدم لهجة شديدة متهماً الإسرائيليين بالمبرك والسلوك غير المقبول .. إذ اعتقد بوضوح أن الجيش الثالث قد تم حصاره تماماً ، وأنه كان على وشك الاستحاق بسبب نقص الماء والطعام وإمدادات الذخيرة ، وكانت هذه هى الأزمة بالنسبة له وللسادات .

ولأول مرة ناشد السادات كيسنجر مباشرة معطياً الاقتراح بأن الأمريكيين سوف يتدخلون بفاعلية ، حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة ، لضمان الإعداد الكامل لوقف إطلاق النار . غير أن فكرة استخدام الولايات المتحدة للقوة ضد حليفها إسرائيل بدت غير معقولة ، لكن السادات كان يحاول -فوق ذلك- أن يحوز ثقة الولايات المتحدة .

وفى الحقيقة فإن الولايات المتحدة كانت لديها القوة الكافية لأن توقف الإسرائيليين ، وفى هذا السياق كان لاستبعاد الاتحاد السوفيتى دلالة عميقة .

إلا أن السادات -وبسبب ظروف محاصرة الجيش الثالث - اتجه إلى مجلس الأمن الدولى لطلب إرسال قوات أمريكية وسوفيتية إلى الشرق الأوسط ، حيث اعتقد السادات فى هذه اللحظة العصبية أن القوات الأمريكية -السوفيتية المشتركة سوف تكون ميزة له ، وأنها ستفرض حلاً يكرهه الإسرائيليون ، كذلك فإن مثل هذا الاتجاه سوف يكون له تأثير يظهر فى صورة مبادرة دولية دبلوماسية .

ومع ذلك فإن ما أراده الكرملين كان مختلفاً ، حيث كان بريجنيف يبحث عن التفوق الجزئى الذى فقده فى العالم العربى ، وظهر هذا ماثلاً بوضوح فى إنذاره

الأخير لكيسنجر ونيكسون ، والذي يصعب فهمه حيث جاء به (اسمحوا بإرسال القوات ليس فقط لغرض وقف إطلاق النار ، وإنما التسوية بين العرب وإسرائيل ، أو ألقها بنفسى) .

وقد رأى كيسنجر أن ذلك يعتبر أخطر التحديات التى تواجه رئيس الولايات المتحدة من قبل القائد السوفيتى ، وأنه لم يكن تهديداً حكيماً .. وطبقاً لمعطومات CIA فقد كان واضحاً أن الاتحاد السوفيتى يعد بعض الطائرات لحمل فرقته الجوية إلى الشرق الأوسط ، كما وصل عدد السفن السوفيتية فى البحر المتوسط إلى ٨٥ سفينة ، وأكثر من ذلك أن أسطولاً سوفيتياً قوامه ١٢ سفينة كان يربط على رأس الإسكندرية ، كما كان السفير السوفيتى فى واشنطن قد تباهى فى فترة سابقة بأن الاتحاد السوفيتى لديه خطط لهزيمة إسرائيل فى يومين .

ولم تكن الولايات المتحدة لتسمح بالإفذار السوفيتى ، أو بمعنى آخر لم تكن لتسمح بوقوع كل ثروات الشرق الأوسط فى أيدي الكرملين ، كذلك لم تكن لتسمح بأن يرسل قواته إلى الشرق الأوسط ، ومن ثم يصبح القوة الغالبة هناك .

وللتأكيد على أن الولايات المتحدة قد أخذت التهديد السوفيتى باهتمام أنها وضعت القوات الأمريكية ظاهرياً- بما فى ذلك الأسلحة النووية - على أهبة الاستعداد.

وفى نفس الوقت تم إرسال تحذير إلى السادات بأنه حال ظهور القوات السوفيتية على أرض مصر سوف يتم اعتراضها بواسطة القوات الأمريكية ، كما طلب منه أن يسحب دعوته للقوات السوفيتية ، وقد مثل ذلك أمام السادات سيناريو كابوس .. إذ أن قوتين نوويتين سوف تصطدمان ببعضهما فى القاهرة ، ومن ثم استجاب سريعاً لسحب الدعوة ، مما كان يعنى عملياً أنه لم يعد يبحث عن السوفييت ولا عن القوات الأمريكية .

ويمكن القول بكل تأكيد وحقيقة أن سلوك الأمريكيين الجسور منع وقوع كارثة عالمية فى الشرق الأوسط ، وما زال غير معروف حتى اليوم على من يقع اللوم فى

تلك الحرب التي كانت ستتدلج بين القوى العظمى ؟ هناك من يلقون باللوم على بريجينيف بوصفه الذى شجع العرب على خوض الحرب ، ثم فشله فى السيطرة على الأحداث التالية .. كذلك لم يفلت كيسنجر من الانتقاد بأنه أوصى إلى السادات بتحريك الموقف لكسر الجمود الدبلوماسى ، أما جولدا مائير فقد انتقدت من جراء تصلبها أمام عروض السادات ، فى حين اتهم السادات بإشعال فتيل الحريق .

ورغم كل ذلك استطاع كل من كيسنجر والسادات الادعاء بأن فهمهما المشترك كان عاملاً مهماً فى حل الأزمة العالمية .

وهكذا أثبت الرجل الذى أطلق عليه كيسنجر ذات مرة لقب مهرج أنه يستحق لقب سياسى من الدرجة الأولى ، فقد كان السادات هو أيضاً الذى تحرك وأزال العائق الأخير أمام وقف إطلاق النار .

ومما يذكر فى هذا الخصوص ويثير الدهشة ، أنه فى الوقت الذى كان كيسنجر يساوم فيه جولدا مائير -يصف الإسرائيليين بأنهم أبطال مجائين- كانت مصر على استعداد لقبول محادثات مباشرة بين المصريين والإسرائيليين على المستوى الرسمى لمناقشة حلول مجلس الأمن بخصوص الحرب .

وعلى هذا الأساس كانت إسرائيل على وشك الدخول فى أول محادثات مباشرة مع ممثلى العرب منذ قيام الدولة اليهودية .

ويذكر كذلك أن السادات أعد لقيام كيسنجر بزيارة سريعة للقاهرة كان قد دعاه إليها مبكراً ، لكن كيسنجر شعر بإمكانية حدوث إثارة فى إسرائيل بمجيئه إلى القاهرة فى الحال بعد التقائه بجولدا مائير .

وبناء على ذلك اعتمدت كل استراتيجىة السادات على التفاهم مع كيسنجر ، ذلك الرجل ذو العقلية المبدعة ، والتى كان السادات ذاته يحب أن يمتلكها ، علاوة على أنه ينتمى للقوة الأعظم فى العالم . وكان السادات قد أرسل إسماعيل فهمى إلى

الولايات المتحدة لإزالة التوتر فى العلاقات المصرية - الأمريكية وأن يمد السادات بتقرير مفصل عن وزير الخارجية الأمريكى اليهودى .

المهم ، أنه قبل إنهاء رحلته إلى القاهرة ، كان على كيسنجر التعامل مع زيارة جولدا مائير المحيرة إلى واشنطن ، والتي كان غرضها الحصول على تطمينات بأن الولايات المتحدة لن تجبر إسرائيل على قبول حلول تضر بأمنها . ورغم أن كيسنجر حاول جاهداً أن يمنح جولدا هذه التطمينات ، إلا أنه لم يستطع أن يزيل غضبها وغيظها العميق من أن الولايات المتحدة - القوة العظمى - انتزعت ثمار النصر على المصريين من فم إسرائيل الصغيرة من خلال وضعها نهاية غير معقولة ، تتمثل فى قبول كل أطراف الصراع لاتفاقية سلام .

وطبقاً لرواية كيسنجر ، فإن جولدا التى رآها حينذاك كانت مختلفة تماماً عن جولدا الوثيقة الراضية التى قالت لنيكسون منذ عدة شهور قبيل اندلاع الحرب (إننا نرى أن المسألة على غير ما يرام) فها هى تقف أمام كيسنجر متعجبة من الأيام الأولى لحرب يوم كيبيور وموبخة نفسها على قبولها للتطمينات المجاملة من قبل خبراءها ، وشاعرة بأنها مسئولة عن موت العديد من الشباب والشابات الإسرائيليين.

وفى مثل هذا المزاج النفسى لم تستطع جولدا مائير قبول تطمينات وتبريرات كيسنجر ، وأرادت أن تتصرف الولايات المتحدة كحليف لإسرائيل ، ليس فقط فيما يتعلق بإمدادها بأسلحة تفوق تلك التى يحوزها العرب ، وإنما أيضاً بأن تتحاز لها فى أية مفاوضات للسلام .. وفى نفس الوقت أرادت من كيسنجر أن يضغط على العرب للقبول بوجهة النظر الإسرائيلية كما أن حجته المضادة بأن الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بالتأثير المطلوب على المعسكر العربى لو اتبعت كل السياسات التى تطرحها جولدا مائير ، لم تترك أى تأثير لدى هذه الأخيرة .

وتعتبر التغييرات الحادة التى جعلت جولدا مائير تتهم كيسنجر ونيكسون بإجبار إسرائيل على الرضوخ للتسلط الأمريكى رسالة واضحة على حجم إحباطها وغيظها ومخاوفها .

وبالنسبة لكيسنجر ، بدا الأمر كما لو أن القادة الإسرائيليين كانوا على أعتاب طريق الرعب .. ورغم قسوة جولدا مائير فإنها أدركت أن ما يطلبه الإسرائيليون من استبدال الأراضي المحتلة مع المصريين وانسحاب كلا الطرفين مسافة ١٠ كيلو مترات عن قناة السويس لا يمكن قبوله بواسطة السادات .

لقد كان كيسنجر غاضباً من تصرفات جولدا مائير ، ومن أولئك المسؤولين الأمريكيين المتشككين في الجسر الجوي الذي نصب للجيش الثالث .. بينما هدأت جولدا مائير متجنبة الصدام العام مع الولايات المتحدة وقررت انتظار نتيجة لقاء السادات مع كيسنجر .

كذلك أدرك كيسنجر أنه لا يجب أن يقول أو يفعل شيئاً يفتح جراح إسرائيل ثانية ، أو يهيج السادات ويدفعه لتغيير استراتيجيته .

غير أن الأمر لم يخل من تركيز منتقدي السادات على يهودية كيسنجر ، الذي تعهد ألا تخرج الزيارة - رغم عدم جهله بتلك العوامل الشخصية - عن كونها زيارة مهنية ، بوصفه وزيراً لخارجية الولايات المتحدة ، وأنه يبحث عن تفاهم مناسب لكل الأطراف الداخلة في الصراع .

وطبقاً لرؤية محمد حسنين هيكل -الذي رأى الزيارة بوصفها بداية الخيانة للمصالح العربية- بدأ كيسنجر محادثاته بتهنئة السادات على نجاح القوات المسلحة المصرية ، وهو الأمر الذي كان من الطبيعي أن يسر له السادات ، ثم توجه إليه السادات سائلاً (لقد دعوتك منذ فترة طويلة للمجيء للقاهرة ، فأين كنت ..) وبدأ كيسنجر يفتح حافظة أوراقه ويخرج بعض الأوراق ، وحينذاك سأله السادات : ماذا تفعل ؟ هل تعتقد أنني سوف أتناقش بخصوص وقف إطلاق النار في ٢٢ من أكتوبر أو عن الفصل ؟ فأجابه دكتور كيسنجر : لا أنت رجل استراتيجي ، وأنا رجل استراتيجي ، وأريد أن أتحدث معك على المستوى الاستراتيجي . ثم بدأ السادات يتحدث إلى كيسنجر عن الشئون التي يريد النهوض بها .

ورغم اعتراف هيكل بأن السادات لم يقل له محتوى وجوهر المحادثات ، فإنه أضاف أن السادات حينما سأل كيسنجر عما ناقشته مع جولدا مائير فى واشنطن قام كيسنجر بإخراج ورقة من حافظته تحتوى على ست نقاط - قالت جولدا مائير مسبقاً إن السادات لن يقبلها- وبعد أن حملق السادات فى الورقة أعلن : (وهو كذلك أنا موافق) .. وعندما التقى الصحفيين فيما بعد ادعى السادات أن هذه النقاط تابعة له هو .

لكن تفسير هيكل السابق ، والذي يجعل السادات ساذجاً إلى هذا الحد ، لا يمكن الاعتماد عليه .. أما تفسير كيسنجر - والذي يعتبر أكثر إقناعاً - فيذهب إلى أنه والسادات جوبها بموقف محاط بالأخطار .

ففى ضوء ما كان يعانيه نيكسون من فضيحة ووترجيت ، والتي كانت قد بلغت ذروتها ، قام بعقد اجتماع فى النهاية مع مجلس الوزراء ، ويومذاك ركز بعض الرجال المندهمشين مثل الكسندر هيج وهرنت سكاوكرافت على ضرورة الضغط على إسرائيل لتلافي خطورة نقص البترول .. ومن ثم أدرك كيسنجر أنه إذا فشل فى بعثته إلى مصر فسوف يصر نيكسون على الضغط على إسرائيل لسحب قواتها من على الضفة الشرقية للقناة ، بما يؤدى إليه ذلك من نتائج كارثية على آمال السلام .

وبالنسبة للسادات فقد كان الحث الأوروبى على الانسحاب الإسرائيلى العاجل إلى خط ٢٢ من أكتوبر والموافقة الكاملة على الترجمة العربية لقرار مجلس الأمن الدولى الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة ، عامل إرباك للسادات .. لأنه لم يكن ليطلب للعرب بأقل مما يطلب به الأوروبيون من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان مدركاً أن هذه المطالب غير عملية .

الفصل الرابع عشر كسر الحاجز النفسى

فى بداية اجتماعهما قال السادات لكيسنجر : إن لىءى خطة ، يمكن أن نطلق عليها خطة كيسنجر .. وتفصيل ذلك أن السادات كان مدركاً تماماً أن هناك حاجزاً نفسياً بين الإسرائيلىين والعرب يجب كسره قبل الشروع فى أية اتفاقية سلام ، وأن الحديث وجهاً لوجه مع الإسرائيلىين يعتبر مغامرة مستحيلة ، حيث يشعر العرب بأن الإسرائيلىين لم يحتلوا الأراضى العربية فحسب ، وإنما أيضاً طردوا مئات الألوف من الفلسطينيين من بيوتهم ، كما أذلوا كل الدول العربية بتكرار هزيمتهم مضيفين فى كل مرة ممتلكات عربية .. كذلك ترى الأغلبية الواسعة من العرب المسلمين أن ادعاء الإسرائيلىين بالتفوق يمثل إهانة لدينهم ورجولتهم .

هذا الحاجز النفسى هو الذى منع أياً من القوميين العرب من الجلوس وجهاً لوجه مع الإسرائيلىين ، وقد تعمق هذا الحاجز ، خاصة قبل حرب الأيام الستة ، تلك الحرب التى قادت إلى احتلال الإسرائيلىين لمدينة القدس القديمة والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان ، ومن ثم فإن أى قائد عربى سيجاول كسر هذا الحاجز سيقابل حتماً بانفجار من قبل المعسكر العربى .

وعلى هذا الأساس كان السادات يحب أن يرى أنه يتفاوض مع الولايات المتحدة ، وليس مع الإسرائيلىين .. ورغم ملامح الإجماع التى أظهرها مستشارو السادات ، شعر السادات بإمكانية منح الأمريكيين الثقة حتى يتم إيصال الإمدادات للجيش الثالث . لقد بدا للسادات أنه من غير المتوقع أن يراهن الأمريكيون بسمعتهم فى وقف إطلاق نار مشرف خاصة مع عدم وجود فوائد واضحة بالنسبة لهم يمكن أن تدفعهم للخداع .. كذلك رأى السادات أن الإسرائيلىين ليسوا مضطرين إلى سحق الجيش الثالث مغضبين بذلك الأمريكيين للدرجة التى يصبح معها تحالفهما فى خطر ..

وكانت إحدى النقاط الست ، والمتمثلة فى استبدال نقاط المراقبة الإسرائيلىية على طريق القاهرة - السويس بنقاط مراقبة تابعة للأمم المتحدة ، تشكل تظميناً إضافياً للسادات بأن الجيش الثالث فى مأمن رغم امتعاض الجانب الإسرائيلى منها .

وهكذا راهن السادات بكل حياته ليثبت أنه على حق ، وجادل بأن حالة الجيش الثالث ليست هي قلب الموضوع بين مصر والولايات المتحدة .. إنه أراد أن ينهى الميراث الناصري ، ويعيد بناء علاقات مع الولايات المتحدة على وجه السرعة .

وقد رأى كيسنجر أن ذلك يمثل سلوكاً شجاعاً -رغم أن هذا القرار كان جزءاً من استراتيجية السادات المغطاة- وعولت الولايات المتحدة على أنه في طريقه لحل المشكلة الكبيرة للحرب والسلام .

غير أن السادات اعتبر أنه من المبكر جداً أن يسحب سلاحه القوي الذي يتمثل في حظر البترول ، حيث يتطلب الأمر نجاحاً محسوساً على المستوى العربي ، نظراً لأن السلاح البترولي كان في أيدي الملوك العرب ، وليس في يده شخصياً .. وهو أمر لم يكن سهلاً ميسوراً ، خاصة في ضوء النقاط الست التي أظهرت أن هناك قائداً عربياً يعد للقيام بتقديم تنازلات للإسرائيليين ويحاول أن يفهم العقلية الإسرائيلية .

ففي كتابه المثير للجدل " خريف الغضب " ادعى محمد حسنين هيكل أن السادات قدم عدداً من التصريحات المروعة ، أحدها أن العدو الحقيقي هو الاتحاد السوفيتي ، وأن مصر حاربت آخر الحروب مع إسرائيل .

كذلك ذهب هيكل إلى أن السادات كانت لديه خطة عربية لكنه استبعدا بتقريره تنويع مصادر الأسلحة وقبوله للأسلحة الأمريكية ، مما كان يعنى في أهم محدداته إزاحة الدور السوفيتي كمصدر إمداد رئيسي بالأسلحة لمصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى كحام رئيسي لمصر .. وإنه بذلك دغدغ النظام العربي بتكبير مصر بتحالف عسكري جديد .

ويضيف هيكل أن دول المنطقة التي اتحدت للدفاع عن نفسها لم تكن مجبرة على الانضواء تحت لواء أى من القوى العظمى ، وأنه على مدى عشرين عاماً كان هناك طموح عربي رغم العراقيل ، ثم تأتي مصر -قائدة العالم العربي- الآن لتعزل هذا المفهوم .

وفى مناقشتنا لذلك نقرر أنه ربما لا شيء يظهر مدى الهوس النفسى الذى كان يشكو منه المتمسكون بأحلام ناصر أكثر من تركيزهم على أن هناك تجمعاً عربياً قادراً على الصمود بجانب القوى العظمى .. كذلك لم تكن هناك أية قوة عظمى مهتمة بدرء هذا التجمع .

إنه لا يمكن بأى حال من الأحوال لوم السادات على شطط العالم العربى إلى العديد من الوحدات السياسية والجغرافية التى تصارع بعضها البعض .

وفى السياق ذاته ، ظهر نقص الحقيقة لدى منتقدى السادات فى موقفهم إزاء اتفاقية فصل القوات الأولى ، والتى وقعت بين مصر وإسرائيل بمساعدة كيسنجر .. إذ يذكر هيك أن ثمة حادثاً أفزعه أثناء مناقشات أسوان بخصوص الاتفاقية ، تمثل فى قبول مصر ألا تحتفظ بأكثر من ٣٠ دبابة فى سيناء ، ولكن السادات فى إشارة إلى الرغبة الطيبة قال إن هذه الـ ٣٠ دبابة أيضاً يمكن سحبها .. وأن اللواء الجسمى ورئيس العمليات ، الذى تفاوض بخصوص الاتفاقية عند الكيلو ١٠١ مع الجنرال الإسرائيلى الماكر أهرون ياريف - كان مصعوقاً قائلاً فى نفسه : ياله من ثمن غال ندفعه لإدخال دباباتنا إلى سيناء .. إن ٣٠ دبابة عدد قليل جداً ، لكن أن تتخفّض إلى لا شيء !! ثم ذهب إلى الشباك وأجهش بالبكاء - حسب رواية هيك - وأن كيسنجر لاحظ عاطفة الجسمى وكان غاضباً جداً من جرائها ، وحينما توجه إليه سائلاً : هل هناك فى المسألة شيء ؟ رد عليه الجسمى : لا يا سيدى ولكن الأوامر هى الأوامر .

وأياً كان الأمر ، فإن هيك ساق هذا المثال للدلالة على هجر السادات للمصالح المصرية الحقيقية ، لكن هذه القصة - وعلى عكس ما ذهب إليه هيك - تعتبر دلالة على واقعية السادات ، إذ كيف يمكن لأى فرد أن يتصور أن ٣٠ دبابة يمكن أن توفر أى أمان لمصر ضد إسرائيل الأقوى تسليحاً .. أو بمعنى آخر فإن قتلها تعتبر طعماً أفضل للحصول على مزايا أكبر من إسرائيل وكيسنجر .

كذلك ياله من ظلم أن يتم اتهام السادات بقبوله لنقاط جولدا مائير الست ، ويمكن الاستدلال على ذلك برد الفعل الحادث عندما أرسل كيسنجر مبعوثين -جوسيسكو وهال ساندروز- إلى القدس لإخبار القادة الإسرائيليين بقرار السادات .. حيث صدمت جولدا مائير بقبول السادات لاقتراحاتها الخاصة ، ورأت أن الاتفاقية تعتبر إنجازاً خيالياً ، بينما كان مجلس وزرائها أقل تأكيداً ، وأصر على موافقة الولايات المتحدة في مذكرة تفاهم تحدد بالضبط كيفية التحضير للنقاط الست ، وكان من الصعب على كيسنجر أن يرجع إلى السادات ويطلب منه أن يقرر بأنه قبل أمنيات إسرائيل .

وهكذا كان من الممكن أن تتعرض الاتفاقية للتدمير ، لو لم يتم أخذ جولدا مائير بنصيحة كيسنجر بالاستمرار والإعلان عن التعامل مع المشاكل فيما بعد . ويتضح من مذكرات كيسنجر أنه بدون إرادة أنور السادات لإزالة كل أنواع العوائق التي أقامها الآخرون على الجانبين الإسرائيلي والمصري ، لما كانت هناك اتفاقية بالمرّة ، ولما تأتى التمهيد لطريق السلام .

ورغم الشعور العام تمت الدعوة إلى مؤتمر جنيف بواسطة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وكانت النغمة السائدة -على خلاف وجهة نظر كيسنجر- هي التنبؤ بالفشل ، حيث استهل المؤتمر بأجندة مستحيلة لتسوية الصراع العربي -الإسرائيلي . كما رفض الرئيس السوري الأسد الحضور ، لكونه اعتبر أن التقرب من البعثة الإسرائيلية لا فائدة له ، كما قاد معسكر الكراهية ضد الإسرائيليين .. كذلك لم يلعب الاتحاد السوفيتي دوراً ذا مغزى ، فقط أدلى وزير الخارجية السوفيتية جروميكو بعبارات مقبولة عاطفياً للمتطرفين العرب ، كما وجهت إليه اتهامات بأنه أفسح المجال لمرادوات كيسنجر .. وفوق ذلك فإن السوفييت ، الذين صنعوا سياسة معرقة في الشرق الأوسط وأحدثوا تغييرات دراماتيكية فيه ، لم تعد لديهم دولة يمثلونها .. أيضاً كانت هناك مخاوف من آخر المتطرفين العرب زيد الرفاعي رئيس وزراء الأردن .

وأياً كان الأمر ، فإنه -ولأول مرة- ترسل دولتان عربيتان مبعوثين على مستوى عال إلى مؤتمر مع إسرائيل لتمهيد الطريق للرئيس السادات في خطوته

الجسورة ، وقد أبان السادات ميله للكمال أثناء زيارة كيسنجر الثانية لمصر في شهر يناير ، والتي تطورت إلى الدبلوماسية المكوكة .

وبالنسبة لكيسنجر ، فقد كانت خطة فصل القوات الثانية ، والتي تؤول بالأماس لموشيه ديان ، كافية ومحترمة لكي يكيها مع خطته الخاصة ويقدمها للسادات .

غير أن سوء خلط واضح قاد الجنرال مورديخاي جور - المندوب الإسرائيلي في المجموعة العاملة في جنيف - لأن يذيع مصدرها ، وكاد ذلك يدمر وفسادة كيسنجر ، ولكن السادات تظاهر باقتناعه بالتبريرات والتفسيرات غير المقنعة أصلاً .

لقد كان هناك شك قليل في أن اتفاقية فصل القوات الثانية كان مصدرها موشى ديان .. حتى إن كيسنجر كان يمزح بخصوص مصدرها حينما علق إيجنال آلون بأن إسرائيل قبلتها .

لكن هذا لا يعنى أن السادات خدع أو احتيل عليه ، إذ كان السادات واعياً بكل جزئية ، وعارض الكثير من المقترحات التي رآها ليست جوهرياً للفصل ، وتلك التي ترتكز على هزيمته في الجزء الثاني من الحرب .. وبدأ الإسرائيليون أكثر حساسية ، خاصة حينما طلبوا وجوب أن يطرد السادات المتطوعين الأجانب .

إن كيسنجر ربما حاول - أكثر من أي سياسي آخر - أن يحلل شخصية السادات المعقدة الصبى القروى الفقير ، الثورى ، السجين ، الذى تحول إلى قائد قومى لدولة تقع تحت وطأة كارثة .. كانت تغلو وجهه ابتسامة حارة ، ولديه المقدرة المدهشة على الزهد ، والرغبة المتدافعة لدفع السعر بغية الحصول على الفوائد ، والمقدرة على التفكير لسنوات عديدة فيما يشغله .

والذى لم يظهر في الصورة التي ارتسمها كيسنجر للسادات هو العذاب الذى أضناه قبل اتخاذ قراره الحيوى .. فالسادات كان يمكن أن يكون رجلاً ذا مزاج عال ، وكذلك كان عاطفياً ، يمكن أن يطفو غضبه في صورة تأنيبه لنفسه أو لضيف أو لصديق .. أيضاً كانت عيون مثل عيون ونستون تشرشل ، يمكن أن تفيض بالدموع فجأة .

وهكذا بعد أن غادر كيسنجر مصر بعد الزيارة الأولى في ديسمبر ١٩٧٣ ، كان القائد -الفيلسوف الحكيم- بالفعل " في عذاب " ، وقد كتب السادات بعد ذلك .. " شعوري بألم جسدي وذهني كان فظيحا " .. إنه لم يكن يرى مخرجاً ، كل شيء يمضي خطأ وهو لا يستطيع تصحيحه ، وحينما رآه طبيبه أخبره بأن كل ذلك مصدره التوتر ، ولكن ليس هناك خطر حقيقي .

وفي خضم شعوره بالحزن والتوتر دعا إلى اجتماع لكل قادة القوات المسلحة ، ووافق على خطة لتصفية ثغرة الدفرسوار ، وتم تعيين القائد الذي سيقوم بالهجوم ، لكن الخطة لم يعن عنها على المستوى الداخلي .. ولم يعط السادات تفسيراً لهذا النقص الإجرائي ، حتى عندما كان يتفاوض مع كيسنجر بأسوان بعد عيد ميلاده ، الذي كان يحتفل به دائماً في قريته ميت أبو الكوم ، كان ما زال يعاني العذاب الذهني .. والسبب الذي كان يقدمه هو أن كل القوى تريد أن تسلبه نصره ، والولايات المتحدة تريد أن تبخسه ، والاتحاد السوفيتي يريد أن يضع له وقفة لأن السوريين يشكون التراجع رغم وجود المستشارين السوفييت ، وبالطبع إسرائيل تريد أن تفسد نصره .

وواقع الحال ، أن هذه المحاولات في حد ذاتها لم تكن معلقة ، كما كانت كلماته دعائية جداً أكثر من كونها مقنعة .. إنها كلمات تظهر رجلاً فخوراً جداً ، ولكنه في الحقيقة محبطاً بشدة بسبب عدم مقدرة قواته المسلحة المحافظة على ما اكتسبته في الجزء الأول من الحرب ، كما خطط هو لذلك . أيضاً يعترف ضمناً بالفشل المروع الذي أصابه مؤخراً حينما استمرت المعركة ، ولم يعد هو مسيطراً تماماً ، وأن عظمته في النهاية هي أن يحافظ على أهدافه رغم ارتفاع درجات عذابه .. لقد كان شأنه شأن الممثل الذي يظهر بوجه مبتسم وهو يعاني عذابات ذهنية .

إن السلام كان دوماً هدف السادات ، لكنه كان يحب أن يتعامل معه من منطق القوة .. وقد وصف كيسنجر السادات بلقب " أبو فصل القوات " ، رغم أن مصطلح

الفصل لم يكن يروق للسادات ، كما أن السادات كان يهدف إلى اتباع سياسة خارجية موضوعية .. إنه فهم بصورة تامة أنه قبل أن يتحاور العرب والإسرائيليين لابد أن تكون هناك فترة أمان .

وكانت مذكرات السادات مفتونة بهذه النقطة على وجه الخصوص لما يستشف فيها من فراسة عقلية .. أيضاً قام السادات بإطلاق كل أنواع التهديدات الرعدية لأنه أصيب بإحباط أكثر على خلفية المفاوضات الطويلة بين ياريف والجيمسى ، حيث لا أحد منهما كان يعرف ما يدور بذهن قائده ، ومع ذلك يمكن النظر إلى هذه التهديدات على أنها رد فعل طبيعي لبطل قومي .

إلا أن السادات يربط قراءه بنوع من الحلم الذي قرّر أن يحققه للمصريين ، وهو ما أخبر به كيسنجر ، فالسادات لم يحاول أن يخدع كيسنجر ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله وثق وزير الخارجية الأمريكي بالسادات بصورة تامة ، ومن أبرز الأمثلة ذات الدلالة في هذا السياق كان موقفه تجاه الأسد .. إنه رآه قائد مضلل وجامد وغير موثوق به ، لكنه كان مدركاً أن الأسد بطل قومي سوري صرّف حارب من أجل الحقوق العربية ، وأنه كان أحد الجنود المخلصين للقومية العربية .

لقد قيل لكيسنجر إن السادات أراد تسريع وتيرة تركه للمعسكر السوفيتي ، وكان السادات أميناً معه في تقريره الوقوف بجانب سوريا مادام قد ارتأى العرب أنها محقة ، وكذلك في تقريره أنه لو الدفع الإسرائيليون في حرب ضد السوريين ، فإنه كان سيظل يقف بجوارهم حتى لو كان ذلك يعني التدمير الكامل لسياسته .

إنه أيضاً كانت لديه القدرة على فهم وجهات نظر الآخرين ، ويوجد نوع من الشك في أنه كان معجباً بأشخاص أمثال جولدا مائير ، وأرييل شارون وأخيراً مناحم بيجن ، ويرجع سر إعجابه بهم إلى قوة شخصياتهم التابعة من مساندتهم قراراتهم وعدم الاهتمام بمنقذهم .

أما من بين القادة العرب فقد كان هناك شخص واحد تجب مصادقته هو الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ، حيث كان لدى فيصل تصديق فطري لأهداف السادات وأمانيه ، ومن ثم قدر السادات صداقته وانتهاز كل فرصة لإظهارها .

وعلى العكس من ذلك اتخذ السادات موقفا من بقية القادة العرب ، فلم يكن يثق بالملك حسين ملك الأردن ، واعتقد أن الرئيس الليبي القذافي شاذ بصورة خطيرة ، إن لم يكن مجنوناً .. فالملك فيصل بالنسبة له لم يكن آميناً مخلصاً فحسب ، وإنما أيضاً كان عاقلاً حكيماً ، وأنه رجل يمكن الاعتماد عليه ، كما يؤول إليه الفضل في استخدام سلاح البترول القوي أثناء حرب يوم كيپور ، ولذلك ارتطم السادات بعاصفة حادة حينما اغتيل فيصل .

وواقع الأمر ، أن رجلاً واحداً مثل السادات - لكونه ممثلاً بارعاً - كان بإمكانه أن يرتب بجدارة لزيارة الرئيس ريتشارد نيكسون إلى القاهرة ، فالأخير كان محاطاً بفضيحة ووترجيت من قبل الساسة والقضاة الأمريكيين لأسباب متنوعة معقدة .

والآن في هذا الجو الذي يعيش فيه أيامه الأخيرة في أقوى وظيفة بالعالم على رأس الولايات المتحدة فإن بمقدرته تدمير كل الجنس البشري بحركة عصبية واحدة ، ولكن في يونيو ١٩٧٤ كان في العاصمة المصرية محاولاً أن ينسى عذابه ، بينما كان على مضيقه أن يتصرفوا كما لو لم يسمعوا عن ووترجيت على الإطلاق .

وهنا في القاهرة كان اجتماع الخديعة الأمريكية - العربية ، واصطف سبعة ملايين مجرى في الشوارع لتحية الرئيس الأمريكي ، الذي كانت ابتسامته الخارجية لا تتضمن إعازا بعذاباته روحه .

وقد أكمل استمتاع نيكسون بالرحلة العشاء السخي بقصر القبة المزخرف ، والمديح الملتهب عن صلابته .

وكان السادات حريصاً على ألا يعطى انطباعاً بأنه يتعامل مع رئيس يفقد سلطته بانتقاء كلماته .. ولذا فقد تحدث كما لو كان يتفاوض بصورة جادة ، مصراً على أن المشكلة الفلسطينية ما زالت هي حجر العثرة أمام السلام مع إسرائيل .

وفي بحثه عما أطلق عليه اتفاقية فصل القوات مع إسرائيل ، كان السادات يأمل في أن ينجز هدفين .. أولهما : استرداد معظم سيناء من الإسرائيليين ، وعلى وجه الخصوص كان يريد دفعهم إلى ما وراء ممرات سيناء الاستراتيجية ، وقد كانت هذه هي رغبته في حرب يوم كيبور ، ولكنها فشلت .. وأيضاً كان يريد حقول بترويل سيناء ، والتي كان يعتبرها حيوية جداً للاقتصاد المصري وضرورية جداً لمواجهة مصر القومية .. أما ثانيهما - وهو الهدف المستتر الذي شك فيه الإسرائيليون - فيتمثل في إحداث مشاكل بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، فالسادات لعب بذكاء على الغضب الأمريكي من جراء عناد الإسرائيليين بعدم رغبتهم في التخلي عن أي ميزة ، وخوفهم الدائم على أنفسهم حتى مع ظهورهم أكثر قوة من الدول العربية حولهم .. وقد ازدادت فرصة السادات في خلق شقاق بين إسرائيل والولايات المتحدة حينما استقالت جولدا مائير وحل محلها رابين ،

تشجع السادات أيضاً بوصول الرئيس فورد إلى البيت الأبيض بعد استقالة نيكسون ، وقد تم التعويل على أنه رجل صريح ومباشر ويفهم حالة مصر ، ولم يكن فورد من رعاة البقر مثل سابقه نيكسون ، وإنما جاء من بيئة أغلب سكانها فلاحيون ، وفي وسط السكان الفلاحين تجد ثباتاً دائماً في الشخصية واحتراماً للوعود ، وبساطة ، واستقامة ، وأمانة ..

كان هذا الانطباع الذي اتخذته السادات عن الرئيس الأمريكي الجديد ، والذي جعله يحاول أن ينفذ ما عقد العزم عليه من إحداث مشاكل بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

وإذا عدنا إلى رحلات كينسجر الموكية .. فسنجد أن كينسجر قضى ١٧ يوماً في رحلات موكية بين القاهرة والقدس لينجز اتفاقية الفصل الثانية ، لكنه فشل ،

حيث إن الإسرائيليين كانوا على استعداد للتتحى عن الممرات وحقول البترول ، ولكنهم أصرروا على التزام السادات بعدم الحرب ، ورفض السادات ذلك مجادلاً بأنه إذا فعل ذلك فإنه سيفقد حق المطالبة ببقية سيناء .

مشاكل أخرى ثارت بخصوص خط الانسحاب الإسرائيلى ، قادت السادات إلى اتهام الإسرائيليين بأنهم يرغبون فى الإمساك بالمواقع الحيوية (المفاتيح) ، ورغم المجهودات التى بذلها كيسنجر فقد فشلت الوفادة .

لقد كانت هناك مفارقات وتميزات ظهرت فى التوبيخ (اللوم) الذى وجهه كيسنجر للإسرائيليين .. تأكد هذا بوضوح حينما أعلن الرئيس فورد عن تعديله لأولويات سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط والتى أذرت الإسرائيليين وكأنها موجهة مباشرة ضدهم .

الفصل الخامس عشر النظر إلى القدس

فى تخطيطه للطريق للقدس والكنيسة ، حاول أنور السادات أن يكسب شرعية فى المعسكر القومى العربى ، رغم عدم وجود أية إشارة إلى مبادئه الثورية .. وعندما كان السادات يبتعد عن الاتحاد السوفيتى اعتقد بوضوح أن أمه فى كسر أو إضعاف الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل قد تلتشى عندما وقع ٧٦ سيناتوراً أمريكياً على عريضة للرئيس الأمريكى ، يحتثونه فيها على عدم اتخاذ خطوات لإضعاف إسرائيل ، وألا يوقف إمدادات الأسلحة إليها .

وقد انفجر السادات ضد إسرائيل لتسلطها على الكونجرس الأمريكى ليضغط على الرئاسة ، وتساعد غضبه من قدرة الإسرائيليين الواضحة فى السيطرة على وسائل الإعلام الأمريكية ، رغم أن هذا لم يكن كل الحقيقة .. ومع ذلك فقد نجح السادات لبعض الوقت فى خلق شقاق خطير بين الولايات المتحدة والإسرائيليين .

وعلى الصعيد الإسرائيلى ، كان من قبيل المفاجأة أن يقلع إسحاق رابين عن ممرات سيناء الحيوية من الناحية الاستراتيجية دون الحصول على ثمن غال يتركز على أمن إسرائيل .

أما السادات فقد رفض الموافقة على إنهاء حالة الحرب ، والتي كانت ستكسبه كل ما أراد فى فيما يتعلق بالممرات وحقل بترول أبو رديس ، متعللاً بأنه خشى أن يمانع العالم العربى مثل هذه الاتفاقية بوصفها اتفاقية سلام حقيقية .

وعندما استفسر رابين من كيسنجر إذا ما كان السادات مستعداً لقبول ميثاق سلام منفرد مع إسرائيل أم لا .. تلقى رفضاً غير واضح .. وحتى عندما أسقطت إسرائيل مطلب إنهاء حالة الحرب ، ووافقت على مطلب أقل منه دلالة يتمثل فى تخفيض حجم القوات ، كانت هناك مشاكل يصعب تذليلها ، أبرزها أن رابين عارض الإصرار المصرى على أن تنقضى الاتفاقية بعد عامين .. كما أراد رابين - الاحتفاظ بالجزء الشرقى من الممرات .

غير أنه من الصعب فهم لماذا كان الأمريكيون غاضبين من السلوك الإسرائيلي ، خاصة أن الإسرائيليين كانوا يعرضون عودة حقول بترول سيناء ، وكذلك كانوا يعرضون التنحي عن منطقة كبيرة من شبه جزيرة سيناء . إن كل التنازلات قدمت بواسطة إسرائيل ، ورويداً رويداً شكلت حزمة كبيرة جذابة من التنازلات دون معاهدة سلام ، وكانت هذه التنازلات معقولة لأن يطالب الإسرائيليون بالاحتفاظ بنظام للإتذار المبكر ، وأن ينسحبوا فقط إلى الجزء الشرقي من الممرات ، ولا يهم بعد ذلك أن تنقضى أى اتفاقية بعد عامين من عدمه .

وكان كيسنجر غاضباً مما رآه من عناد إسرائيلي ، بل واتهم رابين بتضليله .. وهكذا غادر كيسنجر إسرائيل بعد فشل البعثة وسط بكاء مودعيه ، لاهماً إسرائيل على هذا الفشل .. وهكذا أيضاً لم يتم توقيع صفقات أسلحة أمريكية جديدة مع إسرائيل رغم وفاء واشنطن بما تم الاتفاق عليه من صفقات قبل ذلك ، بينما شكّا رابين بحدة من أن الأمريكيين سوف يستخدمون تكتيكات غير عادية لإجبار إسرائيل على الموافقة على الرغبات الأمريكية .

وكان السادات قد واجه عدداً كبيراً من المشاكل ، كان فى مقدمتها أن قمة الرباط قد أعلنت الحل السورى بعدم عقد أية اتفاقية سلام منفردة مع إسرائيل .. كذلك كان السادات مدركاً أن الوقت ما زال غير مناسب لأية تلميحات متحذقة ، خاصة أن علاقته المعقدة بالاتحاد السوفيتى لم تنته بعد ، وأنه ما زال يعتمد على الأسلحة السوفيتية ولا يمكنه الاستغناء عنها كلياً ، ولكن زيارات الوزراء المصريين لموسكو لم تكن مثمرة ، وظل الأمل معقوداً على زيارة بريجنيف المؤجلة للقاهرة .

أيضاً كيف السادات سلوكاً أبويًا للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية وقائدها ياسر عرفات ، لكن العلاقة كانت دائماً مشابهة لعلاقة الأب المتسامح بالولد الشقى .

لقد قضى ناصر ساعاته الأخيرة محاولاً إصلاح ما نجم عن المعركة القاسية بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسين ، إلا أنه كان ثائراً حينما انقلبت عليه

منظمة التحرير الفلسطينية بعد قبول خطة روجرز . ويتشابه ما حدث للسادات من جراء علاقته بمنظمة التحرير الفلسطينية وقائدها مع ما حدث لناصر من قبل ، ففي وقت معين شعر السادات بالحاجة إلى تبنى قضية منظمة التحرير الفلسطينية ، واندفع صوب اقتراح أنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني .

وكان السادات قد التقى بالملك حسين بالقاهرة ، وتناقشا سويا معا فيما إذا كان لدى الملك حسين الحق في التفاوض بشأن الضفة الغربية أم لا ، في حين أيدت قمة الرباط أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، ولا يجب أن تكون معزولة كلية ، وصوت حسين مع القرار .

لاحظ رابين أن السادات لم يعر انتباهها بما تشاور فيه السادات مع ملك عربي مثله ، فكيف إذن يمكن الوثوق به في عقد اتفاقية مع إسرائيل في حالة تعرضه للضغط العربي ؟ . وقد رسخ هذا الأمر الاعتقاد لدى رابين بأن الجزء الأهم في عقد اتفاقية مع مصر ليس الالتزام بما تحتويه ، بل الأجواء المحيطة بعقدها (بتأسيسها) .

ومن الواضح أن رابين رغم أنه كان شغوفاً بسماع توصيفات للقادة العرب من قبل كيسنجر ، إلا أنه ظل لا يفهم السادات ، وقد اعتمد رابين على نقطة من الذاكرة التاريخية ، وهي أن السادات يتشابه والنازي الألمان في أنه كان ضابطاً صغيراً في الجيش المصري ، وأن مجرى حياته ملئ بالتناقضات من الفشل إلى النجاح الحالي ومن الحيل المفاجئة إلى الصداقة الحادة... وهكذا ، وكتب رابين يقول :

"في عام ١٩٧١ وقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي ، وبعد سنة طرد السوفييت وحول ولاءه صوب الأمريكيين .. في عام ١٩٧٣ خاض الحرب بجوار أخيه الرئيس الأسد ثم شرع في وقف إطلاق النار دون تنسيق مسبق مع سوريا .. سيرة السادات تؤكد انطباعي بإظهار أنه خان ناصر بصورة فاضحة ، في البداية أمطره بالمديح بالكمال ، ثم مزق هذه الصورة بالقصص المرعبة " .

ولكن القراءة السطحية لهذا الحكم على أنور السادات سوف تظهر مدى ظلمه ، بل وحتى رابين الذى أظهر فيما بعد شجاعة سياسية تكمل ما لديه من شجاعة عسكرية كان كريماً للغاية حينما اعترف فيما بعد بأن حكمه السابق ، والذى بنى على قدر قليل من المعلومات كان خاطئاً ، وأن السادات يعتبر أبو عملية السلام فى الشرق الأوسط ، وأنه الرجل الذى وضع نهاية لسفك الدماء الذى دام بين العرب واليهود لمدة ١٠٠ عام . وبكل تأكيد كان السادات هو الذى أحيى محادثات الفصل بين العرب وإسرائيل حينما قال : إنه يتمنى أن تعود المحادثات من جديد .

ومع الأفكار الإسرائيلية الجديدة ، ومع إظهار المصريين قابليتهم كان على كيسنجر أن يضطلع بمهمة دبلوماسية مكوكية أخرى تحدوه آمال أفضل فى النجاح .

والفكرة الرئيسية المبتكرة هنا هى أن يقوم الأمريكيون بإقامة نظم الإنذار المبكر فى منطقة الممرات ، وأن تديرها الولايات المتحدة نيابة عن مصر وإسرائيل ، كما احتوت الاتفاقية المؤقتة -والتي تمت الموافقة عليها من قبل مصر وحازت موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى بعد يوم- احتوت على العديد من الملامح المهمة الخاصة بأمن إسرائيل ، كما أعدت مذكرة تفاهم مع الولايات المتحدة ربطت بين سياسات الدولتين بدرجة أعظم .

ولم تكن الولايات المتحدة لتضطلع بالتعامل أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، أو حتى تقوم بأى مبادرة فى الشرق الأوسط دون استشارة إسرائيل أولاً .

أما بالنسبة للسادات فقد أتاحت الاتفاقية له إمكانية إعادة افتتاح قناة السويس وإزالة عار حرب الأيام الستة وما ترتب عليها من أنها أصبحت قناة مسدودة مئة .. كذلك استرد السادات آبار البترول ، وتمكن من إعادة بناء المدن المدمرة حول السويس .. ولقد كان رابين على حق حينما قرر أن هذه اللحظة مثلت أسس زيارة أنور السادات التاريخية للقدس فى ٩ من نوفمبر ١٩٧٧ .

وقد كتب السادات يقول : " لم أسعد بشيء أكثر من أن أكون على ضفاف قناة السويس " حيث كان يجلس في كابينة خشبية لعدة ساعات يراقب مجهودات إعادة البناء والتقدم في المشروعات الجديدة .. ولم يكن أسعد في حياة السادات من يوم ٥ يونية ١٩٧٥ حينما حلق بطائرة هليكوبتر حتى وصل إلى احتفال أقيم لإعلان إعادة فتح القناة للملاحة الدولية ، ويومذاك رأى السادات البهجة في عيون الرجال والسيدات والأطفال الذين عادوا إلى المنطقة بعد سنوات عديدة .. وقد دفع الزهو العميق لدى السادات بأن يكتب عن هذه المناسبة مادحاً حضارة سبعة آلاف عام ، ومنادياً بأن شعب القناة كان مختلفاً عن المصريين الآخرين ، كذلك روى السادات كيف أن الرجال الكبار سناً وقفوا أمام سيارته واتحنوا بجواره شاكرين الله على ما تحقق على يديه .

وواقع الحال أن السادات كان يخوض مقاومة حقيقية ، إذ حينما فشلت محادثات الفصل وعاد كيسنجر إلى وطنه شعر الجميع بأن الإسرائيليين يمكن أن يقوموا بفتح النيران في أي لحظة ، لكن السادات قرأ الموقف بصورة صحيحة ، فلى لقاء له مع الرئيس فورد تلقى السادات انطباعاً قوياً بأن الأمريكيين ينظرون بتفضيل إلى إعادة فتح القناة ، لا سيما بعد أن فتح المجال لتلقى المساعدة الأمريكية لتطهير القناة .

وكان التوقيع النهائي على الاتفاقية المصرية-الإسرائيلية قد جعل إعادة فتح القناة أكثر أمناً ، كما عجل بإعادة بناء مدن القناة .

وبدوره كان رابين واعياً بأن عودة حقول بترول سيناء ثانية ، وعودة مدن السويس للحياة سوف تتيح للسادات أسباباً قوية للمحافظة على السلام مع إسرائيل .

بينما جادل موشى ديان بأن الانسحاب من قناة السويس سوف يمنح المصريين سبل العيش في أمان مع الإسرائيليين ، إلا أن ديان لم يلق التأييد الكافي من مجلس الوزراء ولا هو شاهر في إصراره .

كانت هناك أيضاً أرباح اقتصادية انتبه إليها السادات ، لكنه بالغ في تقدير مزايا إعادة افتتاح القناة حينما رأى أنها ستمثل دواءً لمعظم - إن لم يكن كل - أمراض الاقتصاد المصري المزمنة .

وكان السادات مقتنعاً ومؤيداً للاقتصاديين المنصفين في تصديه للانتقادات العمياء من قبل الساسة المتحاملين .. وقد عارض السادات الانتقاد القائل بأن فتح قناة السويس للملاحة وإعادة بناء مدن القناة كانا مقابلاً لقبوله المطالب الإسرائيلية بإنهاء حالة الحرب .

في الماضي قال السادات لمنتقديه ، إن من مصلحة العرب البقاء على القناة مغلقة .. والآن ، وفي ضوء نصره العظيم ، تغير الموقف ، فالتبرير القائم هو أن العرب سيصبحون أغنى من جراء الأرباح التي يحصلون عليها من القناة المحررة .

وبخصوص الرهان بأنه سيسمح للسفن الإسرائيلية باستخدام القناة ، فإنه علق بأنه إذا قدم الإسرائيليون التنازلات الضرورية في مؤتمر جنيف فإنه سوف يعتبر استخدام الإسرائيلييين للقناة جزءاً من التسوية الدائمة .. إنه أعطى الانطباع بأنه يتحدث من منطلق القوة ، بإسرائيل - وليس مصر - هي التي ستتوسل في المستقبل .

أما المنتقدون العرب الذين ادعوا أنه بالسماح للأمريكيين بوضع نظم إنذار مبكر في سيناء سوف يجعل لهم قواعد على أرض مصر ، فقد رد عليهم السادات متسائلاً .. لماذا لم يزعم هؤلاء أن الروس كانوا يحتلون الأراضي المصرية عندما أقاموا محطات للإنذار المبكر ، وهكذا فإن هذه المزاعم كانت بالنسبة للسادات ضارة وغير منطقية لأنه كان فخوراً باسترداد حقول البترول وممرات سيناء ، كما ركز على أن محطة الإنذار الأمريكية ستكون مصرية ، حيث دفع لها من ماله الخاص معلناً : "أنا حر في إنفاق مالي الخاص كما أحب" .

وبالنسبة لإسرائيل فلم تكن هناك ميزة كبيرة من جراء إقلاعها عن الأراضي سوى اعتراف محدود ، وفي كل مرة تم التنازل عن جزء من الأراضي ، سواء في سيناء أو على الجبهة السورية .. ولم يترك لديها ماتساوم به في المستقبل سوى القليل .

وفى ضوء ما سبق أدرك السادات أن الوقت لم يعد مناسباً بعد لعقد معاهدة سلام شامل مع إسرائيل ، رغم أنه تحدث عن اتفاقية سلام ، معيذاً بشدة بين المفهومين ، حيث إن اتفاقية السلام لا تتضمن تبادل السفراء أو إقامة علاقات طبيعية ، كذلك طالب السادات بأن توافق إسرائيل على مخرجات قمة الرباط بإعادة كل الأراضى العربية المتنازع عليها ، وإعطاء الفلسطينيين حقوقهم .

إن السادات رأى نفسه أنه رجل سياسى ذو مكانة دولية ، زيارته إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا منحته رضاء كبيراً ، وسر على وجه الخصوص من حرارة استقباله فى فرنسا ، وأقام صداقة حميمة مع شاتسليو ركريسكى رغم كون الأخير اشتراكيا يهوديا ، مما سبب صدمة لجولدا مائير .

وحيثما شعر السادات بأن فورد وكيسنجر سوف يعيدان الدعوة لاعتقاد مؤتمر جنيف انطلاقاً من إمكانية إحراز تقدم فى حل الصراع العربى - الإسرائيلى ، استغرق الموضوع بعض الوقت ليدرك أن الأمريكيين غير عازمين على جنيف حتى لا يمنحوا الاتحاد السوفيتى دوراً .

وعلى أية حال أعلن السادات أن الجميع الآن يبحثون عن صداقة مصر ويودون الاستماع إليها .. وفى تقديره فإن مصر - التى كانت تغيه - خففت من حدة الحرب الباردة بين القوتين العظميين وحفظت توازن القوى ، كما كانت السياسات المصرية هى السياسات التى سادت نهائياً وكانت بؤرة تركيز كل المبادرات العربية .

وبالرغم من أنه كان قادراً على الإدلاء بتصريحات ساخنة ، فقد أصبح أنور السادات جديداً ، منحه نصر أكتوبر المشرف ثقة جديدة ، كما استطاع أن يتحدث بسخرية عن العقول الضيقة لخصومه ، كذلك أصبح الأكثر قبولا لدى الغرب ، كما ذاع صيته فى وسائل الإعلام الغربية ، استطاع أيضا أن يواجه خصومه من المأجورين ضد تحركاته السلمية فى سوريا وبين الفلسطينيين .

ولكونه شعر بأنه سياسى عالمى ، كان السادات أكثر عزماً على كسر الدب السوفيتى رغم أنه كان لا يزال يحتاج إلى الأسلحة السوفيتية ، كما كان قلقاً من الديون

الكبيرة التي رفض الكرملين إعادة التفاوض بشأنها بغاوعية .. ثم إنه كان لا يزال ينتقى وعوداً بقوم أسلحة سوفيتية وتخلف ، لذا كان مضطراً إلى البحث عن البديل .

وقد اختار دولتين علاقتهما متأزمة بالاتحاد السوفيتي هما : رومانيا التي كانت تحكم بواسطة نيكولاي شاوشيسكو - الديكتاتور المستقل الذي كان أكثر لينينية من بريجنيف ، والذي لعب دوراً بارزاً في ذهابه للقديس .. أما الدولة الثانية فهي الصين التي أعطته قطع غيار للأسلحة السوفيتية ورفضت تقاضى ثمنها .

ولأن روابطه مع الولايات المتحدة قد ازدادت نمواً ، ولأنه لاحظ استحسانا لسياساته في أوروبا الغربية والصين فأضحت إمكانية فض صداقته مع الاتحاد السوفيتي حدثاً قريباً .. كما بالغ السادات في علاقته بفرنسا ، مدعياً أن معاهدة الصداقة معها أقيمت فقط حينما توافرت الرغبة الطيبة .

ورغم أن السادات انفجر ضد الكرملين من جراء مراوغاته وعدم قدرته على حفظ وعوده ، فإنه لم يسأل نفسه فيما إذا كان الكرملين ما زال عازماً على إهدار مجهودات ومبالغ ضخمة في علاقات لا تمنحه سوى مزايا محدودة والكثير من الصراع أم لا .

كانت هناك إشارة عظيمة في موسكو للحفاظ على العلاقة ، ومن ثم أشار بريجنيف إلى أنه سوف يزور القاهرة ، وعاد السفراء المصريون من موسكو أقل إحباطاً .

غير أنه حينما أعلن السادات في عام ١٩٧٦ عن إلغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي ، لم يكن هناك صراخ من العذاب من قبل موسكو ، كما لم تكن هناك محاولات يالسة للإبقاء عليها .

إنه ، منذ نهاية حرب أكتوبر تقريباً ، شعر السادات بأن ما فعله على صعيد الجبهة الداخلية أو على الصعيد العربي ليس كافياً للتواءم مع النصر العظيم الذي حققه .

ورغم الجدل الذى ثار بخصوص العبور الإسرائيلى للقناة عبر ثغرة الدفرسوار ، فإن عبوره للقناة فى بداية الحرب ، والاستيلاء على النقاط القوية على خط بارليف مثلاً نصراً قيمياً بالنسبة له بشهادة كيسنجر شخصياً ، وباعتراف الجنرالات والوزراء الإسرائيليين فإن عباءة عدم الهزيمة والقهر التى ارتدتها القوات الإسرائيلية مزقت ومع ذلك كان هناك رد فعل مغاير من قبل الناس الذين كانوا من المفترض أن يحتفلوا .. إن السادات دعا الممثل السينمائى المصرى المشهور عمر الشريف ليطرح عليه القيام بعمل فيلم ضخيم لتجسيد النصر ، لكن لا شيء من هذا تم.

وفيما يتعلق بموقف السادات من منظمة التحرير الفلسطينية ، فإن الانطباع الذى ترسخ لدى إسحاق رابين هو أن السادات لم يتخل عن منظمة التحرير الفلسطينية . وأثناء لقائه بالملك حسين فى ١٩٧٤ بالإسكندرية ألقى الملك حسين بأنه ليس هناك خيار سوى أن يقبل بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى ، مستشهداً فى ذلك بمخرجات قمة الرباط .

وحيثما التقى السادات بعرفات فى أكتوبر ١٩٧٤ طمأنه بالتأييد المصرى ، وأخبره بما تم بينه وبين الملك حسين ، ولكن عرفات انقلب عليه .. ففى أحد تصريحاته حاول عرفات أن يخلق مشكلة بين حكومة السادات والجيش المصرى ، حيث قال إن الجيش المصرى لن يقف ساكناً إذا رأى أن هناك ضرراً تتعرض له ثورة الفلسطينيين .

وهكذا أصبح السادات غاضباً من ياسر عرفات وكل قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، إذ وجد من المحال فهم لماذا يهاجمه عرفات بهذه القسوة رغم أنه هو - أى السادات - استرد أراضى عربية متمثلة فى الممرات الإستراتيجية ، واسترد كذلك آبار البترول العربية ، وفوق ذلك أعاد فتح مصدر عظيم للعرب متمثلاً فى قناة السويس .

وقد أشار السادات إلى أنه على مدى ٥٠ عاماً لعن العرب الولايات المتحدة ولم يحصلوا على شيء أو يستردوا شيئاً .. بينما كان واضحاً بالنسبة له أن ٩٠% من كروت اللعبة فى أيدي الأمريكيين ، وأن العرب لن ينجزوا شيئاً بدون مساعدتهم .

وبناء على ذلك تحول غضب السادات من منظمة التحرير الفلسطينية إلى هياج خاصة بعد أن استمع إلى الافتراءات والشتائم الموجهة إليه من إذاعة منظمة التحرير بالقاهرة ، حيث اعتبر السادات أن ذلك إهانة مزدوجة ، فلا دولة -مثل مصر- قدمت مثل هذه التضحيات لمنظمة التحرير الفلسطينية ، أو كانت أكثر منها كرماء في استضافة زعمائها ، وأنه بدون الدعم المصري لم يكن ليتأتى لها أن تكون جماعة مؤثرة ، وربما كانت قد ولدت في مهدها .

ولذا أرسل السادات تحذيراً لعرفات بالألا يسب الكرم المصري ، وفشل .. فقام بإلغاء الجزء الذي كان يث لهذه الإذاعة من القاهرة ، بينما لم يستطع أن يفعل شيئاً تجاه الجزء الذي كان يث من بغداد ، مما ترتب عليه أن تصاعد القدح ضد السادات .. وسرعان ما تحولت الكلمات إلى أعمال إرهابية ، حيث قامت جماعة فتح بمهاجمة السفارة المصرية في مدريد ، وأخذوا السفير واثنين من مساعديه رهائن وطالبوا باعتراف مصر بأن اتفاقية مصر الثانية لفصل القوات كانت خيانة للقضية العربية ، ولم يطلق سراح الرهائن إلا بعد أن وقعت بعض الحكومات العربية على إعلان ينتقدون فيه الاتفاقية .

إلا أن هذا الهجوم المادى والمعنوى بواسطة منظمة ياسر عرفات لم يدفع السادات إلى قطع علاقاته معها أو هجر القضية الفلسطينية ، كما عزا تطرف المنظمة إلى الإحباط الذي تعانيه ، ملقياً باللوم على إسرائيل وعدم مرونتها .

الفصل السادس عشر

مشاكل فى الداخل

إن ثمة معارك ساخنة دارت -وما زالت دائرة- حول ما إذا كان السادات قد نجح أم فشل في سياساته السلمية ؟ ولم يدع حتى المقربون منه أن هذه السياسات قد ساهمت في إتمام هدف تحويل الاقتصاد المصرى أو في تحقيق حياة أفضل للملايين المتزايدة من شعبه .

ومع ذلك ، فإن فشل السادات بصورة تامة -كما ادعى منتقدوه- هو أمر مشكوك فيه ، لما ورثه من خسائر ناجمة عن سياسات ناصر الاشتراكية ، والتي تضمنت استبعاد معظم عناصر الدولة الإنتاجية .

ويذهب هيكل إلى أن سياسات السادات الاقتصادية لم تكن خاطئة فحسب ، وإنما أيضاً كانت دوماً سبباً في الفساد . وقد عرض هيكل دعواه عرضاً جيداً ، مقيماً حجته على أن الفشل كان منبعه عدم التنظيم والسيطرة على دولارات البترول المتدفقة على مصر ، والسماح لأصحاب المشروعات عديمى الخلق بإساءة استخدام الحرية الممنوحة لهم في ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وأن السادات دمر اقتصاد الدولة وساعد على انتشار المظاهرات فى الشوارع اتباع سياسات أجنبية . وأضاف هيكل أن نقود البترول العربى ذهبت للمحاسبين وإلى مشروعات معينة مثل إعادة بناء مدن القناة المدمرة ، وبدلاً من أن تكون الحياة التجارية والصناعية فى أيدي الدولة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .. فإن القوة الآن آلت إلى مالكي العملات الأجنبية الذين أساءوا استخدامها ، وفوق ذلك فإن سياسة الانفتاح الجديدة قد فتحت الباب على مصراعيه للممولين ورجال الأعمال الأجانب للتغلغل فى الدولة ، كما كان فى عهد الخديوى إسماعيل ، الذى أفقر الدولة .

وطبقاً لرواية هيكل فإن مصر لم تتحول من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق ، بل إلى اقتصاد السوبر ماركت .

ولا شك أن هيكل قد أثار نقطة حقيقية عندما أشار إلى أن نسبة لا تتعدى ٤٪ فقط من خريجي الجامعات هم الذين وجدوا فرصاً للعمل فى دولة وصفت - بواسطة

الاقتصادى والمالى الأمريكى ديفيد روكفلر - بأنها جاذبة لأموال العرب عبر ما هو متاح لها من قوة العمل المصرية والتكنولوجيا الأمريكية .

فالخريجون تحت حكم السادات عانوا بطالة مزمنة ، كما استفحلت أزمة السكن ، وازدادت معدلات الهجرة للخارج ، ومن ثم فإن مصر لم تفقد العديد من عمالها المهرة ومثقلها فحسب ، بل وحتى فلاحها ، حيث هاجر ما لا يقل عن مليون فلاح إلى العراق ، وحوالى ٢٥٠ ألفا إلى الأردن ، ومئات الآلاف إلى أجزاء أخرى من العالم العربى رغم ارتباطهم الوثيق بأراضيهم .

وهكذا انشطر المجتمع المصرى إلى القطط السمان والمتطفلين الذين يسرون فى ركبهم من ناحية ، وبقية السكان من ناحية أخرى .

إلا أن الشيء الذى لم يذكره هيكل هو أن ما وعد به ناصر خريجى الجامعات كان لا يقبله عقل وغير واقعى ، ومن ثم كان لابد أن ينتهى فى عهد خليفته .

ورغم عبارات هيكل البراقة وانتقاداته الموضوعية لأجزاء من سياسة السادات فإنه -شأن الرافضين للرئيس- قدم تفسيراً جزئياً لهدف السادات وسياساته .

صحيح أن التفسير الكامل لا يبرىء السادات من الاتهام بأنه فشل فى تحويل اقتصاد الدولة بصورة كلية وترك أجزاء منها تضرب فى الفقر ، إلا أن الحقيقة التى لا يجانبها أدنى شك هى أن السادات حينما تولى القيادة كانت الحياة الاقتصادية مليئة على الأكل ببعض أسباب الفشل ، وليس من قبيل العدل أن نعزو الفشل كلية إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى .. كذلك ليس من قبيل العدل أن نستبعد عناصر أخرى أدت إلى إساءة تفسير المشكلة كالانفجار السكاني .. أيضاً حينما أصبح السادات رئيساً كان عليه أن يتعامل مع تركمة محبطة ، فقد ترك له ناصر اقتصاداً مهموماً يعانى اتساع دائرة الفقر ، واستشرء الفساد البيروقراطى وتقدم وعدم كفاية الخدمات العامة ، والنقص فى الغذاء ، وفوق ذلك ، الزيادة الهائلة فى عدد السكان ، والتى بلغ معدلها مليون نسمة سنوياً .

وربما كانت فطرة المصريين الطيبة وسليبتهم هما اللتين منعنا العنف الجماهيري في مناسبات عديدة ، فقط حينما خافت جماهير الأميين وأنصاف المتعلمين من أن معظم السلع الغذائية سوف تصبح غالية جداً بعد رفع الدعم ، تحرك العنف إلى شوارع القاهرة ، وعلى الفور تم تطويقه وأعيد الدعم ثانية .

الشيء الجدير بالملاحظة هو أن السادات لم تكن لديه دراية بالتخطيط الاقتصادي ، كما انتقد الاشتراكية والمعايير العشوائية ، وإن لم يكن قد حبذ الابتعاد كلية عما أرساه سلفه من سياسات .

ولقد كان واضحاً أن السادات يسعى إلى إحداث ثورة في الحياة المصرية ، معولاً على إحداث تغييرات عميقة في التكنولوجيا والاتصالات والقطاعات الأخرى .

وعلى خلاف ناصر ، لم يكن السادات منهماك في الأيديولوجيا ، لكنه ارتأى هذه التغييرات جزءاً من استراتيجية حصيفة تحتاجها مصر على وجه السرعة .. وقد اقترح أفكاراً مختلفة عن تلك التي ركز عليها ناصر من حيث الثورة والاشتراكية ، كما رأى أن الضعف يكمن فيما يطلق عليه اشتراكية الدولة كما أظهرتها الممارسة السوفيتية والحالة الناصرية .. واعتقد السادات أنه بمنح القطاع الخاص دوراً أكبر في عجلة الاقتصاد ، فإن ذلك سيؤدي إلى إنقاذ الاقتصاد من مرضه ، ومن ثم يمنح التغييرات الثورية القوة الضرورية . وفي نفس الوقت ظل السادات يعتقد في أن التخطيط من قبل الدولة يعد أداة قوية لاستمرار الثورة .. وفي هذا السياق أشار السادات إلى تجارب بعض الدول مثل أستراليا والسويد وبريطانيا .

وقد كان التحول الزراعي ذا مغزى خاص بالنسبة للسادات ، حيث حلم في أن يرى أساليب الزراعة الحديثة تستخدم بصورة واسعة ، وقد ركز على مسقط رأسه قرية ميت أبو الكوم كأحدى القرى التي تستفيد من هذه التحولات ، لكنه لم يعيش حتى يرى نتائج ذلك .

ونظراً لنقص خبرته الاقتصادية ، كان السادات دوماً يعتمد على خبرات مسئوليه ، ولكنه كان يبحث عن النماذج التي يجب على هؤلاء المسئولين اتباعها .

وبغض النظر عن النماذج الثلاثة المشار إليها سابقاً ، كان السادات معجباً بنموذج صديقه شاه إيران ، حيث رأى لديه ثروة كبيرة تم الحصول عليها من بيع البترول ، مما أدى إلى أن تصبح إيران قوة عسكرية ، وأن تحصل على تكنولوجيا حديثة بالتعاون مع الغرب ، ولا سيما الولايات المتحدة ، ورغم وعى السادات بأنه لا يمكنه امتلاك ما يشابه ثروة الشاه ، إلا أنه أمل في أن مكانته كبطل عربي وكصديق للولايات المتحدة سوف تعينه على تدفق رؤوس الأموال والتكنولوجيا ، الأمر الذي سوف يؤدي إلى إحداث التغييرات الثورية المنشودة .

وفي السياق ذاته ، كانت التكنولوجيا هي الأساس الذي يقطع دابر أمراض مصر ويدفعها إلى عصر جديد لدى السادات ، الذي وضع نصب عينيه الصين بعدد سكانها الضخم الذي يزداد بمعدل خيالي ، ومقدرتها على أن تصبح قوة عظمى منتجة للأسلحة النووية .

وفي تقدير السادات ، فإن الصين رغم كونها فقيرة إلا أنها ترسم الطريق لأي دولة ذات عدد سكان كبير لإطعام سكانها ، كما لم ترد تقارير عن أناس يموتون جوعاً في الصين أو يعيشون في ظروف طاحنة يمكن أن تؤدي إلى اندلاع ثورة .

وعلى خلاف القادة الصينيين فقد رأى السادات حاجة إلى منح شعبه قدراً أكبر من الحرية ، إذ شعر بعدم إمكانية بلوغ حرية اقتصادية أوسع دون منح الشعب قدراً من الديمقراطية ، لكن أفكار السادات عن الديمقراطية كانت فطرية أولية ، لكن ما كان يحتاجه الناس هو التأكيد على فرديتهم ، إن السادات كره رؤية الجماعات تتقابل وتطرح الحلول دون استشارته أولاً حتى ولو كانت مطالبهم تتماشى ورغباته .

وهكذا ثار السادات حينما وجه إليه عشر شخصيات من الاتحاد الاشتراكي العربي خطاباً يطالبونه فيه بالمزيد من الديمقراطية ، وكان أحد الموقعين على الخطاب دكتور مصطفى خليل الذي ولاه السادات رئاسة الوزراء فيما بعد ، فحينذاك قارن السادات هؤلاء العشرة بجماعة على صبرى الذين أراحهم بفاعلية قبل سنة من

ذلك ، وتم استجواب الأعضاء العشرة والإصرار على أن شروحاتهم تخفى خططا مدمرة ، والعجيب أن السادات فى النهاية قبل بتوصياتهم المعتدلة .

وواقع الحال ، أن السادات أراد أن يرسى ممارسات اقتصادية غربية ، لكنه اعتقد بشدة أنه من الخطر بالنسبة لمصر أن تستفيد من النظام الديمقراطى الغربى .

ولكونه اكتسب شرعية بطولية ، كما اكتسب فخر واحترام الشعب المصرى ، فإنه اعتقد أن بإمكانه التصرف كأب يرى المعارضة ضرورية للنظام الديمقراطى ، لكن يجب أن تتم السيطرة عليها ، كما يجب أن يتم تقويض الانتقادات الموجهة للنظام .

وفوق ذلك فلأن السادات كان شخصاً طموحاً ، فإنه كان يعول على أن هدفه الأساسى هو إنقاذ شعبه وأن المنازعات السياسية يجب أن ينعكس تأثيرها فى المقام الأول لمصلحة الدولة .

وأشار السادات بازدياء إلى جماعات الضغط فى الدول الغربية ، لا سيما الموجودة بالولايات المتحدة ، حيث رأى السادات -فى الولايات المتحدة- الاستخدام الواسع لمبالغ مالية كبيرة لمصالح شخصية فى انتخابات الرئاسة ، كما اتهم اللوبي الصهيونى بالتأثير المرعب على النظام الأمريكى .

وهكذا رأى أنور السادات نفسه حاكماً حميداً أو دكتاتوراً ، وقد لاحظ هنرى كيسنجر ذلك أثناء رحلاته المكوكية إلى الشرق الأوسط ، إذ وجد كيسنجر السادات يتصرف كما لو كانت لديه سلطات دكتاتورية ، بينما وجد الرئيس السورى الأسد يراعى وجهات نظر رفاقه .. وكان هذا هو مناط البورتريه الذى ارتسمه هيكل للسادات ، والذى يقول السادات فيه " أنا وجمال آخر فراغنة مصر العظام " .

أيضاً قيل لجيمى كارتر إن السادات رأى أنه من الخطأ اعتباره خليفة لتناصر حيث سلفه الحقيقى هو رمسيس الثانى ، كما كان يجب أن يصور من الجنب كرمسيس .

ولقد كانت لدى السادات نظرية شبيقة عن الحرية - كما أشار إليها رفائيل إسرائيلي - مفادها أن كل جماعة لديها الحق في التعبير عن نفسها ، ولكن هذا التعبير يجب أن يكون في ظل الأطر التي ترسمها الدولة ، وإلا فإن حرية التعبير سوف تؤدي إلى تحطيم سلطة الدولة والمعارضة غير القانونية للقيادة ، وليس أدل على ذلك من أنه حينما حدثت فلافك الطلبة في ١٩٧٢/١٩٧٣ هاجمهم السادات بمحاولة اغتصاب سلطة الدولة وزعزعة الوحدة الوطنية .. إنه اعتقد أنه بإعطائه حرية محدودة للتعبير وحصرها بعناية تجاه الأهداف القومية ، يمكن تلاشي التوترات الخطيرة .. لكنه وجد أن هناك قادة أوتوقراطيين فعولها من قبله ، بيد أن أولئك الذين منحوا هذه الحرية المحدودة لم يكونوا معنوين ، وطالبوا بمزيد من الحرية ، وعندما لم يحصلوا على هذا المزيد أصبحوا معارضين وأكثر خطورة على النظام .

وفي ضوء ذلك كان السادات حساساً تجاه الانتقادات الغربية التي أشارت إلى عدم كفاية ديمقراطيته ، ولذا كان يرفضها ، زاعماً أن الحكم الديمقراطي الذي أسسه يعتبر شرعياً مثل أمثاله في العالم ، كما أن جماعات الضغط التي تشوه الحياة الديمقراطية غير موجودة في مصر .

وبتجريد الاتحاد الاشتراكي العربي من فاعليته شعر السادات بأنه أصبح يسيطر على معظم القوة السياسية في الدولة ، كما اعتبر الشيوعيين آفة تهدد الاستقرار السياسي في الدولة ، علاوة على أنهم عملاء للاتحاد السوفيتي .

ورغم أنه كان يسير في الطريق الذي ارتسمه لإقامة حياة أفضل لشعبه ، إلا أنه لم يتم السير في هذا الطريق ، بل وصدم بمظاهرات عنف جماهيرية في يناير ١٩٧٥ .. وقد بدا هذا التذمر أكثر الثقافة ، لأنه كان موجهاً ضد الرئيس نفسه أكثر من حكومته . لقد كان شعبه يهاجمه على نقص حاجياتهم من السلع الغذائية ، معبرين عن مخاوفهم من ارتفاع الأسعار .. وهكذا عَنف السادات واستهزء به من قبل المتظاهرين .. وكانت أكثر الأقوال ترديداً " يا بطل العبور .. أين إفطارنا ؟ " .

ولم يقبل السادات -المصدوم- بأنه : " هو أو حكومته يستحقون هذه التعزية ، إنه كان مقتنعاً بأن مثيرى الشغب -لا سيما من الشيوعيين- كانوا وراء هذه المظاهرات ، ولذا أمر وسائل الإعلام بأن تثن غارة ضدهم ، وقد أذغنت الصحف ، باستثناء واحدة أو اثنتين لذلك ، كما قام بتنحية رئيس الوزراء وتعيين ممدوح سالم ، وكان سالم رجل بوليس مشهوراً بطرقه الغليظة فى فرض القانون . وأمل السادات أن يكون سالم قادراً على أن يكبح مجهودات مثيرى الشغب ... غير أن المشكلة أصبحت أكثر عمقاً ، حينما أُضرب ٤٠ ألف عامل من عمال النسيج بالمحلة الكبرى ، وكانت هناك مصادمات مع البوليس ، كما هاجم العمال منازل رؤسائهم ونهبوا الكماليات الأجنبية المستوردة صارخين : " هذا هو ما يعيش فيه هؤلاء اللصوص ، بينما الشعب يتضور جوعاً " .

ورغم عدم اعتراف السادات بخلل السياسات ، فإنه شعر بضرورة محاولة الحصول على المزيد من رعى الأموال لإعطاء الاقتصاد دفعة ، وهو الأمر الذى كان يؤجله يوماً بعد يوم .

وحينما مل تفاصيل التقدم الاقتصادى قرر فى ١٩٧٦ أن يتقرب من القوى الغنية -العربية والغربية- وخصل على برنامج مساعدة قوامه بليون دولار من الولايات المتحدة و بليونى دولار من دول الخليج ، (خصصت المساعدة الأمريكية فى سد نقص الغذاء لتهدئة الجماهير المصرية الجوعى ، بينما خصصت المنح الخليجية لإعادة بناء مدن السويس) .

ومن الغريب ، أن جماهير القاهرة الذين حاول السادات تهدئتهم كانوا غير راضين ، حيث منحهم السادات آمالاً عريضة بطفرة اقتصادية عظيمة لم يروها من قبل ، بينما ظلت بطونهم تطالب بالمزيد من الطعام ، والذى لم يكونوا قادرين على شرائه كما لم يكونوا قادرين على فهم أن مصر تحتاج إلى سنوات عديدة ومجهودات غير منقطعة ومساعدات اقتصادية قبل أن يتم إرساء البنية الاقتصادية ، إنهم تمنوا

حلولاً وقتية ، مما جعل الحلول طويلة الأجل صعبة الإجاز .. كما إنهم لم يكتفوا
مفتنعين بانتصارات السادات الخارجية ، ورحلته إلى الولايات المتحدة وأوروبا ولا
باتفاقية فصل القوات الثانية مع إسرائيل ولا باستعادة آبار البترول ، ولا باستعادة
معظم رمال سيناء .. وهكذا لم يعد بطل العبور هو بطل شوارع القاهرة .

وخشية أن يتم توجيه الاتهام إلى السادات بأنه تابع للأمريكيين وأنه يبيع مصر
لهم - كما اتهمه هيكل بذلك فعلاً - قرر السادات أن لديه فرصة نادرة لتقوية اقتصاد
مصر ، رافضاً الرأي القائل بأنه يعتمد كلية على الأمريكيين ، مؤكداً أن إخواته
العرب هم الأكثر منحا .

لقد كانت لدى السادات أمنية أرادها لمصر ، تتمثل في اقتصاد رائج وشعب
يأكل جيداً ، ويلبس جيداً ، ومثقف جيداً .. كذلك تحدث السادات عن ضرورة تشوير
طرق التعليم والثقافة على كل المستويات بدايةً بمحو الأمية ونهايةً بتحقيق مستويات
عالية من التعليم الأكاديمي والبحث العلمي والتكنولوجي .. وأعلن أن مصر يجب أن
تحرر نفسها من ثوبها الضيق عبر وضع برنامج تعليمي لكل المراحل التعليمية
المختلفة ليتواءم والأوضاع الدولية المحيطة بها .

أيضاً كان تحرير المرأة أحد الأهداف التي تمنى السادات إنجازها ، لكنه أدرك
أن تحقيق هذا الهدف وغيره من الأهداف مثل تحقيق ظروف أفضل للشباب ، وبناء
مساكن أفضل ، والقيام بعمل التسهيلات الصحية المناسبة .. كلها أهداف لا يمكن
تحقيقها في المدن ذات الكثافة السكانية العالية .

وعلى صعيد آخر ، تمنى السادات أن تبذل مجهودات عظيمة في استصلاح
الصحارى المصرية ، مؤكداً أنه لو عاش الـ ٣٥ مليون مصرى - ارتفع الرقم حوالى
١٠ ملايين خلال عقد - على مساحة ٣٪ من الإقليم المصرى ، فلا يمكن أن يتوقعوا
ظروفاً مرضية .

ولا شك أن الموقف كان محبطاً في القاهرة ، حيث جاء الآلاف من الأقاليم بحثاً
عن السكن والعمل ، وكلاهما لم يكن متاحاً كما ظهرت مدينة الأموات على ضواحي

القاهرة ، حيث يقطن عدد كبير من الناس القبور جنباً إلى جنب مع الأموات ، يستخدمون أحجار القبور كمناضد وأسرة .

وعلى صعيد ثالث ، رفض السادات بصورة مطلقة التصور القائل بأن الأجانب يستفيدون من سياسة الانفتاح الاقتصادي بصورة أكثر من المصريين ، معلناً أن كل ما يريده لسياسة الانفتاح الاقتصادي هو حراس أمن ، إذ يقول :

" أنا لن أصادر الاستثمارات الأجنبية ، والمستثمرون قادرون على أخذ أموالهم للخارج بعد أن استقبلنا نصفها ، لكن إذا أرادوا أن يأخذوا جزءاً من هذا النصف للخارج فهم أحرار في القيام بذلك .. في تقديري فإن التعقيدات التي تنتمي للأجانب والاحتلال الأجنبي منذ ١٩٥٢ لم تعد صحيحة .. فالأجانب الآن يأتون للعمل من أجل ومن أجل تكنولوجيايتي . وماداموا يعملون بفاعلية فإن كل شيء سيكون على ما يرام ، وإلا فسوف أعطيهم أموالهم وأريهم الطريق للخارج . قبل الثورة كان البريطانيون هنا وتغفل رأس المال في كل شيء .. حكومتنا أطاعت الرأسمالية ، سواء تمثلت في الملك أو في البريطانيين .. والآن من يستطيع إعطائي الأوامر ، الله فقط .. لذلك سياسة الانفتاح سوف تسهل نقل دماننا الجديدة ، التي سوف تساعدنا على ألا نتزلق أقدامنا " .

وفي هذه النقطة لم يسلم السادات من النقد ، إذ أعطى هيكل انطباعاً بأن السادات استسلم للفساد الذي نبع من سياسة الانفتاح الاقتصادي ، وأنه كان بعيداً عن محاربة هذا الفساد الداخلي ، على خلاف ما حدث في الفترة الذهبية لناصر . وواقع الأمر إن السادات لم يكن رافضاً الحصول على مزايا شخصية من حكمه الإوتوقراطي ، ومع ذلك فهناك دليل على أن السادات كان متوجساً من الفساد الذي أحاط به ، والذي لم يكن جديداً ، وإنما كان مستشرياً من جراء حرية تدفق رؤوس الأموال من الخارج ، ومع عدم الضبط كانت هناك عصابة أساعت استخدام الأرصدة ، كما أن الممولين الأجانب استخدموا مهاراتهم لتعطيل ما قصد به أن يكون قواعد محكمة .

وبمرور الوقت ، ورغم كل هذه المجهودات فلم تلاحظ أية تحسينات على الاقتصاد المصري ، وظلت حياة المصريين في المدن والقرى قاسية ، ومن ثم بدأ السادات يتشكك ، كما اعترف بأن هناك أشياء خطأ وأنه لا يوجد إنسان معصوم من الخطأ ، وهو إنسان .

اعترف كذلك بأن العديد من سياساته الاقتصادية والاجتماعية كانت خاطئة وأنها لم تحقق النتائج المرجوة منها ، ولكنه رد ذلك إلى عبء الديون السوفيتية والتي عرقلت قراراته للإصلاح الاقتصادي .

اعترف السادات أيضاً بأن مصر ليست في حالة جيدة ، وأنه لا يستطيع أن يؤكد لشعبه أن هذه المسائل سيتم تصحيحها خلال عام .

وبعض من التبرير أدان السادات ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية في الأسواق العالمية ، لكونها ساهمت في زيادة قروض الدولة ، لعدم توافر أثمانها من العملات الصعبة محلياً .

ومن أبرز الأمثلة الدالة على سوء الإدراك والوعى ، أن السادات اعتقد أن العجز في الميزانية يبلغ ٤ بلايين دولار ، وبالتالي يمكن تغطيته من خلال القروض الأجنبية والمنح .. غير أنه اكتشف أن العجز الحقيقي يبلغ ٤ بلايين جنيه استرليني ، وهو ما لم تكن مصر قادرة على تغطيته . وقد علق السادات على ذلك قائلاً : " إن الاقتصاد المصري يشبه ذلك الرجل الذي يبدو ذا صحة ، ولكن لا يوجد دم يجري في شرايينه ، ولذا فهو يحتاج إلى نقل دم يمنع موته " .

وكان النقص في الثقة تجاه المسؤولين الرسميين دافعاً لأن يتجه السادات إلى دعوة خبراء أجانب ، وفي نفس الوقت قام بعدة رحلات مهمة وشاقة إلى دول عربية وغربية لرفع الأرصدة .

إلا أن الشيء الجوهرى الذى نهى إليه السادات هو أن تحويل الدولة سوف يحتاج إلى عدد من السنوات ، وفي نفس الوقت يجب أن يكون هناك حزم ، معطناً إياه إذا لم تنمو الدولة بصورة لائقة فإن مصر وكل العرب سيعزلون وسيبقون متخلفين ،

وينتهي بهم الحال كهنود أمريكا " سوف نفقد أراضينا ومنازلنا ، وسوف تعاملنا إسرائيل كما تعامل أمريكا هنودها " .

وفيما يتعلق بمدينة القاهرة ، فقد رأى السادات أنها مثال صارخ لسوء التخطيط ، وعدم التحكم فى الهجرة الداخلية ، بما يمكن أن يدمر دولة مصر .. مضيفاً أن المدينة بها منازل لحوالى مليونين فقط ، لكنها بها الآن -أثناء قول السادات هذا الكلام- حوالى عشرة ملايين يعيش معظمهم فى ظروف صعبة ، حيث يشحن النقل العام ما يزيد على طاقته ، والنظام التليفونى يعمل بصعوبة بالغة ، ونظام الصرف الصحى خطير وغير مناسب ، وكذا شبكات المياه ، لدرجة أنه كانت توجد فتحات بالطرق وسط القاهرة ، أيضاً إشارات المرور كانت عشوائية وخارجة عن دائرة التنظيم مع جهل السائقين بها .. لذلك حلم السادات فى أن يجعل القاهرة مدينة جميلة ، إلا إنه سرعان ما أدرك أنه حلم لن يتحقق سوى فى المستقبل البعيد جداً .

ومن الجدير بالذكر أن السادات - محتذياً بتجربة ألمانيا الغربية التى انطلقت من دمار الحرب العالمية الثانية لتصبح واحدة من أغنى الدول - وجه نداء إلى المصريين للقيام بمبادرات شخصية ، وألا يعتمدوا على الدولة دائماً ، مثيراً حفيظتهم بأن مصر كانت واحدة من أعظم الإمبراطوريات الزراعية فى العالم ، والتى لم تكن تنتج غذاء لشعبها فحسب ، وإنما لشعوب أخرى من العالم ، وما هى مضطرة إلى استيراد كميات كبيرة من الغذاء من الخارج وبالعلة الصعبة .. مشيراً إلى أن المصريين قادرون على زراعة الخضراوات وبعض الأطعمة الأساسية بسهولة مثلما هم قادرون على تربية الدواجن ، ومتجاهلاً بازدرء تصريحات الأجانب المثيرة ، تحديداً تصريحات القذافى الذى قال إن " مصر جائعة فى ظل السادات " .

وأخيراً فيما يتعلق بالاتهام الذى وجه إلى السادات بأن البنوك الأجنبية ستحصل على مزايا عديدة ، أشار السادات إلى أن البنوك تلعب دوراً محدوداً فى المعجزة الاقتصادية بألمانيا الغربية ، وأن مبادرة البنوك بإقراض مصر مبالغ كبيرة

لإعادة التصير تعتبر أساسية ، وأنه سوف يتولى بنفسه توجيه الاقتصاد ، ووصل الأمر إلى أن يراقب السادات بنفسه (١٩٧٦) مشروعات خطته الخمسية بصورة غير منقطعة ، حيث كان يطير بهليكوبتر باستمرار إلى مواقع البناء ، ويتحدث إلى العمال والمديرين ويمنحهم النصيحة .. كذلك كان سعيداً بصداقته لكل من ديفيد ونيلسون روكفلر - الرجل رقم واحد في بنك مانهاتن ، وديفيد مكارا - رئيس البنك الدولي - مؤكداً أنه بدون هذه الصداقة فلن يكونوا متعاونين مع مصر بهذه الدرجة ، خاصة أن رؤيته للشفاء الاقتصادي لم تنهض من أجل المستقبل القريب ، وإنما إلى أبعد من ذلك ، حيث عام ١٩٨٠ .

الفصل السابع عشر الخطوات الأولى للسلام

إن قرار أنور السادات بكسر الحاجز النفسى بين العرب وإسرائيل ، والسفر مباشرة إلى القدس ، والتحدث مباشرة إلى الشعب الإسرائيلى لم يأت فجأة ، ولم يكن وليداً لليأس ، ولم يكن كذلك وليد لحظة براقة من الطموح والتطلع .

ورغم أن هذا القرار قد يكون بدا بهذا الشكل ، سواء بالنسبة له أو للمعجبين به أو حتى للمقتلين من شأنه ، فإن الحقيقة على خلاف هذا تماماً ، حيث يعتبر القرار نتاجاً لعناء سنوات عديدة من المداولات الخاصة واختبار عذاب النفس .. كما أن السلوك والطريقة اللذين اتبعهما فى مبادرته المدهشة هما أدق مثالين على شخصيته الدراماتيكية التى تتجسد فى الممثل الجسور ، الإنسان ، المبتكر ، البناء ، القائد ، موضع الثقة ، الشجاع المبدع لأفكار جديدة .

وقد كشف هذا القرار نفاد صبره وازدراؤه للقادة العرب الذين رفضوا اتباع خطواته نتيجة لخوفهم وجهلهم وعدم تقديرهم لجسارته ، التى لولاها ما كان أنجز شيئاً .

على أن نقاده الرئيسيين من أمثال هيكل يرون أسباباً مختلفة لرحلته إلى القدس ، إذ يذهب هيكل إلى أن هذه الرحلة كان وراءها سببان .. أولهما : هو يأس السادات من المظاهرات العنيفة التى اندلعت ضده ، والذى دفعه لأن يحول انتباه شعبه عن الورطة الاقتصادية . وثانيهما : يتمثل فى رغبة السادات فى الارتباط بالمعسكر الغربى ، والاستمرار فى الطريق الذى بدأه مع صديقه الجديد هنرى كيسنجر ، إلا أن هذا ليس مقتعاً .

والذى لا شك فيه أن العامل الاقتصادى كان فى تفكير السادات ، لا سيما وأنه كان على وعى دائم بإمكانية توجيه المبالغ الضخمة التى تستخدم فى شراء الأسلحة إلى تحسين الزراعة ودفع الثورة التكنولوجية بالدولة .

وقبل ذلك بعامين ، وتحديدأ فى أغسطس ١٩٧٤ ، قام السادات بما يمكن اعتباره الرابط العام الأول بين تحسين الاقتصاد وإحراز السلام .. ورغم عدم معرفة

أعضاء الكونجرس الأمريكي الذين استمعوا إليه أى أنواع السلام يريد ، إلا إنه من خلال تصريحاته وتلميحاته بدا واضحاً أن الخط الخارجى لخطته الجريئة قد اكتمل بالفعل فى عقله .

إن السادات كان على وعى -شأنه شأن اقتصادى عالمى مثل ديفيد روكفلر- بأن مصر لا تزال رسمياً فى حالة حرب مع إسرائيل مع إمكانية اندلاع المعركة ، ليس كل شهر أو سنة فحسب ، وإنما كل دقيقة ، ومن ثم فإن الدولة تعتبر منطقة خطر وليست منطقة جذب لمعظم المستثمرين الأجانب ، وأنهم حال عودتهم سيسحبون ويطلبون مبالغ طائلة لا تقوى مصر على تحملها .. غير أن منتقدى السادات يتعللون بأنه أمد المستثمرين الأجانب بتسهيلات جاذبة للاستثمار بصورة أفضل من المتاح لشعبه وطبقاً لوزير المالية ، فقد عاد الاقتصاد المصرى إلى ما كان عليه قبل ثورة ١٩٥٢ ، أشبه بالبقرة التى ترعى الكلأ فى مصر ، بينما يذهب ضرعها للخارج .

وفى الواقع ليس هناك دليل بين يؤيد وجهة النظر هذه ، فالموقف -بوجه عام- وإن كان يشتمل على بعض الأمثلة من عدم العدل ، فإن السادات كانت تتنازعه عدة رغبات ، فقد تمنى بشدة أن يعيد بناء دولته ليرى المدن المحطمة حية مرة ثانية ، ويشاهد قناة السويس زاخرة بالسفن ، ويستثمر المبالغ الضخمة من الدولارات ، التى حصل عليها من العرب الأغنياء والأمريكيين فى التكنولوجيا الحديثة . وفى نفس الوقت كان السادات قلقاً من أن كل مجهودات إعادة البناء سوف تنتهى للاثنىء لو اندلعت حرباً أخرى ، وأن السلام الدائم وحده وعدم التهديد المستمر بالحرب -مع دولة فتية تزخر بمصانعها وبيوتها وبنيتها الأساسية- هو المقياس الحقيقى للنصر . إن ماضى مصر المجيد وحضارتها التى تؤول إلى أكثر من ٧ آلاف سنة هى التى حفزت السادات ، وليس دوره المفترض كفرعون حديث .

وقد تحدث السادات باحتقار عن القادة العرب الجهلة المتعجرفين الذين كانت دولهم لا شىء سوى صحراء معزولة حتى اكتشفت الثروات البترولية مصادفة .

والحقيقة ، أنه لا العالم العربى ولا الاتحاد السوفيتى منحوه أى أمل بأنهم سوف يساعدونه على تحقيق حياة أفضل لشعبه ، حيث إن سوء تفاهمه مع القادة السوفيت والنظام السوفيتى قد بلغ مرحلة أضحى معها الرجوع إليهم بجعله يستشيط غضباً . وعلى الصعيد العربى كان السادات مرتاباً فى الرئيس السورى حافظ الأسد لمحاولته خداعه باستعادة مرتفعات الجولان عبر مساعدة الاتحاد السوفيتى ، بعد أن خاضت مصر معظم المعركة وجابهت معظم الكوارث . كذلك اتهم العقيد القذافى بخيانة مصر فى عدم وفائه بوعده بإرسال البترول وقطع الغيار للطائرات الحربية .. أما الملك حسين ، ملك الأردن ، فقد كانت لدى السادات مشاعر مختلفة تجاهه جعلت من المحال التعاون معه ، إذ اعتقد السادات أن الملك حسين لا يمكن الوثوق به لكونه مأكراً للغاية ، لدرجة أنه يمكن أن يغير رأيه عدة مرات ، وأخيراً لم يكن السادات يفهم لماذا لا تزال القوى الغربية ، لا سيما بريطانيا ، ترى الملك حسين كشخص شجاع ؟ ! بينما أبدى السادات نوعاً من الاحترام لصديق وشجاعة ياسر عرفات قائد منظمة التحرير الفلسطينية التى كان مقرها بالقاهرة ، والذي كان يلتقى به من وقت لآخر . وذكر السادات أنه خلال إحدى زيارات الأمير السعودى فهد - قبل أن يصبح ملكاً - إلى واشنطن أخبر الرئيس كارتر أن عرفات وافق على قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، والذي يعترف بحق إسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة . وأضاف فهد : هذا هو توقيع عرفات على هذه الوثيقة المكتوبة للدلالة على ذلك . وفى اليوم التالى ، وقف ياسر عرفات معلناً أنه لم يقبل القرار ٢٤٢ ، وأنه لم يتحدث إلى الأمير فهد فى هذا الموضوع ، وكان الأمير فهد هائجاً جداً ، وحال عودته إلى المملكة العربية السعودية أدان بشدة منظمة التحرير الفلسطينية ، مشيراً إلى الوثيقة التى تم التوقيع عليها .

- وفى تعليقه على هذا الحادث قرر السادات أن الأمير فهد أدرك من قبل كيف يتعامل مع عرفات ومؤيديه ، ويضيف (لسوء الحظ لم أتبع هذا الإجراء أبداً فى تعاملاتى مع عرفات .. فاعضاء المنظمة يجلسون معى ويطرحون شئونهم وحلولهم ، ولكن بمجرد أن أعلن عنها ينكرون متهربين أنهم فعلوا شيئاً من مثل هذا القبيل) .

وبخصوص الملك فيصل ، فإن اغتياله أفقد السادات الشخص العربي الوحيد ، الذى لم يكن السادات يحترمه فحسب ، وإنما كان يعد لأن يأخذ بمشورته قبل الرحلة إلى القدس ، بما يدل على أن السادات لم يعزل العملية السلمية برمتها ، بل أعد لها بعناية وأخذ بنصيحة مستشاريه المقربين على الأقل .

المهم ، أن السادات رد بداية مبادرة السلام إلى تلك الزيارة التى قام بها إلى الرئيس الأمريكى الجديد المنتخب جيمى كارتر .. ولا شك أنه كان هناك فهم متبادل بين ابن مزارع الفول السودانى ، المتأثر بالتوراة ، والمتدين بعمق ، والجاد .. وبين صبي القرية السابق خلال فترة زمنية وجيزة ، حتى أن كارتر اعتبر السادات صديقاً حميماً ، متجاهلاً انتقادات رجال الصحافة .. كما كان مفتوناً بما أبداه السادات من تنازلات فى سبيل تقدم أية مفاوضات ، مقارنة بالاحتطباع الذى أخذه كارتر عن عدم مرونة الإسرائيليين أمثال رابين وديان وبيجين ، ذلك الشعور الذى وجدده السادات لديه بشجاعته وأمانته ، والغريب هنا أن كارتر اعتقد أن بيجين لديه نفس الرؤية من حيث عدم المرونة .

دعا كارتر السادات إلى واشنطن فى فبراير ١٩٧٧ ، وكان موضوع المحادثات 'يس النزاع المصرى - الإسرائيلى فحسب وإنما الصراع العربى - الإسرائيلى ، وقبل ك كانت هناك ثلاثة نقاط - طبقاً لرواية السادات هى :

١- مشكلة الأراضي العربية المحتلة فى حرب ١٩٦٧ .

٢- العلاقات بين العرب والإسرائيليين .

٣- القضية الفلسطينية ، التى يعتبرها العرب أساس كل المشاكل الأخرى .

كذلك أضاف السادات بنفسه بنداً آخر إلى الأجندة يتمثل فى الموقف فى لبنان ، والحرب الأهلية التى اندلعت هناك ، مع العديد من الاستنتاجات .

وقد زعم السادات أنه وكارتر لم يختلفا على الأراضي المكتسبة بواسطة إسرائيل وإنما اختلفا حول قضية العلاقات بين العرب والإسرائيليين .. ، سأل السادات كارتر : كيف تطلب منا أن نقيم علاقات طبيعية مع الإسرائيليين في الوقت الذي ما زالوا يحتلون فيه أراضينا ؟ وأضاف أن إسرائيل تريد تطبيع العلاقات قبل التوصل إلى اتفاقية انسحاب لتبرير الاحتلال واستمراره ، كما أنهم يتذرعون بحجة الأمن الإسرائيلي لاحتلال أراضى الآخرين ، وقد جاءت حرب أكتوبر لتكذيب نظرية الأمن الإسرائيلي ، ولهذا السبب جاء الإسرائيليون بعذر جديد يتمثل في الدعوة إلى إقامة علاقات طبيعية مع العرب قبل أن يوافقوا على الانسحاب .. وأضاف : ليس من المقبول أن يطلب الإسرائيليون منا تطبيع العلاقات قبل إنهاء الاحتلال ووضع جدول زمني محدد بمراحل إتمام الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية .. فالحديث عن تطبيع العلاقات . بينما الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية مستمر هو أمر لا يقبله أى عاقل عربى ، واستغرقت مناقشة هذه النقطة فترة زمنية طويلة ولكنهما -أى كارتر والسادات- فشلا في التوصل إلى اتفاق ، وقد قرر السادات أن كارتر فشل في إقناعه بمصادقية وجهة نظره في هذه النقطة ، ومع ذلك شعر السادات بأن هذه الزيارة إلى واشنطن كانت مهمة جداً ، حيث تعهد الرجلان بالعمل سوياً لحل الصراع العربى- الإسرائيلى ، ويذكر السادات أن كارتر قال له (لن نفقد الأمل على الإطلاق ، وسوف نجد حلاً لكل مشكلة قابلناها .. المهم أن نكون على اتصال ليبذل كلنا الآخر بما يستجد من وجهات نظر ، وبما يتخذ من خطوات) .

ومن ثم شعر السادات بأن كارتر كان ودوداً في تعهده ، وأنه أراد أن يساهم بأمانة وإخلاص في التوصل إلى حل عادل ومقبول لدى كل الأطراف . وأشار السادات إلى أن الرئيس كارتر كان أول رئيس أمريكى نادى بصورة غير منقطعة بحق الشعب الفلسطينى فى أن يكون له وطن قومى ، تلك الدعوة التى أشعلت غضب القادة الإسرائيليين .. واستمر السادات في زعمه بأن كارتر تعرض لسخط وكرهية الصهيونية العالمية التى فعلت كل ما فى وسعها لتدميره .. وكان مفهوماً لدى كارتر

أنه يواجه بعبادة الصهاينة والإسرائيليين ، وقد علق السادات على ذلك بحدة قائلاً :
إن الشيء غير المفهوم هو معاداة العرب للرئيس الأمريكى الذى طالب بوطن قومى
للشعب الفلسطينى .

وطبقاً لما قاله السادات فقد تلقى كارتر نفس المعاملة من السوريين ، الذين
أتعبوه وضللوه ، ففى البداية اتفقوا معه على أن العرب سوف يحضرون مؤتمر
جنيف للسلام وسوف يتعاملون مع إسرائيل كوفد واحد وليس كمجموعات منفصلة كما
طلبت إسرائيل ، وحينما سأل كارتر السادات عن رأيه رد عليه السادات -الوعى
بالحيل التى أدمنها السوريون- بأنه يرفض الاقتراح ، لأن وفداً واحداً لن ينجز
شيئاً ، وسيتحول المؤتمر إلى مزاد لا نهاية له ..

وقد حاول كارتر - مدفوعاً بالرغبة الطيبة وعدم فهمه للتعقيدات الدبلوماسية
بالشرق الأوسط - أن يقتنع السادات بوجهة النظر السورية ، وتعتبر ملاحظة كارتر
فى جدول أعماله اليومى بأن الفكرة السورية بتمثيل التحالف العربى لمنظمة التحرير
الفلسطينية هى خطوة لاحقة ، تعتبر أحد الأمثلة الدالة على أنه كان بعيداً عن فهم
أهداف الأسد .

وقد علق كارتر بأنها ميزة للفلسطينيين إذا ذهب العرب للمؤتمر فى تحالف
واحد ، حيث ستتاح للفلسطينيين فرصة المشاركة دون اعتراض إسرائيلى على
حضور الممثلين الفلسطينيين ، لكنهم إذا ذهبوا منفردين فسوف يعترض الإسرائيليون
على ذلك .

ورغم معرفته الجيدة والكاملة بأنها مناورة أخرى من المناورات السورية ،
وافق السادات على طلب كارتر ، كما تمنى أن يساعده ، بينما كان السوريون الذين
لم يتوقعوا على الإطلاق أن اقتراحهم سيتم قبوله مرتبكين ، وبحثوا عن ذرائع أخرى
لرفض حضور المؤتمر .. ومرة أخرى كسر السوريون الصف العربى ، أما كارتر
الذى تم تضليله فقد أظهر استياءه من أنه لم يقابل على الإطلاق دبلوماسيين أجانب

منقلبين وغير موثوق بهم مثل السوريين .. وقد علق السادات على ذلك بأن كارتر توقع أن يكون السوريون عند كلمتهم ، لكنه رجح عن ذلك حينما وجد أن السوريين ألف كلمة ، وأن ما وافقوا عليه اليوم يرفضونه في اليوم التالي ، ثم يعودون ويقبلونه ثانية .. وهكذا .

ولحيرته التامة ، أرسل كارتر رسالة شخصية إلى السادات كتبها بخط يده عبر وسيط خاص لم تعرف السفارة الأمريكية بالقاهرة ، ولا السفارة المصرية بواشنطن عنها شيئاً .

وفي هذه الرسالة الحزينة اعترف كارتر بحيرته أمام هذه الخدع السياسية التي لم يفهم الهدف منها ، وأنه كان يعمل باهتمام من أجل إيجاد حل للمشكلة ، وتخيل أن مجهوداته سوف تتيح له إمكانية إشراك كل الأطراف المعنية ، وأنه لذلك مندهش من الخداع ، وأن التعقيد تركه في حيرة كاملة .

بيد أن السادات طمأنه بأنه ما زال عاقداً العزم على ما تعاهدا عليه أثناء زيارته للبيت الأبيض مؤكداً (سوف نجد الحل الذي لن يخرجنا من هذه الدائرة الفاسدة التي يحاولون تكتيفنا داخلها فحسب ، وإنما أيضا سوف نصل إلى حل للصراع العربي - الإسرائيلي) .

ويعترف السادات بأنه حينما كتب هذه الكلمات لم يكن في ذهنه أي فكرة عن شكل هذا السلام ، وأن كل ما كان لديه نوايا طيبة مقترنة بما ينشده من حل حاسم .

وفي ظل هذا الجو من الحيرة الغربية والتشنت العربي بدأ أنور السادات يرسم استراتيجية الانطلاق إلى السلام مع إسرائيل .

أدرك السادات أنه مقدم على عمل معقد ، إذ كان لزاماً عليه أن يكسر الحواجز النفسية ، وربما يساء فهمه ويسب . كان متأكداً من ذلك ، لكنه علم أيضاً أنه لا

يمكنه الاعتماد على أى فرد آخر ، وأنه إذا أراد الإبقاء على عنصر المفاجأة والدراما فإن عليه أن يحتفظ بأفكاره لنفسه .

وهكذا كانت الفكرة الأولى لدى السادات أن يدعو إلى اجتماع للخمسة الكبار (الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتى - الصين - بريطانيا - فرنسا) بالقدس ، حيث إن هؤلاء الخمسة الكبار سوف يكفلون السلام والأمن للإسرائيليين والعرب ، ومع ذلك قرر السادات ألا يتبع هذه الخطة ، حيث أدرك أن بريجنيف سيكون بين الخمسة ، ورغم إمكانية اعتباره صديقاً ورجلاً معقولاً - على خلاف بعض القادة السوفييت الآخرين - إلا أنه فى نفس الوقت كان حليفاً للسوريين والفلسطينيين بنفس الدرجة من الصداقة ولن يكون قادراً على اتخاذ موقف إيجابى .. وعلاوة على ذلك كان السادات مرتاباً من أن بريجنيف لن يسامحه على تشويه صورة الاتحاد السوفيتى بطرده للخبراء السوفييت (رغم ما يكتنف موضوع الطرد من ملابسات) .

والاعتبار الثانى تمثل فى عدم التأكد من موقف الصين الشيوعية ، صحيح أن الصين ساندت بصورة كلية القضية العربية ، لكن سياساتها فى الأمم المتحدة لا يمكن التنبؤ بها دوماً ، وقد خاف السادات أن ترفض المشاركة فى قمة القدس ، كما ترفض حضور اجتماعات مجلس الأمن الدولى .

أما الاعتبار الثالث فى عدم التعويل على خطة القدس ، فقد تمثل فى أن رؤساء تلك الدول لن يكونوا قادرين على أن يقضوا شهوراً فى العمل على حل مشكلة الشرق الأوسط ، كما أوضح ذلك لاحقاً الرئيس الأمريكى جيمى كارتر .

وبإفلاعه عن هذه الخطة اتجه تفكير السادات إلى مناحم بيجن رئيس الوزراء - الإسرائيلى وزعيم الجناح اليمينى لتجمع الليكود ، والذى فاز بانتخابات غاية فى الحساسية ، مزيحاً بذلك حزب العمل الذى كان ممسكاً بالسلطة منذ قيام الدولة عام ١٩٤٨ .

وكانت الحقيقة التي يعرفها السادات أن بيجن هو أحد المدافعين عن الإبقاء على الأراضي المتنازع عليها ، خاصة الضفة الغربية ، بوصفها جزءاً لا يمكن فصله عن دولة إسرائيل .

وحيثما سئل السادات عن رأيه في بيجن بعد صدمة الانتخابات ، أجاب بأنه لا يوجد فارق بين بيجن ورابين وجولدا مائير أو أي شخص آخر منتخب بواسطة الشعب الإسرائيلي .

ولدهشته من هذه الإجابة ، اقترح محمد إبراهيم كامل -السفير المصري في بون حينذاك- على السادات ألا يكون محدداً في رده ، خاصة منذ أن نادى حزب بيجن في برنامجه بإسرائيل الكبرى ، لابتلاع ما تبقى من فلسطين ، وظل كامل يذكر السادات بأن بيجن نفسه متطرف وإرهابي مسئول عن منحة دير ياسين ، ورد عليه السادات بأن كل الإسرائيليين متشابهون ، وهو التعميم الذي لم يقبله كامل .

وبالنسبة للسادات كانت هناك اعتبارات أخرى ، إذ كان ساخطاً وغاضباً من اتجاه اسحاق رابين أثناء اتفاقية فصل القوات الثانية ، وإلى حد ما ترسخ لدى السادات اعتقاد بأن رابين كان رجلاً ضعيفاً ، وكان غير قادر على اتخاذ قرار . وزاد هذا الاعتقاد لدى السادات حينما قدم رابين استقالته من رئاسة الوزراء .

لقد أساء السادات تقدير رابين كما أثبتت الأحداث ذلك لاحقاً ، حيث عاود رابين الظهور ليدافع عن خليفة بيجن - إسحاق شامير - من خلال التوقيع على اتفاقية تاريخية مع ياسر عرفات .

علم السادات أن بيجن كان يخطط لزيارة رومانيا لإجراء محادثات مع نيكولاى شاوشيسكو ، ولحسن الحظ فإن السادات كان يعتبر شاوشيسكو أحد أصدقائه المقربين ، كما أنه أيضاً كان أحد أصدقاء ناصر ، الذي حثه على أن يأخذ دوراً في الوساطة مع إسرائيل ، وكان إصراره محيراً لناصر الذي قال له : (فلنذهب أنت وتحدث إلى الإسرائيليين بدلاً مني) .

وحينما خلف السادات " ناصر " كرر شاوشيسكو عرض الوساطة ، كما نصح السادات بأن يتفاوض مباشرة مع الإسرائيليين ، وفي كل مرة كان السادات يعتذر متعللاً بأن الوقت لا يزال غير مناسب لمثل هذه الخطوة .

وباسترجاعه اقتراحات الزعيم الروماني المتكررة ، خطرت فكرة حل الصراع العربي - الإسرائيلي للسادات ، إذ تذكر كيف أن بيجن تحدى العرب على الدوام بقوله : (أيها العرب إن لديكم مشكلة معنا .. أراضيكم في حيازتنا وأنتم لديكم حقوق تتحدثون دائماً عنها وتطالبون بها ، كيف يمكنكم إذن استعادتها بدون المجيء والجلوس معنا حول مائدة التفاوض) .

ووجد السادات كذلك أن هذا هو السؤال الذي وجهته جولدا مائير للعرب قبل بيجن ، والذي ذاع على مستوى العالم ، حيث قرر (أن صورتنا أصبحت وقحة أمام العالم) ، وأضاف : (نحن نطالب بأرضنا ونرفض أن نسأل أولئك المحتلين لها ، ونحن نطالب بحقوقنا ونرفض أن نجلس مع أولئك الذين جردونا منها) .. وعلق بلزdraء (إن كل العرب يجلسون الآن في عواصمهم ويوجهون تحذيرات لإسرائيل وأصدقائها ، ويمكن أن يسمع المرء يوماً قائداً عربياً يهدد القادة الإسرائيليين مطالباً إياهم بعودة الأراضي العربية المحتلة ، أو يوجهون تحذيرات إلى الولايات المتحدة للضغط على إسرائيل ، وأن العالم سمع تلك التحذيرات والتهديدات وسخر باحتقار من العرب واستهزأ من الطرق الغريبة التي يتبعها العرب لاستعادة حقوقهم ، وتحرير أراضيتهم المحتلة) .

وتحجج السادات بأن العرب بكسبهم حرب أكتوبر استعادوا شرفهم وأثبتوا وجودهم ، وأن لديهم الآن فرصة ذهبية لأن يحاولوا حل المشكلة بالطرق التي يمكن أن يقبلها ويفهمها العالم المتحضر ، ومن ثم مال لما دعاه إليه شاوشيسكو من حيث التفاوض مع الإسرائيليين ، لكنه لم يرد أن يكون الزعيم الروماني وسيطاً يتفاوض باسم العرب ، ومن ثم تذكر كيف أن شاوشيسكو حثه على التفاوض مباشرة مع

الإسرائيليين لكي يحلوا مشاكلهم بأيديهم وليس بأيدي الآخرين ، ومن ثم حظى شاوشيسكو باحترامه .

وبعد فترة وجيزة سافر السادات إلى السعودية ، حيث التقى بالملك خالد والأمير فهد وأمراء آخرين ، لكنه لم يخبرهم بالخطّة التي تبلورت في ذهنه لوضع نهاية لحالة العداوة مع إسرائيل ، موضحاً أنه لم يحدد الشكل النهائي لمبادرته ، ولو أن الملك فيصل كان حياً لكان السادات سيفتح الموضوع .

صحيح أن علاقة السادات بالعائلة السعودية المالكة كانت جيدة ، لكنها لم تكن دافئة ، وبينما كان ليفصل بعض التحفظات على أفكار السادات ، كان الملك خالد يرى أنها غير مفهومة كلياً .

ومن ثم استنتج السادات أنه لا ينبغي أن يتحدث عن مبادرته القادمة ، لأنه أراد أن يثبت للعالم كله أنه كان رجل سلام حقاً ، وأنه ليس مخادعاً سياسياً ، وهو ما كان مربكاً وغير متنع .

وفي طريق عودته لمصر من العربية السعودية ، بدأت تتشكل المبادرة وطبيعتها بالضبط .

وقد قال السادات إن أفكاره ارتكزت ببساطة في : لماذا ينبغي أن يدور في حلقة ليصل إلى هدفه ؟ وأن هدفه الواضح والوحيد هو السلام ، وأن السلام يمكن اتجاذه من خلال الاجتماعات المباشرة بين أطراف الصراع . وكان هذا هو التصور الذي عبر عنه بصورة متكررة من قبل الزعماء الإسرائيليين من بن جوريون إلى بيغن .. يقول السادات : (كنت أفكر في الخطوات التالية : لماذا لا أذهب إلى إسرائيل مباشرة ؟ لماذا لا ألق أمام الكنيست وأخاطب الإسرائيليين أنفسهم - مثلهم مثل بقية العالم - واضعاً أمامهم القضية العربية ومحددأً أبعادها كما فكرت فيها .. لقد عزمت أن أرى رد فعل هذه الخطوة التي لم يكن يتوقعها أحد .. سيقال إنها كانت مغامرة غير محسوبة .. كيف لك أن تغامر بالذهاب إلى أعدائك ؟ .. ما الذي يضمن لك ؟ هل

أنت متأكد من أنهم لن يغتالوك في شوارع القدس ، كما فعلوا من قبل مع الكونت برنادوت ، مبعوث الأمم المتحدة لفلسطين ؟

إجابتي كانت جاهزة ، إنه قدرى ، ولا أحد يستطيع أن يهرب من قدره ، وأن موتى بيد الله ، سوف يحدث سواء فى القدس أو فى القاهرة أو فوق كوبرى أو تحت كوبرى ، الساعة آتية لا ريب فيها ، وكيف يمكن أن ننسى كلام الله القدير ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ .

حينما تسببت إحباطات الفترة الأخيرة من حرب أكتوبر فى إصابة السادات بمرض جسدى غامض - نظراً لصدمته بالحقيقة الهائلة - شعر فى البداية بصداغ ، ثم غمرته السعادة التى شعر بها حينما علم أن قواته نجحت فى عبور قناة السويس ، مطيحة بالنقاط المنيعة فى خط بارليف (هذه السعادة كانت تتضمن عنصرى البهجة والفخر ، البهجة من أن التخطيط الطويل والاستعدادات لم تفشل ، والفخر من أداء الجنود المصريين) .. أما السعادة الحالية فقد كانت تتميز بالنقاء الخاص والشفافية .

وهكذا لم يتردد السادات وهو بصدد اتخاذ القرار معزباً عن أن مصر عانت عبر التاريخ من الرعب والشهداء والدمار والتأخر فى التنمية ، وأنها أصبحت دولة متخلفة بسبب إعلاء صوت الحرب .

وهكذا أيضاً اعتقد السادات أنه بدون السلام سوف تتردد مصر إلى التوجهات القديمة ، ولذا أراد أن يخلق الجو المناسب لدفع عجلة التنمية حتى تستطيع مصر البقاء ، وحتى تدخل القرن الحادى والعشرين قبل أن تتأخر للغاية ، أو بمعنى آخر اعتقد أن باستطاعته إنجاز الكثير من خلال السلام .

لقد حسب كم كلفت الحرب مصر والعالم العربى منذ ١٩٤٨ منذ قيام دولة إسرائيل وحتى حرب أكتوبر ، ٩٠٪ من العبء الاقتصادى تحمّلته مصر .. حتى بعد حرب أكتوبر ، وفى الوقت الذى كان فيه العرب يجنون الأموال من ثمن البترول - والذى كان فى زيادة دائمة - ويزيدون ثرواتهم ، استنزفت مصادر مصر ، لذلك

حينما خلق الإسرائيليون مشاكل أثناء مفاوضات السلام ، قال السادات إن أفكاره ارتدت الأعباء التي تحملتها مصر ، وأنه لن يرجع عن السلام .

وقد ظهر هذا جلياً فيما أعلنه من تصريحات وتعليقات مدهشة بعد حرب أكتوبر ، حيث قرر السادات : (أنا أيضاً فكرت في النتائج المباشرة لحرب أكتوبر .. ماذا أتجزت الحرب لنا ؛ لقد استعدنا جزءاً صغيراً جداً من سيناء ، وقررنا أن نعيد افتتاح القناة .. وفي مقابل ذلك تكبدت مصر ١٤ بليون جنيه ، بالإضافة إلى الخسائر في الرجال والمعدات .. نحن نعلم أن إسرائيل أخذت على غرة في حرب أكتوبر ، لكننا أيضاً تعلمنا أننا سنكسب أقل في الحرب عما لو خضنا مبادرة سلام) .

وعلاوة على ذلك ، تحجج السادات بأن الولايات المتحدة وقفت عسكرياً بجانب إسرائيل في حرب أكتوبر ، وقد عرف المصريون أنهم ليس باستطاعتهم محاربة الأمريكيين .. وعرفوا أيضاً أن الاتحاد السوفيتي لم يقف بجوار أى من الدول العربية بالصورة التي وقفت بها الولايات المتحدة بجوار إسرائيل . وفي تقديره فإن الحرب أرجعت مصر للوراء أكثر من قرن . وكحاكم شعر السادات بأن لديه مسئولية أمام الله وأمام شعبه رغم إمكانية تصرفه كأي زعيم عربي آخر يقود شعبه إلى الهلاك .

الفصل الثامن عشر

مواريث مختلطة

من المثير للاستغراب أن اثنين من الثلاثة الرئيسيين في سلام كامب ديفيد البطولي تجنبوا - عن عمد - الإغراق في التمهيدات الخيالية للمغامرة التي أدهشت العالم ، لقد ظل أنور السادات صامتاً حينما سئل عن هذه التمهيدات بواسطة وزير خارجيته الجديد محمد إبراهيم كامل ، والقصة التي أراد السادات أن تعرف كانت بسيطة وقصيرة .. فبعد أن أكد الزعيم الروماني " نيكولاي شافوشيسكو " أن بيجن رجل قوى ، قرر السادات أن يتحدى الإسرائيليين في الكنيست .. ومع ذلك لم تكن الرحلة لتتم لو لم يعلن بعض الإسرائيليين مثل بيجن وديان بما لديهما من بصيرة وشجاعة عن إمكانية عقد ميثاق سلام مصري - إسرائيلي .

إن شراكة بيجن - ديان كانت غير مألوفة بصورة كبيرة ، حيث ظهر بيجن - الخاسر الدائم في الانتخابات الإسرائيلية ، والذي رآه بن جوريون متعصباً حقيقياً ، ظهر كزعيم إسرائيلي عاطفي جديد .

وقد نبعت قوة بيجن من كونه ديكتاتوراً لحزب حيرت آنذاك ، وخليفة لأستاذه زائيف جابوتنسكي - المعروف مؤسس الحركة التصحيحية الصهيونية .. كما أنه اعتقل بواسطة الروس ، ثم تولى قيادة حركة الأرجون السرية بعد وصوله إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية .. وهي الحركة - الأرجون - التي قامت بالعديد من الأفعال الملحوظة بقرية دير ياسين الفلسطينية ، وعلى أثر القيام بشنق اثنين من الجنود البريطانيين وهدم فندق الملك ديفيد بالقدس وصف بيجن عبر وسائل الإعلام العالمية بأنه إرهابي عنيف ، وكان عليه أن يدفع ثمناً غالياً على أيدي الجيش البريطاني ، لكنه استطاع أن يزوغ من القبض عليه بإخفاء نفسه كحاجم والعيش في بيت سرى بتل أبيب ، بينما كانت زوجته المخلصة إلى الأبد تقوم على خدمته وإرشاده .

ولم ير بيجن نفسه كإرهابي على الإطلاق ، كما دحض الدعاوى القائلة بأن الأرجون ذهبت عن عمد مئات القرويين الفلسطينيين في دير ياسين ، ولام

البريطانيين على معظم الكوارث التي حدثت بالنسبة للفندق الملك ديفيد ، لأنهم رفضوا الاكتراث بالتحذيرات القائلة بأن القتابل موجودة به .. ورأى بيجن نفسه كوطنى يهودى اضطر لمحاربة البريطانيين لأنهم لم يتعاملوا بفاعلية مع مسألة اليهود الذين قتلوا فى محرقة النازية .

وفى الوقت الذى فاز فيه بيجن بانتخابات ١٩٧٧ لم يعد ماضيه العنيف ذا مغزى فى الحياة السياسية الإسرائيلية ، مثلما لم يجد شخص أكثر منه تطرفاً - هو إسحاق شامير زعيم عصابة شتيرن - صعوبة فى دخول الحياة السياسية الإسرائيلية حتى أصبح المتحدث باسم الكنيس ، ثم وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً للوزراء .. ففى عام ١٩٧٧ كان من غير الممكن وصم بيجن بأنه إرهابى ، حيث بدا مرتدياً زى الطهارة ذا تصرفات أشبه بالنبل ، كما ظهر فى صورة المحامى الأوروبى المحترم - كما كان بالفعل - أو بمعنى آخر كان يظهر فى صورة المحامى المتحذلق فى مدينة صغيرة ، تلك الصفة التى أغضبت ديان ، كذلك كان يتحدث بلغة وحماس التواضع الدينى الأصولى الذى قتل معظم أفراد أسرته من جراء الجرائم النازية ، مظهراً إحساساً حقيقياً بالأخطار التى ما زالت تواجه الشعب اليهودى ، وإنه يرى فى كل لحظة ما جنته النازية ، لدرجة أن بعض منتقديه من حزب العمل اتهموه بالخسة واستخدام موضوع الهولوكست (المحرقة النازية) لأغراض سياسية ، خاصة أنه كان معارضاً لاتفاقية التعويضات التى وقعتها إسرائيل مع ألمانيا الغربية .

وسواء كان بيجن موثقاً بين أنصاره أو مبعوضاً لدى خصومه ، فقد كان شخصية مروعة - كما أدرك شاوشيسكو- كما كانت لديه قناعة بأن كل جزء من إسرائيل القديمة يجب أن يبقى تحت سطوة إسرائيل الجديدة ، معولاً على أن الضفة الغربية - شأنها شأن القدس وحيفا- هى جزء من الدولة اليهودية :

ولم يكن فوز بيجن غير المتوقع - بعد سلسلة هزائمه غير المنقطعة منذ قيام الدولة- راجعاً فقط إلى أن خطابه السياسى كان موجهاً للأغلبية العظمى من الشعب

الإسرائيلي ، لا سيما السفارديم الذين كانوا يشعرون بالظلم مقارنة بالاشكيناز ، بل أيضاً كان فساد حزب العمل عنصراً حيوياً في المجيء ببيجن إلى السلطة .

والشيء المثير للدهشة هو أن بيجن فجأة أعجب بديان ، ويقول البعض إن سر ذلك أنه كان محتاجاً لجنرال ، وأنه كان معجباً بصدامية ديان التي ظهرت في حرب السويس ١٩٥٦ ، وحرب الأيام الستة ١٩٦٧ ، كما كان معجباً بشجاعته واستقلاليته ومقدرته على توظيف الأفكار الجديدة وإيجاد الحلول التي لا يضارعه فيها أحد . وكان بيجن مسروراً ومندهشاً في نفس الوقت حينما قبل ديان عرضه بأن يصبح وزيراً لخارجيته .. أما بالنسبة لديان فقد كان من قبيل الصدمة لرفاقه أن يلتحق بحكومة بيجن ، خاصة أنه كان من أبرز الأشخاص في الحركة العمالية . لكن ديان استطاع أن يتحمل هذا التحول العميق .. إنه اتهم بشدة بأنه الجاني الأساسي في الكوارث المبكرة في حرب يوم كيبور .

غير أن ديان هجر كل هذه الانتقادات بازدراء ، معولاً على أنه ليس من المعقول أن يتحى عن إنقاذ دولته ، لأن رئيس الوزراء زعيماً لحزب آخر غير الذي ينتمي إليه قاللاً بأن الدولة قبل الحزب ، مما دعا إلى أن يتهمه رفاقه السابقون بالانقلاع عن المبادئ من أجل المنصب .

ومع ذلك ، ورغم أنه فقد الكثير من كاريزميته وأسطورته ، إلا أنه ظل بمثابة أسد يخشى منه .. إنه كان موشى ديان ذا القدرة على أن يعطى عن الأهمية المشروطة لمبادرة السادات للسلام .. إنه كان رجل المزاج الشاكي دائماً من مرض إحدى عينيه ، والذي خسر الكثير بمحاربته في صفوف البريطانيين ضد فرنسا في ظل حكومة فيشي ، والذي كان يبدو كذلك عبوساً وعدائياً في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى يبدو ممتعاً وفاتناً بشهادة العديد من النساء . ورغم أنه كان يبدو لعموم الإسرائيليين قوياً وخادعاً ، إلا أنه كان يصاب أحياناً بحالة من التوجس والشك .

وخلال حرب يوم كيبور كان في حالة ذهول وتشاؤم ، حتى لقد وصفه فنان الكرتون الإسرائيلي الشهير زليف بأنه بمثابة هاملت الإسرائيلية إنه اقترح أفكاراً

خالصة كان على رأسها الانسحاب الإسرائيلي لمسافة ١٠ أو حتى ٤٠ ميلاً عن قناة السويس ، لكنه حينما وجد معارضة قوية قبل الموقف بهدوء .

لقد توصل ديان إلى استنتاج مؤداه أنه إذا أراد أن يكون وزيراً فاعلاً للدفاع فإن عليه أن يلقي تأييد رئيسة الوزراء المروعة جولدا مائير ، والتي كانت تعتبر الشخصية الأقوى والأكثر عناداً في مجلس الوزراء ، أو كما علق المعجبون بها "كانت الرجل الوحيد في مجلس الوزراء" ، والشئ الذي كانت تحبه على وجه الخصوص هو أنه يبدو رائعاً في أن تكون رجلاً .. ورغم عاطفيتها ورغبتها في السلام واتهمار دموعها الدائم على موت الضحايا من الشباب خلال المعارك مع العرب ، فإنها كانت في شك من مشاركة الزعماء العرب لها هذه الرغبات ، بمن فيهم السادات ، وكانت تشك كذلك في أنهم قد يخادعون حتى تقتلع إسرائيل عن الأرض دونما إتجاز سلام حقيقي " ولعل هذا هو ما جعلها ترفض الانسحاب من على ضفاف قناة السويس من ناحية ، ومن ناحية أخرى ترفض مبادرة السادات للسلام عام ١٩٧١ .

إنها ستظل دوماً مسألة جدال فيما إذا كانت زيارة السادات للقدس ستتم لو كانت جولدا مائير ظلت رئيسة للوزراء ؟

اعتقد السادات أنه كان من الممكن أن يصنع سلاماً مع " المرأة العجوز " كما أطلق عليها ، إلا أن هذا الاعتقاد لا يمكن قبوله بصورة مطلقة ، والشئ المشكوك فيه حقيقة هو أن اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية لم تكن لتتم لولا مشاركة موسى ديان ، وبصورة أقل مشاركة عيزرا وايزمان ابن أخ حاييم وايزمان العظيم ، وقائد القوات الجوية التي كبدت مصر خسائر مدمرة في تباكير حرب الأيام الستة .

إن أنور السادات -وبعيداً عن مدى إثارة القرار بزيارة القدس- قد أعد الأرضية بغاية .. أو كما لاحظ هيك ، كان السادات شغوفاً بالمسائل الصغيرة ، وليست الكبيرة ، كما بدا غريباً أن يسمح لوزير خارجيته إسماعيل فهمي أن يرفع وجهات نظره بخصوص السياسة تجاه إسرائيل والعلاقات مع الاتحاد السوفيتي تتنافى مع وجهات نظره الخاصة وتجعل السلام مع إسرائيل أمراً غير معقول ولا يمكن تصوره .

ففى مقابلة مع التلفزيون البريطانى أيد فهمى دعاوى منظمة التحرير الفلسطينية تجاه الأمم المتحدة ، بل وذهب فهمى أبعد من ذلك حينما طالب إسرائيل بالحدود المتفق عليها عام ١٩٤٧ ، كما اقترح فهمى أن إسرائيل يجب أن تختفى كدولة يهودية من خلال التحول إلى دولة فلسطينية ديمقراطية تضم المسلمين والمسيحيين واليهود .. ومع كون العرب يمثلون الأغلبية فإن على إسرائيل أولاً مراعاة ما عاناه الفلسطينيون لمدة ٢٦ سنة مضت ، وعليها ثانياً أن تعوض عن خسائرها التى تتعلق بإنتاج البترول والخسائر الأخرى الفاجمة عن حرب ١٩٦٧ .. وفوق ذلك فإن على إسرائيل أن تجمد عدد سكانها عند الحد الذى وصل إليه سنة ١٩٧٤ ، وأن يوقف نزيف هجرة اليهود لمدة ٥٠ سنة .

وربما سمح السادات بهذه التصريحات وأخرى لسببين :

إنه أراد أن يظهر محارباً لمعارضة سياسته السلمية فى مصر . وأن يستخدم تصريحات فهمى المثيرة كسhtar لما أعد له ، كما أراد أن يكون الأمر مفاجأة بما يسبب له متعة كما اعتاد ذلك ، ومع ذلك فإن السادات -طبقاً لهيكل- لم يفاجئ إسرائيل ، بل توطأ معها ، بينما فاجأ الشعب المصرى والعالم العربى كله ، كما أدهش صديقه الجديد جيمى كارتر .

إن السادات - شأنه شأن كاتب الجريمة الماهر - وضع مفاتيحاً لكل تفكيكه من خلال أسلوبه ، فبعد أن زار فهمى موسكو ليجدد العلاقات القديمة مع الاتحاد السوفيتى شكلياً ، أشار السادات إلى أن الطريق الجديد يجب أن يتبع ، طريق الصداقة مع الولايات المتحدة ، وكان السادات قد أعلن عن الوضع الحقيقى للاقتصاد المصرى فى ١٩٧٣ قبل اندلاع حرب أكتوبر ، واعترف بأن الاقتصاد المصرى قد وصل إلى القاع ، لدرجة أنه قرر فى إحدى المناسبات استحالة توافر الخبز فى ١٩٧٤ .. كذلك أكد قائلاً : " بصدق وأمانة فإن الـ ٥٠ مليون دولار التى تلقيناها بصورة عاجلة من الولايات المتحدة بعد المعركة هى التى ساعدتنا أثناء الشدائد المؤلمة .. إن اقتصادنا استنزف تماماً خلال السنوات الست السابقة على المعركة " .

وهكذا استنتج السادات أن ما يناقشه العرب أثناء المؤتمرات ولقاءات القمة لن يساعد في إطعام جماهير المصريين ، وأنه ليست هناك مساعدة سترد من الاتحاد السوفيتي .. ومن هنا كان لابد من كتابة سيناريو جديد للإخراج .

وعلى الصعيد الإسرائيلي ، كان الإسرائيليون - لبعض الوقت - مرتبكين بسبب التصريحات المتضاربة من قبل مصر ، سواء الواردة من القاهرة أو من ممثلي مصر بواشنطن ، إذ أعلن فهمي أن مصر تطلب سرعة انعقاد مؤتمر جنيف للتوصل إلى سلام شامل في الشرق الأوسط ، وأن الحرب مع إسرائيل لن تنتهي إلا بعد الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية ، لكن السادات بالتدريج توصل إلى استنتاج مؤداه أن التوصل إلى سلام شامل من خلال مؤتمر جنيف مع السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية المتنافسين ومع مصر يعتبر سراباً ، وخطيراً في ضوء ما سوف يعرض من مطالب متطرفة .

وأثناء المباحثات الضبابية ، بدأت مشاكل مصر تزداد حدة ، وبدأت إسرائيل تدرك أن السادات حصر الحل متمثلاً في تحالف أمر واقع (واقعي - de facto) مع الولايات المتحدة ، حيث لا أحد سواها كان من الممكن أن يساعد مصر في التغلب على مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية .. كما أنه لا أحد سواها كان بإمكانه الضغط على إسرائيل لقبول اتفاقية مع مصر ، لكن من ناحية أخرى كان على إسرائيل أن تقوم هي بمساعدته على إقامة مثل هذا التحالف مع الولايات المتحدة .. كان هذا هو التناقض الفج الذي كان السادات ملزماً بإيجاد حل له .

كذلك كان هناك تناقض آخر يواجه السادات ، وهو أن الولايات المتحدة كانت تحجب التعرف على خطئه بلاقطة ، وكان عليه -أسفاً- أن يقبل مغادرة صديقه هنري عارفاً بأن سياسة الخطوة -خطوة ، والدبلوماسية المكونية قد مضت على أية حال ، كما ارتأى إمكانية قيام علاقة مع الرئيس الأمين " جيرالد فورد " والآن حل محل فورد بواسطة الحماسي والمستشهد بالتوراة وبطل حقوق الإنسان جيمي كارتر بمرافقة مجموعة جديدة من المستشارين والرغبة في اتخاذ بديل لكيسنجر اليهودي الأكماني الأصل .

وقد قرر كارتر -متطعاً من أخطاء كيسنجر ونجاحاته- بأن تعامله فيما يتعلق بالشرق الأوسط -هو الطريق الوحيد الواجب اتباعه ' إلا أنه لم يتعلم الكثير من الأوروبيين الذين أصروا على الإدلاء بتصريحات ضمنية- وأحياناً صريحة- تلوم الإسرائيليين على عدم التوصل إلى حلول ، مطالبة إياهم بالانسحاب من الأراضي العربية ، وداعية إلى تسوية سلمية شاملة ترضى جميع الأطراف .

وفي بداية تلك السنوات كان السادات متفائلاً يبحث عن مخرج على الدوام ، واضعاً نصب عينيه المزايا التي ستترتب على وصول كارتر ، كما تولدت لديه قناعة بأن سياسة كارتر الجديدة بإزاء الشرق الأوسط سوف تؤدي في النهاية إلى فتح الأبواب لاتفاقية سلام حقيقية ذات مميزات للعرب بوجه عام ولمصر بوجه خاص .

ورغم أن السادات -في مقابلته لكارتر في أبريل ١٩٧٧- أحضر معه خطة عربية لتسوية الصراع العربي- الإسرائيلي تشتمل على إقامة دولة فلسطينية والانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة كضمن لإنهاء الحرب مع إسرائيل وليس ميثاقاً للسلام ، إلا أن كارتر كان مسروراً بزيارته ، حيث وجد أن سحر السادات لا يقاوم .

وبالمقارنة برابين كان السادات بمثابة الضوء الساطع الذي بزغ في الشرق الأوسط .. بينما حين غادر رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك - كان كارتر تخاضباً ، واصفاً إياه بالعناد وعدم الحلم وعدم الرغبة باتخاذ خطوات إيجابية من أجل السلام مع مصر .. وقد علق وليم كواندت أحد مستشاري كارتر بأن " السادات كان محتملاً مكملاً " .

غير أن هذا الشعور بالسعادة والإثارة الذي خلفه السادات بدأ يتلاشى لإدراك وزير الخارجية الأمريكي الجديد كيروس فينس أن خطة السادات ليس هناك مجال لتجاسدها ، في حين أكد سؤال كارتر -بنفاد صبر- عما إذا كانت إسرائيل على استعداد للانسحاب من الأراضي المتنازع عليها أم لا - جهله بالأبعاد العميقة للصراع العربي- الإسرائيلي .

ولم يكن السادات معتقداً بإمكانية أن تلقى مطالبه استجابة مناسبة ، حيث استبان له من خلال مفاوضاته الطويلة مع الإسرائيليين تحت إشراف كيسنجر ما الذى يمكن أن يتوقعه .. وعلى هذا الأساس أخبر كارتر بأنه لا يريد معاهدة سلام شكلية مع إسرائيل ، وبدلاً من ذلك فهو يبحث عن اتفاقية سلام يمكن على أثرها تطبيع العلاقات بصورة تدريجية مع إسرائيل ، بعد الانسحاب الكامل من الأراضي العربية ، وحتى لو تم الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي بما فيها القدس ، وإذا لم يكن هناك تطبيع سريع فى العلاقات ولا تبادل للسفراء ولا حدود مفتوحة - حيث التركيز على التطبيع التدريجى- فلماذا كان ينبغي أن تقبل إسرائيل مثل هذه الشروط ؟ لم يفسر السادات ذلك !! .

إن الذى فعله السادات هو اختبار المياه الأمريكية ، وإلى أى مدى استعد كارتر للذهاب ؟ وإلى أى مدى يمكنه التعهد بالتوصل إلى سلام فى الشرق الأوسط ؟ وما مدى قوته فى مقاومة الضغط اليهودى ، وما التنازلات التى يمكن أن ينتزعها من الإسرائيليين؟ وما المكاسب التى يمكن أن تجنيها مصر لإعقاذ الاقتصاد المصرى المعطل ؟

وطبقاً لوجهة النظر العربية الخالصة كان لديه حق فى إثارة مثل هذه الأسئلة ، بينما فقد كارتر فى البحر دون أن يتعلم العوم أولاً ، إنه طالب الإسرائيليين بعقد مفاوضات عاجلة مع العرب شاملة منظمة التحرير الفلسطينية ، على أن يكون معروفاً أنه سيتم التنازل عن الأراضي العربية المحتلة .. كما كان كارتر متأكداً من عدالة سلوكه بصورة مطلقة لدرجة أنه -بدون استشارة إدارته- أعلن ضرورة أن يكون هناك وطن (Home land) للاجئين الفلسطينيين ، وحينما حاول كل من فينيس - وزير الخارجية - وبرزوينسكى (مستشار كارتر للأمن القومى) تليين هذه العبارة لطمأنة الإسرائيليين والإيعاز إليهم بأنها غير دقيقة وأنه ليس هناك تغيير أساسى فى السياسة الأمريكية ، تلقياً تعليمات صارمة من كارتر تشير إلى أنه ليس هناك تفصيل² ولا توضيح بخصوص دقة معنى " وطن فلسطينى " يمكن إصداره ، وبينما كان كارتر يجد السادات لا يقاوم كان مستشاره للأمن القومى برزوينسكى أقل تأثراً ، حيث وصف السادات بأنه رجل لا يميز بين الحقيقة والخيال .

لقد كان كل من فينس وبريزينسكى يفهمان حقيقة الصراع العربى -
الإسرائيلى ولماذا يتم أى حل له بالحساسية .

وحيثما كان الأمريكيون يعتقدون بجدية الدور الذى سوف تلعبه منظمة التحرير
الفلسطينية فى مؤتمر جينيف للسلام كانت المنظمة تجتمع بالقاهرة وتتحدى بصورة
واسعة بمحو دولة إسرائيل . وبلقائه الأمريكيين بعد عدة أيام لاحقاً كان لابد أن
يندهش السادات لاكتشافه أنهم يجهلون حلول منظمة التحرير الفلسطينية ويتحدثون
عن اتفاقية سلام شاملة يشارك فيها الفلسطينيون .

وعندما عاد السادات للقاهرة كان عليه أن ينتظر عدة أسابيع ليعرف نتيجة
الانتخابات الإسرائيلية العامة ، وهناك شك فيما إذا كان قد حزن على اختفاء رابين أم
شعر بعدم راحة عند ظهور مناحم بيجن .

إنه شعر بقرابة (نسب) معينة تجاه بيجن ، والذى رغم أنه كان حديث عهد
برئاسة الوزراء فى دولة ديمقراطية كان يجابه بقوى غير عادية ، وقد فهم السادات
أين يقف بيجن ، وأنه لن يستطيع تذويب الجليد ، وذلك بالمقارنة برابين العقلانى ،
السياسى - العسكرى ، المحلل .

وبالنسبة للأمريكيين فقد مثل انتخاب بيجن ذى الخط المتطرف لهم صدمة ،
هذه الصدمة لم تمنح كلية حينما زار بيجن واشنطن ، وفى حين رأى بيجن معادلة
كارتر للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط كلها سلبية بما تتطوى عليه من
الانسحاب من الأراضى المحتلة ، رأى موسى ديان -الذى كان حاضراً الجانب
الإيجابى من حيث إن الأمريكيين لن يفرضوا التسوية ، وسيتم التفاوض بخصوص
الحدود الإسرائيلية وترتيب مسائل الدفاع عنها بين الأطراف المعنية أنفسها ، وأن
السلام سوف يشتمل على حدود مفتوحة ، واعتراف دبلوماسى وتطبيع كامل للعلاقات
كما طلبت إسرائيل ، وستعارض الولايات المتحدة قيام دولة فلسطينية ، وستتحمس
لفكرة ، وطن فلسطينى ، بما يعنى الارتباط بالأردن .

وقد أيقظ كارتر كلاً من بيجن والسادات بأنه إذا كانت التسوية السلمية الشاملة تبين بصورة منطقية وعظيمة ما يوافق عليه كل العرب وما يريدونه وما سوف تقدمه إسرائيل من تنازلات ضرورية من أجل السلام .. فلماذا لا يتم الذهاب إلى جنيف وتسوية كل المشاكل بسلوك يتواءم مع أناس يخافون الله إلا أنه بدا أن كارتر لم يكن مدركاً - ولم يحاول أى من مستشاريه الطرق على الحقيقة - أن العرب لا يريدون ذات الشيء وأنهم لا يثقون ببعضهم البعض ، وأن الذى يقصدونه بالسلام يختلف كلياً عن الذى تقصده إسرائيل من هذا المصطلح ، وإن كان السادات قد أشار إلى أن المقصود بالسلام هو محو العداوات كما أن السلام الطبيعى سوف يدفع الأجيال للإيجاز ، وسوف يؤدى إلى كسر الحاجز النفسى .

وحيثما ترسخت لدى ديان فتاعة بأن الأمريكيين بتفكيرهم الساذج كانوا متناقضين ، لدرجة أنهم أصبحوا عائقاً كبيراً أمام اتفاقية سلام أكثر من السادات ، قام باقتراح فكرة ثورية لبيجن المضطرب ، مفادها لم لا يتم التقرب من السادات سرراً بعيداً عن معرفة الأمريكيين ؟ وبعد تردد وافق بيجن ، خاصة وأن السادات كان يبحث عن وضع نهاية للإحباط ، ولأن منهج كارتر كان غير واقعى ، فقد بدأ السادات يميل إلى التفكير فى أن المحادثات المباشرة مع الإسرائيليين ، وبدون أن تضم كارتر ، يمكن أن تكسر صخرة الحمق .

ومن ناحيته أدرك ديان أن الوساطة المؤثرة يمكن إيجادها سريعاً ، وأن نيكولاي شافشيسكو الرومانى يعد مناسباً ، ولكن الوجود المكثف لعلاء الـ K G B (المخابرات السوفيتية) لن يجعل السر يدوم طويلاً ، ومن ثم تحول عقل ديان إلى الملك الحسن ملك المغرب ، والذى لديه العديد من الأصدقاء فى المجتمع اليهودى ، وأنه يحتفظ بروابط مع اثنين من الذين استقروا فى إسرائيل .. كذلك فقد عرف باعتداله أثناء اشتعال الصراع العربى - الإسرائيلى ، أيضاً كان أحد الزعماء المسلمين القلائل الذين لم يدينوا السادات على اتفاقية الفصل الثانية مع إسرائيل . وصل ديان إلى مراكش واقترح على الملك أن يرتب لقاءً بينه وبين مندوب للسادات ، ووصل الاقتراح القاهرة وفى غضون سبعة أيام وصل الرد الإيجابى .

وفى السادس عشر من ديسمبر ١٩٧٧ التقى ديان بممثل السادات حسن التهامى (نائب رئيس الوزراء) مع الملك الحسن بوصفه المضيف .

وقد اختير التهامى -ذو اللحية والعيون الثاقبة- لسبب رئيسى واحد هو ولاؤه المطلق للسادات ، بينما لم يعرف وزير الخارجية شيئا عن اللقاء ، وقد سلمه ديان رسالة خاصة للسادات تتكون من ثلاثة أسطر ، وقد أفادت تلك الرسالة البسيطة والموجزة بأن إسرائيل على استعداد لإرجاع كل شبه جزيرة سيناء للسادات فى مقابل معاهدة سلام شاملة بين الدولتين ، وفتح الحدود وتطبيع العلاقات بينهما بوصفهما دولتين مستقلتين .

وبعد ذلك بفترة وجيزة زار ديان واشنطن ، وواجه انتقادا حادا من قبل كارتر ونائبيه موندال وفينس الذى كان ما زال تواقاً لمؤتمر جنيف والتسوية الشاملة لكل المشاكل ، واعتقد ديان أنه من الحكمة أن يبلغ فينس بلقاء مراكش مع مبعوث السادات .

وفى القاهرة ، أبلغ السادات السفير الأمريكى باجتماع التهامى مع ديان ، وقد كتب السفير تقريره إلى واشنطن مرتباً أنه لو كان السادات جاداً لما اختار رجلاً مثل التهامى .

ولدهشة ديان -وربما السادات- لم يكن هناك أى رد فعل أمريكى لمحادثات مراكش ، ولم بين الأمريكيون ما إذا كانت هذه المحادثات سوف تساعد على تقدم أو حتى ضرر للسياسة الأمريكية أم لا .. كذلك كان الأمريكيون متضايقين إلى حد ما ، من أن إسرائيل قامت بصنع غارة مستقلة فى مجال الدبلوماسية السرية ، هذا الشعور كان لابد أن يشيد حينما أرسل السادات - بعد يومين من لقاء التهامى بديان - رسالة لكارتر يحثه فيها على القيام بعقد مؤتمر جنيف بأسلوب بعيد عن التحكم فيما يتعلق بالتفاصيل ، وقد اغتاز الإسرائيليون عندما علموا بهذه الرسالة من ناحية ، ومن ناحية أخرى من اقتراح فهمى (وزير الخارجية) لكارتر بأن ينحى الضغط اليهودى

جانباً ويقابل ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ، كما أخبر فهمى كارتر بأن ياسر عرفات محق في مخاوفه من قبول منظمة التحرير الفلسطينية تلك الفقرة -من قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢- والخاصة بالاعتراف بدولة إسرائيل وحقوقها في العيش في سلام . وتفسير ذلك أن توجه فهمى إزاء إسرائيل مثل توجه عرفات إزاءها.

إن اتجاه السادات الحقيقي بدا واضحاً ، حينما شعر كارتر -ببراءة مقصده وجهله- بأن يكون هناك بيان مشترك مع السوفييت بخصوص الشرق الأوسط ، ولو كان كيسنجر ما زال حوله لكان من غير الممتع أن ترتكب مثل هذه الغلطة البشعة باستدعاء السوفييت في هذه المرحلة ... ومن ثم كان ديان -الذي كان في زيارة لواشنطن- هائجاً ، خاصة حينما حجب عنه الأمريكيون أجزاء حيوية من البيان ، ذلك البيان الذي لم يكن يشير إلى السلام كموضوع لمؤتمر جينيف ، وإنما بدلاً من ذلك كان يشير إلى مجرد تسوية لماراثون يستغرق سبع ساعات .

وبناء على ذلك قام ديان بتضييق الخناق على كارتر وفينس حتى حصل على ورقة عمل أمريكية - إسرائيلية غطت بصورة فعلية على البيان الأمريكي - السوفيتي.

أما بالنسبة للسادات : فقد كان الإعلان الأمريكي - السوفيتي بمثابة البرهان الأخير على أن لا شيء يمكن توقعه من الأمريكيين في هذه اللحظة ، ولابد أنهم تعلموا الدرس .

ولذا فقد أرسل خطاباً إلى كارتر ، يحثه فيه على أنه لا يوجد شيء يمنع المصريين والإسرائيليين من التفاوض مباشرة ، سواء قبل أو بعد مؤتمر جينيف ، ومع ذلك فلا شيء كان قادراً على إزالة الغمات من على عيون كارتر ، الذي كتب للسادات سائلاً إياه أن يعيد إعلان مقترحاته ، بينما ظل السادات صامتاً .

خطاب آخر من كارتر أفاد بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سوف يتوليان الدعوة المشتركة لحشد مؤتمر جنيف تحت رعاية الأمم المتحدة ، مع التأكيد

على أنه شخصياً سوف بحث على تسوية القضية الفلسطينية والاسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة .

وهكذا بدا كارتتر كأنه يحفر خندقاً للإسرائيليين بعودة تأييد السادات لخيار جنيف .

وقد كان هذا بالنسبة للسادات أقل الخطابات عوناً ، كما عرف أن كارتتر أساء فهم الموقف تماماً ، وفوق ذلك أدرك السادات أن هذه السياسة لن تعيد إليه سينا ، ولاهد من إنتاج (فعل) شيء جديد أكثر راديكالية وحيوية .. ومعروف أن السادات كان مشهوراً بالارتجالية في خطابه ، وإن كان قد لجم هذا الاتجاه بعد حرب يوم كيפור إلى حد ما ، لكنه عاود أسلوبه القديم حينما خطب أمام مجلس الشعب في ٩ من نوفمبر ١٩٧٧ ، وكان الحضور من ذوى المقام الرفيع من العرب وغيرهم قد اعتادوا على قفشات الجانبية ، ودائماً كانوا يتمتعون بها ، لذلك لم يكن هناك رد فعل سريع ، وكذلك لم تكن هناك خطوات من قبل عرفات أو أى راديكالى آخر .

وعندما علق السادات - بعد سباب وشتم طويل ضد إسرائيل - بأنه من أجل السلام على استعداد لأن يذهب إلى نهاية الأرض أو حتى إلى الكنيست في القدس ، حينذاك صفق الجمهور غير مدرك للقتيلة الموقوتة التى فجرها .

وانعكاساً لذلك اكتسب السادات شهرة ، فاز على أثرها بجائزة نوبل .. كما لم يصبح واحداً من أعظم الشخصيات التى تتمتع بالتقدير فى التاريخ الحديث فحسب ، وإنما أيضاً فتح على نفسه باب الافتراءات والكراهية قبل أن تقبل رؤيته على أنها الطريق الوحيد للمستقبل .

الفصل التاسع عشر

بطل في القدس ووغد في دمشق

عندما عرض أنور السادات الذهاب إلى القدس علق بأن إسرائيل سوف تندش لسامع كلماته .. وفي الحقيقة فإن هذه الدهشة قد اختلطت بالحيرة ، إذ كان الإسرائيليون لا يزالون لا يفهمون شخصيته المعقدة .. وعندما تسلم كل من أنور السادات وبيجن جائزة نوبل للسلام فيما بعد ، علقت جولدا مائير قائلة بأن كليهما لا يستحق جائزة نوبل ، بل يستحق جائزة أوسكار .. هذه الحيرة عبر عنها ايجئال آلون - وزير خارجية إسرائيل سابقا - متسائلا : ماذا حدث للسادات بين مايو ١٩٧٢ ونوفمبر ١٩٧٧ ، ففي مايو ١٩٧٢ قال السادات لجمهوره إنه سوف يحطم غطرسة الإسرائيليين التي لا تطاق ، وأنه على استعداد للتضحية بمليون جندي مصري في الحرب القادمة ، والآن في نوفمبر ١٩٧٧ هو على استعداد للذهاب بها للقدس لكي يمنع -على حد تعبيره- أحد الجنود أو الضباط من أبنائه من أن يجرح لا أن يقتل !! والاحتمال الأرجح أن موسى ديان كان أقل اندهاشا . أما العنصر المسرحي الذي تضمنه هذا العرض الدرامي والرحلة فقد ظهر في الأحاديث التي دارت بين وولتر كرونكيت - المقدم المشهور لأخبار " CBS " مع كل من السادات وبيجن .. كما يلي

كرونكيت : متى ستذهب إلى القدس ؟

السادات : أنا فقط أنتظر دعوة مسبقة .

كرونكيت : يجب أن تحصل على شيء ما من خلال السيد بيجن وليس من خلال الصحافة .

السادات : تمام . . تمام

كرونكيت : كيف سيتم هذا التحول يا سيدي وأنت ليست لديك علاقات دبلوماسية مع إسرائيل .

السادات : لماذا لا يكون من خلال صديقنا المشترك . . الأمريكيين ؟

وقرر السادات أن ما يريده هو مناقشة الموقف كله مع أعضاء الكنيست المائة والعشرين ، وأن يضع صورة وتفاصيل الموقف من وجهات نظر الطرفين .

أما بيجن بدوره فقد أخبر كرونكيت بطلاقة : " خلال أسبوع سوف أسال صديقى السفير الأمريكى فى إسرائيل أن يتكشف من خلال زميله السفير الأمريكى بالقاهرة ما إذا كان على استعداد لإعطائنا إفادات طيبة ، وأن ينقل منى رسالة إلى الرئيس السادات تدعوه رسميا ووديا للقُدوم إلى القدس " .

وعندما سئل السادات عن معارضة الزعماء العرب لرحلته المقترحة علق قائلا : " إتنى لم أقل لأى من رفاقى ، ولم أسألهم أن يوافقوا أو لا يوافقوا على ذلك ، إتنى أشعر بأن مسئوليتى كرئيس لمصر تحتم على أن أحاول بكل السبل الوصول إلى السلام ، وقد اتخذت القرار ، ومن المؤكد سيكون هناك من هو ضده ، ولكن كما أننى مقتنع تماما بأن هذا هو الطريق الصحيح وشعبى من ورائى فسوف أكمل كل شئ . نحن فى لحظة حرجة ، ولن يكون هناك وقت مناسب فى العالم العربى للتوصل إلى سلام حقيقى ، لكن هذا الوقت يوجد الآن ، لذلك أريد أن أضع الحقائق أمامهم ، وفى نفس الوقت نحن نريد أن نناقش ماذا سيكون البديل إذا لم نتوصل إلى السلام ، سيكون مروعا ، صدقتى سيكون مروعا " .

ومع ذلك ، فإن سوء الفهم وحتى الشك أصاب بعضا من صورة الزيارة إلى القدس والتي هزت المشاعر وسلبت عقول الملايين من مشاهدى التلفزيون . . إلا أن موتاجور - رئيس الأركان الإسرائيلى - اتزعج من أن تكون هذه خطة بارعة ابتدعها كتمهيد لذات السيناريو الذى اتبع فى ١٩٧٣ .. ففى مقابلة تلفزيونية أغضبت عيزراوايزمان قال جور : " نحن نعلم أن الجيش المصرى فى حالة متواضعة من الاستعدادات التى يمكن أن تؤهله لخوض حرب ضد إسرائيل فى غضون عام ١٩٧٨ ، بيد أن السادات أعلن عن رغبته للمجئ للقدس " . . وفى التو بعد ما خاض وايزمان مواجهة متوترة مع جور أصيب الأول (وايزمان) فى حادث سيارة لكنه

أصرا أن يأخذوه إلى الكنيسة ليستمع إلى خطاب السادات .

وكان وايزمان قد أخذ فكرة مبدئية عن زيارة السادات للقدس كنوع من التخيل ، كما كان واضحا أنه اقتنع بحجج رئيس المخابرات موسى جازيت ، الذي قرر أن السادات بدا كقاهر الصعاب الذي اجتاز كل العقبات متجها رأسا إلى الخط النهائي .

أما الجمهور الاسرائيلي فقد كان مندهشا تنقابه الحيرة ويحدوه الأمل ، كما شاهدوا الرئيس المصري يظهر على شاشات التلفزيون ، من طائرته في مطار بن جوريون ، ويتلقى التحية من كبار الشخصيات الإسرائيلية من بينهم مناحم بيغن وجولدا مائير ، حتى لقد شعر العديد من الإسرائيليين ببداية عصر جديد ، كذلك كانت هناك تهاليل عبر الطريق الذي سار فيه موكب السادات للقدس ، تهاليل من ذلك الشعب الذي عانى منذ ٤ سنوات من الكوارث التي سببتها قوات هذا الرئيس ذاته ، ولا عجب أن الرئيس كان شاعرا بالارتباك إلى حد ما أثناء تحركه .

وفي القاهرة أيضا كانت هناك إثارة وذبول ، وكان المصريون الذين ازدحموا حول أجهزة التلفزيون في البيوت والمقاهي مذهولين من شجاعة رئيسهم في دخول مغارة عدوهم السابق ، كما لو كانوا يشاهدون ملحمة بطولية مقدسة يظهر فيها رئيسهم نجما رئيسيا .

ورغم أن السادات كان يقظا وغير هائم بالإسرائيليين ، فإن وايزمان شعر بأن منصة الكنيسة ستشغل بواسطة شخصية غير عادية ، تمتلك شجاعة نادرة ، وأن شخصا مثل هذا فقط بإمكانه أن يغامر بقلز هذه الأبعاد الهائلة . . وأن السادات كان يخاطر بحياته .

ومع ذلك شعر وايزمان -مثل الكثيرين في الكنيسة - بالخيبة ، وافتتح السادات خطابه بصوت جهورى بالعربية بالتصريح بأن كل شخصلقى حتفه في الحرب هو نفس بشرية سواء كان يهوديا أو عربيا ولكن وايزمان لم يكن مرتاحا لكل التعليقات التالية والتي كانت تعتبر جافة وتهديدية ، كما اعتقد أن السادات يحاول

إيصال الموقف اللاستسلامي الذي اتبعته مصر منذ ١٩٦٧ وإتمامه بالانسحاب إلى الحدود القديمة والخطيرة دون منح إسرائيل السلام الكامل .

وقد أعلن السادات : " أنا لم آت إلى هنا لتوقيع سلام منفرد بين مصر وإسرائيل ، حيث اتفاقية سلام منفردة بين مصر وإسرائيل لا تضمن السلام التام ، وأبعد من ذلك . . حتى لو تم السلام بين إسرائيل وكل دول المواجهة دون التوصل إلى حل نهائي للمشكلة الفلسطينية فلن يكون هذا بمثابة السلام الدائم والمستقر الذي خبر به كل العالم . . . إنني لم آت إلى هنا لأمل على عليكم مطلباً بإخلاء قواتكم من الأراضي المحتلة ، والانسحاب الكامل من كل الأراضي العربية المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ هو أمر بين واضح بذاته ، ونحن لن نؤيد أي حجج ، ولن نستعطف أحداً بشأنه " . وعندما سمع وايزمان هذه الكلمات أشار إلى بيجن بأنه " يجب أن نستعد للحرب وأوماً بيجن .

وربما كان ذلك سبباً في أن تكون استجابة بيجن لمبادرة السادات أقل واقعية ، كذلك هناك اتفاق عام بأن بيجن كان واعياً بأن النغمات الدراماتيكية الهادئة لانتواء وماتميز به المناسبة من تفرد . إن بيجن - شأنه شأن وايزمان - لم يدرك في هذه اللحظة أن السادات كان مقيداً ، وأنه كان تقريباً لا يتحدث إلى الإسرائيليين ، وإنما كان يتحدث إلى شعبه وإلى العالم العربي ، وأنه لم يكن ليستطيع - لأول وهلة - أن يعطي الانطباع بأنه خائن للقضية العربية ، كما كان عليه المناداة بأكبر قدر من المطالب الفلسطينية . ومن ثم فإن رد فعل بيجن المشروع إلى حد ما لم يكن ضاراً جداً . كذلك كان على وايزمان أن يدرك أن انطباعهم الأول عن خطاب السادات كان خاطئاً ، وأن ما جاء بالسادات إلى الكنيسة لم تكن تهديدات لحرب جديدة ، وقوى ذلك فإن وايزمان قرر فيما بعد أن ما فعله السادات في خطابه أمام الكنيسة كان فريداً في ضوء التاريخ الطويل الملطخ بالدم بين العرب واليهود ، وأن ما كان يعرضه السادات هو السلام الكامل .. ليس عبر اتفاقية مؤقتة ، وإنما إقامة علاقات طبيعية

كاملة ، وأن ما كان ينشره كل زعيم إسرائيلي وينتظره دون جدوى يقدم الآن للشعب الإسرائيلي في الكنيست دون غموض .

ولحسن الحظ ، فإن الخبراء الذين قاموا بتحليل خطاب السادات ، وحتى الوزراء ، انضموا إلى التهليل العام ، كما نسي عيزرا وايزمان مخاوفه لدرجة أنه سحب نفسه خارج الكرسي المحرك ولوح بعصاه كنوع من التحية العسكرية ، هذه الإشارة فاجأت السادات ، الذي بدأ يضحك ، كما كانت أيضا بداية صداقة ذات تأثير واضح خلال المفاوضات المتعرجة للوصول إلى ميثاق السلام . إلا أن هناك شكاً في أن تكون هذه الصداقة بالعمق الذي اعتقده وايزمان ، حيث لم يسمح السادات على الإطلاق لصداقاته الشخصية أن تؤثر على قضيته ، كما ظهر في حالة كيسنجر .

وعلى كل حال ، فإن التهليل الذي ساد في القدس ، والأعر الذي ساد في دمشق لا يمكن تبريره كلياً . . ولو تم تصديق المحللين فإن سوابق السادات ليست هي تلك التي يعول عليها الزعماء الإسرائيليون ، فأولا كان يجب عقد اتفاقية سلام تنهض على الانسحاب الإسرائيلي من كل الأراضي العربية المحتلة في ١٩٦٧ ، وثانيا : تأتي التطلعات الفلسطينية شاملة إقامة الدولة ، وثالثا : يأتي حق كل دول المنطقة في العيش في سلام وعدم اللجوء إلى استخدام القوة ، وأخيرا : إنهاء حالة الحرب . ولم يذكر السادات مسألة الحدود المفتوحة ، ولا العلاقات الدبلوماسية ، ولا التطبيع الكامل للاتصالات اليومية بين إسرائيل وجيرانها ، لدرجة أن شك بعض الخبراء أن السبب الرئيسي في زيارة السادات هو دفع الإسرائيليين إلى الركن ، لذلك استطاع أن يتحدث مباشرة إلى الأمريكيين وإلى العرب . . فبالنسبة للإسرائيليين كان هو رجل السلام ، وبالنسبة للعرب كان هو البطل الذي تحدى العدو في برلمانه ، ومع ذلك فإن حكم الخبراء هذا ثبت خطؤه كلية . . وفوق ذلك ، هناك سبب مقنع قدمه السادات نفسه يتمثل في ضرورة كسر الحاجز النفسي الذي أوقف كل تحرك بإزاء السلام ، حيث يقول : " أقصد بالحاجز النفسي أن هناك حائطا ضخما من الشك ،

والخوف والكراهية ، وسوء الفهم دام فترة طويلة بين إسرائيل والعرب ، وقد أدى إلى ألا يصدق كل طرف الطرف الآخر . . لقد اعتدنا أن نتعامل مع إسرائيل ككيان لا يمكن الاقتراب منه ، لذلك قررت أن أى تغير ممكن سوف يصب فى الاتجاه ذاته ، ولو أردنا حقا أن نمسك بجوهر الشقاق وأصول المشكلة لكى نقيم سلاما شاملا فيجب أن نتبع منهجا جديدا يمكن من خلاله اجتياز كل الشكليات والفنيات الإجرائية بإسقاط هذا الحاجز من عدم الثقة . وهكذا بإمكاننا فقط كسر هذه الدائرة الفاسدة ، ونوقى وعورة الخلاف الذى ساد فى الماضى .

وقد كرر السادات موضوع الحاجز النفسى مرات عديدة ، معتقدا أنه كسره بزيارته إلى إسرائيل ، إنه فعل ذلك بكل المقاييس ، غير أنه لم يكن يفهم احتياجات إسرائيل ، فهم كانوا معنونين لكسره التابو (الشئ الممنوع أو المحرم) ، لكنهم كانوا يريدون الأكثر ، حيث لاحظ فينس - وزير الخارجية الأمريكى والرجل ذو النظرة الثاقبة للناس - أن السادات اعتقد أنه منح إسرائيل مطلبها حينما قرر أن زعيم أكبر دولة عربية منح إسرائيل " شرعية " ، لم تكن متاحة لها من قبل ، ومن ثم فإن إسرائيل التى كانت طبقا للعرب كيانا غير شرعى فى الشرق الأوسط تم قبولها الآن .

وهكذا شعر السادات بأنه قدم هبة عظيمة سوف تسعد كل إسرائيل ، بينما بدا هو حزينا ومندehشا ، لأن بيجن والعديد من الإسرائيليين بدوا يرفضون تلك الهبة . . وكم كان بيجن غير ممنون لأن السادات رأى الموقف - طبقا للمستشارين فى وزارة الخارجية - بمثابة هبة ، وأنه اعتقد أن ذلك سيؤثر على بيجن ليمنح العرب كل أو معظم طلباتهم . ومع كل تلك المثالب ، فإن هذه الزيارة كانت لحظة تاريخية ، وبلا شك كانت حجر الزاوية فى صنع السلام بين مصر وإسرائيل . ورغم سبه وشتمه فى العواصم العربية على كسره للتابو الإسرائيلى ، فإن السادات اكتشف أن الحواجز التى تعوقه عن إنجاز أهدافه مازالت قائمة ، وكان على بيجن أيضا أن يصارع إعادة هذا التفكير المؤلم .

الفصل العشرون

الطريق الصاروخى إلى كامب ديفيد

لقد كان من المدهش حقاً أن يتم التوصل إلى اتفاقية والتوقيع عليها في ظل ما ساد من تيارات صراعية ، وسوء فهم ، ومحاولات حفر ألغام لقاطرة السلام ، ومن المؤكد أنه بدون أنور السادات وعقليته المتفردة وعدم اكترائه بالنصح الحاد الذي تلقاه من وزرائه ومسؤوليه ما كان أي اتفاق ليتم .. وحتى الذين انتقدوه انطلاقاً من عدم استحسان ماكانت تنشده إسرائيل وتتمناه ، كانوا معجبين من شجاعته في أخذ مصر بعيداً عن الحرب إلى السلام ، حتى لو كان هذا السلام قد بقي بارداً .

أما فيما يتعلق ببيجن وجيمي كارتر فقد أسى تقدير دوريهما ، حيث كان على بيجن أن يصنع قرارات مؤلمة ، مغيراً بذلك المفاهيم التي كانت جزءاً من أيديولوجيته ، وبناءً على هذا التحول لدى بيجن كان من الضروري أن تؤول الثقة إلى موشى ديان ، وبدرجة أقل إلى عيزرا وايمان . . وكان على جيمي كارتر أيضاً أن يغير استراتيجيته الكلية وأن يهجر العديد من المفاهيم وأن يعترف بجهله بالمسائل المعقدة التي تجعل السلام الشامل الذي ينصوي تحت لوائه كل العرب مستحيلاً . . كما لم يكن من قبيل العدل ألا يحصل السادات وبيجن على جائزة نوبل للسلام .

لقد كانت هناك ملامح مؤلمة وهزلية نجمت عن زيارة السادات للقدس .. وفي معظم أنحاء العالم العربي كانت هناك معارضة وذعر ، ولكن هذه المعارضة لم تتخذ أياً من وسائل الإجماع . فالأسرة الملكية السعودية نادى مراراً وتكراراً بالتسوية الشاملة التي تضم الفلسطينيين ، ومع ذلك كان هناك رد فعل قوى من قبل المملكة العربية السعودية ، كانت أهم مظاهره ما جاء على لسان الملك خالد بعد صلاة عيد الأضحى بالكعبة : " كنت دائماً أذهب للكعبة لأدعو للبعض ، لا لأدعو على أحد ، لكن في هذه المناسبة وجدت نفسي أقول : اللهم حطم الطائرة التي تقل السادات إلى القدس قبل أن تصل ، حتى لا تصبح فضيحة لنا جميعاً ، وإننى كنت خجولاً من أننى دعوت في الكعبة على المسلمين " .

وأضاف الملك خالد - طبقاً لما يرويهِ هيكال - أنه من المحال أن يضع يده في يد السادات ، وإذا تطلبت الضرورة السياسية الاتصال فإنه سيخول مثل هذا الأمر إلى

أخيه الأمير فهد ، وعلى حد تعبيره : " لكن بالنسبة لى . . أبدا ، فقد سبب السادات فضيحة لكل العرب والمسلمين " . . ورغم ذلك فقد كان رد الفعل السعودى صامتا .. إذ ، طبقا لوزير الخارجية المصرى محمد إبراهيم كامل ، لم تقم السعودية - وعلى خلاف العديد من الدول العربية الأخرى - بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، بل التحقت بالأردن ودول الخليج فى تكليف اتجاه معين قوامه انتظار ما ستسفر عنه الأحداث .

بينما مالت بعض الدول العربية الأخرى بحماس إلى السادات وزيارته الدراماتيكية ، وكان على رأسها الملك الحسن الثانى ملك المغرب ، الذى لم يكن دوره فى إقامة اتصالات بين بيجن والسادات مفاجأة ، والتحق السودان بالمغرب ، لاسيما أن زعيمه نميرى كان يرتبط بعلاقات صداقة حميمة مع السادات .. والتحق بهما كذلك السلطان قابوس ، سلطان عمان .

فى حين جاءت معارضة السادات من قبل الدول الراديكالية (سوريا - العراق - الجزائر - ليبيا - اليمن الشمالية) ، وقد شكلت هذه الدول مع منظمة التحرير الفلسطينية ما أطلق عليه جبهة الرفض ، والتي اتخذت موقفا عدائيا متطرفا من مبادرة السادات ، ونادت بأنها خيانة للقضية العربية ومؤامرة من قبل السادات لإقامة سلام منفرد مع إسرائيل ، ويدوره قام السادات المزدرى بقطع العلاقات الدبلوماسية معها .

وكان السادات قد قرر أن يحتفظ بخطته لزيارة القدس حتى عن زوجته جيهان ، والتي فوجئت بتصريحه للبرلمان ، حينما عاتبته على كتمانته اعترف بأنه كان يفكر فى الأمر لمدة شهور ، وأنه توصل إلى استنتاج بأن هذا كان هو الطريق الوحيد لاستعادة سيناء ، وإزالة الحاجز النفسى الذى فصل بين اليهود والعرب . ويذكر أنها - أى جيهان - تلقت مكالمات تليفونية عديدة لإقناع السادات بأن يغير رأيه ، ولكن دون جدوى .

يذكر كذلك أنه كان من بين أقوى الخصوم وزير الخارجية إسماعيل فهمى - ونائبه محمد رياض - الذى استقال ، وتم تعيين محمد إبراهيم كامل خليفة له .

وقد ارتكب السادات خطأ بعدم مناقشته المسألة مع كامل ، ولكن على أية حال ، فإن السادات قد أعطى قليلا من الانتباه لوجهات نظر مسئولى وزارة

الخارجية ، كما علم بصورة سرية أن الرجل الذى شاركه السجن فى شبابهما المأساوى لم يكن الرجل الصلب ، والدبلوماسى المحنك كما تخيله ، وإنما كان عدم فهمه لأهداف السادات والحجج الإسرائيلية أمرا هزلما ، بل ومحزنا أيضا .

غير أن الجماهير المصرية كانت سعيدة بمبادرة زعيمها وشجاعته ، متناسية المظاهرات التى كانت تطالب بالمزيد من الغذاء الرخيص ، كما تمت تحيته على أنه بطل السلام . ومن جانبها اهتز السادات طربا من المدح الذى كان يتلقاه من شعبه بصورة أكثر مما توقع ، وأصبح الإسرائيليون الذين كانوا موضوعا للسباب ، يتم الترحيب بهم فى القاهرة ، كما بدأ المصريون يحلمون بحياة أفضل عبر الأموال الأمريكية ، واختلطت بأذهان المصريين العاديين صيحات : لا حرب ، لا أرامل ولا يتامى ، كما كانوا منسجمين أيضا مع كتابات المؤلفين المشهورين مثل نجيب محفوظ. كما تحسنت كل الصحف المصرية لامتداح السادات وشجاعته ، فى حين عبرت البيروقراطية والجيش عن استحسانهما .. وقد وصفت مجلة أكتوبر الناطقة بلسان السادات الزعماء العرب الراضين مثل القذافى وبومدين بأنهم فئران وقرود ، بل ووصفهم السادات نفسه بالأقزام . وحتى كامل الذى كان مذعورا حينما علم أن السادات سيخاطب الكنيست وجد أنه ليس هناك مبرر لأن يكيل القذافى الشتائم ، متسائلا : ماذا قال السادات فى القدس ؟ إنه بإقدام وشجاعة وأمانة ترجم مبادئ القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى .

وطبقا لكامل ، فإن بيجن هو الذى حاول أن يخدع السادات ، وأن إسرائيل كان ينبغى عليها أن تقبل عرض السادات على وجه السرعة ، لذلك فإن مصر كان يجب ألا أن تقدم أى تنازلات أكثر ولا مناقشة سيادة الأرض العربية ، وما كان ينبغى مناقشته فقط هو مسائل الأمن والعلاقات السلمية . وبوضوح يبدو أن كامل لم يكن واضعا فى ذهنه اتفاقية سلام كامل أو تطبيع العلاقات بين الجيران ، ومن ثم فقد اتزعج من أن السادات قد حوصر ، وأنه سيوقع سلاما منفردا مع إسرائيل .

وقد استراح كامل قليلا لتحليل الموقف القائل بأن : لا مبادرة السادات سوف تنجح فى التوصل إلى اتفاقية سلام شامل وحقيقى يسترد العرب بموجبها كل

أراضيهم، ولا إسرائيل سوف تظهر أمام العالم على أنها دولة ظالمة (مستبدة) ، والاستنتاج الواضح هو أن العالم سيجبر إسرائيل على الإقلاع عن احتلالها للأراضي، ومع ذلك قال كامل إنه رأى العامل الذي سوف يقوض مبادرة السادات ويؤدي إلى تدميرها ، وفي هذا الخصوص يقول كامل :

" هذا العامل غير المعروف ، آخر شيء كان من الممكن أن يخطر ببالي ، كان السادات نفسه : نوبات الغيرة التي كانت تتنابه ، تصرفه المتهور ومبالغته في التركيز على النجاح .. كلها أشياء كانت تدفعه إلى الدفاع عن موضوعاته الخاصة ، إنه وقّع ضحيةً للمنبهات التي تفشل القلة في الرضوخ لها ، وكلها تنفرع عن مبادرته : الآمال بأن الملايين سوف ترتبط بالسلام ، الحرقّة من هجوم إخوانه العرب ، عدم مرونة بيجن ونكثه العهود .. وأخيرا ، حقيقة كونه تعاطى منوما مغناطيسيا بواسطة السراب الأمريكي الخادع ، والذي كان يتبعه عبثا " .

هذا التصعيد أصبح أكثر ذيوعا في ضوء محدودية عقل محمد إبراهيم كامل ورؤيته الضيقة بالمقارنة برؤية السادات ، ولكنه أدى إلى نوع من المعارضة ، تطلب من السادات أن يواجه حتى ما أطلق عليه الدول العربية المعتدلة ، وعلى المستوى الشخصي بدا السادات متمتعا بالقلق الذي كان يخلقه .

وقد بدأ الشعور بالسعادة يقتل حينما دعا السادات إلى عقد مؤتمر للسلام بفندق مينا هاوس المقابل للأهرامات بعد شهرين من زيارته للقدس ، وكان من المقرر أن يحضر المؤتمر القوى العظمى وكل الدول الحدودية مع إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ورغم رفرفة العديد من الأعلام العربية ، بما فيها علم منظمة التحرير الفلسطينية ، لم يحضر سوى الوفدين الإسرائيلي والمصري ، وقدم كل منهما مواقفته التقليدية ، ولم يحدث أي تقدم .

وعندما زار عيزرا وايزمان السادات بعد ذلك بفترة قصيرة وجده متفائلا بخصوص التسوية ، لكن كانت هناك دلائل على نفاد صبر السادات من جراء الفشل في التحرك إلى الأمام ، وأنه ما زال يهاجم من قبل أقزام جبهة الرفض ، كما كان السادات شغولاً بأن يبرهن على أن زيارته للقدس كانت شجاعة وكانت تصرف رجل دولة ، وحينذاك أخبر

وايزمان أنه على استعداد لقبول التطبيع الكامل فى العلاقات مع إسرائيل على أساس موافقة بيجن على إخلاء الأراضى العربية وإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية .

إن السادات كان مازال يعيش فى وهم أن بيجن يمكن أن يستجيب لمثل هذا السلوك المتفاهم . بينما وجد وايزمان - الذى كان يزور القاهرة كوزير للدفاع للتباحث مع اللواء الجسمى - القليل من التفاؤل والقليل من الترحيب من المؤسسة العسكرية .

فى حين أدت القمة التى عقدت بين السادات وبيجن إلى أن أصبحت الأمور أسوأ وليس أفضل ، ويذكر أن السادات اختار مدينة الإسماعيلية لأنه لم يكن متأكدا من نوعية الاستقبال الذى كان بيجن سيلقاه بالقاهرة من الشعب المصرى ، ولم تكن هناك أعلام إسرائيلية لتحية الزائر الإسرائيلى ، ولا ازدحام للتلويح والتهليل ، ومع ذلك افتعل السادات بعض الصبر لمحاولة التوصل إلى بعض الاتفاق الأساسى مع بيجن .. ورغم أن بيجن لم يسلم من بعض النقد من جراء دعوته السادات لزيارة القدس فإنه كان لابد أن يكيف اتجاه رد الخط الصعب حتى يتجنب إعطاء مؤيديه انطباعا بأنه أصبح ليئا وأنه خضع لذكاء النجم المصرى .

إن بعض مشاعر التعاطف تثور لصالح السادات - لو أن حساب كامل صحيح - نظرا للطريقة التى خاطبه بها بيجن وفخ الأسئلة الذى نصبه له مثل : ألم تحشد القوات المسلحة المصرية فى سيناء فى عام ١٩٦٧ ؟ .. ألم تغلق مضيق تيران ؟ .. ألم تكن هناك مظاهرات تنادى بإغراق إسرائيل فى البحر ؟ .. ألم تكن هناك ملصقات إعلانية فى القاهرة تدعو الجيش المصرى لدخول تل أبيب فى ٣ أيام ؟ .. ألم تطلب من قوات الطوارئ الدولية الاسحاب من سيناء ؟

وقد أجاب السادات بنعم على كل هذه الأسئلة ، وانتظر حتى انتهى بيجن من أسئلته ثم علق قائلا : " نحن نجلس حول مائدة التفاوض حتى ننسى الماضى ونقيم سلاما شاملا ونهائيا " . بينما أجاب بيجن - طبقا لكامل - قائلا : " إن حرب ١٩٦٧ كانت عدوانا من جانبكم ، وإسرائيل كانت فى حالة دفاع شرعى ، وبالتالي فهى محقة فى الاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها أثناء الدفاع عن نفسها ضد العدوان " .

كذلك أعلن بيجن أنه أحضر معه مشروعين ، الأول : خاص بالانسحاب من سيناء ، والثانى : عبارة عن خطة للحكم الذاتى فى الضفة الغربية . وأضاف أنه حال توقيع اتفاقية سلام فإن الجيش المصرى يمكن أن يقيم على خط لا يصل إلى ما وراء معرى متلا والجدى . بينما باقى سيناء سوف يكون خاليا من القوات ، ومن جانبها ستبقى إسرائيل على المطارات الحربية ومحطات الإنذار المبكر ، أما المنشآت الإسرائيلية ما بين رفح والعريش ، وإيلات وشرم الشيخ فسوف تتحول إلى منشآت مدنية تخضع لحماية القوات الإسرائيلية .

وقد زعم بيجن أن هذه الخطة قد حازت قبولا من الرئيس كارتر ومن وزير الخارجية البريطانى .

وهكذا تملك كامل الذى تم تنصيبه وزيرا للخارجية غضبه بصعوبة بالغة ، إذ لم تكن بداية موفقة للفترة القصيرة التى قضاها وزيرا للخارجية ، فى حين أكد السادات أن الكثير من المسائل قد أنجز خلال زيارته للقدس ، ولكن مازالت هناك اختلافات واضحة موجودة بين الطرفين ، فسيناء أرض مصرية وإنه لم يستطع قبول القوات الإسرائيلية هناك ، وإنه إذا قال لشعبه إن صديقه بيجن أراد الإبقاء على المنشآت الموجودة بسيناء فإنهم سوف يقذفونه بالحجارة . وعلى كل حال فإن اتفاقية السلام لم تكن ليتم التوصل إليها خلال لقاء واحد ، والمهم حقيقة هو الإقرار بأن المحادثات ينبغي أن تستمر . وفيما بعد أعلن عن الفشل التام للقاء الخاص خلال مؤتمر صحفى . إن السادات أذهل وزير خارجيته متقلب المزاج باستخدام الشرط الإسرائيلى بالضفة الغربية .. وفى الحقيقة فإن هذه لم تكن بداية سعيدة لكامل ، خاصة أن السادات - فى إشارة عشوائية قصد بها أن يظهر لضيوفه الإسرائيليين أن هناك عهدا جديدا من الصداقة - اقترح على كامل أن يكون أداء اليمين فى حضور الإسرائيليين ، أما كامل فقد أبدى عدم تنوره .. ويزعم كامل أن البرتوكول تم فى جزء من الحجرة بعيدا عن الإسرائيليين .

بيد أن وايزمان لم يلاحظ مثل هذا التنازل ، وبكثير من الاحترام فإن حسابات كامل ووايزمان لم تختلف .. إذ كتب وايزمان عن نفاذ الصبر الذى شعر به هو وديان من جراء

توصيف بيجن المطاط لخطط السلام والحكم الذاتى .. وكما كان الجو لا يطاق لدرجة أن السادات أمر الجرسون أن يفتح شبك الحجرة التى امتلأت بدخان السجائر ، وعندما تطلبت المناسبة استفاضة خيالية للمبادئ العظيمة أصر بيجن على التركيز على أصغر التفاصيل لخطه ، مستعرضا بإسهاب الآراء القانونية لفقهاء القانون الدولى .

وطبقا لعيزرا وايزمان فإن الرئيس المصرى قد علم بمضامين خطط السلام والحكم الذاتى من الأمريكين ، ومع ذلك لم يقاطع السادات المسلك السيئ الذى ضايق الإسرائيليين أنفسهم . طبقا لوايزمان أيضا ، فعندما قال كارتر إن خطة الحكم الذاتى شيقة جدا قام مساعدوه بامتدادها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم حينما فحصوها تولدت لديهم استنتاجات بأن إقامة الدولة الفلسطينية أمر لا مفر منه .. وأن بيجن سقط فى الفخ وعاد من الولايات المتحدة متباهيا بالنجاح الخالص ، إنه لم يفهم الاتجاه الحقيقى لكارتر ، لدرجة أنه علق " لم أقابل نكيا مثل هذا منذ جابوتنسكى " .

لقد كانت هناك فرصة حقيقية للتقدم فى الإسماعيلية تم تلويثها ، حيث خرج السادات عن أسلوبه ليبدو لطيفا ، كما ذكر أن هذا هو عيد ميلاده التاسع والخمسون وأنه سعيد بتلقى التهنية الرسمية من بيجن . ورغم تنصله من فكرة العيش ١٢٠ سنة - كما تقررها الأمنيات اليهودية الطيبة - فقد علق السادات : " هذه هى المرة الأولى التى نجلس فيها معا منذ أن عبر موسى البحر الأحمر ، حيث لم يكن بعيدا عن هنا .. نحن نجلس معا لكى نقيم السلام والحب ، ذلك الحب الذى سيظل دوما بيننا ، بدلا من الحقد والكراهية التى سادت خلال السنوات الثلاثين الماضية " .

وربما للمرة الأولى خلال هذا اللقاء المجهض يجد بيجن الكلمات الصحيحة ، حيث قال : " عندما قادنا موسى إلى خارج مصر استغرق ٤٠ سنة لكى يعبر صحراء سيناء ، واليوم نفعلها نحن فى ٤٠ دقيقة ، نحن لن نقوم فقط بصنع السلام ، وإنما سنصبح أصدقاء " .

ومع ذلك انتهى اللقاء بصورة مبتذلة ، حتى اللجان السياسية والعسكرية التى كان السادات قد أعلن عنها قد أثبتت عدم جدواها ، ورغم أن وايزمان كان سعيدا لأن السادات وافق على أن تكون القدس مركز اللجنة السياسية ، فإن هذه الحقيقة قادت

إلى مواجهة خطيرة ، ولا عجب أن كان المفوضون الإسرائيليون مكتئبين ، لأنهم عادوا إلى إسرائيل ، بينما ببجن فقط هو الذى كانت حالته المعنوية مرتفعة .. ظهر ذلك جليا فى تنكيتته مع الصحفيين الذين كانوا يغطون القمة ، ولكنه سرعان ما علم أن شعوره بالسعادة لم يكن فى محله .

ولاحظ وايزمان شعوريا ما أراده السادات من ببجن ، وأن ما رفض ببجن أن يمنحه إياه كان إشعارا بالموافقة يمكن أن يؤثر على مطاردية العرب ، حيث بدا السادات متضايقا من جراء نعته بأنه خائن للقضية العربية بعرضها للبيع للعدو الإسرائيلي المنبؤ .

ومع ذلك أثارته إسرائيل برفضها الارتباط معه بصداقة ، وتقديمها طلبات لم يكن ممكنا بالنسبة له قبولها .

ليس هناك أدنى شك فى أن كلا من السادات وببجن كانا يريدان السلام لكن طرقهما وأهدافهما كانت مختلفة كلية .. فالسادات كان أشبه بالشاعر ، وببجن كان أشبه بالمحامى ، السادات كانت عباراته ذات دلالة ، وببجن كان يخوض فى التفاصيل المملة .. بالنسبة لببجن كانت سيناء هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ترد عليه تنازلات ، وأن أراضى الضفة الغربية لها من القداسة ما يدفع إلى عدم التفريط فيها وخلق حقائق جديدة ، أما بالنسبة للسادات فإن استعادة كل بوصة فى سيناء أرضه كانت لابد أن تكون بداية عملية الانسحاب من قبل إسرائيل .

ولم يكن السادات يصطدم بببجن فقط ، وإنما أيضا كان يصفى لشكاوى وزير خارجيته الجديد " كامل " ومسئولييه . ناهيك عن أن أفكار كامل كانت مناقضة لأفكار السادات ، خاصة أن نظرة الأول الكلية كانت لا تختلف عن تلك النظرة التقليدية للساساة العرب من حيث كون إسرائيل واقدا شيطانيا وكيانا أقيم على الأراضى العربية ، كذلك أعطى كامل الانطباع بأنه وجد صعوبة حتى فى أن يتحدث إلى ببجن وديان بطريقة ودية .

وعندما سافر كامل إلى القدس ليبدأ عمل اللجنة السياسية أعد الإسرائيليون والمصريون مقترحات متناقضة كلية ، بينما أعد الأمريكيون أجندة محايدة .

يذكر أن السادات استدعى كامل لحضور اجتماع لمجلس الأمن الدولي ، ذلك الاجتماع الذي سادته صدام مفتوح أذهل الأعضاء ، ثم قيل لكامل أن يذهب إلى القدس بعد الظهر وأن يستخدم المقترحات الأمريكية التي تم يرها .

ولكن كامل الغضبان قال إنه يجب أن يدرس المسودة الأمريكية بصورة كافية أولاً قبل أن يغادر القدس . فغضب السادات وصرخ " هل أنت خائف من الذهاب إلى القدس ؟ " فإنه أجاب بأنه لا يخشى شيئاً ولا أحداً .

وفجأة جاءت مكاتمة تليفونية للسادات ، الذي عاد مزهواً قائلًا إنه كان يتحدث إلى الرئيس كارتر الذي أخبره بأن سيراس فينس سوف يرأس الوفد الأمريكي وأنه سوف يصل إلى القدس في اليوم التالي ، كما أنه سوف يشارك في محادثات اللجنة السياسية مع الإسرائيليين والمصريين .

وعلق كامل على ذلك بأن السادات بدأ متوتراً نتيجة عدم تأكده من مشاركة فينس في اجتماع اللجنة السياسية ، لكن كامل تهيأ في الحال للذهاب إلى القدس ، واضعاً نصب عينيه أنه سيتعامل فقط مع نقطة مفتوحة بخصوص إعلان المبادئ ، وإذا لم يتم التوصل إلى اتفاق فإن ذلك لن يكون مبشراً بالنجاح . عائق آخر أكثر خطورة كان في الطريق يتمثل في أن المصريين تلقوا تقارير بناء منشآت في سيناء ، ومع ذلك كان الموقف أكثر خطورة عما تخيل كامل .

وصف وايزمان الهلع المفاجئ الذي انتاب إسرائيل حينما بزغت حقيقة أن إسرائيل سوف تقنع عن شبه جزيرة سيناء ، مقرراً أن كل شخص في إسرائيل - مدنياً أو عسكرياً - اعتاد أن تكون سيناء حماية ضد أي هجوم مصري مفاجئ كما حدث عما قريب في ١٩٦٧ ، وأن التخلي عنها سوف يكشف إسرائيل استراتيجياً .. وأن العديد من الزعماء الإسرائيليين لا يثقون بالمصريين ، لدرجة أن وايزمان نفسه أصبح موضوعاً للنقد .. لماذا يبدو ودوداً إزاء السادات والمصريين الآخرين ؟ .. ثم أين كانت العقول الإسرائيلية الذكية التي تعاملت مع خداع السادات ؟

بل إن وايزمان نفسه ، مع كل رغبته العاطفية تجاه السلام ومع كل فهمه العميق لأتوار السادات ، تجاهل التعليق الشهير الذى ألفه ديان بأن " شرم الشيخ بدون سلام أفضل من سلام بدون شرم الشيخ " .

وقد كتب وايزمان : إن عقلية التآمر هذه هى التى جعلت كل فرد فى إسرائيل يبحث عن الطرق اللامعة للإمساك بسيئات قبل فوات الأوان ، وأن شارون -وزير الزراعة - قال إن شيئا ما يجب أن يبنى فى سيناء لخلق وقائع على الأرض وأيده فى ذلك موسى ديان ، وبعد هذا مناقضا للدور الذى قام به ديان فى قمة السادات - بيجن من خلال قوله للمصريين إن إسرائيل على استعداد للتخلى عن سيناء من أجل السلام ، لكن تفكير ديان كان دائما معقدا ، يصعب التنبؤ به .

وقد مثل هذا الاقتراح صدمة لوايزمان الذى اعتبره طعنة فى ظهر عملية السلام . صحيح أن وايزمان - مثله مثل الآخرين - كان ينظر إلى شارون على أنه استراتيجى عظيم وأنه أعظم قائد محارب فى ذلك الوقت ، ولكن رؤاه السياسية قد تقود إلى نتائج سيئة .

وكانت الخطة التى دعمها شارون بالخرائط وتم قبولها على وجه السرعة من قبل الأغلبية فى مجلس الوزراء تقضى بأنه لو رضى المصريون " للاستعمار " الإسرائيلى ، فإن الخطة تكون قد تم إعمالها ، وإذا رفضوا فإن الإسرائيليين - حال إقلاعهم - سوف يشيرون إلى أن لديهم الحق فى الإبقاء على المنشآت الموجودة .

وكما كان متوقعا ، تصرف المصريون بحرقه ، حتى السادات الذى أظهر الكثير من الاحتمال إلى الآن عبر عن رفضه واستنكاره .

ففى مقابلة له مع مجلة أكتوبر قال السادات : يبدو أن إسرائيل فشلت أو رفضت أن تفهم أنه - فى زيارته للقدس - قدم أكثر مما كانت تحلم به : اعتراف وشرعية وجود وسلام معاصر مع جيرانها العرب ، وصرح السادات بأنه لن يسمح بتسوية منفردة مع إسرائيل تبقىها على التراب المصرى ، ولو أراد بيجن أن يحرق هذه المنشآت قبل الإخلاء فإنه حر فى أن يفعل ذلك .

ويزعم كامل أن بيجن استشاط غضبا وقال : نيرو فقط هو الذى حرق المدن ، وأجاب السادات قائلا : إنه لم يقتل يحرق (burn) بل قال يحرق (Plough) ، وهما كلمتان يمكن أن يربكا بسهولة فى اللغة العربية .

وفى معرض تعليقه على هذا الاختلاف قرر كامل بأنه شئ غير مهم أى الكلمتين استخدمت ، ومع ذلك فإن الاستخدام الصحيح للكلمات يعتبر أمرا حيويا فى النزاع ، وأن الفشل فى ذلك قد يؤدي إلى مشاكل عديدة ، وأضاف كامل أن فكرة المنشآت الدمي (جمع دمىة) تمثل إحياء للعصر الذى تم فيه اكتشاف الأشياء الثمينة كالذهب والعاج والعقود الفريدة الخ ، وهذه إهانة ، ولا أرى أن شيلوك كان سيفعل أكثر مما فعله بيجن لو كان حيا فى عصرنا .

وعند وصوله إلى مطار بن جوريون استقبله ديان الذى دعاه إلى أن يقول بعض الكلمات ، وفى استعراضه خطابه المعد أظهر كامل سذاجة مفاجئة حينما قال : (ذكرت أن هناك حقائق أساسية يجب مواجهتها بشجاعة وتبصر ، هذه الحقائق هى أن السلام لا يمكن أن يقام والأراضى محتلة أو الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى بما فيها حق تقرير المصير منكرة) ، ولا يمكن أن يقام السلام النهائى إذا لم تجاهد شعوب المنطقة لخلق الظروف المؤدية إلى العيش معا فى سلام وأمان .

وكان كامل مندهشا من أن يتلقى رسالة من السادات ، . وقال كامل : " إنه اعتبر أن خطابى فى المطار كان عنيفا وطلب منى الآن أن أضبط نفسى وأن أبتعد عن الفرقعات وأن ألتزم الصبر فى المفاوضات " .

وكما كان متوقعا لم تكن الجلسة الافتتاحية مثمرة بالمرّة ، إذ رأى كامل ديان كخطب مكرر ، وتبادل الاثنان الشكوك .. ولأن السادات كان يتلقى تقارير خاصة عن عدم سعادة كامل ، فقد أرسل إليه رسالة يعرب فيها عن أمله فى أن يحتفظ بهدونه ، وأن يضبط فى خطابه .. كذلك كان كامل قد تلقى تعليمات بأن يستشير القاهرة كلما واجه صعوبة .. وقد علق كامل على ذلك قائلا : " لقد أدهشنى ذلك لأن هدونى لم يفارقنى " .

وهكذا بدأ السادات يقلق من وزير خارجيته الجديد ، كما أنه أكثر من مرة أوقفه عن الرد بحدة على عبارات بيجن ، وهكذا أيضا امتلأ الهواء بسوء الفهم .

لقد اعتقد بيجن أن السادات كان على استعداد لسماع خطته الخاصة ببقاء المنشآت الإسرائيلية في سيناء ، لكنه اندهش من رد فعل السادات القوي ، أما كامل فقد كان غاضبا لأنه يوم وصوله صرح راديو إسرائيل بأن بيجن قال إن السادات أخبره بأن زعماء منظمة التحرير الفلسطينية عملاء سوفييت ، فقام كامل بدوره بشد بيجن على ذلك مرتأيا القصة على أنها إهانة علنية لمصر ، ومدعيا - من خلال الخبرة التي اكتسبها من عمله في الراديو المصري - أن الراديو الإسرائيلي قد أمر بأن يذيع ذلك .. وبناء على ذلك أخبر بيجن المندehش كامل بأن هذه هي الكلمات التي قالها السادات بالضبط حينما كان يتحدث معه ، وأن القصة وصلت لمحطة الراديو بطريقة ملتوية . كان كامل مقتنعا بصعوبة بأن يدلى السادات بمثل هذا التصريح ومشيرا إلى أن راديو إسرائيل حر في إذاعة ما شاء من أخبار .

وفي الحقيقة .. لا كامل ، ولا بيجن أظهر ثقة في الآخر منذ الخلاف الذي حدث على المائدة التي أعدتها الحكومة الإسرائيلية للوفد المصري ، كما علق فينس على ذلك فيما بعد : " كان بيجن أقل حصافة ، لكن من المؤكد لو كان السادات حاضرا لما انتهت المناسبة بعدم الاتفاق " .

لفي خطاب طويل ، وبنفس أسلوبه من حيث الإشارة إلى بداية الأمة اليهودية وقطنها الهولوكست عبر بيجن فجأة عن أن كامل اقترح إعادة تقسيم القدس ، عاصمة إسرائيل ، كيف استطاع كامل أن يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ ؟ هل نسي أن الإسرائيليين كانوا يدافعون عن حياتهم ضد العدوان العربي ؟ ... ثم كيف يدافع عن إقامة دولة فلسطينية ؟ دولة إرهابية على حدود إسرائيل سوف تذبج النساء والأطفال .

وفي حيثيات رفضه لتقرير المصير الفلسطيني قال بيجن إن كامل كان شابا ولم يكن واعيا بأن هتلر استخدم تقرير المصير ليضم أجزاء تنتمي إلى تشيكوسلوفاكيا ودول أخرى إلى الأراضي الألمانية .

ولو كان كامل يعرف بيجن أفضل لكان قد فهم أن ذلك ليس خطابا عدائيا ، إن كان من ذلك النوع من الخطابات الذي كان بيجن يلقيه كل يوم ... إنه لم يقل شيئا لم

يتم التأكيد عليه في الإسماعيلية أو ردا على خطاب السادات في الكنيسة . صحيح أن المناسبة كانت تتطلب نوعا مختلفا من الخطاب ، لكن بيجن لم يكن مؤهلا لأن يلقي خطابا طبيعيا يتسم بروح الفكاهة والمرح بعد العشاء .

ومع ذلك لم يكن كامل مؤهلا للتعامل مع مثل هذا الموقف بهدوء ودبلوماسية ، لدرجة أنه خرج عن شعوره ممزقا الخطاب الذي أعده ، معتبرا أن ذلك سيكون له تأثير في زجر بيجن .

وفي اليوم التالي ذهب كامل المثار لينام بعد الظهر بعد المفاوضات مع سيراى فينس ، ولكنه أوقف وتلقى رسالة عاجلة من السادات مفادها أن يعود كامل ووقفه إلى القاهرة والسبب في ذلك الاستدعاء - تلقى كامل تعليمات بأن يقول ذلك - كان سلوك الحكومة الإسرائيلية كما ظهر من خلال بيجن وديان ، بينما شعر كامل بأن الاستدعاء خطأ ، وسوف يترتب عليه قول الإسرائيليين بأن المصريين ليسوا جادين بخصوص السلام ، وعلى الفور اتصل بالقاهرة لكنه أخبر بأن القرار لا رجعة فيه .

وواقع الأمر أن كامل كان على حق حينما شعر بالحيرة ، حيث سبب الاستدعاء لم يكن مقنعا ، والاحتمال الراجح هو أن السادات لم يقل سبب الاستدعاء لأحد .. إنه لم يكن باستطاعته الاعتماد على وزير خارجيته الذي لم يكن ذواقا لسياساته السلمية لكي ينجزها بفاعلية ، وكان أيضا من قبيل الخطر - من وجهة نظر السادات - أن يتعامل وزير الخارجية منفردا مع بيجن وديان .. إنه كان الوقت الذي كان يجب على السادات فيه اعتلاء مركز خشبة المسرح ، وبالإمكان أن يتم هذا بواشنطن فقط ، إنه الطريق إلى السلام .. الذي بدا سهلا مثل الوقوف على منصة الكنيسة ، والذي سيثبت الآن أنه ملئ بالصخور وفوهات البراكين .

الفصل الحادى والعشرون
المساومة من أجل السلام
الوهم والحقيقة

بالنظر إلى طبيعة الموقف بعد معركة " كامل " بالقدس وخطة إسرائيل لبناء منشآت هيكلية في سيناء وإصرار الرئيس جيمي كارتر على طلبه فيما يتعلق بعدم إنجاز اتفاقية سلام شامل ، لم يكن من السهل على السادات من الناحية العاطفية أن يسمح في أن زيارته الدراماتيكية للكنيسة قد أصيبت بالفشل ، ولا أن يسمح نفسه على توقعاته غير الحقيقية وهناك شك - رغم إعطائه تلميحات أو انطباعات على خلاف ذلك - في أن السادات كان مستعدا في هذه اللحظة لتوقيع اتفاقية سلام شامل . تتضمن تبادل السفراء وإقامة علاقات ثقافية واقتصادية مع إسرائيل في مقابل سيناء فقط .

ومع ذلك ، فإن كل سيناء لم تكن معروضة على السادات ، حيث أراد الإسرائيليون الإبقاء على المطارين والمنشآت ، وقد استخدم عيزرا وايزمان كل ثقته وصدافته لدى السادات لإقناعه أثناء لقاءهما بأسوان بأنه ينبغي أن يقدم تنازلات ، وكما كان السادات سعيدا حينما سمع وايزمان يصف رحلته إلى القدس بأنها تعادل هبوط أول إنسان على سطح القمر ، ولكن وايزمان استمر في القول بأن الإنسان الذي هبط على سطح القمر عاد أيضا إلى الأرض .

وكان من المعتقد أن تكون إجابة السادات قاطعة لكل الشكوك حيث أجاب : " أعرف شعبي وأؤمن بحبه للسلام ، ويجب عليكم أن تفهموا أنني أتحدث عن السلام الكامل والحقيقي من حيث تبادل السفراء والعلاقات التجارية وكل شيء ، إنكم سوف تتألقون سلاما كاملا ، لكن أولا يجب أن استرد ذلك الجزء من الأرض الذي أخذتموه منا " .

ومع ذلك ، يذهب ديفيد كيمحي في دعواه إلى أن هذه القاعدة الأساسية الأولى في مطالب السادات لم تكن هناك إمكانية للسيطرة عليها في هذا الوقت .

إن مشاعر السادات الحقيقية تم الإفصاح عنها حينما اشتعل غضبا من التغييرات التي أدخلها بيجن على خطة الحكم الذاتي بالضفة الغربية ... وطبقا لرواية وايزمان فقد تنبه بيجن لمخاطر خطته ، والتي كانت تتشابه مع زيارة السادات للقدس من حيث أن كليهما كانت مبادرة فردية ، وكانت الخطوات الأولى للملحق - الذي أضافه بيجن - تعنى وتمثل نذيرا بدايات الدولة الفلسطينية .

ونتيجة لذلك ، أدخل بيجن ١٥ تعديلا على خطته ، وكان السادات قد عرف خطة الحكم الذاتي من البيت الأبيض ، وبدأت إسرائيل وكأنها تزيد من عدد العراقيين المنانعة من التوصل إلى اتفاق .

لم يستطع السادات أن يظهر معزولا عن الفلسطينيين ، ولو فعل ذلك سوف يؤكد الاتهامات الموجهة إليه من قبل جبهة الصمود ، وسوف تبلغ الهجمات الموجهة ضده درجات أعلى وكان وايزمان قلعا من المهارات المتبادلة ، كما أخذ بجدية ما تنشره صحف القاهرة ضد اليهود ، لدرجة أن وزير الدفاع استدعى أعضاء هيئة الأركان ونصحهم بالاستعداد للأسوأ . إنه شئ لا يصدق ، فقد أصبحت ممكنة الوقوع ثانية !!

وربما كان هذا رد فعل مبالغ فيه من قبل عيزرا وايزمان ، لكنه حتى وإن كان عقله قد تحول ثانية للحرب ، فإن السادات لم يكن يملك الوسائل لخوض الحرب ، إذ لم يكن لديه شركاء ، ولا أسلحة مناسبة ، كما لم يكن بإمكانه الاعتماد على عنصر المفاجأة . ولكن الحقيقة تقريبا هي أن نية وايزمان في إمكانية الحرب كانت تأكيدا تراجيديا لإمكانية فساد العلاقات بين الدولتين فجأة واستمرار هذا الفساد .

وفي ظل هذا الموقف المحبط ، وتحديدًا في فبراير ١٩٧٨ أضاف السادات أهمية مشروطة لزيارته للولايات المتحدة ، وفي طريقه لواشنطن مر السادات على المغرب ، وكانت هذه الرحلة حيوية بالنسبة للسادات من الناحية النفسية ، حيث كان الملك الحسن مؤيدا بحرارة لمبادرته للسلام ، وكان الشخص الوحيد الذي منح السادات التشجيع ، وفي الولايات المتحدة استقبل السادات أيضا- الذي كان يصطحب معه كامل - بحرارة من قبل الرئيس كارتر وسيراس فينس وبريزينسكي ، وربما كان الاستقبال حارا للغاية ، وأصبحت هناك قناعة لدى كارتر بأن بيجن العنيد ، المتحذلق فقط ، هو الذي يقف الآن بين السلام واستمرار عدم الاتفاق والذي يمكن أن يؤدي إلى صدام آخر .

إن بيجن كان لديه نقاده الشرعيين وعلى رأسهم ديان وايزمان ، لكن الزعم الأمريكي بأنه شخص مكروه كان من الصعب أن يؤتى ثماره ، حيث مثل بيجن الكثير من مخاوف وآمال الإسرائيليين معا ، بيد أنه كان هناك خطر برززينسكي لإثارة الرأي

العام الأمريكي بما فيه المجتمع اليهودى هناك ضد بيجن ، وفى نفس الوقت التواطؤ مع مصر ضد الحكومة الإسرائيلية .

وفى الواقع لم تكن هذه الخطة لتتج على الإطلاق ، وعلى خلاف ذلك كان الفشل الأمريكى أساسيا من أجل أهداف أوسع للسلام .

وقد أعطى " كامل " وزير الخارجية تفسيرا معلنا وموجها عن طرق السادات فى العمل ، كما أعدت وزارة الخارجية مذكرة قوية تتواءم ومحادثات السادات مع كارتر وكان جوهر المذكرة أن السادات مصر على ضرورة أن تباشر الولايات المتحدة ضغوطا على إسرائيل لى تتخذ سلوكا أكثر إيجابية ، وإلا فإن السادات سوف ينهى اجتماعات اللجان السياسية والعسكرية ويعود الوضع إلى ما كان عليه قبل خطاب الكنيست .. المهم أن " كامل " سلم المذكرة للسادات الذى بدأ يقرأها بانتباه واستحسان ، ثم ردها إلى كامل ثانية ، بينما اقترح كامل فجأة على السادات أنه ينبغي أن يأخذها معه أثناء اجتماعه بكارتر ، وحينذاك - كما يقرر كامل - " نظر إلى فى دهشة قائلا إنه قرأها واستوعب محتوياتها " ، فأعطى السادات المذكرة لسكرتيه الخاص طالبا منه أن يسلمه إياها قبل مقابلة كارتر .

وعندما قابل السادات كارتر ، كان كامل سعيدا لأنه لاحظ بوضوح أن المذكرة كان لها تأثير كبير ، وأخبر كارتر المسؤولين الأمريكيين والوفد المصرى المرافق بأن الرئيس السادات أكد له أن العرب - بمن فيهم السعودية والشعب المصرى وأصدقاء آخرون للولايات المتحدة - غاضبون من الولايات المتحدة ، وأنهم محبطون لأنهم يشعرون بأن اتجاه إسرائيل المتعنت لم يكن ممكنا دون المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية لإسرائيل ، وأن السادات أخبره بأنه لن يستطيع أن يواصل المحادثات مع إسرائيل على مستوى اللجان السياسية والعسكرية ، وأنه سوف يعلن عن ذلك فى نادى الصحافة الدولى الاثنين القادم .

هذا الإعلان الذى قام به كارتر سبب ذعرا بين مساعديه ، حيث ذهب فينس إلى أن مثل هذه الخطوة من جانب السادات ستمثل كارثة ، بينما كشف نائب الرئيس عن التفكير الأمريكى حينما علق قائلا : " من الأهمية القصوى أن يبقى السادات على صورة نبي السلام حتى لو استلزم ذلك أن تتغير السياسة الإسرائيلية " .

وفيما بعد تدخل كارتر ليدلى بتصريح مفزع بدون مصر وبدون تأييد شعبى " لا أستطيع أن أجبر إسرائيل على تغيير موقفها ، معكم سأكون قادرا إلى بذل ضغط عليهم لتعديل موقفهم ، وهناك شعور متنام لدى اليهود الأمريكيين بأن بيجن وحكومته يعرقلون عملية السلام بإصرارهم على المنشآت ، وإذا كان هناك بينى وبين بيجن صدام فإن اليهود الأمريكيين سوف يجدون صعوبة فى عدم الوقوف بجوار بيجن . إننى أحاول أن أكسب قادة الكونجرس وزعماء اليهود وأريد منهم أن يمارسوا ضغطا على بيجن لاثباته عن خطة المنشآت والموافقة على ٥ سنوات كفترة انتقالية بالنسبة للصفة الغربية ، ولكن لو قرر السادات أن ينهى المفاوضات فإن بيجن سوف يقول : نحن لدينا الرغبة أما السادات فلا ، وحجة أنك تريد السلام بينما هم لا يريدون سوف تبدو جوفاء " .

وفى هذه التعليقات السابقة تم الإعلان عن الاستراتيجية الأمريكية بصورة كاملة ، ولكن لجعلها أكثر بساطة اقترح كارتر على السادات أن يعمل سويا لتقرير أفضل الوسائل لكسب التأييد العام ... " يجب أن تأخذ بالحسبان أن الشئ الذى يجب أن نفعله هو استمالة الإسرائيليين لكى يكونوا أكثر مرونة " .

وعند هذا الحد تدخل كامل - بشجاعة إلى حد ما - مقترحا تأجيل المفاوضات مع الإسرائيليين لإعطاء الأمريكيين فرصة لإقناعهم بضرورة أن يكونوا أكثر تعقلا .

وها هو السادات يلتقط المناخ العام للاجتماع مقررا أنه لا يريد أن يوقف المحادثات مع الإسرائيليين ولكنهم متصلبون ، وأنه من الضروري بالنسبة للأمريكيين أن يحددوا الموقف بوضوح . وسرعان ما وافق كارتر على ذلك ولكنه أظهر أنه مهذب حينما أصر على ضرورة أن يلتقى بيجن أيضا ، وإلا فسيؤخذ الأمر على أنه اقتراح أمريكى - مصرى ، ومن ثم يلقى الرفض .

ومع ذلك رسم الجانبان خطة منسقة من حيث التفاصيل ، حيث وصف كامل المناقشات دون أن يشير بوضوح إلى الخطة ، وهكذا استطاع السادات أن يكسب كارتر إلى حد بعيد ، بينما أئذر الإسرائيليين من التمدادى فيما أعدوا له .

والحقيقة أن الأمريكيين قد طلب منهم إعداد مشروع أمريكى يواكب المشروع المصرى فى مواجهة المشروع الإسرائيلى . وقد طلب الجانب الأمريكى ضرورة أن

يشتمل المشروع المصري على معظم المطالب العربية فيما يتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة ، حتى يمكن للأمريكيين التوصل إلى اتفاق أقرب إلى الصيغة المصرية عن الصيغة الإسرائيلية .

وفي النهاية علم الإسرائيليون بهذه الخطة لخداعهم بمساعدة السادات ، كما أكد على ذلك ديفيد كيمحي ، لكن القنبلة لم تنفجر كما كانوا يظنون . وقد حمل كامل كلا من السادات وكارتر هذا الفضل ، واشتكى بمرارة من أن قوتهم بدت أكبر من الحقيقة ، وأنهم تحدثوا عن المبادئ الشريفة ، لكنها لم تكن مترسخة بداخلهم .

إن كامل كان لديه عذر أقل من الأمريكيين للوقوع في مؤامرة السادات ، ومن المؤكد الآن أن السادات لم يكن ينوي قطع المحادثات مع الإسرائيليين ، لكنه كان تقريبا يناور من خلال وزير خارجيته ، حيث رأى أنها فرصة للحصول على تأييد أكبر من الأمريكيين ، ولا شك أنه - كما يدعى كامل - شعر بالرضا من نتائج زيارته ، ولكن من خلال تجاربه التالية في التفاوض مع الإسرائيليين لم يكن يعتقد أنهم سوف يسقطون في خطته المتواطئة .

وكان لابد أن يتلون سلوك السادات تجاه الفلسطينيين على أثر حادث فطيع تم بعد مغادرته بفترة وجيزة وأثر فيه بعمق .. هذا الحادث هو مقتل صديقه يوسف السباعي على أيدي فلسطينيين في قبرص ، مما دفع السادات المصدوم - والذي كان يقف غضبا- إلى إرسال رجال كوماندوز مصريين إلى قبرص لمعاقبة القتل أسوة بما فعله رجال الكوماندوز الإسرائيليين في تخليص رهائن مطار غنتيبي ، ولكن نظرا لنقص تدريب رجال الكوماندوز المصريين من ناحية ، واعتبار القبارصة أن ذلك يمثل تحديا لسيادتهم من ناحية أخرى ، قام القبارصة بقتل العديد من رجال الكوماندوز المصريين .

وحيثما علم السادات بذلك انفجر قائلا : " هل نسمح لهم بالاستمرار في قتلنا ، بينما نقف نحن ننتفج ؟ " .. بينما طلب كامل - القيام بإجراء تحقيق لاكتشاف من المسؤول عن العملية ، وأجاب السادات الهائج " أنا الذي أمرت " وهكذا قاد الإحساس بالإهانة القوية إلى شن غارة عنيفة ضد منظمة التحرير الفلسطينية ، وكل الفلسطينيين الذين اتهموا بنكران الجميل .

ولأول وهلة كان كامل على حق في خوفه من أن المأساة قد تؤثر على قوة ارتباط السادات بقضية منظمة التحرير الفلسطينية ، رغم أنه لم يكن ليتخلى عنها على الإطلاق .

وفي خطاب لبيجن قصد منه عودة المحادثات ، لام السادات الإسرائيليين بصورة معتدلة على اتجاهاتهم التي لا طائل من ورائها .. فقد قدر حاجة إسرائيل للأمن ، لكنه أكد أن ذلك الأمن لا ينبغي أن تكون تكلفته الأرضى والسيادة .. وللدلالة على ذلك ركز السادات على أن جبهة الصمود ومنظمة التحرير الفلسطينية يعارضون سياساته السلمية ، وأن الاتحاد السوفيتى يحاول بإصرار أن يجهض المبادرة ، ولكنه قادر إلى حد بعيد على مقاومة ذلك .. ومع ذلك فإن بيجن بسلوكه المرن أمد الرافضين بالذخيرة التي يواجهون بها المبادرة .

ومن هذا المنطلق قام بيجن - على أثر خطاب السادات - باقتراح إعادة تجديد المفاوضات .

وكم بدت صورة السادات ووزير خارجيته شاذة عندما شنت إسرائيل هجوما محدودا على لبنان في مارس ١٩٧٨ .

وكانت جماعة فدائية فلسطينية قد هبطت على الساحل الإسرائيلى بالقرب من حيفا وفجرت أتوبيسا كان متوجها إلى تل أبيب ، وحينما تم إيقافهم بواسطة القوات الإسرائيلية لقي ٣٥ شخصا إسرائيليا مصرعهم ، وكانت هناك ضجة قومية، ومن ثم كان الرد الإسرائيلى حتميا .. وفى الحقيقة فإن المصريين توقعوا ذلك لكن كامل ومسئولى وزارة الخارجية اعتبروا أن ذلك لايتناسب - مع حجم - الهجوم الفدائى .

وصباح الهجوم حاول كامل التحدث مع السادات ، ولكنه فشل ، وأخيرا ألقى بتصريح يدين فيه الهجوم الإسرائيلى . وفى الواحدة والنصف بعد الظهر إتصل السادات - الذى كان مازال نائما به وسأله لماذا اتصل به عدة مرات ، وأجابه كامل بأن المسألة مهمة .. وأن الإسرائيليين شنوا هجوما ضد لبنان ، واستفسر السادات ضاحكا : هل لقتوهم درسا ؟ لم يصدق كامل ما سمعه ، ولذلك سأله : ماذا تقول ؟ .. فرد السادات قائلا : هل عاقبوهم بعد ؟.. فأجاب كامل المحترار والمندھش : العكس

تماما .. إنهم الفلسطينيون الذين لقتوا الإسرائيليين درسا .. لم يجادل السادات لكنه اقتنع بزعم كامل بصعوبة .

وقد أرجع كامل رد فعل السادات إلى غضبه من منظمة التحرير الفلسطينية بسبب انضمامها لجبهة الرفض ، كما شعر السادات بأن هجوم الأتوبيس كان موجها إليه مثلما كان موجها إلى الإسرائيليين ، ومع ذلك كتب السادات إلى كارتر يطلب منه الانسحاب من لبنان ، حيث أدرك السادات أن استمرار احتلال لبنان سوف يؤثر بصورة سيئة على مبادرته السلمية .

كانت هناك فوارق أخرى واضحة جدا بين السادات وكامل : امتداد الصداقة بين السادات وعيزرا وايزمان في مقابل الصورة المغلقة لوزير الخارجية وعدم فهم توجه السعودية أزاء المبادرة .. فقد كان كامل يعمل جاهدا على إقناع دول مجلس التعاون العربى التى اجتمعت فى القاهرة فى ٢٨ من مارس ١٩٧٨ - لاسيما وزير خارجية العربية السعودية سعود الفيصل - بأن مصر مازالت مخصصة للقضية العربية ، مما جعل السادات يبدى دهشته ، وكالمعتاد أخبر السادات كامل عبر التليفون أن عيزرا وايزمان أرسل إليه برقية يستفسر فيها عما إذا كان بإمكانه المجئ للقاهرة ، وأنه رد عليه بالإيجاب .. فانفلت كامل المصدوم والمندھش قائلا : كيف يمكن أن توافق ، بينما وزراء الخارجية العرب يجتمعون هنا ، والجيش الاسرائيلى ينشر الموت والدمار فى لبنان ؟ ! فأجاب السادات بأنه لا بد أن يكون لدى وايزمان رسالة مهمة ، وانتهى الغضب المتبادل بقول السادات : أنت لا تفهم .. وايزمان صدىقى .. ثم وضع سماعة التليفون .

ولاحقا فى نفس اليوم ، حينما التقى السادات بالأمير السعودى فى حضور كامل وأخبره بأنه سوف يستقبل وايزمان بالقاهرة ، حملق الأمير فى كامل مندھشا ، ولكنه لم يعلق ، بينما كان سليط اللسان حينما تحدث إلى كامل بعدها . وبينما زعم السادات أنه قال لوايزمان إنه لايسعى إلى اتفاقية سلام منفردة او جزئية مع إسرائيل ، ولكنه يبحث عن السلام الشامل ، كتب كامل أن تفسير وايزمان الخاص يقرر قصة مختلفة وفوق ذلك فإن وايزمان قال إنه دعى لزيارة القاهرة بواسطة السادات ، وأنه لم يدع

نفسه ... وتأتى دلالة دعوة السادات فى الوقت الذى كان يزور فيه وزراء الخارجية العرب القاهرة ، فى أنها تم استحسانها بواسطة بيجن ومجلس وزرائه .

ولقد كان كامل مصدوما حينما قرأ كتابات وايزمان فى "معركة من أجل السلام"، حيث ورد بها "ملخص محادثتى مع السادات جعل مزاجى أفضل ، فالرئيس المصرى - مثلنا - لم يكن مهتما بالدولة الفلسطينية ، بل كانت لديه رغبة فى أن يترك مستوطناتنا فى الضفة الغربية فى مكانها ، وسوف يستغنى عن الملك حسين إذا رفض الملك المشاركة فى المفاوضات .. وقد كنت ممنونا بسبب وجود أهارون باراك "المستشار القانونى لمجلس الوزراء" واستماعه الى محادثتنا .. حيث بدون شهادته ، لم يكن أحدا فى إسرائيل يصدقنى .

وفى الصباح التالى استدعى وايزمان على عجل لرؤية السادات ، ولاحظ وايزمان أن السادات كان متوترا للغاية كما قال له : " بعد لقاء كارتر مع بيجن ، سألتى كارتر إذا ما كنت أصر على الدولة الفلسطينية ، وقد فكرت فى الأمر كثيرا وقادنى تفكيرى إلى اقتراح وضعته أمامى بالأمس .. بعد لقائى بك ، قابلت مندوبين فلسطينيين من غزة ولم يوافقوا على أفكارى .. إنهم يريدون حق تقرير المصير .. وفى هذه المرحلة فإن التأييد الفلسطينى مهم بالنسبة لى .. ولا أستطيع القول بأن خطة الأمس التى رسمتها سارية المفعول .

نحن لدينا مشكلة .. أنا أعرف حدودى ولن أقترح أى شىء لست قادرا على تنفيذه ، ولكننى حينما أقدم عرضا فإننى أستند إليه .. والآن طبقا للمعارضة الفلسطينية ، لا أعرف ما إذا كنت قادرا على أن أستند إليه ، لذلك عدت الى الوضع الذى كان موجودا قبل أمس ، يجب أن يبدى بيجن مرونة ، أنا لم أطلب دولة فلسطينية وإنما فقط ارتباط بالأردن ، والارتباط بالأردن يؤدي إلى ألا تكون هناك دولة فلسطينية ، هذه هى وجهة نظرى قبل مبادرة السلام وهى وجهة نظرى الآن ، سوف تكون هناك همجية " .

ورد وايزمان بأن الهمجية لن تكون مقبولة بالنسبة لإسرائيل ، دعنا نعود إلى حديثنا بالأمس ، والاقتراح الذى توصلنا من خلاله إلى معاهدة سلام فى المرحلة

الأولى . أنت رجل شجاع ، طردت الروس ، وأقدمت على مبادرة سلام ، وينبغي أن تكون لديك الشجاعة للتوصل إلى نتيجة "

ولاشك أن وايزمان كان محبطا كما أشار كامل - لافتقاده للوسائل ، إذا فقد الثقة في السادات .

إن تفسير كامل الضيق لكتاب وايزمان البارز والأمين يعطى انطبعا مضللا . وفي مجلس الوزراء الإسرائيلي حدثت انقسامات حادة حول نوايا السادات ، فقد اعتقد وايزمان أن السادات يطلب ورقة لتغطية نقص اهتمامه بالفلسطينيين ، وأنه سوف يكون راضيا بالإعلان الغامض للمبادئ الذى أسفرت عنه قمة الإسماعيلية فيما يتعلق بالضفة الغربية ، والذى لا يلزم أحدا . وعلى خلاف ذلك أصر موسى ديان على أن السادات يرغب فى شئ أكثر جدية ، ليس دولة فلسطينية ، وإنما وطن حقيقى للفلسطينيين ، الأمر الذى لم يكن بيجن على استعداد للتسليم به . وهكذا كان موسى ديان - فيما يتعلق بهذه النقطة - أكثر واقعية من وايزمان ، فالسادات حارب من أجل القضية الفلسطينية وليس لأنه شعر بالتزام تجاه منظمة التحرير الفلسطينية ، لاسيما وأنه كان يكره زعماءها ويصف إياهم بأنهم أبطال كباريه ، ولكن لكونه رئيس مصر فإنه لم يكن يستطيع أن يوقع سلاما دون أية إشارة إلى الشعب الفلسطينى ، وهذا المسلك - كما قال لوايزمان - سوف يضر بكل من إسرائيل ومصر . هذه هى مشاعر السادات الحقيقية ، أما ما يذهب إليه كامل من اتهامه للسادات بأنه كان يخطط منذ البداية لسلام منفرد ، تستفيد منه مصر فقط بصورة عاجلة ، فهو تخريص قاس وليس حقائق .

إن خطة السادات الأصلية كانت تنمو ببطء ، فهو سوف يسترد سيناء على أنه لا يسمح ببقاء أية منشآت يهودية هناك ، وأنه سوف يبذل قصارى جهده للحصول على وطن دائم للفلسطينيين ، والذين سوف يرتبطون بإخوانهم فى الأردن بممر ... وفى المقابل سوف يعرض على إسرائيل ميثاقى سلام ، أما امتدادها الكامل فلم يكن واضحا بذهنه ، و أحيانا كان يتحدث عن تبادل السفراء والعلاقات الطبيعية بين الدول المتجاورة مثل السياحة والتجارة ، وأحيانا أخرى كان يقول إن مثل هذه العلاقات

يجب أن تنتظر الجيل القادم ، أما الاختبار الأعظم فسوف يأتي حاليا في كامب ديفيد . بعد لقاءاته مع كارتر أدرك السادات أن الرئيس الأمريكي بيده مفتاح حل المشكلة مع مصر .. وقد استطاع أن يبهر كارتر ببساطته وابتسامته وضحكه ، والرغبة الواضحة في تقديم تنازلات عظيمة من أجل السلام ، وذلك على عكس بيجن العنيد . وكان كارتر في هذا الوقت لا يزال حديث العهد بالنسبة لتعقيدات الشرق الأوسط ، كما كان فريسة سهلة بالنسبة لمستشاريه الماكريين ، في حين كان السادات شغوفاً بأن تكون له الغلبة على بيجن في قيادة الرأي العام الأمريكي .

وقد أوضح السادات ذلك لكامل الذي عارض قبول رئيسه - دون مناقشة سابقة - لاقتراح كارتر بعقد اجتماع ثلاثي يضم وزراء خارجية كل من الولايات المتحدة ، وإسرائيل ، ومصر .. لذا قال السادات " إنه تعلم ما مدى أهمية الدور الأمريكي ، ومدى لهفتي لأن تلعب الولايات المتحدة دور الشريك الكامل في المفاوضات ، لذلك لا أريد أن أزجج الرئيس كارتر " .

وهناك دليل آخر على أن ذهن السادات كان يعمل بعيدا عن المعتقدات التقليدية لوزير خارجيته ، ظهر في كلماته إلى كامل بعد لقائه مع وايزمان مرة أخرى ، حيث قال : " لقد أوضحت لوايزمان أن تصرفات بيجن سوف تؤدي إلى ضياع فرصة السلام لأن هذه التصرفات تظهر مدى جهله بالسياسة . إن بإمكانه - وللوهلة الأولى - أن يسحب قواته من سيناء إلى العريش ورأس محمد .

إن عناده أعماه .. لقد قلت لوايزمان إنني لا أستطيع أن التحق بمفاوضات لا طائل منها ، وأنه إذا لم تحدث تحولات جذرية تعود بإسرائيل إلى مواقعها قبل أكتوبر فإن الموقف سوف يصبح خطيرا جدا . وقد اقترحت على وايزمان أن يحاول إقناع بيجن بالحاجة إلى إجاز بعض التقدم ، مثل إعادة مدينة العريش لمصر ورفع العلم المصري عليها ، ومن ثم يمكن أن نتفاوض مع الإسرائيليين وأن نسمح للسوريين والأردنيين بالذهاب إلى هناك إذا قرروا الالتحاق بالمحادثات .

كما يمكن لبيجن أيضا أن يرد إلينا جبل سيناء ، حيث أنوى بناء مجمع ديني لليهود والمسلمين والمسيحيين ليكون رمزا على وحدة الأديان ، مثلما يكون رمزا للحب والسلام " .

وعلى أثر هذه الكلمات مشى كامل بعيدا فى غضب واشتمزاز سائلا نفسه
كيف يدنى رئيس مصر نفسه إلى هذه الدرجة كى يستعطف بيجن لإرجاع مدينة
العريش التى سوف تصبح جزيرة فى الأراضى المصرية التى استولت عليها
إسرائيل ؟ هل كان السادات يخطط لبناء هرم لنفسه على قمة جبل سيناء ؟

إن كامل لم يكن أكثر وزراء الخارجية المصريين تميزا أو أكثرهم فضلا ، وقد
أظهر السادات الكثير من الصبر مع وزير خارجيته الشاب الحاد المزاج ، ومع ذلك
حينما أصر كامل على الاجتماع مع السادات قبل اجتماع وزراء الخارجية فى قصر
ليدز بإنجلترا سألته السادات " لاحظت أن هناك تغيرا بالنسبة لك مؤخرا ، فهل ناقشت
خططنا مع بعض الأفراد من المعارضة أو غيرهم وتأثرت بهم ؟ وبالطبع ، أكثر كامل
هذا الاتهام ثم خرج عن حالته المزاجية قائلا إنه لم يرد أن يكون وزيرا للخارجية
لكنه فعل ذلك للعشرة الطويلة بينهما وبسبب الواجب الوطنى وأنه مكلف بمعاونته فى
صنع القرارات وإبداء النصيحة الخالصة له .

هذه الكلمات حركت السادات الذى أعلن أنه اختار كامل لنزاهته ، مضيفا "أنا
لا أريد أيا من مساعدى أن يأخذ كلمائى كما هى دون مناقشة ، وليس هناك داع
يجعلك تستشيط غضبا . إثنى سألتك سؤالا بسيطا وقبّلت إجابتك ، ومع ذلك لم تكن
هناك وسائل لإنهاء هذه الاختلافات . ولا إمكانية لأن توجد هذه الوسائل بدون حضور
السادات فإن مؤتمر قصر ليدز كان سيصاب بالفشل .. ومع ذلك لوحظ بزوغ نجم
الدكتور أسامة الباز فى الفريق الدبلوماسى المصرى ، والذى تفوق على الإسرائيليين
فى أى نقاش ، كما أبان بأستاذية كل الحقائق المراد تبياتها ، ومن ثم كان ذا فاعلية
عالية فى المؤتمر ، لدرجة أن الإسرائيليين - ولا سيما موسى ديان نجمهم التفاوضى
- كانوا غاضبين ومتأثرين .

وعلى أية حال فإن أحد الإجابات التى قدمها كامل عن سؤال وجهه موسى ديان
حددت نتيجة المؤتمر ، هذا السؤال هو : هل الاقتراحات المصرية تعنى أن
الفلسطينيين سوف يكون لديهم الحق فى إقامة دولة مستقلة ؟ ... وكانت إجابة
كامل : بالطبع .

إن السادات كان قد سمع عن الانقسامات في مجلس الوزراء الإسرائيلي ، ولكن ذبوع أن المصريين يتحدثون من خلال صوتين متناقضين كان لابد وأن يكون مقلتا لديان .

أما فيما يتعلق بحيرة كامل من سلوك السادات ، فقد كادت تبلغ الذروة .. كما كانت هناك فترة قصيرة حتى بدا هو والرئيس يأخذان نفس الخط ، لكن ذلك كان خدعة .. وترتب على إجهاض مؤتمر قصر ليدز أن أصبح كامل على قناعة بأن مواقف الإسرائيليين والمصريين لن تكون على وفاق . بينما ألقى بيجن بعض التصريحات التي أغضبت السادات ، إذ قال مخاطبا الكنيست " إن إسرائيل لن تتنحي عن حبة رمل كهديّة ، لكنها على استعداد للتفاوض انطلاقا من مبدأ التنازلات المتبادلة " .

وطبقا لرؤية كامل ، فقد شعر السادات بأن مبادرته ذهبت سدى ، وكان رد الفعل الواضح أن السادات رفض اقتراح كارتر بعقد اجتماع آخر لوزراء خارجية الدول الثلاث (مصر - إسرائيل - الولايات المتحدة) ، وكان كامل مسرورا من ذلك الخط المتشدد الذي اتخذه السادات برفض عذر ألفريد أزيروتون على مثل هذا الاجتماع وفي هذا السياق قال السادات : " إنني أقرر أسفا اتجاهي في الوقت الراهن إلى عدم عقد أية محادثات على أية مستوى إذا لم يعلن الإسرائيليون أن الأرض ليست جزءا من أي اتفاق ، وفي المقابل سوف نذهب إلى نهايات الكرة الأرضية لمنحهم الترتيبات الأمنية التي يحتاجونها يجب أن تبقى الأرض والسيادة خارج إطار المساومة .. نحن لسنا في غابة حيث يقتصب شعب أرض شعب آخر . إنهم في إسرائيل تحت قيادة بيجن يحاولون تحويل إسرائيل إلى قوة عظمى في المنطقة على حساب أراضينا ، وفي ذات الوقت يحصلون على الأمن والسلام .

إنني لا أصر على أن يحدث الانسحاب قبل أن تبدأ المفاوضات ، بإمكانهم تحديد قبولهم للمبدأ بضمانة أمريكية ... إن هدف إسرائيل هو أن تبعد الولايات المتحدة عن مائدة التفاوض بطريقة أو بأخرى " .

وحيثما تدخل كامل واقترح دعوة الأمريكيين للتفاوض ، كان واثقا من أنهم سوف يصرون على أن الاجتماع سوف يقوم على الإعداد للانسحاب طبقا لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ .

لكن السادات أجاب بحدة : لا وأضاف " لقد وصلنا الآن إلى مرحلة
اللاعودة .. إما السلام أو اللا سلام " . وكان هذا أداء عظيمًا من السادات ، الذي ترك
كلا من أزييرتون ومبعوث الأمم المتحدة في حالة دفاع وتخطب .

وهكذا بدا السادات وكأنه يعود إلى مبادرته ، ولكنه استطاع أن يلقي بكل اللوم
على بيجن ، وبمجرد أن رحل الرجلان في حالة حزن ، ذهب كامل إلى السادات وقبل
جبينه قائلاً وهو يبتسم "برافو يا ريس" فأجابه السادات "ماذا كنت تتوقع يا محمد؟" .
وفي حين ساءت العلاقات بين بيجن والسادات بصورة مؤسفة ، حيث بناء على
تعليمات السادات رفض كل من كامل واللواء الجمسى تلقي الرسائل التي كان يرسلها
بيجن إلى الرئيس ، أصبح الأمريكيون يخشون من أن يتأثر السادات بالسعوديين ، إذ
كانوا قلقين من فقدان قائد معتدل مثله والعودة إلى التوجه العربي التقليدي .

ومع ذلك لم تدم سعادة كامل طويلاً ، حيث لم يكن يفهم حقيقة الكلمات المشفرة
التي كان يستخدمها السادات ، وقد استغرق الأمر بعض الوقت لكي يدرك الأمريكيون
أن السادات يتمنى أن يصل بمبادرته للسلام إلى الذروة لا أن يتخلى عنها .

إلا أن الاجتماعات على مستوى وزراء الخارجية كانت تعد مضیعة للوقت .
خاصة أن وزير خارجيته كان ينشد أهدافاً مختلفة . وكان السادات قبل المؤتمر قد قال
لعيزرا وايزمان إنه سيفشل .

وبناء على ذلك ، التقط كارتر الإشارة وقرر في أغسطس ١٩٧٨ أن يدعو
السادات وبيجن إلى كامب ديفيد بالقرب من واشنطن . وعلى الفور أرسل سبراس
فينس إلى الشرق الأوسط لتقديم الدعوات ، وفي البداية ذهب لرؤية بيجن في القدس
وقبل الاقتراح ، ثم ذهب إلى الإسكندرية ، ثم إلى الريست هاوس حيث كان السادات
ينتظره هناك ، وأثناء وصوله كان السادات يجلس بعيداً عن الحديقة ، وقضى معه ما
يزيد على ساعتين ، وكانت النتيجة أن وافق السادات على أن يلتقي بيجن وكارتر في
كامب ديفيد .

ومن جانبه أخبر فينس كامل بأن مؤتمر القمة لابد أن ينجح ، وإلا فإن ذلك
يعنى نهاية حياة كارتر السياسية ، وعلى هذا فقد عزم كارتر على أن يلقي بكل ثقله

لتحقيق السلام المنشود ، الذى ستضطلع فيه الولايات المتحدة بدور فعال وإيجابى خلال المحادثات .

وبعد سماعه هذه الأخبار المفزعة اندفع كامل راجعا إلى السادات بالريست هاوس رغم أن الساعة كانت الواحدة صباحا ، ووجد السادات يتناول وجبة السحور وحينما سأله كامل ماذا قال له فينس ؟ رد عليه : نعم .. نعم .. هذا الذى كنت أصعل من أجله منذ البداية ، فكرتى هى أن الأمريكيين ينبغى أن يتصرفوا كشريك كامل ، وقد أخبرنى فينس أن هذا هو ما ينوى كارتر فعله بالضبط ، تذكر أن كارتر قد وضع مستقبله السياسى على الخط ، وأنا أشعر بأننا من المؤكد سننجح ، وأن نجاح المؤتمر أو فشله يتوقف علينا ، وقد حان الوقت لأن تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل وأن تحجم من قدر بيجن ، ألم أقل لك إن لدى تفاؤلا كاملا بأن مبادرتى لن تفشل . وبعد دقيقة من الصمت قال السادات لكامل : هل تتذكر حينما كنا فى السجن ؟ سوف يكون لك مكان معى فى التاريخ يا محمد " وكامل يهز رأسه فقط : إن شاء الله .

وقد كان كامل خائفا للغاية من غموض المشروع والعالم الغريب للقمعة الثلاثية، لذلك طلب من السادات - المندهبش - فترة قصيرة يخلو فيها إلى نفسه .

لكن السادات نفسه كان يعتقد داخليا أنه فى طريقه لإتجاز ما تمنى : سلام بشرف .

الفصل الثانى والعشرون

كامب ديفيد.. الغضب والدموع

كما رأينا ... كان سلوك أنور السادات قبل الذهاب إلى قمة كامب ديفيد مثيرا لحيرة وقلق كل من كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن ووزير خارجيته محمد إبراهيم كامل ، الذى كان مشغولا بصورة جنونية بالإعداد لتقديرات الموقف من أجل هذا المؤتمر العظيم ، كما جرت مناقشات بين كامل وفريق على مستوى رفيع من مسئولى الخارجية المصرية ، ذلك الفريق الذى كان بالطبع يتضمن أسامة الباز نجم مؤتمر قصر لينز .

وبعد إجازة قصيرة كان مزاج كامل أكثر تفاؤلا ، كما لم يعد يخشى حدوث كارثة فى كامب ديفيد .. حيث كل المسئوليات المناط بها هو وفريقه أصبحت واضحة ، فإما أن ينجح الرئيس كارتر فى كسر العناد الإسرائيلى والتشبيث الإسرائيلى بالأراضى العربية المحتلة ، وبما يفتح الباب للدول العربية الأخرى للالتحاق بالعملية السلمية فيما بعد وإنهاء العزلة المصرية ، أو أن يفشل المؤتمر فى تحقيق أى تقدم ، وفى هذه الحالة سوف لا تخسر مصر شيئا ، بينما تصبح خطايا إسرائيل أكثر وضوحا أمام العالم ، ويعد هذا فى حد ذاته مكسبا لمصر .

إن شيئا واحدا هو الذى كان يقلق كامل ، وهو أن بيغن قد أجرى مناقشات مطولة مع مستشاريه عن المؤتمر وأنه - أى بيغن - قد عزم على اتخاذ هذه القمة كوسيلة لتحقيق نجاحات أكثر لإسرائيل .. ولكن الحقيقة كانت مختلفة ، حيث كان بيغن ومعظم وزرائه قلقين من التنازلات التى سوف يبدونها .

والآن أصبح كامل أقل خشية ، لا سيما أنه لاحظ أن الرئيس كارتر كان يعد نفسه لمناقشات حادة .. ولكن ماذا كان أنور السادات يفعل ؟

إنه كان يسرع بالانتقال من بيت ضيافة إلى آخر : بالمعمورة ، الإسماعيلية ، السويس ، بورسعيد ... وحينما تحدث إليه كامل فى التليفون لم يبد السادات الكثير من الاهتمام بمناقشات وزير خارجيته .

شعر كامل بأن السادات كان يقضى نهار هذه الأيام كسلان ودون جدول حتى إفطار رمضان ، فى حين كان يقضى المساء فى تنظيم حزبه الجديد (الوطنى الديمقراطى) واستقبال أشخاص وطنيين مشهورين ووفود يرغبون فى الانضمام إلى

حزبه ، وكان يقوم بإلقاء أحاديث غير منقطعة عن صراع مصر من أجل الحرية ، ويتم التصفيق له بشدة .

وحينما بلغت تحضيرات كامل تلك المرحلة التي تطلبت فيها موافقة السادات ، طلب رؤية السادات ، ولكن السادات طلب تأجيل المقابلة لأنه كان صائما ، ولأن العمل أثناء رمضان يستثيره ... ثم طلب كامل مقابلته مرة ثانية ، لكنه تلقى نفس الرد .. وقد فاجأ ذلك كامل وأقلقه ، لذلك اتصل تليفونيا ليخبره بأنهما إذا لم يرتبا استراتيجية معروفة قبل المؤتمر فإنه - أى كامل - لن يذهب على الإطلاق .. فرد عليه السادات قائلا إنه سوف يقابل " كامل " قبل المؤتمر بأيام قليلة لأنه كان يدعو إلى اجتماع لمجلس الأمن القومى بالإسماعيلية .

ولم تكن هذه مناسبة سعيدة لكامل ، وكان متأثرا للغاية ، لأن سلوك رئيسه صدمه ، وكذلك ظهرت مخاوفه المكبوتة على السطح ... كما خيم عليه الصمت لأن السادات طلب من الجرسون أن يدخل السيدة همت مصطفى ، وسعد زغلول نصار وطلب منهما الجلوس بالقرب من مائدة الاجتماع .

ولأن مناقشات مجلس الأمن القومى كانت سرية ، ولا يتم خلالها القيام بتسجيلات ، كان كامل متدهشا لملاحظة وجود هاتين الشخصيتين الإعلاميتين ، وكل منهما يمسك بورقة وقلم ، ومع ذلك دعى إلى الاجتماع لمناقشة الاقتراب المصرى من كامب ديفيد .

شعر كامل بالاستياء وازدادت حيرته حينما سمع السادات يأخذ المصريين إلى بعيد ففى كتابه " اتفاقات كامب ديفيد " ، يحذر كامل قراءه من أن يصدموا من تناقضات الرئيس: عباراته المتقطعة التى لا تنتهى ، وعاداته المثيرة فى القفز من موضوع إلى موضوع ، ولكى أكون صريحا فإننى أسجل كلماته مع الشعور بالخجل والأسف .

وقد صدم كامل على وجه الخصوص من تصريح السادات بأن " حدود ١٩٦٧ تسيطر على التفكير الإسرائيلى ، واستعدادات بيجن لكامب ديفيد تقوم على التأكيد على أننى ينبغي أن أطلب إعلانا للمبادئ ، وأنه سوف يسعى إلى سلام منفرد أو حل جزئى مثل الانسحاب من سيناء إلى خط العريش - رأس محمد ، ومع ذلك ، لم أخض كل الصعاب بالاندفاع إلى مبادرتى لكى أخرج فقط بسلام منفرد أو حل جزئى .

وسوف يبنى اتجاه بيجن على أن الرجوع إلى حدود ١٩٦٧ يشير إلى سيناء ومرتفعات الجولان ، ولكن ليس إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ، لأن الحد الأخير يمثل تهديدا للأمن الإسرائيلي وهذا حقيقى ، لأن المراكز المدنية فى إسرائيل سوف تكون تحت طائلة نيران المدفعية التى يمكن أن تنطلق من الضفة الغربية وقطاع غزة.

ورؤيتنا الإستراتيجية تنهض على أن إعلان المبادئ ليس مشكلة لكى تناقش فى كامب ديفيد ، إن كامب ديفيد هى التطبيق العملى لمبادئ السلمية ، ولن تكون هناك جدوى من مناقشة إعلان المبادئ فى اجتماع الزعماء الثلاثة .. ومن أجل القيام بذلك فإن بيجن سوف يكون حر التصرف ، وطبقا لذلك فقد قررت أن أناقش إطار عمل للسلام .. ومن خلال هذا الإطار سوف نعد للسلام لنقطع الطريق بذلك على مغامرات بيجن . وحيثيات القرار ٢٤٢ تشترط عدم التسليم باحتلال الأراضى ، حسنا ، يجب الإعداد لذلك ، ولذلك السبب فإننى أوافق على مناقشة المسائل الأمنية الخاصة بالضفة الغربية رغم أننى تلقيت اتصالين أحدهما من الملك حسين ، والآخر من الملك خالد ، وقلت لهما : لماذا تضيقون علينا ؟ " .

وفيما يتعلق بالدولة الفلسطينية قال السادات إن الموقف مازال يتمثل فى أن الفلسطينيين لديهم الحق فى تقرير المصير مع الارتباط بالأردن ... وأنه سوف يعترض على منظمة التحرير الفلسطينية حتى لو قبلها الإسرائيليون ، وإذا رفض حسين الانضمام إلى المفاوضات فإن مصر لديها الحق فى الحديث نيابة عن الفلسطينيين .

وحيثما سأل السادات كامل إذا كان يريد الكلام ، رد عليه كامل وهو غاضب : نعم .. هناك بعض الأشياء التى أود أن أقولها .. ورغم أنه نصح من أحد مساعديه بأن يلتزم الهدوء ، فقد قال كامل : " إن مصر ليس لديها الحق فى أن تفرط فى الأراضى الفلسطينية من أجل أمن إسرائيل " . ولم يرد عليه السادات .

وبعد أن انفض الاجتماع أخبر السادات كامل بأن يعد نفسه للذهاب إلى كامب ديفيد فى غضون يومين ، فرد كامل بأنه لديه اقتراح ، وهو أنه ينبغي على السادات أن يأخذ موقفا متصوبا عن ذلك الموقف المعطى فى المشروع المصرى فى بداية الأسبوع الذى سيستغرقه المؤتمر ، فاتفجر السادات ضاحكا متعجبا بسخرية عميقة :

هل تتخيل أنك ستكون دبلوماسيا يا سيد محمد ؟ والله يا محمد أنت لست بدبلوماسي، عن أي أسبوع تتحدث ؟ إنني أنوى بمجرد الوصول إلى هناك أن أطرح مشروعهم، وأدمر المؤتمر وأعود خلال ٤٨ ساعة .. فرد عليه كامل الذي استطاع بصعوبة أن يسايره الضحك : من الطبيعي أن تكون حرا في أن تفعل ما تريده ، وعلى أية حال أنا لا أنشد أن أكون دبلوماسيا لامعا .

وعندما وصل السادات إلى كامب ديفيد كان من المتوقع بالنسبة له أن ينجز معظم - إن لم يكن كل - أهدافه ، إذ كانت لديه ثقة كبيرة في مقدرة كارتر .

وعلى خلاف ذلك كان كل من بيجن وكارتر مضطربين ، حيث رأى كارتر الشرق الأوسط بمثابة مكان يمكن أن يمهده بفرصة ذهبية لنصر عظيم ، وإحلال السلام حيثما توجد الحروب .

كذلك فإن الشرق الأوسط يعد منطقة ذات أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة . صحيح أن هناك علاقة وطيدة قد نشأت بينها وبين إسرائيل ، ويصعب كسرها بسهولة ، إلا أن البترول العربي أيضا له أهميته الحيوية وقد أظهر الحظر البترولي خلال حرب يوم كيبور مدى خطورة ما يمكن أن يترتب على الشقاق مع العالم العربي .

وفي السياق ذاته قبل كارتر طواعية التوصيات التي أعدت بواسطة خبراء الشرق الأوسط ، والذين ينتمى معظمهم للحزب الديمقراطي ، تلك التوصيات التي دعت إلى ضرورة بذل مجهودات عاجلة لإيجاد تسوية شاملة ، لكون التسوية المؤقتة لن تتيح القدرة على حل المشاكل المزمنة ، تلك المشاكل التي يتمثل أحد مفاتيح حلها في القضية الفلسطينية ، واعتقد المؤلفون أن حق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين سوف ينتهي إما إلى دولة فلسطينية مستقلة أو إلى كيان فلسطيني مرتبط بإتحاد فيدرالي مع الأردن .

وفي مقابل اتفاقية سلام شامل تضمن العلاقات الدبلوماسية والتجارية وحرية السفر وإنهاء المقاطعة العربية ، فإن إسرائيل مطالبة بالانسحاب إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ مع بعض التغييرات البسيطة فقط .

ولحسن الحظ ، علم كارتر متألماً أنه ينبغي أن يتجنب كل هذه التوصيات .

إن أى شخص كان يشاهد بيجن فى اجتماعات مجلس الوزراء كان لابد أن يقلق مما إذا كان فى ظروف تسمح له بتمثيل إسرائيل فى كامب ديفيد أم لا ، فقد كان يبدو فاقداً الاهتمام بما يقوله وزراؤه ، كما سمح لوزير مالىته باتباع سياسات مدمرة أدت إلى أحد أعلى معدلات التضخم فى العالم .

وكما لو كان خاضعاً لعلاج خاطئ لحالة قلبه ، ساهم بيجن فى تشاؤم مجلس وزرائه ، ومع ذلك فإن تحولاً ما حدث فى شخصية بيجن بمجرد وصوله إلى كامب ديفيد ، حيث أصبح يقظاً ، كما أظهر الكثير من حرارته القديمة ، كما كان لابد أيضاً أن يثبت أنه الخصم المخيف لأتور السادات ، وكانت المجادلات الكلامية والمستندية هى ما أفلح فيه بيجن المحامى السابق .

ولاحظ وايزمان أن المصريين والإسرائيليين لا يمكن أن يتصل كل منهما بالآخر بصورة مباشرة ، وإنما من خلال الوفد الأمريكى ، إذ رغم أن البعد الفاصل بين المصريين والإسرائيليين كان مائة ياردة فقط ، فإن الهوة بينهما كانت واسعة كما لو كانوا ما زالوا فى عواصمهم .

وفى الحقيقة فإن وايزمان ذكر مرارة ذلك ، مقررًا أنه كان يستطيع أن يتصل مباشرة بوزير الحربية المصرى فى القاهرة من تل أبيب ، بينما لا يستطيع الاتصال بالشخص المقابل له فى كامب ديفيد .

وقد كان أكثر شئ إزعاجاً هو الفصل الكامل تقريباً للاتصالات بين بيجن والسادات ، حيث انسحب السادات إلى كابينته ولم يظهر وجهه ، بينما تقهقر بيجن منعزلاً ، ولذا فقد حاول مساعدو بيجن كسر هذا الحاجز مقترحين عليه أن يذهب للخارج ويقابل السادات ، الذى كان يرتدى زى تدريب أترق ويذهب للنزهة للخارج ، وفجأة وافق بيجن وتقابل الرجلان فى أحد الممرات ، وكان هناك تبادل للتحيات المهذبة .

وكان بيجن قد أصبح موضوعاً للهجوم الشخصى الشرس من قبل وسائل الإعلام المصرية ، بينما الهجوم على السادات من قبل الإسرائيليين كان فى صورة مستترة وينصب فى معظمه على النواحي السياسية . وهكذا فإن رغبة بيجن فى تحية

السادات كانت ذات دلالة ، وعلى خلاف السادات وجد بيجن صعوبة فسي الاسترخاء ، ورغم حرارة الجو فقد أصر على أن يرتدى بدلة ورابطة عنق ، مدعيا لأنه لن يكون محترما بالنسبة للرئيس كارتر إذا لم يفعل ذلك .

وبينما ذهب وايزمان إلى كابينة بيجن ليكتشف ما أسفرت عنه المقابلة ، قابل السادات - الذى كان يسير مع كامل على مهل - وجهها لوجه ، فقال له وايزمان : "إبنى مسرور بلقائك " فرد عليه السادات الذى كان مرتبكا " وأنا أيضا " .

وإذا كان ذلك نابعا من مشاعر صادقة من قبل الرجلين فقد كانت هذه هى الفرصة ..

وقد علق وايزمان بأنه من الغريب أن يرى الرئيس المصرى يتصبب عرقا من المجهود العضلى ، خاصة أنه كان يراه تجسيدا للرجل الأنيق ، ذا الأسنان النظيفة والشعر الممشوط ، والذى يرتدى أزياء من أغلى الموضات ، ويفوح منه شذى لوسيون ما بعد الحلاقة . إن زى الرياضة الأنيق الذى كان يرتديه السادات غير نظرة وايزمان تجاهه ، حيث جعله أقل سحرا وأكثر إنسانية .

وفى حجرة العشاء فى المساء جلس كل من المصريين والإسرائيليين باردين منفصلين ، وحاول وايزمان أن يلطف الجو مذكرا بالأيام التى سبقت زيارة السادات للقدس ، ثم ذهب إلى مائدة المصريين محييا الوفد وجلس دقيقة أو دقيقتين ، ورغم أن هذا كان مجهودا شجاعا ، لكنه كان ذا قيمة محدودة فى الأجل القصير . وكان الرئيس كارتر وزوجته هما اللذان حاولا إذابة الجليد .. وعندما قابل بيجن كارتر قيل له أن السادات يريد أن تقبل إسرائيل بمبدأ عدم احتلال الأراضى بالقوة .

واعتقد وايزمان أن ذلك كان هو هدف السادات منذ البداية ، وأن تقبل إسرائيل سوف يؤدى بصورة تلقائية إلى الانسحاب من جميع الأراضى التى تم احتلالها فى حرب الأيام الستة .. ولو كان هذا هو انطباع السادات فإنه انطباع غير واقعى ، ومن المشكوك فيه أن السادات قد اعتقد بإمكانية أن يحصل على مثل هذا النصر السهل ، وعلى أية حال فإن بيجن كان هو آخر شخص يمكن أن يتنازل من خلال مثل هذا الإعلان ، خاصة أنه كان يركز على أن قبول مثل هذا المبدأ يتطلب أن تتغير الخريطة كلها .

وكان السادات قبل الاجتماع المصيري مع كارتر وبيجن قد تناقش مع وايزمان، محذرا من أنه أن لم يتم تحقيق إنجاز في كامب ديفيد فإن الموقف سوف يصبح خطيرا .

وقرر السادات أيضا : " سوف أبذل قصارى جهدى . إننى لا أعتقد أن كامب ديفيد سوف يتضمن إعلانا للمبادئ ، وبدلا من ذلك يجب أن نبحث عن إطار عمل للمناقشات المستقبلية . يجب أن نؤكد على أن العملية السلمية مستمرة ، ولن نتوقف أبدا ، ولا أحد سوف يلومنى لو حدث ذلك " .

غير أن نوايا السادات لم يكن معنا عنها بوضوح ، ففى معرض إجابته على سؤال لوايزمان فيما إذا كان يريد اتفاقية تشتمل على سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة كذلك قال : " لا تجبرنى على أن أنطوى تحت الأذرع السوفيتية ، إذا أصررت على سيناء فقط فسوف يستعيد السوفييت سيطرتهم على المنطقة . إننى أتطلع إلى سلام هنا فى كامب ديفيد ، ويجب أن نوقع ديباجة اتفاقية هنا ، وليست معاهدة سلام ، التى يمكن توقيعها فى وقت تال . إن لدى رغبة فى انضمام الملك حسين إلى المفاوضات ، ولكننى سوف أستمّر فى التفاوض حتى لو لم يفعل .. وسأكون صريحا معك .. إن لدى تفويضا كاملا بعقد اتفاقية سلام معكم ، خاصة بعد الهجوم الشررس على من قبل الزعماء العرب ، لكننا لدينا قول ماثور بأن الأب لا يمكن أن يهمل أيا من أطفاله ، إذا لم تأت الأردن إلى مائدة التفاوض ، وسوف أستمّر فى المحادثات ، وأتحمل المسئولية " .

وحينما قابل السادات بيجن وكارتر أصر على أنهما ينبغي أن يتحدثا عن جوهر اتفاقية سلام شاملة قائلا : " لا يجب أن نحول كامب ديفيد إلى حرب تليفزيونية مثل مؤتمر جنيف ، حيث كان كل شخص يتبارى كما لو كانوا مغنيين هواة يسعون إلى النجاح حتى يصبحوا محترفين .

ينبغي أن نعد ديباجة للاتفاقية ، وسوف يعالج مساعدونا التفاصيل فيما بعد ، وأعتقد أن ذلك سوف يحتاج إلى ثلاثة شهور " .

وللمرة الثانية قام السادات بفعل ما لم يكن متوقعا ، فقد فعل بالضبط ما قلّا لكامل إنه لن يفعله ، موبخا إياه بأنه دبلوماسى حديث الخبرة ، إذ تبنى وجهة النظر المصرية المتصلبة التى كان قد أعدها مسئولو وزارة خارجيته المخدوعين .

ومن المثير جدا للغرابة أن كامل نم يعلق على التغيير الذى حدث فى رأى السادات أو على حقيقة أن المؤتمر لم يبدد مخاوف الرئيس .

وليس هناك شك فى أن الإسرائيليين كانوا مصدومين ، إذ عرض كامل أحكامه المسبقة المتعمقة حينما أرجع رد الفعل الإسرائيلى إلى العقيدة المتصلبة غير الحقيقية بأنهم الشعب المختار ، وعلى سبيل المثال فإن وايزمان لم تكن لديه مشاعر التميز هذه على المصريين ، بل كان يائسا .

وكان من نتاج تغيير السادات لرأيه أن أصبح كارتر يائسا من أن ينجز اتفاقية لإنقاذ سمعته السياسية المبعثرة ... وعلى هذا الأساس كان من المفترض أن يكون كارتر جاهزا لأن يضغط على الإسرائيليين .

ولكن كارتر لم يعد ذلك السياسى الساذج مثلما كان فى أيامه الأولى ، حيث قال لبيجن " إن الوثيقة متطرفة .. ويبدو أنها صممت لغرس انطباع ما فى العالم العربى " ، لدرجة أن بيجن نفسه خاف من أن يكون السادات يحاول أن يستثير إسرئيل عن عد لإحمال المؤتمر وللتحمل هى الإداة الدولية ، ولذلك أعلن " لن نلعب المباراة المصرية " .

إن أحد مطالب الخطة المصرية ، والذى أغضب الإسرائيليين على وجه الخصوص ، تمثل فى طلب التعويض الكامل عما سببته القوات الإسرائيلىة من خسائر وعن استغلال الموارد الطبيعية فى الأراضى المحتلة ، حيث دفع هذا المطلب بيجن لأن ينفخ بغيظ قائلا: " ما هذه الوقاحة .. هل هذه هى الطريقة التى تتم بها مخاطبة أمة كانت تدافع عن نفسها هل يطلب منها أن تدافع على ما تعرضت له من عدوان ؟ "

وبالنسبة لوايزمان كانت الوثيقة المصرية مجنونة ومتقلبة .. وتسأل : لماذا جاء المصريون بطلب لم يأتوا به من قبل ؟ ماذا سوف يحدث لو طالبت إسرائيل بتعويض عن ملكيات اليهود التى صادرها الحكام العرب .

لقد كان حقيقة موقفا محيرا ، ولكن وايزمان وبقية الوفد الإسرائيلى لم يكونوا يدركون أن الورقة المصرية المتطرفة لم يتم إعدادها تحت إشراف السادات ، بل بواسطة وزير خارجيته الذى كان يتعامل معه باستهزاء .

ورد الإسرائيليون بورقة مقابلة مؤسسة على الموقف الإسرائيلي وأضافوا أن المصريين يجب أن يتحملوا خسائر الحرب . وقد وجد وايزمان أن هذا المطلب هزلى وتعجب " لا يجب أن نقتلهم " .. لكن الغرض الوحيد من الوثيقة الإسرائيلية كان هزيمة المصريين فى معركة الرأى العام العالمى إذا فشل المؤتمر كما يبدو واضحا الآن .

ورغم أن الأمريكيين اعتبروا أن الورقة المصرية غير مقبولة ، إلا أنهم لم يتخذوا أى تصرف ، وقد حير ذلك الإسرائيليين ، ولكن الأمريكيين كانوا يعرفون الانقسامات الموجودة داخل المصكر المصرى ، ومن ثم تجاهلوا الورقة واستمروا فى المناقشات ، بينما السادات - الذى كان واعيا بهذه الحركة - لم يعترض ، وأدرك أن مؤامراته قد فشلت .

وكان الاجتماع الثانى بين كارتر والسادات ملتهبا ، واعتقد بيجن أن السادات - بمباركة كارتر - سوف يطالب بدولة فلسطينية مرتبطة بالأردن ، وقد أدى سوء فهم اللفاظ إلى إثارة غضب السادات ، وشكا بيجن من المطلب المصرى بتحمل الخسائر وأنه لا يرد إلا من عدو مهزوم ، فرد السادات بغضب - معتقدا أن بيجن يشير بعبارة عدو مهزوم إلى مصر - قائلا " أمة مهزومة !! ... لقد كنا كذلك .. لكننا لم نعد مهزومين بعد حرب أكتوبر " ورغم أن كارتر تدخل وأوضح سوء الفهم ، فقد ظل السادات غاضبا ومغتاظا .

وأدى اجتماع آخر إلى صدامات أكثر ، واقترح كارتر أنه إذا كانت المنشآت الإسرائيلية برفح هى العقبة الوحيدة أمام السلام ، فإن طلب الإخلاء يجب أن يتم تقريره بواسطة الكنيسة ، وعارض بيجن الفكرة قائلا إن هناك أغلبية فى الكنيسة ضدها .. لكن وايزمان لم يكن متأكدا جدا من ذلك ، وأراد أن يثبت أنه على حق فتوجه للسادات قائلا " نحن نعرض عليكم السلام وأنتم تريدون الأرض " فرد عليه السادات متعجبا " إذا لم تقبلوا التحدى عن المنشآت فلن يكون هناك سلام " فرد بيجن بانفعال : " لن نتحدى عنها " .

طلب السادات تجسيد بناء المستوطنات ، وكان وايزمان على استعداد لقبول الفكرة ، لكن بيجن رد بحدة " وماذا سنقول لشبابنا ؟ إن ذلك سيكون جنونا ، خاصة

من قبل حكومة تدعى السيادة على كل أرض إسرائيل ، أى نوع من التجميد يمكن أن يفرض على أرض إسرائيل " .

وبعد أسبوع من المشاحنات ، خيم فيه اليأس على كامب ديفيد ، ذهب وايزمان لرؤية السادات ، واتفق الاثنان على ضرورة حدوث تقدم جوهرى ، وأن حوالى ٩٠ ٪ من المشاكل نفسية بالأساس .

والشئ الذى أبهج وايزمان هو أن السادات أعلن " لا أريد أن أعود للوراء ، من المستحيل أن أعود للوراء ، سوف أستمر فى مبادرتى " .. ولكن بعد الاستماع إلى حجة وايزمان عن المنشآت والمطارات الموجودة فى سيناء ، أشار السادات إلى عدم إمكانية بقاء علامة إسرائيلية فى سيناء ، متسائلا : بأى وجه يقابل القادة العرب لو وافق على أقل من ذلك ، وأن شعبه لن يسمح له بالتنازل عن بوصة واحدة من أرضه ، ونفس الأمر بالنسبة للضفة الغربية ، فإنها لا تنتمى لا إلى إسرائيل ولا إلى الأردن ، وإنما تنتمى لسكانها ، وعلى القوات الإسرائيلية أن ترحل عنها بعدما يقرر الفلسطينيون مستقبلهم .

ورغم كل هذه المطالب شعر وايزمان بأن الأمل ما زال قائما ، وأن موافقة السادات على مقابلة ديان - الذى كان يكرهه ويتجنبه - تعد علامة بارزة فى هذا الصدد .

وبعد رؤية السادات كان ديان مقتنعا بأن الأمريكيين لا يمارسون أى ضغط على المصريين لتغيير موقفهم ، وحينما حاول ديان التوصل إلى نقطة التقاء لم يستطع ، ومن ثم قرر : " إنها نهاية الطريق " لأنه كان يعرف عدم مرونة بيجن .

وحينما ذهب وايزمان إلى حجرة ديان وجده يعد حقييته .. وكان كارتر قد طلب من ديان ألا يناقش نقاط الاختلاف مع السادات ، لكن الأخير هو الذى أصر على مناقشتها .

وبينما شك ديان من تصلب موقف العرب تجاه إسرائيل قال : " قبالى جلس شخص غاضب ومضطرب ، هو وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل ، الذى قال إنه شغوف باتباع نهج سلفه " فهمى " من حيث تقديم استقالته " .

وكان مستشاره دكتور الباز معارضا بشدة لمعاهدة سلام وعازما على العودة إلى مصر إذا لم يكن هناك تقدم فى المفاوضات .

إلا أن حسابات الباز والسادات لم تكن بالضرورة متناقضة كما اعتقد كامل .. فى أحد النقاط قال السادات لديان : " هل تتخيل أنه من الممكن بالنسبة لى أن أعقد معكم معاهدة سلام لا تتضمن إزالة المنشآت والمطارات ؟ ! " ، فأجاب ديان : " فى هذه الحالة ، سوف نستمر فى احتلال سيناء وحقول البترول ، ومن ثم سأل السادات فى غضب : لماذا لم يقل ديان هذا منذ البداية مبكرا بدلا من أن يضيع وقت الآخرين ؟ فأجاب ديان بأن الإسرائيليين فعلوا ذلك ولكن العرب لم يريدوا الاستماع .

ولكن تطورا ما قد حدث نتيجة للاقتراح الخيالى الذى قدمه الجنرال أبراشاتامر، والذى كان مقربا من وايزمان ، حيث اقترح الاتصال بالجنرال شارون وإخباره بالأزمة بإيجاز ، وطلب - منه - أن يتصل ببيجن وحثه على إخلاء المنشآت ... ولما كان شارون هو الأب الروحى وراء بناء هذه المنشآت فإن هذه الحجة سوف تترك تأثيرا كبيرا على بيجن ، لقد كانت فكرة بعيدة وخادعة معا ، ولكنها نجحت ... إذ أخبر بيجن بعد مرور عدة ساعات الوفد بأن شارون اتصل به وأخبره بأنه يفضل إخلاء المنشآت ، إذا كانت هى العقبة الأخيرة أمام اتفاقية سلام .

ورغم أن بيجن بدا غير مقتنع فقد كان لتدخل شارون المفاجئ أثر واضح .

أيضا ، أصبح وايزمان مقتنعا بأن إسرائيل يجب ألا تتنازل فقط عن المنشآت إنما أيضا عن المطارات الحربية .

وأشار ديان إلى كارتير بأنه أيضا غير رآيه ، ولكنه قال له إن منشآت سيناء لا يمكن إخلاؤها دون موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى والكنيست . وهكذا فقد بيجن تأييد الأعضاء المتميزين فى وفده .

وفى المعسكر المصرى كان السادات أيضا يواجه أزمة ، إذ كان يواجه بقرار مؤلم بينما كان المؤتمر قد اقترب ولم يبق سوى يومين فقط ... وظهر التوتر بصورة مفزعة فى اجتماع له مع مساعديه ، وكان كامل بين أعضاء الوفد الذين جاءوا إلى كابينة السادات ، فجأة صرخ السادات بأعلى صوته : ماذا يمكن أن أفعل ؟ ... وزيد خارجيتى يعتقد أننى أبله ، اخرجوا كلكم !!

وحينما احتج كامل بشدة ، قال له السادات : " ماذا بك يا محمد ؟ ألا تعرف ما أنا مقدم عليه .. إذا لم تكن أنت الذى تتحمل معى فمن إذن " ... لقد كانت صرخة من القلب .

وفى اليوم التالى سمع كامل أن السادات أمر وفده بالمغادرة ، وقد اتصل السادات بزوجته تليفونيا - والتى كانت فى باريس مع أطفالها - وأخبرها بالقرار ، فاستعطفته أن يصبر أكثر ، ولكنه أصر على أنه ليس لديه خيار سوى المغادرة .

وحينما ذهب كامل لرؤية السادات وجده فى حالة ثورة .. ثم طلب السادات ضرورة حضور فينس فى الحال ، وقال : " لقد قررت أن انسحب من المؤتمر وأظهر فى التليفزيون لأشرح بالضبط ما حدث بعد عودتى للقاهرة " .

وعندما سئل عن سر حدوث هذه الخطوة الشديدة أجاب متعجبا " إنه من المستحيل تماما أن أصل إلى أى تفاهم مع بيجن ، إنه ببساطة يراوغ كارتر ، إنه يريدنا فقط أن نوقع على ما يريد هو ، وأن يترك كل شئ آخر فى الهواء " .

وعندما قال فينس للسادات إن رحيله سوف يخيب أمل الرئيس كارتر ويربكه ، وأن إسرائيل ستكون المستفيد الوحيد ، بدا السادات مضطربا ومتربدا إلى حد ما طبقا لرواية كامل .. كان السادات يشرح سلوكه فإن عبارة واحدة على وجه الخصوص صدمت كامل ، مفادها أن السادات لن يوافق على أية تنازلات أيا كانت إلا من أجل الرغبة فى مساعدة كارتر .

وصل كارتر فأخذه السادات بالأحضان وقاده إلى حجرة أخرى ، وبعد مرور نصف ساعة أرسل السادات إلى الفريق المصرى ، وكان يبدو مسرورا ، وعبر عن ذلك قائلا " الرئيس كارتر رجل عظيم وذكى للغاية ، قام بحل المشكلة بالكثير من المرونة وأنا راض تماما ، إذ قال لى إننى بإمكانى عقد اتفاقية نوقعها بالاعتماد على موافقة المؤسسات الدستورية فى مصر وإسرائيل ، متمثلة فى البرلمان المصرى والكنيست الإسرائيلى ، وإذا رفض أى منهما أو كلاهما الاتفاقية فإن أى التزامات تقع على الطرفين سوف تلغى " .

والآن أصبح هناك صدام حتمى الحدوث بين السادات وكامل ، ولسوء الحظ فإن لدينا رواية كامل فقط ، وسوف تكون غريبة إذا لم يرد أن يظهر نفسه فى أفضل صورة بارزة .

وتذهب هذه الراوية إلى أنه - أى كامل - حينما أوضح أن ما يشغله حقيقة هو نوع الاتفاقية التى ستوقعها مصر ، أجاب السادات " سوف أوقع على أى شئ سوف يعده الرئيس كارتر دون قراءته " .. وللمرة الثانية يظهر كامل سذاجة حينما رد سائلا " لماذا ينبغي أن يوقع السادات على أى شئ دون قراءته " فكرر السادات : "نعم سوف أوقع دون قراءته ؟

إن السادات أظهر قدرا كبيرا من الصبر مع وزير خارجيته الشاب ، وبالنسبة لكامل فإن ما قاله السادات - رغم الاعتراض على العديد من النصوص التى قدمها كارتر - كان مفاجئا ... وحتى عندما كتب كامل مذكراته لم يدرك مدى السذاجة التى أظهرها عبر تغيره ، رغم أن أمانته وشجاعته لا يمكن إنكارهما .

وفى نفس اليوم ، دعا السادات إلى الاجتماع بكامل والباز فى مقر إقامته ، وعندما كان كامل ينتظر السادات ، كان الأخير يتحدث تليفونيا مع جيهان بباريس بصوت مرتفع وأخبرها بأن هناك إمكانية للتوصل إلى اتفاقية مشرفة فى غضون يوم أو يومين ، ثم طلب السادات من جيهان أن تحضر حفيده شريف إلى التليفون ، وسمع السادات مرات عديدة يقول " شريف .. انت ولد وحش " ثم يضحك بضجيج .

وقد أظهر السادات الوثيقة المعدة للتوقيع من قبل الزعماء الثلاثة ، تلك الوثيقة التى حددت أن كارتر ينوئ أن يختتم المؤتمر يوم الأحد التالى ١٧ من سبتمبر. كان كارتر قد دعا الجانبين لاجتماع فى اليوم الثانى لإبداء تعليقاتهم النهائية على المشروع الأمريكى .. وأن الرئيس كارتر سوف يقوم بتقديم الدعاية للتوقيع عليها من قبل الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن .

وقد توقع السادات بوضوح رد الفعل الحار الذى سوف يبديه كامل ، لكن الأخير لم يكن متجاوبا بل رأى أن الورقة تتعامل مع مسائل إجرائية وأنها لا قيمة لها فنزعها السادات من يد كامل قائلا " .. لا .. إنها مهمة جدا ، كما أنها مكتوبة بخط يد الرئيس كارتر " .

وفى اليوم التالى ذهب كامل ليرى السادات مبديا استعداداه للاستقالة ، ومما يثير الدهشة أن كامل لم يذكر أن الاتفاق تضمن تخلى إسرائيل عن كل المنشآت والمطارات الحربية الموجودة بسيئاء ، وانصب تركيز اهتمامه على أن إسرائيل سوف تبقى مسيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة وكذا مرتفعات الجولان خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية .. كما تحجج كامل بأن العالم العربى سوف يرى هذا التعامل بوصفه سلاما منفصلا بين مصر وإسرائيل .

وفى مناقشة ساخنة .. قال له السادات .. " أنت لاتعرف شيئا عن العرب ، أنا فقط الذى أعرفهم جيدا ، وإذا تركوا لأنفسهم فإنهم لن يحلوا المشاكل ، وسوف يدوم الاحتلال الاسرائيلى " .. وعندما قدم كامل استقالته قبلها السادات على الفور .

ولكن حدثا طارئا مضادا ظهر على السطح حينما ذهب السفير نبيل العربى مدير الشؤون القانونية بوزارة الخارجية - ليرى السادات وقال له إن الخطابات المتبادلة بين الزعماء بخصوص القدس ليست لها قيمة سياسية أو قانونية ، وبعد أن شرح العربى اعتراضاته .. قال السادات له بهدوء : " لقد سمعتك دون مقاطعة ، لذلك لا أحد يستطيع أن يدعى ما يشاع على من أننى لا أسمع ولا أقرأ .. وأود أن تعرف أن ما كنت تقوله دخل من هذه الأذن وخرج من الأخرى ، إنك والناس فى وزارة الخارجية يقعون تحت تأثير أنكم تفهمون السياسة ، وفى الحقيقة أنكم لا تفهمون شيئا على الإطلاق ، ومن ثم فإننى لن ألقى أدنى اهتمام لكلماتك ومذكراتك ، فأنا رجل تصرفاته محكومة باستراتيجيات عليا لن تكون قادرا لا على إدراكها ولا على فهمها ، وأنا لا أريد تقاريرك المضللة وغير الواضحة ، والآن يهين وزيرك محمد كامل الرئيس كارتر فى حضورى .. ألا يدرك أن الرئيس كارتر هو كارتي الذى ألعب به فى إقامة سلام شامل ؟ " .

وبعد أن صمت لمدة دقيقة أضاف السادات (طبقا لكامل) : هل أنت واع بأن قريبك محمد حسنين هيكل يهاجمنى فى كل مكان ويتآمر على تغيير النظام وأننى لم أعط أية أهمية - ولو قليلة لكاذبيه وسخافات الممزوجة بالخبث والحقد الأسود "

ورغم أن بعض مخاوف كامل السيئة - من وجهة نظره المتطرفة - لم تكن كلها فى غير موضعها ، فإنه لم يكن مدركا الأضرار التى كان يشعر بها مناحم بيجن .

إن وايزمان شعر قبل المؤتمر بأن بيجن لا يرغب في أى مناقشة مع السادات،
لأنها سوف تفقد حتميا إلى التنازلات ..

كذلك تمثل خطة الحكم الذاتى الخاصة بالضفة الغربية وقطاع غزة - والتي
سخر منها كامل - علامة على تضحية بيجن ، وأنه سوف ينتقد بشدة من جانب
القتيلين أو الكثيرين من الأعضاء المستقلين في حزب حيروت .

لقد كانت هناك دهشة من أن بيجن قبل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني،
إذ بالنسبة لزعيم حزب كان يرى أن الضفة الغربية هى مسألة وخيار إسرائيلي
داخلي، تعتبر هذه التنازلات غير عادية .

وهكذا كان بيجن يواجه مشكلة ضخمة ، فهو إما أن يتنحى عن منشآت سيناء
والمطارات الحربية ، والتي كان يصفها دوما بأنها حيوية لأمن إسرائيل ، وإما أن
يفشل مؤتمر كامب ديفيد ويواجه غضب الولايات المتحدة الحاد .

ومما يثير الغرابة ، أن الخلاف بين بيجن والسادات كان حول عبارة عدم
حيازة الأراضي بالقوة ، فأحدهما كان يريد استبعادها ، بينما الآخر كان يريد بقاءها
في حين ضغط كارتر على السادات بأن العاطفة التى تناديه سوف تجعله يجازف
بمكائنه السياسية ، ومن ثم فإن السادات - رغبة منه فى مساعدة صديقه - وافق
أخيرا واكتفى بالإشارة إلى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ .

وانطلاقا من تسلحه بهذا التنازل ، قابل كارتر بيجن فى محاولة أخيرة يائسة
لكسر صخرة الموت ، مشيرا إلى هذا التنازل الذى كان يمنحه أهمية رمزية عظيمة
رغم أنه لم تكن له قيمة من الناحية العملية .

وعلى هذا الأساس غير بيجن موقفه بتصريح دراماتيكي : " إذا كان انعقاد
السلام متوقفا على منشآت سيناء ، فسوف أعرض الأمر على الكنيست ، وسوف آخذ
بما يقرره الكنيست ، وسوف أوصى بأنه فى هذه المسألة المهمة والحساسة لا يمكن
توجيه النظام الحزبى فيما يتعلق بالتصويت ، هذا هو كل ما يمكن أن أفعله ،
ولاشئ أكثر من ذلك " .

ولأن حزب العمل المعارض كان سيصوت لصالح مثل هذه الاتفاقية ، ولأن حزب حيروت (حزب بيجن) سوف يسانده ، فإن النتيجة كانت مؤكدة .. ومع ذلك ظلت هناك صعوبة غير متوقعة برزت على السطح .. وقد ظهر أن كارتر وعد السادات بالإعلان عن القدس الشرقية باعتبارها أراضي محتلة شأن بقية الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧ .

ولدى سماعه ذلك علق بيجن ببجاجة .. " لو كانت هذه هي الحال فإننا يمكن أن نحزم حقائبنا ونعود دون كلمة أخرى " .

وقد تم التغلب على هذه الأزمة في خطاب حدد فيه الأمريكيون أن الموقف من القدس بقى كما حددته الجمعية العامة للأمم المتحدة في يونيه ١٩٦٧ ، حينما طالبت الولايات المتحدة بمراقبة دولية على الأماكن المقدسة ، ورفضت أن تعترف بضم إسرائيل للقدس الشرقية .

وواقع الحال ، فإن اتفاقات كامب ديفيد لم تسفر عن اتفاقية وإنما كانت هناك - ييجتان ، إحداهما بين مصر وإسرائيل ، وهى التى اشتملت على الانسحاب الإسرائيلي من المنطقة ، والأخرى تتعلق بالضفة الغربية وغزة .

وقد وعدت الولايات المتحدة ببناء مطارين حربيين داخل إسرائيل بدلا من المطارين الموجودين بسياء ، كذلك طالبت إسرائيل بنزع سلاح كل المنطقة لكنها فشلت ، وبدلا من ذلك تم الاتفاق على إنشاء منطقة فاصلة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية .

أما الاتفاقية الثانية والخاصة بالضفة الغربية وغزة فقد اتفق أيضا على أن تكون إطارا لتسوية شرق أوسطية شاملة ، وكان هذا هو السبب الذى جعل السادات يوقع عليها ، حيث أدركت مصر حاجة إسرائيل للأمن من خلال الضفة الغربية وغزة ، بينما تعهدت إسرائيل بمنح الحكم الذاتى الكامل للسكان .

وقد استطاع السادات أن يحقق عدة إنجازات حقيقية ، إذ لأول مرة تقبل إسرائيل أن يشارك ممثلون فلسطينيون من خارج المنطقة فى المفاوضات ، وحل القضية الفلسطينية بكل ملامحها ، أو بمعنى آخر اتفاقية تعترف بالحقوق المشروعة

للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة ، واتفق الطرفان على تطبيق الحكم الذاتى بعد فترة انتقالية لا تزيد على ٥ سنوات ، ومع ذلك فإن لإسرائيل الحق فى الاحتفاظ بالسيادة كاملة فى نهاية هذه الفترة .

وتحتم أن تترك بعض تفاصيل الاتفاقية الثانية مبهمة ، إلا أنه يجب إلقاء اللوم فى هذا السياق على منظمة التحرير تحت قيادة ياسر عرفات ، حيث رفضت المشاركة فى المحادثات ، وليس هذا فحسب ، وإنما أيضا طالبت بالكثير من التنازلات الواضحة ، إلا أن هؤلاء الفلسطينيين كانوا مستعدين لقبول ظروف أسوأ فى مدريد ١٩٩١ .

وتقريبا كانت هناك شكوك فى المعسكر المصرى ، كما كان بعض أعضاء الوفد الاسرائيلى قلقين .. وعلق وايزمان قائلا : " اتفاقية أشبه بعقد الزواج اليهودى ، لا تنظر إليها وتضعها بعيدا مقفولا عليها ، ولو لم يسر الزواج على مايرام فإنك تخرجها وتدرسها ، ولكن فى ذلك الحين سوف تكون متأخرا جدا ، وستساعدك السماء إذا احتجت إليها " .

واقترح وايزمان على بيجن أنهم يجب أن يقوموا بزيارة للسادات ، فاتصل به بيجن تليفونيا ، وبعد تهنئته على الاتفاق سأله إذا كان من يمكنه المجئ وزيئته ، فرد السادات : " بكل سرور " .

وحينما دخل بيجن كابينة السادات سلم عليه بحرارة ، ولاحقا زار السادات كابينة بيجن ، وملأ وايزمان حينئذ أكواب النبيذ لكل الأفراد بما فيهم السادات ، ناسيا أن الرئيس مسلم تقى لا يشرب الكحول ، فاستثار السادات وايزمان بمداعبته بالقول " أنا لست وثنيا مثلك " ، وأمسك الجميع أكواب النبيذ وأمسك السادات عصير الفاكهة وشربوا نخب السلام .

وبعد ذلك طارت الوفود إلى البيت الأبيض-بواشنطن من أجل التوقيع من خلال احتفال ، وحينذاك عبر السادات عن امتنانه وشكره للرئيس كارتر قائلا : " لقد تعهدت بأن تكون شريكا كاملا فى العملية السلمية ، وإننى سعيد للقول بأنك قد وفيت بوعده" ، ثم دعا كارتر لأن يستمر فى مجهوداته حتى تكتمل العملية السلمية ويزيد اعتقاد الشعب الفلسطينى بحقيقة السلام .

وبعد أن تحدث الزعماء الثلاثة أعلن كارتر : " لقد حان وقت توقيع الاتفاقيات".
ويمكن القول بوجه عام ، أن الوساطة الشخصية للرئيس جيمي كارتر هي التي
أنقذت الموقف ، وأنه في واشنطن في السادس والعشرين من مارس ١٩٧٩ قام
جيمي كارتر وأنور السادات ومناحم بيجن ليس فقط بتوقيع معاهدة سلام وإنما بإنهاء
٣٠ سنة من الحرب .

الفصل الثالث والعشرون
آمال غير مكتملة
الطريق إلى المأساة

عاد أنور السادات إلى القاهرة فخورا ، شاعرا بأنه كسر حدة الصراع مع إسرائيل ، وأنه جلب السلام لكل العالم العربي وأقام علاقات دافئة ، خاصة مع الرئيس جيمى كارتر ، ومن خلاله مع الشعب الأمريكى .

ورغم أنه قد بدا لبعض الوقت مستاء من عناد بيجن ، فإنه لم يكن يحمل تجاهه أى ضغينة ، بل ظل يرى بيجن رجلا قويا وأمينا ، لم ينصب اهتمامه على أمن دولته الصغيرة فحسب ، وإنما أبدى استعداداه لصنع سلام مع أكبر دولة عربية .

وقد ساد الشعور بالسعادة والبهجة بين الناس العاديين فى القاهرة ، ذلك الشعور الذى انعكس على سلوكهم فى الحال بعد ذهاب السادات للقدس ، وكانت هناك تقارير حقيقية صادقة عن سائقى التاكسى المتحمسين الذين يقدمون توصيلات مجانية للزائرين الاسرائيليين فى إشارة إلى الصداقة الجديدة .

كذلك ، كان هناك حادث المعبد اليهودى الموجود بشارع عدلى باشا بالقاهرة حيث أقبل أعضاء الوفد الاسرائيلى بالمحادثات لأداء الصلاة بالمعبد ، واحتشد جمهور كبير خارج المعبد ، وقد أفرغ ما أحدثوه من ضوضاء الموجودين بداخل المعبد ، وظنوا أن هذا التجمهر ذو طبيعة عدائية ، فخرجوا ليروا ماذا يحدث خارج المعبد بالضبط ، وقد أثار دهشتهم أنهم سمعوا ترديد كلمات " بيجن .. بيجن " والتى كان الجمهور يغنيها بسرور ، حيث اعتقد الجمهور أن رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجن بداخل المعبد فجاءوا ليحيوه ، وقد اقترن ذلك الحماس بالتصفيق والضحك .. وأخيرا قرأهم البوليس دون استخدام أى عنف .

إن رأى العام تأرجح بصورة كبيرة مع آمال السلام ، تلك الآمال التى زادت ثم انخفضت ثم زادت مرة أخرى .. والتى اتجهت إلى التغير الهائل المنتظر فى حياة المصريين العاديين نتيجة للسلام مع إسرائيل ، وكما اتجهت إلى المساعدة الأمريكية المتوقعة وتدفق المستثمرين ، و... و ... إلخ .

إن الشعب المصرى كان ينتظر الثروات أو على الأقل ظروفًا اقتصادية أفضل تهبط عليهم ومن جانبه كان أنور السادات مسرورا لأنه أصبح " بطل السلام " والرجل المستول عن إحداث هذا التحول الدراماتيكي ، بينما نسى الناس - وعلى نطاق واسع - تلك المشاعر القاسية التى أدت إلى إحداث شغب منذ سنتين .

ورغم أنه بدا واضحا أن التفاصيل الخاصة بالحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة كانت فى طريقها لمواجهة صعوبات ، فقد ظل السادات على هدوئه ، يتحدث عن آماله فى بناء شرق أوسط جديد يقوم على الفضيلة والتعاون بين اليهود والعرب ، مكررا إشارته إلى بناء مجمع دينى فى سيناء يتكون من مسجد وكنيسة ومعبد .. إذ رأى فى اعتقاده أن اجتماعات زعماء الديانات الثلاثة يمكن تعميقها على مستوى المسلمين والمسيحيين واليهود العاديين بتجميعهم هناك وقيامهم بمناقشات مثمرة ، ورغم أن هذه الفكرة بدت خيالية للمراقبين الأجانب ، فإن السادات كان يراها عملية وامتدادا طبيعيا للسلام مع إسرائيل .

ولم يفقد السادات الأمل فى الوصول إلى اتفاقية معقولة مع الإسرائيليين عن الضفة الغربية وغزة ، ومع أن الدلالات لم تكن كلها مناسبة إلا أن السادات ظل يتحدث عن آماله فى السلام ومثاليته ، أما الشكوك بخصوص اتفاقية الضفة الغربية فلم تكن عرضة للانتقاد فى مصر ، وفى إسرائيل أيضا بدأ موشى ديان وعيزرا وايزمان يركزان بصورة أكبر على نوايا بيغن الحقيقية وقد أدرك ديان أن بيغن يمرر إليه سياسة معينة عن قصد تجاه العرب ، وبدأ الوزراء يخبرون صحفيهم المفضلة بأنهم - وبيغن بالتالى - غير سعداء من اجتماعات ديان مع قادة العرب الفلسطينيين ، مثل دكتور حيدر عبد الشافى الذى أصبح مؤخرا عضوا دائما فى المفاوضات مع حكومة حزب العمل .. والذى قرر أيضا أن ديان ليبرالى ، وأنه لديه رغبة فى إبداء تنازلات للعرب .

إذا كانت صحة ديان أفضل فإنه كان سيبقى بمجلس الوزراء ، كما فعل حينما كان موقفه أكثر صعوبة بعد حرب يوم كيبور ، ولكن السرطان ومخاوفه من أن يفقد الرؤية بإحدى عينيه أقنعتة بأن وقت الاعتزال قد حان .. ومن ثم قام بتقديم استقالته. أما وايزمان ، والذى استمر عدة شهور بعد استقالة ديان ، فقد اتسعت حدة الخلافات بينه وبين بيغن كما فى حالة ديان ، كما أضافت خطوة وايزمان فى إقامته اتصالات مع أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بعدا جديدا فى التوتر بينه وبين ديان.

وفى مايو ١٩٨٠ ودع وايزمان مؤسسته الدفاعية ، وشأنه شأن ديان شعر وايزمان بالقلق على معاهدة السلام التى وقعوها مع السادات ، حيث قام بيجن ومؤيدوه - طبقا لوايزمان بهدم ما تم إنجازه ببرامج الاستيطان المثيرة ، والمصادرة غير الضرورية للأراضى والعبارات الرنانة التى تتحدى العالم ، وكأنهم يعودون إلى العيش فى عزلة عقلية .

ومن ناحيته رفض السادات لمدة شهور أن يتخلى عن الأمل فى إمكانية التوصل إلى اتفاقية ، ففى إشارة شخصية تظهره فى أفضل صورة ومشهد ، أبحر السادات برفقة جيهان إلى ميناء حيفا على ظهر يخت الملك فاروق ، ولمسوا عمق ترحيب الجمهور الإسرائيلى الذى وقف يصفق ويهلل لهم بحماس بالمقارنة بالعداء الشديد من قبل المعسكر العربى .

وقد أعلن السادات أنه سوف يبيع لإسرائيل سنويا ٢ مليون طن من بترول سيناء .. وفى إشارة أبعد ، أبدى السادات موافقته على الربط بين ميناءى حيفا والإسكندرية ، كما تحدث السادات عن تخيله أن تروى مياه النيل ، ليس الأماكن الصحراوية فى شبه جزيرة سيناء فقط ، وإنما أيضا صحراء النقب الإسرائيلية .

وفى منتصف ١٩٧٩ ، وتحديدًا بعد مرور شهور قليلة على توقيع اتفاقات كامب ديفيد ، ظل السادات فى مزاج ودى على أساس أنه قدم عصر السلام ، ولإعطاء دفعة للمفاوضات مع الإسرائيليين بخصوص الحكم الذاتى للفلسطينيين عين الرئيس الدكتور مصطفى خليل - ذا التعليم الغربى والهادئ الحديث - على رأس الوفد المصرى. ورغم الاجتماعات التى تمت فى هذا السياق فلم تكن هناك دلالات للتقارب أو الفهم ، حيث بقيت الاختلافات قائمة ، فمن جانبها أصرت إسرائيل على أن تبقى القدس موحدة تحت سيطرتها ، وبدورها طالبت مصر بخصوصية الوضع الذى ينبغى أن تكون عليه القدس الشرقية ، كما أرادت إسرائيل مجلسا إداريا للضفة الغربية وغزة فى حين طالبت مصر بمجلس يمتلك كل السلطات التشريعية .. كذلك أصر بيجن على بناء مستوطنات جديدة وترميم وتجديد القائمة ، فى حين أعلن السادات أن ذلك يتعارض واتفاقات كامب ديفيد .

وتمنى السادات أن يعين الفلسطينيين على إرساء قواعد تشريعية وإدارية من خلال المساعدة الأمريكية ، حتى يمكنهم ممارسة السلطة بفعالية بعد أن تنتهى الفترة الانتقالية .

وفى ضوء ذلك كان بيجن قلقا من ممارسة الفلسطينيين لذلك خوفا من أن يؤدي ذلك إلى قيام الدولة الفلسطينية ، بما يؤدي إلى الإنذار بإنهاء السيادة الإسرائيلية على المنطقة وتدمير قناعاته الوطنية والأيدولوجية .

وبدأ السادات تدريجيا ييأس من الوصول إلى أية اتفاقية مع بيجن ، كما احتد رأيه بالنسبة لياسر عرفات - زعيم منظمة التحرير الفلسطينية - وتابعيه ، إذ طبقا لوجهة نظره فإنهم يساعدون بيجن برفض التعبير عن رغبتهم بالمشاركة فى المفاوضات ..

ودفاعا منه عن حق إسرائيل فى الوجود ونبذة للإرهاب ، حاول بيجن أن يقيم بدىلا للقيادة الفلسطينية ، ليتحرر من تأثير منظمة التحرير الفلسطينية ، من خلال تشكيل تحالفات (اتحادات القرى) والتي تدار بواسطة رجال من القرى .. لكن تلك القيادات أثبتت عدم فعاليتها ، كما كانوا عرضة لخطر الاغتيال . وحتى استبدال الحكومة العسكرية فى إسرائيل بمؤسسة مدنية من نوع معين أظهرت نية إسرائيل فى الإبقاء على الأرضى . إن السادات - الغاضب والمغتاظ من الإسرائيليين ، والفلسطينيين الذين لم يبدوا أهمية لمجهوداته الشاقة نيابة عنهم ، و الملك حسين الذى لم يبد رغبة فى الالتحاق بالمحادثات - تحدث عن الأطراف المذكورة بقسوة لكونه شعر أنهم يعادون مبادرته السلمية .. وفى أغسطس عام ١٩٨٠ كتب السادات لبيجن عن أن الفشل فى إجراء خطة للتنسيق والتوفيق بين الإسرائيليين والفلسطينيين قد يؤدي إلى إعادة إشعال النيران ، سواء بالنسبة لإسرائيل أو بالنسبة لاتفاقات السلام .

وأكد السادات أنه كان يأمل فى أن تكتمل محادثات الحكم الذاتى بحلول ٢٦ من مايو ١٩٨٠ ، وبعد سنة بدأت ، ولكنه قوبل بعاصفة من الاستيطان الإسرائيلى ، وبالتصرفات الاسرائيلية العدائية ضد الفلسطينيين .

وقد اغتاز السادات على وجه الخصوص من القرار الإسرائيلي بنقل بعض المكاتب الحكومية - ومنها مكتب رئيس الوزراء - للقدس ، إذ رأى السادات أن ذلك يمثل إهانة لـ ٨٠٠ مليون مسلم ، والذين لديهم الحق الأكبر في القدس بالمقارنة بـ ١٨ مليون يهودي . كما رأى الرئيس أن هذا التحرك يعتبر نزعا للثقة التي أرساها بنفسه في محادثاته مع بيجن بالاسكندرية وحيفا وأسوان .. كذلك تحدث الرئيس بصراحة - وأحياناً بعاطفية - إلى بيجن مؤكداً دلالة وأهمية القدس بالنسبة للعرب ، معتقداً أنه بدون تقسيم القدس يمكن إيجاد الطريق للسلام بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، من خلال استعادة الحقوق التاريخية والقانونية للعرب بالمدينة .

ورغم أن السادات قد فشل في إقناع بيجن الذي تعطل بأن موقف إسرائيل يتطابق مع الاتفاقات ، فقد كتب إليه مرة ثانية بطريقة صوفية مؤثرة ، قائلاً إن أفكاره خطرت له وهو يصلى ويقرأ القرآن المقدس على قمة جبل سيناء ، إذ أدرك أثناء وساطته أن مبادرته السلمية كانت رحلة مقدسة ووحيا إلهيا ، وأن المولى القدير سوف يتم عجلة تاريخ الأخبار الذي بدأ على تراب مصر .

وفي نفس الوقت استعطف السادات بيجن لكي يدرك أنه إذا لم تحل مشكلة القدس بالطريقة التي تضع بالحسبان الملامح القومية لعرب فلسطين ، فإن فرصة عظيمة سوف تضيع سدى ، وراوغ بأنه إذ أخلى الفلسطينيون الضفة الغربية فإنه سيمد مياه النيل لمساعدتهم على التوطن في صحراء النقب ، ولكن لعدم موافقة بيجن رأى السادات أنه لا فائدة من الاستمرار في المفاوضات ، لأن الاستمرار فيها سيجعل الموقف أسوأ .

وقد اتضح الكثير من سخط السادات الزائد خلال مقابلة أجرتها معه صحيفة معاريف الإسرائيلية القومية في ٢٢ من أغسطس ١٩٨٠ ، والتي دارت في جوهرها حول أنه اعترف لأول مرة بأنه في مايو ١٩٧١ ، وأثناء مبادرة روجرز كان على استعداد للتوقيع على وقف إطلاق النار بصورة أكبر من اتفاقية سلام .. ومع ذلك ، فإن كل الخطوات التي اتخذها لتدعيم السلام والتطبيع لم تقابل باستجابة حقيقية ، حتى دعوته للرئيس الإسرائيلي نافون لزيارة مصر ، كجزء من العملية التطبيعية اسي فهمها على أنها محاولة لتقويض سلطة بيجن .

و ادعى السادات أن مجهوداته لدفع عملية السلام بين مصر وإسرائيل ذهبت إلى أبعد من التزاماته باتفاقات كامب ديفيد ، وأنه اتخذ عشر خطوات للأمام في مقابل كل خطوة اتخذها الإسرائيليون .

ورغم ذلك امتدح السادات القرار الإسرائيلي بإعطاء أولوية في جدول الأعمال للإسحاب من أجزاء من سيناء ، وأكد أنه لا حروب أخرى ستعكر العلاقات بين مصر وإسرائيل وأن الخلافات سوف يتم حلها عن طريق المفاوضات ، وكان الصوت منخفضا بالفعل حينما قيل : لن تكون هناك حرب ساخنة ، ولكن سيكون السلام باردا .

وبحاسته الفطرية شعر السادات بالإحباط المنتشر بين شعبه ، فلم تحقق لهم مبادرة السادات الرفاهية ، ولا هي انتهت المشاكل ولا هي أوقفت النضال مع إسرائيل وفي ذات الوقت فإن الدول العربية كانت تشن غارة ضده واصفين إياه بأنه خائن للقضية العربية .

إن شعبه كانت لديه توقعات عالية ، وأثناء زيارته للعريش شاهد الأعلام التي ترفرف مبشرة بالسلام والرفاهية والرخاء ، فهل تبددت كل هذه الآمال وهذا الشعور بالسعادة .. إن مزاج السادات وسلوكه تغير ، حيث لاحظ أصدقاؤه أنه أصبح عصيبا ويتحدث بكلمات غير مألوفة ، كما بدأ يجد العزاء في الانعكاسات الدينية .. وقد قال لجيهان عدة مرات إنه انجز السلام مع إسرائيل وإنه يبحث عن السلام مع نفسه ، واعتقدت جيها أن كان صادقا في اعتزال الحياة العامة والرسمية مؤخرا في عام ١٩٨٢ حينما تعود كل سيناء إلى مصر .

كذلك رأى السادات أن القادة العرب ضعاف لم ينضجوا بعد وذوو عقول ضيقة ، يقودون شعوبا بسيطة تفنقروا إلى نضج وتاريخ المصريين ، وأنهم مدينون برضايتهم للاكتشاف المفاجئ للبترول في أراضيهم ، وكان السادات غاضبا من همجيتهم ، كما كان ينظر باحتقار إلى أنصارهم في مصر .

ومع ذلك فإن هؤلاء القادة العرب ظلوا القوة التي تشير العرب ضده ، على الأقل رسميا ، وأن هؤلاء الرجال بعقولهم الصغيرة منبع الطغيان والفساد ،

استطاعوا حشد مؤتمرات القمة لاتهام السادات ومحاولة عزل مصر ، التى تمثل نصف العالم العربى .

وفى قمة بغداد طردت مصر من الجامعة العربية ونقلت مكاتبها الفرعية من القاهرة إلى تونس ، كما أمرت كل الدول العربية بوقف المساعدات المادية إلى مصر وقطع العلاقات الدبلوماسية معها .. وفى إحدى الضربات الفاصلة وجدت مصر نفسها تتعرض للمقاطعة الاقتصادية والثقافية من بقية العالم العربى .

هذه الأبعاد كان لها تأثير مدمر على عدد كبير من المصريين - قدرتهم بعض الإحصائيات بما يزيد على ٢ مليون - الذين كانوا يعملون أطباء ومهندسين ومدرسين فى الدول العربية ، وكانت لهم أسر بمصر تعتمد على دخول ذويهم فى أقواتهم اليومية . وفى ظل غضبتهم من السادات طرد الزعماء العرب هؤلاء المصريين الذين لا حول لهم ، رغم أنهم كانوا يحتاجون لخدماتهم ، وكان هذا نوعا من الانتقام والتصرف البدالى الذى أغضب السادات ، وأكد على وجهة نظره بأنه يتعامل مع مبتذلين ولا كيان لهم .

وفى الداخل - أيضا - لاحظ السادات زيادة المعارضة المنظمة له ولسياساته ، وأن خصومه لم يكونوا من جماعة واحدة ، بل شملوا أولئك المعارضين لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، والمهاجمين لسلامه مع إسرائيل .. أما التطور الخطير فهو انضمام الأصوليين الإسلاميين لمنتقديه .. والذين بدأ أكثرهم تعصبا فى التأمر على اغتياله .

بيد أن سلوك السادات تجاههم كان غامضا ، ولا أحد من حكومته كان يفهم مثله جماعة الإخوان المسلمين وتشعباتها المختلفة ، لا سيما أنه كان صديقا سابقا لمؤسس وزعيم الحركة ، وهناك دلالات تشير إلى أنه كان على وشك الانضمام إليها فى بدايات حياته ، وأن الذى حال دون ذلك هو بحثه عن تجارب جديدة ورفضه لأن يحصر نفسه فى أيديولوجية ضيقة ، كما كان مبهورا بالعلوم والتكنولوجيا الحديثة ، والتى - طبقا لرؤيته - تتضح فى أبرز صورها فى الولايات المتحدة القوية .

وفى الحقيقة فإن الدولة كانت تعاني تغيرا دراماتيكيا ، فخلال عقد تضاعف عدد سكان القاهرة من ٤ ملايين إلى ما يزيد على ٨ ملايين ، واستمرت الزيادة

بمعدلات مرعبة ، إذ تضاعفت فى العقد التالى من ٨ ملايين إلى ١٦ مليونا ، كما ارتفع عدد سكان الدولة من ٤٠ مليونا إلى ٦٠ مليونا ..

هذه الحشود الجماهيرية مثلت أرضية خصبة للتطرف ، واعتقد المتطرفون أن الإسلام هو وحده القادر على حل كل المشاكل الدينية والسياسية والاقتصادية ، لأنه منذ بداياته يمثل حركة دينية وسياسية ذات ملامح اجتماعية وثقافية .

وقد تأثر هؤلاء بكتب أبو الأعلى المودودى التى ترجمت إلى العربية فى الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٦٠ ، والتى تبيح استخدام العنف فى مواجهة من أسماهم الأعداء الأقوياء ، وقد أعلن عن أفكاره هذه بواسطة سيد قطب أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ، والذى أصبح كتابه " فى ظلال القرآن " من أكثر الكتب مبيعا وعلى هذا الأساس يعتبر جناح من الإخوان المسلمين العنف جزءا مكمل لسياستهم ، وكانت رؤية العنف الإسلامية التى جاءت من باكستان والشرق الأقصى قد وجدت لها أنصارا فى بيروت وفى حوارى القاهرة الضيقة حيث المباتى العشوائية .. واشتعل هذا التعصب بسقوط شاه إيران .

ورغم التأييد الأمريكى وانتصار الخومينى ، فإن التخلّى عن الشاه من قبل الغرب - ذلك السلوك الذى اشمأز منه السادات - قد زاد من شعور المتطرفين بالنصر و الاحتقار للقيم الغربية .. وفى مصر طالب تيار العنف الإسلامى بحياة السادات .

الفصل الرابع والعشرون

الموت فى عرض الاحتفال بالنصر

هدد السادات كثيرا قبل اتخاذ إجراء ضد الجماعات الإسلامية المتطرفة ، كما تألم - على خلاف ناصر - من جراء الإجراءات القوية التي يمكن اتخاذها ضد الإسلاميين المندفعين ، وإذا ما كان هناك ما يبررها ، وفي بعض الأحيان شعر بما يدور داخل الإسلاميين المتعصبين وب عاطفتهم ، كما كان يصلى بخشوع والتزام بصورة تركت انطباعا حتى لدى الأصوليين .

وفي البداية كانوا محتارين بسبب الفصل بين تدينه ومعتقداته السياسية ، وكذلك بين صلواته اليومية المنتظمة التي تركت علامة دائمة على جبهته ، وبين إصراره على صنع سلام مع إسرائيل الكافرة ، تلك الدولة اليهودية السارقة ، المدسوسة بواسطة الشيطان الأمريكى .

ومن المحتمل أن يكون تردد السادات كان منبعه مشاكله السياسية والاقتصادية المتزايدة ، والاعتقاد بأن إطلاق العنان لقوة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية المنشقة عنها سوف يمثل قوة ضد خصومه العلمانيين .

ومع ذلك ، فإن ما أثار غضب السادات أن الأصوليين أنفسهم انضموا لنقاديه ، وفوق ذلك اندلعت الصراعات المتزايدة بين الاسلاميين والأكباط المسيحيين ، بل وانتهت إلى صدامات دامية .

وعلى صعيد آخر أصبحت المشاكل الاقتصادية العسيفة أكثر حدة ، الأمر الذى مكن خصوم السادات من أن يسخروا من دعواه بتقديم عهد الرخاء ، ليس هذا فحسب ، ولكن أيضا تمكنت مجموعة الأحزاب المختلفة المعارضة لسياسات السادات الداخلية والخارجية من تنظيم نفسها فى جبهة معارضته ، مستغلين فى ذلك الحرية التى منحها لهم السادات نفسه فى ١٩٧٦ .

وإذا كان الجناح اليميني الليبرالى قد اعتنق سياسة الانفتاح الاقتصادية والمشروع الحر ومن ثم لم يتحد الرئيس ، فإن اليساريين - سواء من الماركسيين أو من الجماعات الناصرية - كانوا بمثابة شوكة فى ظهر السادات رغم قتلهم فى البرلمان ، وكان السادات قد شجع على إقامة حزبه الوطنى الديمقراطى الذى أصبح بالضرورة الجزء الأكبر فى البرلمان ، كما عاود حزب الوفد القديم - الذى كان السادات يكرهه فى شبابه - الظهور تحت مسمى حزب الوفد الجديد .

بيد أن معظم الأحزاب شعرت بأن قوتها الحقيقية ليست ممثلة في البرلمان وأنها مضطهدة بواسطة بوليس السادات ، بينما اعتقد الأخير أن الناصريين والماركسيين كانوا يتآمرون ضده وضد الدولة ، كما بدأ يفهم التهديد الذي يوجهه شخصيا من قبل الأصوليين الإسلاميين ، رغم أنه كان لا يزال غير واع بانتشارهم الذي امتد إلى الجيش .

وقد تصرف السادات بصورة خادعة في مايو ١٩٧٨ ، لكنه حرك دوافع العداء لدى خصومه . . إلا أنه كان قادرا - بما يحوزه من شرعية كبيرة في التصرف - على أن يزيح كل خصومه المعارضين من البرلمان . . وعلى أثر ذلك قام حزب الوفد - والذي كانت معارضته تنصب على أن ديمقراطية السادات المحدودة لم تعد تتحمل النقد أو المعارضة المستقلة - بحل نفسه .

ورغبة منه في دفع حزبه الوطنى الديمقراطى الجديد ، حاول السادات أن يفعل المستحيل ، حيث دافع عن الدولة الحديثة القائمة على العلم والإيمان ، لكن بما يتماشى مع الشريعة .. لكن هذه الحركة لم تخدع الأصوليين . . ورغم أن حزبه فاز بأغلبية ساحقة في الانتخابات العامة ، فقد كان السادات غير سعيد بالنهج التدميرى الذى تتبعه الجماعات الصغيرة فى البرلمان .

وفى مايو ١٩٨٠ رتب السادات مرجعية جديدة منحت سلطات استثنائية ، كما أدت إلى إحداث تغييرات دستورية .. وكان على السادات أن يسعى إلى إعادة الانتخاب لعدة مرات كما تمنى ، بينما هجر فكرة التقاعد ، الذى كان مقررا أن يقوم به عندما تنفذ إسرائيل الانسحاب الأخير من سيناء عام ١٩٨٢ . .

ولكونه رجلا ذا عزة ، فقد أثر ألا يغادر الحكم والدولة تغلّى بالهياج والشغب وتتعالى أصوات خصومه ، وفوق ذلك فقد كان هو صاحب إنجاز مبادرة السلام ، والتي سيدركها العرب يوما ما ويصفقون له .

وفى سعيه لتحجيم النظام الديمقراطى فى مصر ، وإقامة نظام أكثر دقة وانتظاما وضع السادات نصب عينيه المثل السيئ لصديقه المحبوب شاه إيران الذى استجاب لما يسمى بالضغط الديمقراطى فوجد نفسه منفيا ومهاناً ، وقرر السادات ألا

يستسلم لخصومه أو يعتمد على حكمهم ، وأن يحاربهم للنهاية وألا يترك الدولة فريسة لدسائسهم .

ونظرا لوعيه بانتقادات الأصوليين بأن أعمال الشريعة ليس كافيا ، اقترح السادات أن تصبح الشريعة هي المصدر الوحيد - وليس فقط المصدر الرئيسي - للتشريع ، وفي خطوة أبعد لإضعاف سلطات البرلمان اكتسب السادات الحق في تشكيل مجلس تشريعي ، حيث لا تكون هناك معارضة له ، وبالإضافة إلى ذلك فإن السادات مرر قانون العيب لتعزيز القيم الروحية والخلقية ، تلك التي رسخها في حزبه الوطني الديمقراطي .

كل هذه الخطوات المعقدة ، والتي تبدو خادعة ، لم تخرس النقد ولم تقلل من عدد الخصوم ، بل على العكس أثارت ضجة جديدة ، كان أبرزها ماثار حول قانون العيب . وقد كان أسلوب حكمه الجديد من خلال إصدار القرارات إلى المعارضة ، ورفع مذكرة وقع عليها عدد من البارزين .

غير أن السادات انتزع رئاسة الوزراء من مصطفى خليل ، متجاهلا كل هذا الهجوم ، كما كان الحدث الأكثر فعالية هو حصول السادات على نسبة تأييد شعبي تبلغ ٩٠ ٪ ، فهذا الحدث وإن كان قد أراح السادات من القرارات التي منحتها هذه الشعبية ، إلا أن خصومه ومنتقديه سخروا من هذه الأرقام زاعمين تزوير الحكومة لها ، كما ادعت صحف المعارضة أن أكثر الأحداث دلالة هو ما حدث بأسبوط في صعيد مصر - مركز الأصوليين الإسلاميين - حيث واجه السكان المحليين المسلحين المسلونين الذين قنموا لجمع صناديق الاقتراع ، وطالبوا بأن يتم فتحها في حضور شعب المدينة ، وقد وجد أن ممتاز نصار - البطل المعارض للحكومة - هو صاحب النصر الساحق .

كما أجمع المنتقدون أيضا على أن سياسة الانفتاح الاقتصادي قد أدت إلى استئراء الفساد ، الذي بدت أهم مظاهره في أن الأغنياء أصبحوا أكثر غنى ، بينما أصبح الفقراء أكثر عرضة للاستغلال ، وأن كم هائلا من السلع الاستهلاكية والترفيهية تصب في الدولة ولايستفيد منها - بيعا وشراء وأرباحا - سوى القليلين . .

وإذا كان السادات قد تمنى اتساع نطاق الاستثمارات الأجنبية ، فإن الأمريكيين والأوروبيين كانوا على حذر من الاستثمار في دولة تبدو غير مستقرة ، وينتشر فيها الفساد والفسخ ونقص البنية الأساسية القوية اللازمة لخلق دولة صناعية حديثة .

وقد كان أنور السادات أيضا متألما من اقتراب الفساد من أسرته الخاصة ، حيث اتهم أخوه عصمت بعمل ثروة من خلال وسائل إجرامية أثناء رئاسته وبعد موت السادات حوكم عصمت وسجن .

وهكذا أصبحت موضة في مصر أن ينسب كل الفساد لتراخي السادات وتساهله ، رغم أنه شخصيا لم يتهم بإحدى جرائم الفساد ، ومع ذلك هناك قلة من المصريين رأيت عدم عدالة هذه النظرة ، حيث كان السادات مذعورا من الفساد الذي حوله ، وقد أدى تساهله تجاه أخيه إلى اعتقاده الخاطئ جزئيا بأن أعداءه كانوا يستخدمون سلوك أخيه عن عمد للإيقاع به ورفض النظام .

نقطة أخرى غاية في الحيوية ، وهي أن السادات كان ثائرا بسبب الانتقادات التي بدأت توجه له في الصحف الغربية باعتبار أن التزامه بالديمقراطية أصبح مشكوكا فيه . فخلال مؤتمر صحفي دعا له المراسلين الأجانب في ميت أبو الكوم كان السادات ثائرا وعدواتيا ، حيث نظر الى المراسلين الأجانب متعجبا ومتسائلا : " كيف تكتبون عنى هذه الأكاذيب ؟ " . . كذلك استشهد بمقطوعات من صحيفة التايم اللندنية وبعض الصحف الغربية الأخرى التي كانت تتسائل عن ملامح حكمه صارخا : " هذه أكاذيب فاسدة ، كيف تكتبون عنى هذه الأشياء " ، كما أشار إلى شريط كان في يديه قائلا للمراسلين : " سوف أجعلكم تستمعون إلى هذا الشريط لتستمعوا إلى حقيقة هذه الأكاذيب الفاسدة التي ذاعت عنى وعن مصر " .

وكان هذا الشريط يحوى مقابلة أجراها مراسل بريطانى يدعى ديفيد هيرست قام السادات بطرده عام ١٩٧٧ . . وكانت النسخة الأصلية فيه قد احتجزت سرا بواسطة سلطات الأمن المصرية . . هذه الحقيقة صدمت المراسلين .

وفى رده الغاضب على سؤال وجهه إليه أحد المراسلين فيما إذا كان قد لاقىقبولا واضحا من قبل حكومة الولايات المتحدة أثناء زيارته لواشنطن منذ فترة وجيزة لحملة الاعتقالات واسعة النطاق للخصوم المصريين ، قال السادات : " لدى الحق فى أن أقولك لسؤالك مثل هذا السؤال ولكنها الديمقراطية " .

وعند العودة إلى قريته المحبوبة ، لم يجد السادات الطمأنينة الداخلية ، فعندما زارته ابنته كامليا فى أغسطس ١٩٨١ قبل الذهاب إلى رحلة دراسية بالولايات

المتحدة كانت منزعة من مظهره وسلوكه ، حيث بدا يائسا متوترا فاقدا الكثير من وزنه ، كما لم يستطع أن يرد على أسئلتها عن صحته ، بل علق بصوت خافت بأن هذا الوضع لن يستمر طويلا ، وأيضا حينما كان يودع ابنته وأخته الكبيرة إقبال علق بأنه لن يعيش حتى يراهما ثانية .

هذا ، وقد أعطت الاعتقالات الواسعة التي قام بها السادات ضد خصومه من كل القطاعات الانطباع بأنه كان يفقد سيطرته على الموقف بصورة أكبر من تشديد قبضته كما مثل قراره باعتقال البابا شنودة - بابا الأقباط - مفاجأة ، خاصة أن الأقباط كانوا غاضبين من امتناعه عن اتخاذ إجراء قوى ضد الأصوليين الإسلاميين الذين كانوا يهاجمونه ، وكان البابا شنودة قد اغتاز من قرار السادات بأن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع في مصر .

وبلغ الخلاف مرحلة الانفجار حينما نشر الأقباط إعلانات في صحف أمريكا الشمالية ضد الأصولية الإسلامية ونظام السادات ، ووقعت صدامات دامية بين الأقباط والإسلاميين ، وتلى ذلك اتهامات واتهامات مضادة بين الأقباط والزعماء الأصوليين . وقد أضافت الهجمة التي شنتها الحكومة ضد الأقباط وقودا إلى الأزمة ، كما ازداد استياء الأقباط من السادات بسبب قراره بنفى شنودة إلى الصحراء الليبية .

لقد كان احتقار السادات لمعارضيه الداخليين والدائمين كبيرا ، خاصة فيما يتعلق بمعاهدة السلام مع إسرائيل ، كما بدا وكأنه يؤثر سخطهم .

ففي يوليو ١٩٨١ قبل سائرا قانون الكنيست المسمى بـ " قانون القدس " ، والذي يشترط أن تكون القدس عاصمة أبدية لإسرائيل ، وأنها لا يمكن أن تكون موضوعا للمساومة مع العرب .

كما كانت هناك ضجة في العالم الإسلامي ، ولكن رد فعل السادات - بالمقارنة بذعر العديد من المصريين - كان هادئا ومحيرا ، خاصة أنه جاء من قبل شخص طالما تحدث عن حبه للإسلام .

كذلك أثار السادات قلقا داخل حزب العمل الإسرائيلي حينما وافق على أن يلتزم بمناحم بيجن في شرم الشيخ . إذ كان توقيت هذا اللقاء ذا دلالة ، حيث حدث اللقاء قبل انتخابات يونيو العامة عام ١٩٨١ ، وليس مقتنعا أن بيجن السياسي الكا-

والبرلماني المحنك ، لم يكن مدركا الفائدة التي سيجنيها من الدعاية ، كما كان السادات أيضا يعرف أنه بذلك يساعد شريكه في السلام ، بينما زعماء حزب العمل كانوا يتساءلون عن دوافع الرئيس المصري بالضبط . .

وعلى صعيد آخر كان توقيت لقاء بيجن - السادات موضوعا مثيرا للنقاش والشك ، حينما قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بضرب المفاعل النووي العراقي الواقع بالقرب من بغداد بعد اللقاء المشار إليه بأيام قلائل ، حيث أجمع العديد من المصريين ومعظم العرب على أن بيجن أخبر السادات بقرب وقوع الهجوم وأنه لاقي قبوله ، أو أنه أعطى بيجن تظمينا بأن رد الفعل المصري سيكون معتدلا ، وإلا كيف يجرؤ بيجن على أن يهاجم مفاعله أهميته وحيويته ، وبالقرب من قلب عاصمة عربية .

ورغم أن بعض الإسرائيليين تساءلوا عما إذا كان بيجن قد أخبر السادات أم لا ، فإن العديد من الاسرائيليين - بمن فيهم عدد من زعماء حزب العمل - اعتقدوا أن الهجوم الجسور والمدمر للمفاعل النووي العراقي كان العامل الأهم في فوز بيجن الانتخابي .

أيضا رغم أن هذا الاحتمال هو الأقرب للحقيقة ، فإن إنكار السادات لمعرفة بأي شئ عن الهجوم لم يتم تصديقه بواسطة معارضيه .

وفي هذا السياق ، فإن عدم تحرك السادات عندما قامت إسرائيل بضرب المكاتب الفرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ، وما تبع ذلك من تغييرات حادة في شمال لبنان ، فسر بواسطة الأصوليين على أنه سلوك مثير للغضب ، وهي نفس رؤية منتقديه فيما يتعلق بمقابلته لبيجن بعد نصر الأخير الانتخابي واتخاذ قرار بتجديد مفاوضات الحكم الذاتي .

وقد رأى منتقدو السادات أن ذلك يؤكد أن السادات مذهب ، لكنه تجاهل هذا الاعتقاد بازدياد . وبدلا من ذلك انصب تركيزه على المسألة التي أثارت الأصوليين ، والتي تمثلت في الدعاية الواسعة لخطته الخاصة بإقامة مجمع ديني في سيناء يشتمل على مسجد ومعبد وكنيسة ، وكان السادات في البداية قد ذكر المشروع في مقابلة أجراها معه محرر أجنبي من صحيفة الأخبار اليهودية اللندنية ، كما علق أهمية كبيرة

على هذه الخطة التى رآها جماعا لكل مثالياته ، ولكن بالنسبة للأصوليين كانت الخطة تمثل دلالة على خيانة الرئيس وهجره للإسلام ، وهكذا أصبحت مؤامرة اغتيال الرئيس وحراسة الإسلام ضرورة ملحة فى عيونهم .

وقد جعلت الخطب الحماسية التى كان يلقيها الشيخ الضريير عمر عبد الرحمن - خريج جامعة الأزهر والمحاضر بجامعة أسيوط - جعلت منه المرشد الروحى للجماعة الإسلامية ، هى الجماعة الأكثر تسلحا فى كل الجماعات الأصولية المنشقة ، وقد أظهر عاطفته المتطرفة عام ١٩٧٠ حينما ناشد تابعيه عدم الصلاة على جنازة الرئيس ناصر .

وقد أدت خطبه إلى أن حكم عليه بثمانية شهور سجن ، وقد شجعه ذلك على أن يستمر فى الهجمة ليوافه من أسماهم أعداء الاسلام ويتغلب عليهم .

وقد رأى هذا الشيخ وتابعيه أن السادات شخص غير مقبول بصورة أكبر من ناصر، فالرئيس الأخير لم يخفى سرا كراهيته للأصوليين وقمعهم ، وأنه حاول أن يخدعهم بالقبض عليهم ثم إطلاق سراحهم ، متظاهرا بتطبيق الشريعة الإسلامية ، لكن فعليا يسعى إلى طرحها . . وطوال الوقت يخطط مع عدو الإسلام الأعظم (إسرائيل) .

وقد رأى هؤلاء المتطرفون أيضا أن الاستبعاد السريع للرئيس السادات والإعلان عن أن مصر أصبحت دولة إسلامية حقيقية سوف يخرج الجماهير المصرية إلى الشوارع مبتهجين ومكرمين ، وأن شرور العالم الغربى سوف تمحى بالدم والتهليل .

وفى عيونهم ، فإن الرئيس السادات خلق الظروف المؤدية إلى سقوطه ، حيث قبض على ٣٠٠٠ طالب وزعماء سياسيين ، وصحفيين على مستوى بارز ، وزعماء دينيين ، شأنهم شأن الأصوليين .. كما اتهموه بأنه أراد تدمير كل معارضة لحكمه حتى يصبح طاغية جديد ، وأنه ليس لأحد من فضل سوى للقصاص الأمريكية التى نشرت أن السادات أصبح ناسكا أو معتزلا ، وغير مستقر عقليا ، يصرخ ويهمل بنوع من الإثارة .

بيد أن السادات فى كتابه الأخير " وصيتى " أو " رغبتي الأخيرة " ، والذى نشر تخليدا لذكراه ، لم يعط الاحتطاب بأنه كان فى حرب مع نفسه أو أنه فقد كل أمل ، بل بالعكس كانت هناك رصانة فى رسالته التى تبين أنه شعر بإتمام رسالته للشعب المصرى ، وكانت زوجته - جيهان - مقتنعة بأنه كان صادقا فى رغبته فى التقاعد ، لكنه تراجع عن هذه الرغبة حتى يرى كل سيناء قد أعيدت فى عام ١٩٨٢ .

ويعتبر الدكتور محمد شعلان - الطبيب النفسى المشهور - أن السادات قد نال الشهادة لأنه كره تلك الشخصية الغظة التى كان قد تحول إليها ، وبغض النظر عن ذلك البعد الفكرى الأساسى الذى نماه وطوره فى السجن ، فإنه كان جاهلا بالأبعاد الأمنية ، رغم التحذيرات التى تلقاها عن المؤامرات من قبل الأصوليين الإسلاميين لاغتياله .

لقد رفض أن يرتدى الصديرى الواقى من الرصاص فى ٦ من أكتوبر ، وقام بإبعاد الحراس المحيطين به .. وكان السادات قبل ذلك قد تلقى تحذيرات عديدة من خطر ركوب سيارة مكشوفة أو الوقوف كاشفا نفسه ، لكنه رد بثبات " أنا لن أقوم بالسماح لهذه القلة المتطرفة بأن تمنع شعبى من رؤيتى " ..

إن السادات برفضه ارتداء الصديرى الواقى من الرصاص وإبعاد الحراس ما كان داخليا يَتمنى أن يقتل ، لكنه كان يركز على أنه فى ذكرى الاحتفال السنوى بحرب أكتوبر ، تلك الحرب التى أعادت شرف الشعب والجيش المصرى ، فلا أحد يمكن أن يقدم على إيذاء بطل العبور ، الذى أحدث هذا التحول . وكتبت جيهان السادات فيما بعد أن السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ كان يعد أحد الأيام القلائل ، التى لا تخاف فيها على حياة زوجها ، لما لهذا اليوم من دلالة لدى الشعب المصرى . ونظرا لتأكدنا من أنه لا يواجه خطرا فى ذلك اليوم ، فإنها فى الغالب لم تكن تحضر الاحتفال العسكرى بمدينة نصر على أطراف القاهرة .

وفى ذلك الصباح ، نظر أنور السادات فى عيونها ، وكان يبدو وسيما يرتدى زيا جديدا كان قد صمم خصيصا لهذه المناسبة .

وتحكى جيهان : فى السنوات السابقة كنت أغيظه أنا وبناتى على زهوه ، كما كنا نشد ونشد فى حدائقه حتى يعبئ فيه طرفى البنطلون الطويلين .. وكنت أُنبهه : ألا ينبغى أن يكون الزى أوسع قليلا ، لكونه يرتديه بصعوبة .. وكان يرد متظاهرا بنفاد الصبر أوه يا جيهان .. لاتقولى ذلك ، أنت لاتعرفين شيئا عن العسكرية .

وفى ذلك اليوم ، بدا السادات معتليا للغاية بمظهره ليتم فخره بكونه ضابطا مصرياً ، وكان قد اعتاد أن يحمل عصا المارشالات تحت ذراعه ، الأمر الذى لم تكن جيهان تحبه ، وتقول له إن الناس ستعتقد أنك تتباهى ، وأنت لست كذلك ، فكان يرد عليها بأن العصا تمثل الأسلوب الحقيقى للحياة العسكرية .. إلا أنه ، ومما يثير

الغرابية ، فى ذلك اليوم لم يأخذ العصا ، فهل تركها ناسيا أم تركها عن عمد ليسعد جيهان ؟ . . لم تعرف جيهان . .

ومع ذلك لم ينس أن يقول لجيهان أن تحضر حفيدة شريف ذا الأعوام الخمسة مرتديا زيه إلى العرض " إنه كبر الآن وأريد أن يشاهد العرض " . .

فأكدت جيهان أنها سوف تأخذه معها ، ولكن لأن الصبى الصغير كان يعانى الربو ، فقد قررت جيهان ألا تلبسه ذلك الزى الثقيل المشابه تماما للزى الذى يرتديه السادات ، وألبست الصبى بدلا من ذلك ملابس خفيفة تتناسب مع اليوم الدافئ .

وحينما دخل السادات منصة العرض ، رآته زوجته سعيدا جدا ، ولم يكن بالتأكيد ذلك الشخص الذى تلقى تحذيرا سابقا بموت وشيك : " لم أفسد الابتسامة التى كانت تملأ وجهه حينما دخل منصة العرض وسط تصفيق حاد ، ونظر ليرى أحفاده الأربعة يجلسون معى هناك ، وجهه الهادئ والمعبر امتلأ فجأة بحرارة الشمس ، بينما هو يلوح لنا ، والآن دائما يدور بذهنى جمال تلك الابتسامة ، وأتذكر السعادة التى كانت تملأ وجهه .

كان هناك بعض التأخير غير الواضح بالنسبة للعرض ، ثم ظهر تشكيل لطائرات القوات الجوية المصرية تمت تحيته وسط موجة من التصفيق ، ثم لاحظت جيهان بدهشة وتركيز عربة عسكرية تتجه خارج خط عربات المدفعية وتقف أمام المنصة .

ثم رأت رجال من الجيش بمدافع آلية يجرون فى اتجاه المنصة ، ثم صوت انفجار قنبلة يدوية غطى بواسطة زئير طائرة حربية كانت تحلق ، كما تهشم الزجاج الذى كانت جيهان وأحفادها يشاهدون العرض من خلاله بفعل الرصاص .

وبينما هى تنتظر لأسفل رأت أنور السادات واقفا ويشير للحراس ، معطيا إياهم تعليمات بوقف هذا الانتهاك كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأت فيها زوجها حيا ، وبينما كان هو مذهولا ومرتبكا اتجه الرصاص إليه وسقط على الأرض .

وبعد ذلك ، حينما زارته فى المستشفى لم تلاحظ أى تمزق فى جسمه باستثناء أماكن الرصاص . . بل على العكس " حينما رفعت الملاءة رأيت ثلاث فتحات صغيرة جدا إحداها فى ساقه والاثنين فى الصدر فوق القلب تماما .. كانت تشبه الكدمات البسيطة أكثر من كونها جروحا مميتة ، وعندما أردت أن ألمسه لأنه كان يبدو حيا ، وجدت جسده متجمدا ، فلم تكن هناك حياة " .

الخاتمة

الإهمال قتل زوجي . . عدم الاعتناء قتل زوجي . . كان هذا هو تعقيب جيهان على المأساة ، والتي أضافت أن تأثير السادات على قواته المسلحة واعتقاده بعدم إمكانية اختراقها بواسطة الإسلاميين المتعصبين ساعد على قتله .

إن حدة جيهان كانت مفهومة تماما وتعكس حبها العميق لأتور السادات ، كما أن معظم انتقاداتها لها مبررها . والحقيقة - كما كتبت هي نفسها - أن السادات طلب من حراسه الشخصيين عدم الحيولة بينه وبين القوات المسلحة ، معتقدا ليس فقط أنه لايحتاج إلى حماية من جيشه ، بل أيضا لأن هذا المظهر الأمني يمثل إشارة إلى القابلية للفساد ، حتى قوات الأمن الخاصة بالرئيس وقتت بعيدا ، وقد فعلوا ذلك لأن الرئيس طلب ذلك .

ومع ذلك أشارت جيهان السادات إلى أنه كان هناك نوع من المرور الغامض ، وأنه في مناسبات سابقة كانت فرق المطاردة تأخذ موقعا بين الرئيس وبقية القوات ، وفي هذه السنة لم يفعلوا ذلك . . سابقا كان هناك قنصة ممتازون يعتلون أسطح المباني المحيطة لمراقبة الأعداء المحتملين ، لكنهم هذه المرة لم يكونوا موجودين . . كذلك فإن كل آلة حربية أو مدفع كان يتم اختباره عدة مرات للتأكد من خلوه من الذخيرة الحية قبل الوصول إلى المنصة ، ولكن كيف أفلت ضابط ورجلان من كل التفثيشات واستطاعوا الوصول بذخيرة حية أمام الرئيس ؟ !

سؤال آخر يجب أن يوجه لقادة الأمن . حتى لو كان الرئيس قد طلب استبعاد الحراسة ، في إشارة شخصية خالصة ، ألم يكن ينبغي عليهم أخذ الاحتياطات السرية ؟

لقد أدلوا بمعلومات تفصيلية عن مؤامرات مختلفة لقتل الرئيس ، كما كان لديهم تسجيل يصف الكيفية التي تم بها التخطيط لموته ، ثم كيف استطاعوا أن يتركوا الرئيس تماما عرضة لنزوات أي مجنون أو للمخططات الإجرامية للقتلة المتعصبين ؟ لم تثبت أية إجابة مرضية .

والقول بأن أتور السادات نشد الشهادة عن عمد في أكثر الأيام مجدا في حياته كاعتراف بفشله كرئيس هو قول لايقبله عقل ، حيث إن أتور السادات لم ير نفسه أبدا رجلا فاشلا فقد مثالياته وتبدلت شخصيته . إنه أحيانا كان يتملكه شعور باليأس من عدم القدرة على توفير حياة أفضل للشعب المصري ، وصعوبة التغلب على مشكلة عدم وجود بنية أساسية حديثة لاقتصاد الدولة ، وعدم إمكانية التوصل إلى اتفاق مع الإسرائيليين

بشأن الفلسطينيين . . ولكنه كان فخورا للغاية بإنجازاته ، حيث استعاد شرف الشعب والجيش المصري من خلال حرب أكتوبر ، وفوق ذلك أنهى فترة الحرب مع إسرائيل في كامب ديفيد مستعيدا بذلك الأراضي المصرية وممهدا لفتح قناة السويس .

بالإضافة إلى ذلك فإن السادات لم يكن يتمنى موته على أيدي المتعصبين الذين كان يحتقرهم أمام زوجته وأحفاده ، ومن ثم فإن هذا التصور لا يمكن الدفاع عنه ... كما أنه تحدث إلى زوجته عن موته شاعرا بأنه أتم أشياء عظيمة للشعب المصري ، وأنه كان متعبا جدا نتيجة لمجهوداته الجبارة .

لقد أحب أنور السادات أن يصيغ حياته بالصيغة الدراماتيكية لكي يراها بألوان بطولاته حينما كان طفلا ، كما أن موته كان مسرحيا أكثر من كونه موتا حقيقيا ، ولأن جيهان كانت مدركة ذلك فإنها استطاعت تقبل موته ودفنه والابتسامة تعلو شفتيها واللمعان يطل من عينيها .

وهناك قول يؤيده البعض بأن هناك أيدي أجنبية متورطة في الاغتيال ، وكان حتميا أن يذكر اسم الرئيس الليبي معمر القذافي ، حيث كان يكره السادات ، ويتمنى إزاحته عن السلطة ، ولكن أيما كان الأمر فليس هناك دليل يشير إلى تورط القذافي مباشرة في عملية الاغتيال .

ولم يكن لفن أنور السادات في قبر يشبه الهرم على أرض العرض - حيث قتل - هو قروره الخاص . . إذ طبقا لجيهان فإن السادات في الشهور الأخيرة من حياته حينما شعر بنمو موته عبر عن رغبته في أن يدفن بقرية ميت أبو الكوم ببلتا النيل ، وأنها حاولت أن تنثيه عن التحدث في الموضوع مازحة : " لوه يا أنور إك ستستغرق منى - والأطفال معى - ساعة ونصف لزيارتك " ، ومع ذلك لم يعدل عن الموضوع قائلا : " إذا لم تكن ميت أبو الكوم فليكن على قمة جبل سيناء بالقرب من دير سانت كاترين حيث سنبنى مسجدا ومعبدا ، فلو دفنت هناك سيقول الناس إن كل الأكيان واحدة ، وأن إلها جميعا واحد " .

وقد علفت جيهان بأن دفنه في سيناء أيضا كان ذا أهمية رمزية ، لأنه يشير إلى استرداد الأرض التي أخذتها إسرائيل خلال الحقبة الناصرية .

وقد حاولت جيهان بغيط أن تقتنع زوجها ألا يختار قبره ، إذ لو لم تكن ميت أبو الكوم مناسبة من حيث الزيارة فإن جبل سيناء يصعب زيارته ، نظرا لأنه كان

يتطلب أن تأخذ طائرة ثم سيارة حتى تصل إلى هناك ، لذا قالت له : " لا . . من الأفضل أن أزورك مرة أو مرتين في السنة بميت أبو الكوم " .

ومع ذلك حينما سألها الرئيس مبارك عن المكان الذى سيدفن فيه ، قررت جيهان - متجاهلة أمنيات السادات - : " إنه كان رجلا عظيما وليس رجلا عاديا . . لماذا تدفنه فى مكان يصعب على الناس زيارته ؟ لماذا لاتدفنه فى المكان الذى مات فيه ؟ . . ذلك المكان الصكرى الذى كان يعتز به . .

إن السادات كان يستمتع سنويا فى السادس من أكتوبر بزيارته لقبر الجندي المجهول والاستماع الى الموسيقى وعرض قواته التى تخدم مصر بشجاعة ، وأن دفنه هناك سوف يذكر كل فرد بما فعله من أجل الدولة . . كل سنة فى عرض السادس من أكتوبر . . كل جندي وكل ضابط سوف يمر على قبره ويحييه " .. وطبقا للتقاليد المصرية كان الرجال فقط هم الذين يمشون فى الجنائز ، كما كان هناك قادة العديد من الدول : جيمى كارتر وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد (رؤساء الولايات المتحدة) ، والأمير تشارلز (ولى العهد البريطانى) ، فرانسوا ميتران (الرئيس الفرنسى) ، زعماء من الاتحاد السوفيتى وأفريقيا . والأكثر دلالة كان وجود مناحم بيجن رئيس الوزراء الاسرائيلى . .

ولم يحضر الجنائز من الزعماء العرب سوى الرئيس السودانى جعفر نميرى ، والرئيس الصومالى سياد بري ، الأمر الذى أحن جيهان السادات وصدمها .

ورغم أن السادات أدين بشدة سواء من قبل منتقديه الداخليين أو من قبل وسائل الإعلام الخارجية على الاعتقالات التى قام بها فى الشهور الأخيرة من حياته ، فقد أكدت جيهان أن هذه الاعتقالات أنقذت الدولة من إمكانية اعتلاء المتطرفين للسلطة بعد الاغتيال، وأضافت أن السادات أدرك نفاذ العديد من المتطرفين المشيرين للفتنة إلى قلب الحكومة ، وأنهم كانوا يشكلون تهديدا حتى خلال حياته ، وأنه خشى من أن سلوكهم قد يدفع الاسرئليين إلى عدم إعادة الجزء الباقى من سيناء إلى مصر ، وهكذا يفقد انجازة الباهر ، كما رأى السادات أن المتطرفين قوة منافسة ويجب تحديهم وإنزال الهزيمة بهم .

إن جيهان السادات حينما حذرت السادات من بعض رجال المدفعية المعتمدين رد عليها قائلا : " أنا لن أقتل إلا بواسطة المتطرفين " . وحينما سألتها قبل أيام من قتله لماذا يركب سيارة مكشوفة رد عليها " حينما يأتى -يعنى الموت - سوف يأتى " .

ومن جانبه كان السادات قلقا على جيهان لأنه سمع أن أحد الأصوليين بعد أن أطلق سراحه قال لجيهان أن تترك أنشطتها العامة .

لقد كان أنور السادات قلقاً من انتشار الأفكار الإسلامية الوافدة من إيران ، ولم يكن يفهم كيف يتوافق العنف والدم مع الإسلام ، وكان لمخاوفه ما يبررها ، حيث إن الأصولية الإسلامية تنتشر الآن في ليبيا والسودان وإيران . هذه الرؤية التى تتسم بالعنف أفرخت حركات إرهابية مثل حزب الله فى لبنان وحماس فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والخطر الأكبر الآن يتمثل فى أن يكتسب الأصوليون سلطة فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى يؤدى إلى إفساد ما فعله أنور السادات وتعود الحروب الدموية بين العرب وإسرائيل ثانية .. ومع ذلك ، وبفضل ميراث السادات كان هناك أمل فى أن يظل حقن الدماء قائماً بين العرب وإسرائيل .

إن أنور السادات لم يكن قديساً، وإنما كانت له أخطاؤه ، وفى سنواته المبكرة كان من الممكن أن يشطح بعيداً ، فقد كان معجبا بهتزر ، ليس لأن هتزر اضطهد اليهود ، ولكن لأنه حقق النجاح لألمانيا ، كذلك كان لديه استعداد لأن يعمل لصالح الألمان فى الحرب العالمية الثانية والترحيب بهم حال دخولهم القاهرة ، شأنه فى ذلك شأن الكوف ، إن لم يكن الملايين من مواطنيه ، كما استطاع استخدام لغة التعطش للدماء ضد الإسرائيليين لتهديدهم فى حروب ثقوية ، كما تمكن جيشه من عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف واستعادة شرف الجيش المصرى الذى فقد فى حرب الأيام الستة . وقد عايش أنور السادات تحولاً شخصياً وسياسياً ونفسياً مذهشاً ، إذ أصبح أسلوبه فى الخطابات الرسمية تدقيقاً وتعقفاً فى إيمانه الإسلامى ، كما أصبحت أفكاره مزوجة بمفاهيم دينية وإنسانية مثالية ، وعقد سلاماً مع إسرائيل ضرورة ملحة هو مدين بها للشعب المصرى الذى يعانى . وكما صرحت جيهان قريباً فى لندن ، فإنه لا أحد فى العالم العربى الآن - باستثناء الأصوليين المتعصبين - يشكك فى أن السادات كان محقاً للغاية فى تصويره بأن السلام هو الطريق الممكن والوحيد للحاضر والمستقبل .

وإذا كانت جولدا مائير قد قررت أنها لاتعرف فيما إذا كان السادات وببجن يستحقان جائزة نوبل ، وإنما يستحقان أوسكار ، فإن ذلك يمثل إعلاناً عن خيبتها لأن ببجن المتطرف ، وليس هى ، هو الذى عقد سلاماً طويل الأمد مع أكبر دولة عربية .

إن السادات تجرأ حينما ضعفت همم الآخرين ، تجرأ كى يحير كل مستشاريه وأصدقائه المقربين بالإطلاق الى القدس . وفى سنوات حياته المبكرة تجرأ ليقاوم السلطات ، تجرأ لكى يخدمهم فى سنوات سجنه الطويل ، تجرأ لكى يتحدى الاتحاد السوفيتى ، تجرأ لكى يخدع الاسرائيليين ويدفع بالهجوم لعبور قناة السويس . .

وفي الوقت الذي وقف فيه كل العالم العربي مذعورا ومتشككا ، تجرأ السادات لصنع سلام مع دولة إسرائيل اليهودية .. واليوم يعتبر أنور السادات بطلا في العالم العربي وبين المفكرين العرب وفي القدس ، وتزداد مكاتته كل يوم عن سابقه . . وتقدم رسالته السلمية واتفاقه على أنها مناسبة وسد سدة . . ورغم العوائق والمآسى سوف يظل اسم السادات يذكر كرجل أسطورة . وفي أكتوبر ١٩٨١ لم يحاول الإرهابيون المتطرفون العرب أن يقتلوا السادات فقط ، بل حاولوا قتل أفكاره ومكان ينشده .

وحيثما سقط إسحاق رابين - رئيس الوزراء الاسرائيلي الشجاع وذو النظرة الثاقبة - قتيلا في نهاية احتفالية سلمية كبيرة في تل أبيب في ليلة ٤ من نوفمبر ١٩٩٥ ، لاحظ المراقبون في الشرق الأوسط مدى التشابه بين هذا الموت المأساوي واغتيال الرئيس المصري أنور السادات . . فكلاهما كان ضحية للمتعبين الدينيين حساة القلوب ، الذين أرادوا أن يدمروا السلام بين العرب والإسرائيليين ، وأن كليهما توصل إلى قرار بعدما لاقى غناء التفكير المضنى بأن التنازلات يجب أن تتم من أجل السلام ، وأن كليهما سقط قتيلا في تلك اللحظة التي بدأ يتذوق فيها ثمار مسعاه الصعب والمؤلم ، وأن كليهما تم تحذيره من أن هناك أشخاصا يحاولون قتله ، لكنهما لم يتخذا الاحتياطات المناسبة .

إن يهوديا قتل رئيس الوزراء اليهودي ، ومصريا قتل الرئيس المصري ، لكن المغتالين كانا لديهم نفس النوع من الكراهية وحقد القلوب ، رغم أن أهدافهما - باستثناء رغبتهما في قتل السلام - كانت مختلفة ، تلك الكراهية التي حارب كل من السادات وراابين لهزيمتها ، أملين في أن يحل محلها عصر من التفاهم والإرادة الطيبة . وفي مرات عديدة، تحدث إسحاق رابين بإعجاب عن تصويره لشجاعة أنور السادات في كسر التابو (الشيء الممنوع) والتمهيد لطريق السلام بين العرب واليهود ، ومن ثم كان أنور السادات بالنسبة لراابين البطل العظيم الذي فتح طرقاً جديدة للتفاهم .

وهكذا سيظل اسما السادات وراابين مرتبطين بمرحلة جديدة من الانفراج في الشرق الأوسط وفي العلاقات الاسرائيلية - العربية ، ولن يتم السماح لحملة المدافع والقبائل - المدفوعين بالتعصب الديني - بتدمير رسالتهم ، بل إن تهديدهم سوف يبقى محاطا بالحذر الدائم .

جوزيف فينكلستون

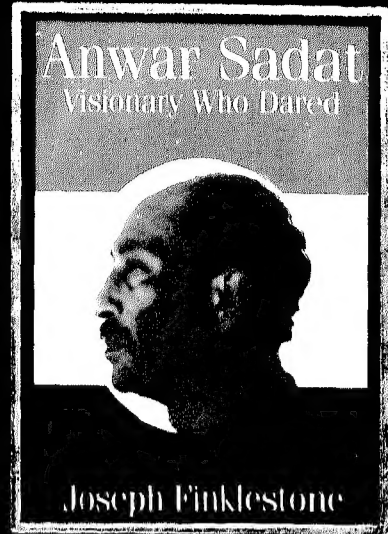
فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الناشر.....
٥	شكر وتقدير.....
٩	المقدمة.....
١٥	تمهيد : مقابلة مع الرئيس.....
٣٩	الفصل الأول : القروى.....
٥١	الفصل الثانى : البحث عن الذات.....
٦٥	الفصل الثالث : سنوات فى السجن.....
٧٩	الفصل الرابع : مقابلة مع جيهان.....
٩٣	الفصل الخامس : الصراع بين ناصر والسادات.....
١٠٩	الفصل السادس : الطريق إلى النكسة.....
١٢٩	الفصل السابع : السادات .. الرئيس المفاجئ.....
١٣٩	الفصل الثامن : السادات يبدأ ثورة جديدة.....
١٥٣	الفصل التاسع : الحرب والخدعة الكبرى.....
١٦٧	الفصل العاشر : كيف ارتبط القادة السوفييت بخدعة السادات؟.....
١٧٩	الفصل الحادى عشر : انفجار أكتوبر.....
١٩١	الفصل الثانى عشر : كيسنجر يدخل المشهد.....
٢٠٥	الفصل الثالث عشر : فرص وتحديات الوساطة.....
٢١٧	الفصل الرابع عشر : كسر الحاجز النفسى.....
٢٢٩	الفصل الخامس عشر : انتظر إلى القدس.....
٢٤١	الفصل السادس عشر : مشاغل فى الداخل.....
٢٥٥	الفصل السابع عشر : الخطوات الأولى للسلام.....
٢٧١	الفصل الثامن عشر : مواريث مختلطة.....
٢٨٧	الفصل التاسع عشر : بطل فى القدس ووغد فى دمشق.....
٢٩٥	الفصل العشرون : الطريق الصاروخى إلى كامب ديفيد.....
٣١١	الفصل الحادى والعشرون : المساومة من أجل السلام ، الوهم.....
٣٢٧	الفصل الثانى والعشرون : كامب ديفيد .. الغضب والدموع.....
٣٤٧	الفصل الثالث والعشرون : آمال غير مكتملة ، الطريق إلى المأساة.....
٣٥٧	الفصل الرابع والعشرون : الموت فى عرض الاحتفال بالنصر.....
٣٦٩	الخاتمة.....
٣٧٦	فهرس الموضوعات.....

المؤلف والكتاب

المؤلف : جوزيف فينكلستون

يهودى الديانة ، إسرائيلى الجنسية . يعمل صحفى فى جريدتى الخبر ومعاريف اليهودية بلندن ، وخبير بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة أكسفورد البريطانية .



الكتاب

هو أول كتاب يكتبه يهودى عن رئيس جمهورية مصر بحياد تام فى عرضة لنقاط القوة والضعف فى حياة السادات الشخصية والعسكرية والسياسية فيعرضها على النحو التالى :

القرية / علاقة السادات بالضباط الاحرار / الخدعة مع خصومه / علاقة السادات بعبد الناصر والايخوان المسلمين / سنوات فى السجن / مقابلة مع جيهان / الصراع بين ناصر والسادات / تأثير العلاقة الشخصية بين ناصر وعامر على السادات / الطريق إلى النكسة / السادات الرئيس المفاجئ / السادات وثورة التصحيح / حرب أكتوبر الخدعة الكبرى / طرد السوفيت من مصر / انفجار أكتوبر / كيسنجر يدخل المشهد وكيه / السادات؟ الطريق إلى القدس / الخطوات / علاقة السادات بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى القدس ووغد فى سوريا / المساومة من أجل ديفيد الغضب والدموع / الطريق إلى المأساة الاحتفال بالنصر.

